المناهل



14





تصدرها

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

الرباط - المغرب

العدد الرابع عشر

السنة السادسة

ربيع الثاني 1399

مارس 1979

تهنئة المناهل
بعيد العرش السعيد

تبتهج أسرة المناهل أشد الابتهاج بأن ترفع بمناسبة عيد العرش السعيد أسمى آيات التهاني والتبريك إلى رائد نهضة المغرب، وقائد مسيرته المظفرة وراعي الفكر والمفكرين، ومفخرة العلم والمعرفة، حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله وأيده.

و"المناهل" إذ ترفع لجلالته عواطف إكبارها ومحبتها مقرونة بولائها وإخلاصها، تضرع إلى الله عز وجل أن يسعد جلالته بهذا العيد الميمون هو وأسرته الصغيرة والكبيرة، وأن يقر عينه الكريمة بولي عهده المحبوب سيدي محمد، وبصنوه مولاي الرشيد، الأميرين المحبوبين العزيزين، وبأخواتهما الأميرات الجليلات، كما تضرع إليه سبحانه أن يمتع جلالته بدوام العافية والسعادة وأن يحقق على يديه ما يطمح إليه شعبه من تقدم وازدهار ورخاء.

"المناهل"

فهرس

بين تحرير البلاد
وتخليص الأسارى، وتحرير الكتاب

عبد الرحمن الفاسي

نقدم لقراء «المناهل» نص الاستهلال الذي قدم به الاستاذ عبد الرحمن الفاسي الكتاب الذي اصدرته الخزانة الملكية العامرة بعنوان «منتخبات من نوادر المخطوطات». ويقع في 213 ص. من الحجم الكبير، ويحتوي بالاضافة الى منتخبات المخطوطات على نماذج من المستندات.

لا يسع الملاحظ أو المؤرخ الباحث، وهو يتحدث عن الخزانة الملكية، التى أشرع جلالة الملك العالم الحسن الثانى أعزه الله، أبوابها للعلماء والباحثين، الا أن يقف أمام الحقيقة التاريخية التى تتوالى ظواهرها باطراد فى كل ما خطته الاقلام عن رعاية العلم والعلماء بهذه البلاد.

وما هناك من داعيـــة الى رجعة استعراض ، فنلم بخزانة على ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وخزائــن السادة المرينيين ، أو خزانة المولى زيدان ، عالم السعديين ، فنحــن فى بساط خزانة جلالة الحسن الثانى ، لنستروح الهداية الثقافيــة من خزانته العلوية التى أصبحت قبلة الباحثين ، وان منـــاط الحديث بها ليشع بأقباس فى تنوير الاذهان ، ويسوق الينــا التفاتـــات عريقة فى تكافىء الاهتمام بشؤون الحكــم ، ورعاية العلــم ، ويتاقانا باســم ملكين جليلين ، عبــرا بالنزعـــات ، وبالاعمال ، عــن منتهى ما يمكن أن يتطلع اليه المتطلعون فـــى اشاعة الثقافة وتنوير الافكار ، وأعنى بهما السلطـــان الذائع الصيت فى الخافقين، جلالة المولى اسماعيل (1672م — 1727م)، الذي أقام الاساس لخزانة الاسرة الملكية بعاصمته مكنـــاس ، والسلطان حامى البحرين والمبعوث لتجديـــد أمــر الداريــن ، جلالة حفيده المولى محمد بن عبد الله (1757م — 1790م) ، الذي وزع ذخائر مخطوطاته ومكنونات خزانــــة جــده على مساجد مدائن وقرى مملكته ، ذهابا مع نزعته فى اشاعة غذاء الابدان وغذاء الاذهان بين عموم الناس .

وان فى سيرتهما ما ينيــر لنـــا الوجه فى هذه التجليـــات التى نشهدها فى ما يأتيه ويذره ملكنـــا العالم جلالة الحســن الثانى ، سليل أولئك الاملاك النابهين الشرفاء .

ويطالعنا المولى اسماعيل بآيته الاولى فى هذا الحديـــث عن الكتب والمخطوطات .

فهذا الملك الذي سارت بأمجـــاده الحربية أحاديث الناس ، وصفحات الحـــروب فى المدونات ، وما هاداه ملوك عصره من مسلمين ونصـــارى فى أكثر المناسبات ، الا بمدافع الميـــدان ، وبالبنادق وذخيرة القتال ، وبعربات جر العتاد ، وحامــــلات الاجناد ، لا يتمثله المتمثـــل على هـــدى هـــذه الصورة العالقة بالاذهان ، الا على صهوة جواده ، مدججا بالسلاح ، معفرا بنقع زحوفه تحت خافقات البنود والاعلام .

فاذا ذكر اسمه ، فلا ينتصب معه فى الاذهان غيـــر فارس الجلى فى تحرير المهدية والعرائش ، وأصيلة ، وطنجة ، وضارب الخناق العاصر على سبتة ، وهى ثغور الاسلام وعدد الانام فى هذه الاوطـــان .

وهو ذاك المنتصب على مقدمة جيوشـــه طوال أربـــــع وعشرين حجة من سنى عهـــده المديدات المجيدات ، لم يتخلـــف فيها عن الطليعة ، والتصدي للنزال ، وتسعير الهيجاء .

وهو ذلك الذي نشر بنوده على تخوم السودان ، وخبـــت أرسال فرسانه ناظـــرة الى مـــا وراء النيل بعـــزم واعتداد ، وانتشرت دولته شرقا الى بسكرة وحدود تلمسان .

وهو ذلك الذي يرى بين حشد عملتـــه وصنعة حربيته ، وبيده المسحاة ، وهو يعمل معهم فى بناء الربـــط التـــى أقامهـــا فى النجود والاغوار ، وفى المعاقل والابراج ، وحشرها بالبيض والسود ، من مساعر حروبه الظافرات .

ولكن ما يكاد ينقشع عن صفحات سيرته قتام الحروب ، ويهدأ فى ذهن قارئها صهيل الجياد ، وتسكن لعلعة البارود ، حتى يطلع عليه المولى اسماعيل ، مشيد القصور ، ومبدع الرياض ، ومحيي موات الارض بالحدائق والمزارع الزاهرات، وشيع الخصب فى مملكته المخضلة الارجاء ، ورافد دنياه العلوية بمواسم المنعة ، وأعياد الاعتزاز .

وهو بعد ، على وجه آخر ، الامام المرجوع اليه فى السير ، وفى أيام العرب وفى الانساب والوقائع ، وفى فلسفة التاريخ وأحوال الامم .

وهو داعية الاسلام ، والناهد الى المناظرة والحجاج فى الاديان والمعتقدات ، وبالمشافهة والمكاتبة مع علماء المسلمين والرهبان ، ومع ملوك عصره الاوروبيين الذين يفاتحهم فى أمر الدين قبل مراجعتهم فيما يتصل بمهام دنياه .

وانسجمت همته بين السيف واليراع ، فانكب على جمع ديوان ضم بين دفتيه أحاديث نبوية ، وأمثالا عربية . فانجلت المؤاخاة بين الحديث النبوي والمثل العربى ، عن نصائح دينية ودنيوية ، هدف بها الى هداية الراعى والرعية .

وبتلك الاريحية التى شاد بها القصور ، وأقام المعاقل والربط والبروج ، رفع الاساس لخزانة كتب الاسرة بعاصمته مكناس ، وبنفس الهمة التى حشد بها الاجناد ، وجمع ذخائر

الجهاد ، أفاض على خزانته من صوب الاذهان ، وحشر اليها ذخائر المدارك والافهام ، ويقول مؤرخوه انه كان : (يرشح مهرة الطلبة العارفين بنسخ الكتب وضبطها واتقانها ، أصحاب الخط البارع من فاس، ومكناس، وغيرها من العواصم المغربية)، وقد درج على أن يوزع على كبار عسكره ، سير الابطال ، وأخبار المعارك ، ويحضهم على مزاولة مطالعتها ، ناظرا فى ذلك ـ كما يقول المؤرخون ـ الى أن يكون عسكره على معرفة متنوعة (بمكايد الحروب ، والكر والفر ، وتدبير نزول الجيوش، والاخذ بالاحوط فى ذلك ، وكيفية الهجوم ، وافتتاح المحاربة ، وعقد الصلح ، والمهادنة ، وترتيب الشروط ، وتعلم الاقدام والمخاطرة ، وادراك المراتب والمزايا) .

وما دمنا فى معسكر جنده ، وتحت خافقات أعلامه ، وبنوده ، فالحديث عن الاسرى ، وما كان لمذهبه فيهم من أريحية مجيدة ، ومآثر خالدة ، سيعود بنا مرة أخرى الى تأكيد الاصالة ، ونقاء الارومة ، فى انبعاث هذه المكرمات ، فقد دأب ـ نضر الله وجهه ـ على أن يحرر أسرى المسلمين عامة ، غير ناظر الى مغربيتهم ، أو الى طبيعة علاقاته مع دولهم ، فهمه أن يفتدي أي مسلم محارب ، ألقت به الاقدار فى يد الاعداء ، وتحت ربقة الاسترقاق ، ويا ما كان أوفر هؤلاء من أهل الجزائر وتونس وطرابلس ، ومن أتراك البحرية العثمانية التى كانت تضرب نطاقا على مياه تلك البلاد خشية من غائلة التمسيح ، وبادرة الاكتساح والاستيطان .

وقد عرف عنه ملوك عصره من الاوروبيين هذا الاتجاه فكانوا يجدون فى ما تحت يدهم من أسارى المسلمين ، ذريعة للتواصل معه ، وعقد الود بينهم وبينه ، وجبر خاطره بتقديم الاسارى اهداء اليه ومصانعة ، أو مبادلة على الوجه الذي يقتضيه الاخذ والعطاء ، أو الذي يراه المولى اسماعيل ، ان اقتضت الحال .

وكانما أصبحت عملية التحرير جبلة تتحكم فيما يأتيه هذا المحارب المغوار ، فتعلقت همته بعد انقاذ الثغور ، وافتداء الاسارى بتحرير كتب الاسلام التى خلفها أهل الجزيرة الاندلسية عند الجلاء ، وقد كانت انتهت الى الديرة ، وخزائن الملوك الاسبان ، ورآها فرصة سانحة فى الحشد الحاشد من أسارى الاسبان الذين انجلت عنهم معارك التحرير أو جرفتهم حراسة السواحل ، فعجت بهم المعتقلات ، وصحت بهم الصفقة الرابحة فى محاولة استرداد ما ضاع من ذلك التراث .

ومن المستندات المعروفة فى هذا الصدد ، الكتاب الذي وجهه المولى اسماعيل لملك فرنسا لويس الرابع عشر ، المؤرخ فى التاسع من شعبان سنة خمس وتسعين وألف ، أي فى وقت لم تكن أواصر المودة منعقدة بين الطرفين ، فهو منذ بداية طالعته ، قد أسفر عن لهجة شديدة تنعى على ملك فرنسا زيغه عن الوفاء بالوعد ، وتعيره بغلبة أهل ديوانه عليه ، وينكيه الكتاب بالثناء على وفاء الانجليز ، والتنويه بوقوفهم عند كلمتهم ، الى أن ينتهى الى هذه الفقرات : (« الاتحاف »

للشريف النقـيب مولاي عبـد الرحمان ابـن زيـدان ، ج : 2، ص: 54) (والانجليز تكلموا معنا كلمة ووفوا بها ، فحينما ذهب خديمنا لبلادهم ، لما أن طلبوا منا ذلك ، فرحوا به وأكرموه ، وبروا به ، وأتى من عندهم بعشر مائة مكحلة ، وستة عشر مائة قنطار من البارود، ومائة وسبعة من المسلمين ، أطلقوهم من الاسر لوجوهنا ، وعملوا من الخير ما عملوا مراعاة لنا ، وثبتوا فى قولهم ، ووفوا بكلامهم ، وأنت ما زال لم يصح منك قول ولا وفـــاء) .

وشنع الكتاب على معاملة غيـر منتظرة تجـاه أحـــد الرعايا المغاربة ، حيث وفد الى فرنسا ساعيا الى تحرير ولد له من الاسر ، والتطلع الى سبر مدى الاستعداد لتسريح معتقلين مسلمين ، قبض عليهم فى أعمال القرصنة التى كانـت لهـــا صولتها فى ذلـك الحين ، فلم يجد هـذا المغربى لـدى أصحاب الامر من الفرنسيين أذنا صاغية ، فجنح الى الحيلة ، واستطاع تحرير ولده ، والانفلات به الى بلده .

وتوالى الرسالة خطابها الشديد اللهجة ، فتقول : (ثم بعد ذلك قدم لعلى مقامنا صاحبكم الباشدور وأتانا بشىء مـــن الخرق ، مع فالصو الحرير ، وهل نحن ممن يعجبه ذلك ويسره ، فنحن معشر العرب لا نعرف الا الصحيح ، ولا يسرنا الا ما فيه مصلحة المسلمين كلهم ، ولذلك أعطينا لصاحبـك عشريـــن نصرانيا ، وظننا أنك تراعى الخير ، وتبعث لنا ولو عشريـن مسلما تجبر بها خواطرنا ، وتكون هى الطريق الى الكـلام الذي

تريده منا ، فاذا بك ما عملت شيئا من هذا ، ولا جازيت باحسان ، وثانيا قبضنا لك سفينة قبل أن يقع الكلام بيننا وبينك لثلاثة أيام أو أربعة على التحقيق ، وهي موسوقة بالسكر ، وتبغة ، وثقفناها نحوا من ثلاث سنين بقصدك ، وما تركنا أحدا يمد يده فيها ، وقلنا انك تراعي خيرنا وتعمل لاولئك المسلمين طريقا وتسرحهم ، وان كانوا ليس فيهم من هو خديمنا ، ولا من هو محسوب من جنسنا ، ولا من هم معرفتنا ، فما هم الا من لا خلاق لهم ، ولا يركب البحر عندنا الا أهل التمرين)

ثم ينظر الكتاب مشنعا بعملية قرصنة فرنسية نهبت فيها سفينة أحد الرعايا المغاربة ، وسخر أربعة من المسلمين فيها فى خدمة غراب أولئك القراصنة ، مع أن السفينة دخلت الى المياه الفرنسية باذن فرنسى مكتوب ، لا يصح التغافل عنه بوجه من الوجوه .

وهكذا ، وبعد أن يقابل الكتاب معاملة بحرية حسنة بمعاملة – كما يقول الكتاب – شريرة ، يقترح ارسال قنصل مفوض للمذاكرة والمراجعة فيما اذا كان القصد الفرنسى تثبيت المهادنة .

ونقع أيضا بين المستندات الراجعة الى محاولة التطلع الى استرداد كتب المسلمين بالجزيرة ، على كتاب مؤرخ فى سادس عشر ذي الحجة خاتم عام واحد ومائة وألف (الاتحاف

للشريف النقيب مولاي عبد الرحمان ابن زيدان، ج : 2 ، ص : 63) موجه الى ضون كارلوس الثانى ملك اسبانيا ، وقد كـان اعتلى العرش سنة 1665 ، وهو آخر الملوك من عقب فيليـب الرابع ، ويفهم من الكتاب أنه من جملة مكاتبات راجت ، ورسل سارت بين الطرفين فى شأن مائة من الاسارى الاسبان ، كانوا بين من وقع فى قبضة جيش مولاي اسماعيل فى أثناء تحريـــر ثغر العرائش ، ويفيد الكتاب أن هؤلاء الاسرى قد صدر منهم ما أوجب التشدد فى شأن اطلاق سراحهم ، ودعا الى اجرائهـم مجرى الاسارى فى الخدمة من غير تمييز على غيرهم ، بل ان الامر قد استدعى مشاورة العلماء فى مصيرهم ليفتوا بمـا يراه الدين الاسلامى فى منكر تصرفهم ، ويذهب الكتاب فى بسـط ابداء نظرية العلماء التى ترى أن لا وجه لاطلاق سراحهم ، ثم يشير الى أن من بين ما لفت اليه العلماء النظر ، أنه يتعـين استرقاق أولئك الاسارى الاسبان من كـل وجه : (كيـف وقد أخذوا العرائش من أو ل وهلة بلا موجـب ، بل ضغطوا على الشيخ ابن السلطان الذهبى ، وقبضوا عليه ، ومسكـوا أولاده حتى أعطاهم العرائش على ضغط ومن غير تأويـل ، وذكرونا (أي العلماء) فى مسألة غدر أسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم ، بما يزيد على الاربعين ألفا ، بعد تعدد الشروط علـى ستيـن شرطا ، لم يوفوا لهم بواحد منها ، الى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الاندلس فى كل بلد وقرية ، بعد بلد وقرية) .

ولا ريب أنه يعنى بأسلاف كرلوس ما وقع على عهد فيليب الثالث (من أسرة هابسبرج) ، التي ينتسب اليها كرلوس الثانى ، وقد كان فيليب طرد المغاربة القلائل ، الذين ظلوا فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة ، وعندما ثاروا لارغامهم على الارتداد عن دينهم ، هدم معاهد ثقافتهم القديمة ، وحرق كتبهم الثمينة ، وخرب مبانيهم الجميلة ، وتعددت ثوراتهم، فأمر بطردهم عام 1609 .

وبعد أن يسجل الكتاب سابق وعد بتسريح هؤلاء المائة من الاسارى ، ينطلق لاستدراج مخاطبه نحو الحل الذي يجمع بين قناعة المستشارين العلماء ، وبين الوفاء بعهد التسريح ، وهكذا يستدرج الكتاب مخاطبه الى موضوع الكتب فيقول : (وأحببنا أن يسمع الناس أنا وفينا بقولنا ، ولم يلزم فيه حرج ، ولا معارضة ، ولا كثرة اعتراض ، فأردناكم أن تعملوا وجه الخلاص فى هذه المائة بالوجه الذي عملناه ، وأعطيت لكم فسحة فيه ، والا فالمائة المذكورة أرقاء ، أسارى ، من جملة اخوانهم ، وذلك أن تعطونا فى الخمسين نصرانيا من هذه المائة ، خمسة آلاف كتاب ، مائة كتاب عن كل نصرانى من كتب الاسلام المثقفة باشبيلية ، وقرطبة ، وغرناطة ، وما والاها من المدن والقرى ، وتعطونا خمسمائة أسير من المسلمين فى الخمسين الاخرى ، عشرة أسارى لكل نصرانى ، وان لم توجد الكتب التى هى مرادنا ، فاجعلوا عوضها من أسارى المسلمين ، وأعطوها لنا من الاسارى الذين فى الاغربة وغيرهم ، وقبلنا منكم الرجل والمرأة ، والصبى ، الصغير ، والكبير ، والشيخ المسن من ايالتنا

وغيرها ، اذ ما لنا قصد الا فى الاجر والثواب فى فكاك أسـر المسلمين كيفما كانوا ، ومن أي بلد كانوا) .

ويشير الكتاب الى سفارة فى نفس الموضوع يتوجه فيها وزير السلطان حمو بن عبد الوهاب الغسانى الاندلسى الاصل ، الفاسى القرلر والاقبار ، والمعروف أن الوزير السفير الغسانى قد دون رحلته باشارة من السلطان ، وهـى المعروفة برحلة الوزير فى افتكاك الاسير ، وورد فى غير ما موضـع من هـذه الرحلة ، انه ابتدأ تنفيـذ مهمة السفارة فى المحرم من سنـة (1102هـ - 1691 - 1690م) أي باشر تاريخ الكتاب مباشرة ، وجاء فيها على لسان السفير فى موضوع الكتب ، بعدما تحـدث عن كرلوس الثانى وأسرته ، وبعدما تحدث عن وقائع المقابلة معه ، قال : (وحين انفصلنا عنه يوم ملاقاتنا معه وناولناه الكتاب السلطانى ، دفعـه الى النصرانى الحلبى المترجـم ليترجمه ويعجمه ، فلما عجم الكتاب ورأى ما فيه وما أشار به عليه أمير المؤمنين أيده الله من اعطاء خمسة آلاف كتـاب وخمسمائة أسير ، ثقلت عليه الوطأة العلوية ، ولم يدر كيـف يتلقى هذه الاشارة ، وعرف أنها عزمة من الملك نصره الله ، ولم يمكنه الا الاضطراب لما اشرب فى قلبه وقلب أهل ديوانه من صيت هذه الامامة العلوية ، وعلو همتها أبقاها الله بمنه ، ووقعت المشورة منه فى ذلك مع أهل ديوانه ، فرأوا أن الاجابة الى ما دعاهم اليه المولى الامام والامتثال لامره المطاع أعزه اللـه تعالى ، أولى لهم وأوفق ، وتشاوروا فى ذلك أياما عديدة ، وكانت لنا معه ملاقاة بقصد الرؤية ، حين يدعون اليها ، وبعد تدوينهم

فى الامر السلطانى وزعمهم حرق الكتب الاسلامية فيما يذكـر ببلاد اسبانيا ، قدموا للكلام معنا فى ذلك كاتب الديوان الكبير ، والكردينال الذي هو رأس دينهم ، وهو خليفـة البابا الـذي بروما واليه ينتهى أمر دينهم وديوانهم) .

(وحيث كان المولى الامام أدامه الله وأيده ، جعل لهم فى كتابه الشريف فسحة : ان عدموا وجود الكتب أو تعذر حالها ، يجعلون عوضها كمال ألف أسير من المسلمين ، وحاولوا تـرك بعض آلاف ، فلم يجدوا له مجالا ولم يمكنهـم الا المساعفة بالامتثـــال) .

(وحين قبل منهم المولى الامام المنصور ، نصره الله ، ذلك اشتغلوا بالبحث عن الاسرى وجمعهم) .

ويذهب المؤلف بعد هذا ، على طريقته فى وصف المشاهد ، وما يراه من الجديد فى مجتمع الاسبان ، خلال تنقله بتلـك الديار ، ولدى وصوله الى كنيسة الاسكوريال ، يسهب كعادته ليحيط بجميع ما يتصل بالمشهد مما يرى أو يسمع ، ويتطـرق مرة أخرى الى الحديث عن حريق الكتب الاسلامية فيقول فى : (« رحلة الوزير فى افتكاك الاسير » ، ص : 99) (وعلى يمين الكنيسة خزائن كتبهم وعلومهم وأديانهم والذخائر التى هـى موقوفة على الكنيسة من عهد بانيها الى هلم جرا ، بحيث لا يقدر أحد على التصرف فيها الا بالزيادة عليها ، والى هــذه الخزانـة كانـوا نقلـوا خزائـن كتب المسلمين من قرطبة ،

واشبيلية وغيرها ، وزعموا أنها احترقت بالنار جميعا فيما قبل الآن من عشرة أعوام ، وقد رأينا موضع الحرق فى تلك الخزائن ، وقد أثر فيها وفى الكنيسة أثرا كبيرا ، وما زال الطاغية الى الآن مهتما بترقيع ما أفسدته النار ، ولولا ما بهذه الكنيسة من سقف الحجارة ، وانعدام الخشب الذي تسرع النار باحراقه لأتت على آخرها ، ومع ذلك فقد صعدت النار الى رأس منار من منارات الكنيسة ، وهدمت من أعلى المنار حجارة كبيرة سقطت الى البستان المحيط بالكنيسة ، وهى حجارة كبيرة يعجز الآن عن ارجاعها الى محلها) .

ونقصر عند هذا الحد فى النقل عن « رحلة الوزير » فلسنا نظفر عنده بجواب عن السؤال الناشىء فى النفس حول نتيجة السفارة ، ان بالنسبة الى الاسارى ، أو الى الكتب الاسلامية التى هم أبو النصر المولى اسماعيل بتحريرها ، ويظهر أن السفير عاد من رحلته ولما يفرغ الاسبان بعد من عملية جمع الاسارى المشار اليها فى نص الرحلة السابق ، كما يبدو من كلامه نوع اقتناع ، لما شاهد وسمع أيضا عن الحريق الذي أتى على خزانة كتب كنيسة الاسكوريال .

ويزيد من الحاح هذا السؤال ان كتاب المولى اسماعيل قد بدا ثائر الاصرار على تنفيذ مطلبه ، حتى انه يقول فى خاتمته :

(وبرجوع خديمنا حامله بما ذكرناه فى هذه المسألة ، تتلقاه هذه المائة نصرانى لسبتة ويكون ملتقى الجميع فيها ، وما عندنا معكم فى هذا الا الجد الصحيح ، والعمل الصريح) .

وليس فى المستندات المعروفة ما يشير الى أن تحرير الكتب والاسرى قد تم على هذا الوجه الذي يرسمه الجانب المغربى أو بطريقة سواه ، ولكن الاهتمام الدينى عند الطرفين بشؤون الاسرى ، ثم عطف الملك المغربى على رجال الرهبنة من طائفة الآباء (الريكوليطوس) الذين كانوا يترددون على بلاطه للمناظرة فى الشؤون الدينية ، حتى انعقدت بينه وبينهم صلات ودية ، كلها ظواهر تشير الى أن مبادلة الاسرى بعد هذه السفارة ، ربما كانت تتم خارج النطاق الرسمى على سبيل أعراف المكارمة ، وبمناجاة من المشاحة ، ولا سيما فى ظروف شبيهة بتلك التى اجتازها المغرب باثر وفاة المولى اسماعيل ، وانتقال الملك الى كرلوس الثالث ، الذي أصبح معاصرا للمولى محمد بن عبد الله (1171 هـ — 1204 هـ) ، وهى مبادلات تلقائية تفرض نفسها عادة بين دولتين متجاورتين ، يتعاقب على علاقاتهما التصافى ، والتدابر ، والاحتكاك ، وتحفزهما أغراض متشابهة ، وضرورات ملحات .

وسواء صح هذا الافتراض أو لم يصح ، فان قصة الهمة التى تطلعت الى تحرير الكتب الاندلسية فى نطاق تبادل الاسرى ، ستظل ماثلة المشاهد أمامنا ، ونحن نستعرض لمحات من سيرة امير المومنين ، المولى محمد بن عبد الله ، حفيد المولى اساعيل ، وفى علمه ودينه ما يزعجه الى تلك الآثار التى زعم الاسبان أنها اشتعلت فى لهيب النار ، وما يتيح أيضا للباحث تأكيد القول بأن منقبة استرداد الكتب الاندلسية عند هذا الحفيد ، قد عادت الى سيرتها الاولى ، واحتذت مسيرة ذلك

الجد العظيم ، لا سيما وقد كادت آثار علمه تحجب جاريات سعنه ، وتطغى على عدته فى البحر وعدده ، وتغطى اخبارها فى صفحات سيرته صحامه حجم اسطوله ، على عكس التصور بالنسبة الى ابى الاملاك المولى اسماعيل ، الذي تسبق منه الى الاذهان صورة المحارب قبل صورة العالم .

وما شأننا بما قيل فى كتاب « اقتطاف الازهار » ، من أن المولى محمد بن عبد الله قد كان (فى العلم لا يقعقع لـه بالشنان ، ولا يجارى فى ذلك بعنان) أو بما جاء فى « نشر المثانى » : انه بحر لا يجارى ، وفى التحقيق والمعارف لا يمارى ، وقد جمع دراية العلم ما تقف دونه العلماء ، وانـه عالم السلاطين ، وسلطان العلماء .

أو بما سارت به المدونات من أنه الامام المجدد ، الـذي بعثه الله على رأس المائـة .

فكم من مجدد قبع على رأس هذه المئات ، وكم تلاطمت كتب التراجم بأمواج بحور العلم ، ومواكب سلاطين الطلبـة والعلمـاء .

السبيل لتصوير الآية فى هذا الشريف ، أن تستروح مقوماته العلمية من خلال عطاء أرومته ، وفيوض أصالتـه ، فنلحظ أن غريزة الانقاذ والتحرير ، التى تبرجت حاسة سادسة عند جده ، قد تجلت عند الحفيد تفاريـق وأنماطا فى اهتماماته

ومنجزاته ، التى اصطبغت بروح التوزيع والتعميم والتقريب والتخليص .

لقد كان اختصاصه موزعا بين الادب وبين الفقه والحديث ، وما طغى عنده جانب على جانب ، كما نرى فى تعدد الاختصاص عند العلماء المشاركين ، فكان يستظهر كتاب « الاغانى » لابى الفرج الاصبهانى ، وحض على تخريج نسخ منه مع التحرير والتصحيح ، وأخرى بالتهذيب على ترتيب جديد ، وأمر الفقيه الاديب السيد عبد القادر بن عبد الرحمان الاندلسى ، المعروف بالسلوي ، بتجريد هذه المدونة النفيسة من عنعنة الاسانيد ، ومن المرويات السافرة ، حتى يشرك فى هذا الغذاء المحبب اليه ، جميع شداة الادب ، وطلابه فى مملكته .

وألف « الفتوحات الالهية » ، فكانت منها الكبرى والصغرى، والجامع الصحيح الاسانيد ، ومواهب المنان ، وكتاب مسانيد الايمة ، وقد تلقفها علماء المغرب والمشرق على أنها اشراقة تسطع بما يغنى ، ولا تزيد بما لا يفيد .

ووزع مجالسه العلمية الى ساحتين ، يوم لحلبة الادباء والشعراء ، ويوم لحلقة جهابذة الفقهاء ، وهؤلاء وأولئك قد وزعت عليهم هذه الحظوة بالسوية ، فهم من كل جهة وبلد فى المملكة المحمدية .

وعنى بأمر التعليم ، فحض على التبسيط والتيسير ، فنفى من مناهج التدريس ، كل المختصرات المغلقة ، وكل الكتب التى

تسربت الى الشوائب ، أو أثقلتها الحواشى بمماحكات تخـل بالتحصيل ، أو تعود بطلاب مملكته الى قصة فقهاء بيزنطة من قريب أو بعيد .

وهى لفتة فى اشاعة المعرفة ، لن تخفى عائدتها فى عصره ، وفى كل زمان ومكان على بصيـر .

وتوجه الى ميدان القضاء ، فأصدر عدة ظهائر تكـون بمحصولها مجلة أحكام ، ولائحة مسطرة للتقاضى بما توفر فيها من اجتهاد واختيار ، وترجيح ، وتحسين ، وكل ما هو مستهدف مـن مطالب فقهاء العصر الحديث لتأمين العدل والبـت فـى أقضية الناس من أيسر طريـق .

وحلت بالبلاد على عهده مسغبة جفاف ، ألقت بجرانهـا على السهول والجبال سنين كسنى يوسف، فى العدد ، وفى الشح بالارزاق ، فوزع من حر ماله على كل ضعيف وفقير ، وبيده كان يوالى التوزيع أحيانا على كل دار وديار ، وأوقف منـه دورا لاطعام الارامل واليتامى ، وأسقـط الخراج ، فلم يجب لبيت المال قيراط واحد فى تلك السنوات ، ومن ماله وارثه ، أسلف تجار ايالته حتى تظـل الحركة التجارية على أوضاعهـا الاعتياديـة .

وحينما سحت الامطار ، وابتسمت السماء ، وما ابتسمت الا لغيث جوده المدرار ، وجاءه التجار لاداء سلف الايام الشداد ،

أعلن أنها كانت هبة ، وانما أخرجها باسم السلفة تدبيــــرا لمقتضيات النظــام .

ووزع خزانة كتب القصر المعروفة بدويرة مكنــاس ، على مساجد المملكة فى المدن والقرى ، وكانت تحتوي على اثنـــى عشر ألف سفر وما زالت خزانة مسجد الشيخ أبى يعزى تحتوي — حسبما يتناقله المهتمون — على مخطوطات ممهرة بخاتــم تحبيســه حتى اليــوم .

فغريزة الخير المشاع على يده ، وهى مــن منبــع الارومة الاصيل ، الضارب فى صميم الايمان المتين ، قد وفقته بمحض هداية دين الدنيا والدين ، الى حل مشاكل كيان الدولة بنفس الاصول التى قامت عليها فى العصر الحديث ، ولا تبديل ولا تغيير فى غير الاطار ، والاسباب والوسائل التى تختلف مـــع استفاضة العلم وتنميته من جيل الى جيل .

وانما لكل امرىء ما نوى ، كما فى الحديث الشريف ، فمن احتذائه سنن جده أبى النصر اسماعيل فى تحريــر الاسارى عامة ، سواء من ايالته ، أو من ايالة أخرى فى بلاد المسلميــن ، انفتح أمامه الطريق ، فأعاد الكرة لتحرير كتب التراث ، لا سيما وبضاعــة أســرى الاسبان تحت يده غير مزجاة لعقد صفقــة التبادل ، بل ان امتلاء معتقلاته بأوزاع وأخلاط من ختلـــف أســرى الاجنــاس ، واهتمامــه المعــروف بتخليص الاسارى المسلمين ، قد أثارا فى نفــوس القريب والبعيد من الاجانب ،

انعطافا نحو دولته ، توصلا الى تحرير الاسرى من قبضتـــه ، فخطبوا ودها ، وتنافسوا فى تحسين العلاقات معها .

وقد جاء فى « درة السلوك » : انه لم يترك ببلاد النصارى أسيرا ، ولا بالمغرب فقيـــرا .

ومثله نص « الاستقصا » (ج : 1 ، ص : 121) : (أما ما أنفقه من الاموال فى فكاك أسرى المسلمين ، فأكثر من ذلك كله ، حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير ، لا من المغرب ولا من المشرق ، ولقد بلغ عددهم فى سنة ، مائتين وألف ، ثمانية وأربعين ألــف أسير وزيـــادة) .

ويمدنا باحدى صور هذه الاستعدادات المنيفة ، وزيـــر المولى محمد بن عبد الله وسفيره ، محمد بن عثمان (ت 1214 هـ) فى احدى رحلاته الثلاث (« البدر السافر ، فى افتكـــاك الاسارى من يد العدو الكافر » ، مخطوطة الخزانة الملكية ، رقم: 1315 ز) ، وهى التى دونها عن سفارته فى مالطة ونابولى ، فيقول : (ثم شرعت البعثة فى افتداء الاسارى الذين جـــاءت من أجلهم ، وفى أثناء ذلك راجت اشاعة فى البلد مضمنها أن السفارة جاءت لاحداث ثورة ، بدليل أن الاسارى اذا سرحوا لا يذهبون ، بل يجمعون ، وأن الادب المعهود منهم انقلـــب الى غلظة ، وأن السفارة تنتظر ورود خمس مراكب بحرية ، وكان سبق قبل هذا بمدة ، أن اتهم الاسرى بمحاولة الثورة ، فلم يسع حاكم الجزيرة حينئذ الا أن ارسل للسفـــارة يطلب منها ألا

تبقى أولئك المسرحين فى البلاد أكثر من ثلاثة أيام قطعـــا للقيل والقال ، وتجنبا للكلام ، وبعث من اكترى لهم المراكـب وبعد ثلاث ، ركبوا البحر فى مركبين ، أحدهما سار لبنـي غازي ، والآخر لطرابلس ، وكان عددهم نحو المائتين وخمسين ، ثم وقع افتداء أسارى آخرين بلغ بهم العدد الى ستمائة وثلاثة عشر ، واكترت لهم السفارة المراكب، فسار بهم احدها لطرابلس، والاخر لصفاقص ، والثالث لتونس ، بين زغاريد النســاء ، ودعوات الرجال والاطفال) .

(وقد كانت جماعة منهم تستخدم فى مراكب الجزيرة ، فما شعر القوم الا وقد شملهم الفداء ، فأرادوا نقضه لما يؤدي اليه من تعطيل مراكبهم ، وحصل الشجار بينهم وبين الوكلاء على ذلك ، ثم تداخل كبيرهم فى القضية ، ومضى الفداء ، وأحصى الباقون من الاسارى المسلمين ، فكانوا سبعمائة وبضعـا وعشرين تحمت السفارة مع أصحابهم فى قدر فدائهم ، وبعثت بتقييدهم للسلطان المترجم ، عسى أن يضيفهم الى اخوانهم ، مشيرة عليه ببعث مال الفداء لكبير الجزيرة) .

وهكذا يعرض علينا هذا الفصل احدى مكرمات التخليص ، واحدى ظواهر توزيع المكاسب ، انعطافا الى غريزته فى توزيـع خيره العميـــم .

والواقع أن رحلات سفرائه فى هذا الشأن ، تحتفظ بكثير من المعلومات المفصلـة عن الوسائل والاسبـاب الماديـــة والسياسية ، التى كانت تقوم عليها هذه البعثات ، وعن نتائجها

التى فسحت للمملكة العلوية آفاقا واسعة فى علاقتها الخارجية، وأتاحت لها أن تجلى عن الانسية العلوية التى جعلت حدا لمشكلة العصر ، وأعنى مشكلة الاسارى ، التى أعننت دول أوروبا قرونا طويلة .

ويعنينا فى المقام ، من بين هذه السفارات ، تلك التى انطوت مهمتها على تحرير الكتب الاندلسية ، وعزم العودة لمفاتحة الجانب الاسبانى فى أمرها ، وما كان المولى محمد بن عبد الله ، الذي تعلقت همته العلمية بها ، الا محدثا صادق الظن والفراسة ، فاستقر فى وجدانه أن تلك الآثار الفكرية ، وان كانت مما تسرع الى أسفاره ألسنة النار ، فلن تزال منها بقية وافية فى تلك الديار ، وكان له ما نوى، حيث سعت اليه الظروف سعيا بما أراد ، وعلى قدر عزيمته ساقت اليه الاقدار بواعث اتصال ببلاد الاسبان ، بعد سابق انقطاع ، منذ عهد كرلوس الثانى (شارل من أسرة هابسبرج) وقد كان عرش اسبانيا قد آل فى عهد المولى محمد بن عبد الله الى كرلوس الثالث (شارل من أسرة البوربون) بعد والده فيليب الخامس ، وكانت اسبانيا قد فقدت لقب السيادة على أوربا ، بما فى ذلك جبل طارق ، منذ القرن السابع عشر ، وأحوالها الاقتصادية خلاله مترديـة ، وشوارعها تضطرب بالمتكففين وبالفقراء ، الذين يموتون جوعا ، أو يهرعون الى البوادي لنهب المزارع والمآوي ، وبقطع النظر عن افادات المؤرخين ، عن هذه الاحوال ، فان ذلك هو ما تشف عنه آثار أدباء اسبانيا ، الذين استغلوا ما يقع تحت أبصارهم فى هذه الصور ، فنفحوا عصرهم برائعات القصص

الادبية ، والصور الزيتية ، وبالرغم مـــن أن فيليب الخامـــس وولديه بعده ، شارل الثالث صاحبنا المتحـــدث عنـــه فى هـــذا المقام ، ثم خلفه ، قد استطاعوا أن يصلحوا الاحوال الاقتصادية، ويعيدوا الى البلاد اطمئنانها وبهجتها ، بما عمروا وشادوا ، مما نقع على وصفه فى رحلات السفراء المغاربة ، الا أنهم أخفقـــوا فى سياستهم الخارجية ، حيث زجوا ببلادهم فـــى حـــروب استمرت طوال القرن الثامن عشر ، وذلك مع انجلترا ، والنمسا، وهولندة ، والبرتغـــال .

ويبدو أن هذا من سر الفراغ فى العلاقات بين البلديـــن ، الذي تواجهنا به المصادر المغربية منذ سفارة الغسانـــى على عهد كرلوس الثانـــى .

وعلى هدى أحوالهم الخارجية ، نستطيع الآن أن نستجلى بوضوح الظروف التى ساقت الملك كارلوس الثالث مهطعـــا بوسائطه لخطب ود المملكة المغربية ، ومتحرقا الى المهادنة فى وقت كانت فيه عمارة المولى محمد بن عبد الله البحريـــة ضاربة فى البحرين ، وقوامة على سيـــر الغادي والرائح فى الزقـــاق .

وفى هذا الظرف بالذات ، وردت على الملـــك المغربـــى ، المعـــروف بتحريـــر الاســـارى المسلميـــن ، المتطلـــع الى آثار الاندلسيين ، رسالة ضراعة واستعطاف ، مـــن أسارى المسلمين المنبثين فى معتقلات الاسبانيين ، وملتمسهم الانقاذ من ربقـــة الاسر الاسبانى ، الذي يعانون فيه ألوان الارهاق ، وضروبا من

الهوان ، فوجه المولى محمد بن عبد الله فى الحال ، كتابا (مقدمة رحلة الغزال : نتيجة الاجتهاد) الى كرلوس الثالث (شارل) ، لا يقل فى شدة لهجته عن كتاب جده الى كرلوس الثانى ، ففيه تذكير بأن ابقاء الاسرى فى أسرهم مما لا يجيزه أي دين ، وفيه تنبيه على أن الحرب سجال ، ولا جدوى من الاعراض عن واجب تخليصهم ، وفيه تنديد بما اشتكى منه الاسارى المسلمون ، ومن بينهم منتسبون للعلم ، وأهل المروءات ، وفيه لفت النظر الى أن الاسارى النصارى فى المغرب ، وعلى رأسهم الاسبانيون، مسرحون ، ولا يحملون ما لا يطيقون ، ويرفق بمريضهم ، ويسمع لضراعتهم ، والرهبان منهم خاصة (لا يكلفون بخدمة ، ولا تخفر لهم ذمة) .

ولم يكن ينتظر كرلوس غير هذا الكتاب الذي سيفتح له ، بالرغم عن لهجته ، باب الاتصال ، والتخلص من الوحشة التى رانت على العلاقات بين الدولتين منذ تعثرت صفقة تبادل الاسرى على ذلك الوجه ، الذي ارتضاه المولى اسماعيل ، وسطره فى كتابه الى معاصره شارل الثانى ، كما عرفنا قبل لحظات .

وقد كان جواب كرلوس عمليا وسريعا بطبيعة الحال ، فبادر الى اطلاق سراح جملة من الاسارى المسلمين ، الذين وصلوا على جناح السرعة الى الحضرة الملكية ، وبيدهم ــ كما كان العرف يومئذ ــ جواب كرلوس عن كتا بالمولى محمد بن عبد الله ، ومضمنه (أنه على الخدمة والطاعة ، وسيلحق بالاسارى المسرحين اخوانا لهم آخرين (مقدمة رحالة الغزال) وأن محبته ثابتة على أساس ركين) .

واهتزت أعطاف الشريف المولى محمد بن عبد اللـــه ، فقابل تحية السلم بأحسن منها ، وأطلق سراح جميع أســرى الاسبان فى الحال ، وقدم من بينهم اثنين من الرهبان ، ووعد عن طريق الحاكم الاسبانى فى سبتة ، بتسريح أسرى آخرين من غير جنس الاسبان ، وبعث اليه بعدة من سباع وبكتاب مع المسرحين من أســـــراه .

وسرعان ما وصلت من كرلوس هدية ، عين لتبليغها أحد ضباطه ، وكبير الرهبان فى مملكته ، وتطلق عليهم روايتنـــا المغربية اسم (الفرايلية) وقد عينت الرواية الاسبانية اسم هذا الراهب المبعوث ، فسجلت أنه الاب برتولومى خيرون ، وهو من الرهبان الفرنسيسكان ، ويلاحظ أن هـــذه الفرقة قد ظهــرت بالمغرب على عهد المولى محمد بن عبد اللــــه بعــد فرقـــة (الريكوليطوس) التى كانت لها حظوة عند جده المولــــى اسماعيل ، واتصلت للاباء هذه الحظوة على عهد ولـــده المولى عبد الله (1729 م — 1757 م) فكان لهم على عهده مركز بمدينة سلا ، يباشرون فيه التطبيب ، ويتمتعون بامتياز خاص لظهور نصحهم ، فلا يفتش عن حقائبهم ، ولا على ما يرد عليهم.

وتسلم السفير الاسبانى الاسرى الموعود بهم ، وأبلغ رسالة ملكه ، فى أن يتفضل المولى محمد بن عبد الله ببعث أحـــد خدامه الى بلاد الاسبان ، لان (وفود خدامه ومرورهم بالمدن والقرى والفلوات ، لن يبقى شكا فى قيام المهادنة ، وحلـــول المصادقة ، مما يثلج صـــدور جمهور الاسبـــان ، ويتأكد منه الاجنـــــاس) .

وقبل جلالة المولى محمد بن عبد الله الطلب ، ثم أعلـن للملا أن ليس قصده من الاجابة الا ارسال بعثة لتفقد أسارى المسلمين ، واعانتهم بالصلات ، ومواعدتهم على ما فيه الخير بحول اللـه .

وتلك هي ظروف البعثة المعروفة بسفارة الغزال ، رئيس كتبة المولى محمد بن عبد الله ، وشاعر بلاطه أبى العباس أحمد الحميري الاندلسى الفاسى (ت 1191) ، وقد كانت سفارتـه معصبة بخالى المولى محمد بن عبد الله ، وهما السيدان عمر بن موسى الوديى ، وأحمد بن ناصر الوديى .

وبالرغم من أن مهمة السفارة لا تتجاوز فى الظاهر شؤون الاسرى ، وتبليغ هدية من عرا بالابل ، وعتاق الخيل ، فان قضية استرداد الكتب ، كانت من أهدافها الاولى ، كما سنسمع من السفير الغزال خبرهـا .

وقد دون المبعوث المغربى رحلته بأمر مولوي وسماهـا (نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد) واستهلها بمقدمة مهمة ، صور فيها بقلمه البليغ السيال ، مظاهر عظمة ملك المولـى محد بن عبد الله ، التى أزعجت بلاط اسبانيا الى المهادنـة على وجه من الاستخذاء والانحياش ، أمعن السفير المؤلف فى تجلية مظاهره ، وتسجيل بواعثه ، فيذكر باعتداد موقف المولى محمد بن عبد الله الحازم ، برغض طلب فرنسا مهادنته ، ويشهر بما أصيبت به من خذلان ، حين أجابت على الرغض بالجنـوح

الى العدوان ، فسيرت مراكبها لضرب الرباط وسلا والعرائش بالقذائف والانفاط (1178 — 1179) وما آبت بغير الهزيمة، وانصداع الاجفان ، وانجراف بحارتها على رمال تراب المغرب ، بين غريق وأسير وقتيل ، وفار ، ولات حين فرار ، وجـــره الحديث فى هذا الى التنويه بأعمال ملكه فى عمارة الثغــور ، وما أسس منها ، وغير ذلك من استحكامات الدفاع البحرية، مما يعطى صورة واضحة عن قوة الدولة فى أثناء ظروف هـــــذه السفـــــارة .

وقد شرع السفير فى تدوين مذكرتـــه عن الرحلة منـــذ ابحاره من سبتة فى منتصف ذي الحجة (1179 · 1766/5/25)، ويلاحظ أنه جانف منزع السفيرين الغسانى ، وابن عثمان ، فلم يتعرض لما هو من مهمة المؤرخ عند الوقوف عند المآثـــر ، والمشاهد ، وانما اقتصر فيها على استيعاب كل ما شهده عيانا ، أو سمعه ، وما يعلم أنه يهم ملكه ، الذي كان من عادته ــ كجده ــ أن يوصى مبعوثيه بتدوين رحلاتهم ، وتسجيل جميع مـــا يقفون عليه ، ويرتسم فى خواطرهم فى الحل والترحال ، وبذلك فان القارىء يساير البعثة منذ مغادرتها تراب المغرب مسايـــرة متوالية من غير انقطاع ، وكأنه أمام نافذة مشرعة على ربوع اسبانيا ، ومشاهدها المحدثة ، وآثارها الاسلامية الخالدة ، وعلى ظاهر الفرحة السارية بين جمهور الاسبان لقيام المهادنة بـــين الطرفـــين .

وقد تابعت البعثة طريقها فى تراب اسبانيا ، فاجتـــازت المدائن والقرى بين حفاوة الرسميين ، وترحيب الجماهيـــر

الدين سالت بهم الطرقات للتحية والترحيب ، الى أن حلت بقصر فيليب الرابع فى مدريد ، وكان يوما مشهودا باستقبالات الوزراء والاعيان ، وزيارات المجاملات .

وجرت فى منزل كبير الوزراء المذاكرة التمهيدية ، ثم انتقلت البعثة فىاليو مالموالى (10 ربيع الاول 1180) على متن عربات ملكية ، لملاقاة الملك فى قلعة (لكرانخا) مصيف ملوك الاسبان ، الذي يقع على بعد أميال من مدينة (شقوبية)، وكان اللقاء فى القصر الشهير ، الذي شيده فيليب الخامس (من أسرة البوربون) على شاكلة قصر فرساي ، وأجرت البعثة المفاوضة مع الملك على أهم بنود المعاهدة ، وأخذت وعدا منه بمسألة الكتب ، وتركت التفاصيل لكبير الوزراء الذي وكل اليه الملك أمر تنفيذ المطالب المغربية .

وبعد تقديم هدية السلطان فى اليوم التالى خارج القصر ، فى حفل عظيم ، وحفاوة خاصة أثارت انتباه السفراء الحاضرين ، وقبل أن تبتدىء البعثة جولاتها لتفقد الاسارى ، تابعت المذاكرة مع الوزير بعرض المطالب المغربية ، ومنها : — تسريح الاسارى الطاعنين والمعطوبين ، ومن فى حكمهم من أي دولة اسلامية — تسريح ما قد يوجد من أسرى مغاربة — تسريح أسيرين اثنين من الجزائر استنجدا بالسلطان لاطلاق سراحهما ، أحدهما طالب علم وهو الفقيه السيد مصطفى بن على البايادغى ، والثانى من ذوي الفضل والمروءة — النظر فى شكايات الاسرى ، كأن لا يولى عليهم متنصر ، لقساوة

المتنصرين فى المعاملة ـ وأن لا يمنعوا من الكتابة بالعربية ـ وأن لا يلزموا بالعمل فى أوقات الصلاة ـ وأن يعامل المرضى منهم والخدمة بالرفق والحسنى .

وأعلن السفير للوزير المفاوض أنها مطالب لا تكبر على الملك ، والاجحاف بها انما هو من قبل المتصرفين ، ثم تطرق السفير لما وعد به الملك من الكتب الاسلامية ، ومن تخصيص حملة القرآن من الاسارى بالتمييز .

وابتدأت بعد ذلك جولة التنفيذ ، فزارت البعثة معتقل (شقوبية) ، وقد كان خاصا بالرؤساء المأسورين ، فوزعت عليهم الصلات ، ووعدوا بالسراح ، و فىالطريق بين الاسكوريال ومدريد ، ألموا بورشة خدمات كان يعمل فيها مائة وأربعة من الاسارى وجلهم مكبل بالسلاسل، وهم بقية ثلاثمائة، فر بعضهم، ومات البعض الآخر ، وأكثرهم من الجزائر ، وبعضهم أتراك ، وقد تشفع السفير فى فك قيودهم ، فجاء الامر من الملك بتنفيذ رغبته من غير تأخير .

ثم اتجهت البعثة من مدريد (بعد أن أقامت بها شهرا فى انتظار الكتب) نحو «قرطاجنة» ، التى كانت معتقلا كبيرا مخصصا للاسارى المرهونين فى فدية للفقراء والمساكين ، فقوبلوا فيها بالتهليل والتكبير .

وكانت اقامة البعثة فيها بدار من أحسن دورها ، وهى مسكن (الضون اسدركن صلاص) ، أحد التجار النبلاء ، وقد

أعرب عن كرم الضيافة ، فقدم لهم خادمه الاسير هدية ، وعف، عن قبض الفدية بالرغم من الحاح السفيـــر .

وبنفس تلك الروح الملاطفة ، قـــدم لـــهم الضابـــط « سبيكيلطو » خادمه الاسير هدية ، وكان الاسير شيخا مسنا من أهل تونس ، وقنع الضابط كمواطنه التاجر بالشكر الجزيل .

وبعدما أتمت البعثة اجراء جـــرد الاسماء مع حاكم البلد، لتخليص من تنطبق عليهم أوفاق التسريـــح المستعجل مـــن الشيوخ والمعطوبين ، والعجزة ، ومن ستؤدى عنهم الفدية من المرهونين فى الحال ، توجه الاهتمام لاستقراء الاسارى الذين كانوا فى خدمة بعض أعيان البلد موزعين ، واذا هم بأسيـــرة معها بنتاها ، وأبوهما أيضا من جملة الاسرى فى معتقل بعيد ، وحضرت الالطاف ، فسرح البعيد والقريب .

ثم ساقتهم جولة التنقيب الى بنية من ناحية تلمسان قد بلغت الحلم ، ولم يسمح مالك خدمتها بتوجهها الى مركـــز البعثة الا بعد أن أيقن أن الامر لا يعدو تسلم اعانة ، وسرعان ما أقبلت البنية باكية مسترحمة ، تلتمس السراح ، وتعلن أن ربتها على نية بيعها وتدعوها لاعتناق دينها ، واضطرت البعثة الى توسيط الحاكم الذي استطاع أن يقنع مواطنه بالفداء ، غير أنه علق القبول على ارادة زوجته التى تمسكت بالامتناع ، ولكن لم يسعها أمام الحاح الحاكم ، غير الرضى بغنيمة الفداء .

وجرت نفس العمليات بين التسريح والفداء فى كل مـــن (برطونة) و (الكراكة) حتى بلغ مجموع المحررين فى هـــذه

العمليات ، ثلاثمائة الا عشرة ، بين رجال ، ونساء ، وأولاد ، نقلوا فى مركبين الى (قالص) حيث وافتهم البعثة ، والتحـق بها السفير الاسبانى ، الذي سيرافقهم مصحوبا بالهدية ، ومنها كان الابحار الى مدينة تطوان فى طريق الاوبة (28 جمادى الاولى 1180) .

وأما مسألة الكتب ، فيقول السفير، انهم انتظروا شهرا الى أن حصلوا على جملة منها كانت فىمدريد ، وأضافوها الـى مجموعة أخرى جاؤوهم بها من غرناطة ، وبعثت لهم أخرى لدى وصولهم الى (قالص) فى طريق العودة .

ويبدو أن اقامة البعثة شهراء كاملا فى مدريـد لانتظـار الكتب ، يشير الى نوع من التلكىء والمناورة بالتأخير ، حتى يضطر السفير الى تجنب الحرص ، لا سيما ومطالبه كلها قد نفذت من غير استثناء ، وأيام اقامته على طولها ،قد كانت أعيادا ، وحفلات رقص وغناء ، واستقبالات رسمية فاقت فى أبهتها وخصوصياتها ما كان متبعا عندهم من تقاليد وأعراف .

ولهذا يلاحظ أن سفارة محمد بن عثمان المكناسـى لدى بلاط كرلوس ، بعد ذلك بنحو ثلاث عشرة سنة أو تزيد (1193)، وهى التى دون وقائعها فى رحلته : (الاكسير فى فكـاك الاسير) (مخطوطة الخزانة الملكية ، رقم : 2326) لم يكن من أهدافها قضية الكتب ، وانما كانت مهمتها الاولى تحرير الاسارى من أهل الجزائر ، الذين ظلوا هملا من غير رعايـة تفقد أو تسريح ، فقد دأب حاكم الجزائر التركى على الامتنـاع مـن

افتداء الاسارى من عرب الجزائر ، أو اجراء مبادلة أسيـــر نصرانى بأسير مسلم ، فلم يكن يعنى الا بافتــداء الرعايــا الاتراك ، والمبادلة بهم ، فنهد المولى محمد بن عبد الله الـــى محو العار ، وتولى مهمة الافتداء ، وقد خلص فى هذه السفارة مائة وعشرين ، ما بين شيوخ ، ونساء ، وصبايا ، وصبيان ، وظل مصير أهل الجزائر تحت كفالته ، الى أن بلغ ما حرره منهم ، زهاء ألفين على دفعات ، هذا باستثناء جمع حاشد منهم ، بعث به كرلوس الثالث هدية الى المولى محمد بن عبد الله ، وقد كان هذا ــ كما يذكر السفير ابن عثمان فى آخر رحلة له أخرى ــ (« احراز المعلى والرقيب » ، مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط ، رقم : 5264) (انظر نصه عند المرحوم ابن زيدان فـــى « الاتحاف » ، ج : 3 ، ص : 318) فى عقب الصلح الذي تم بين اسبانيا والجزائر ، وذلك (أن أمير الجزائر امتنع من اعطاء المال فى هؤلاء الاسارى ، كما فعل النصارى فى اخوانهم ، ولم يقبل أن يفديهم بالنصارى ، بل قبض المـــال فى أســـــارى الاصبنيول) ، ويزيد ابن عثمان بأثره أن السلطان (كلفــه بايصالهم الى بلادهم ناظرا اليهم فى ركوبهم ، وأكلهم، وشربهم، حتى يوصلهم لتلمسان ، ويدفعهم الى عاملها ، ويفرق عليهــم الصلـــة هناك) .

وهكذا ، فبالرجوع الى « الاكسير » رحلته الى اسبانيا ، لا نجد السفير ابن عثمان معنيا فى هذه الرحلة بغير أمر أسارى عرب الجزائر ، وبغير مسألة تجديد الصلح ، التى أعاد الوزير عرضها عليه ، على سبيل التذكير ، أما ما ورد فيها بشأن الكتب،

فكلامه يوحى بأنه كان غير مأمور بطلب استرداد ، وانما هى هوايته ــ كما سنسمع ــ قد ساقت اليه جملة كتببمحض بادرة رغبة طغت على حديثه ، لا بلسان التفويض الرسمى ، وبموجب رسالة الاخذ والعطاء ، كما هو شأن مهمة سفارة الغزال ، وبهذه الفقرات يوضح لنا ابن عثمان ذلك البساط خلال تعرضه لزيارة كنيسة الاسكوريال (الاكسير ، ص : 127) ، ومن اعتناء الطاغية بنا ، فتحوا لنا باب الخزانة بأمره (أمر البابا) فأرونا كتب المسلمين ، وعدتها ألف وثمانمائة سفر، فيها نسختان من المصحف الكريم ، وعدة تفاسير ، جلها حواشى ، وكثير من كتب الطب ، وقد طالعت ما سمح به الوقت مع ضيقه ، فخرجت من الخزانة، بعد أن أوقدت نار الاحزان بفؤادي نارها ، وناديت: يا للتراث ! فلم يأخذ أحد ثأرها ، يا ليتنى لم أرها !) .

وفى معرض آخر يقول ابن عثمان : (ولما كان يوم الاحد متم جمادى الاولى (1193) ورد علينا الوزير الاعظم الذي عليه مدار جميع أمور الطاغية البرية والبحرية ، فكلها ترجع اليه ، ودفع الينا جواب كتاب سيدنا ومولانا أمير المومنين ، الذي كتب اليه الطاغية ، مع شروط الصلح المذكورة قبل ، ودفع الينا عدة كتب من كتب المسلمين ، رحمهم الله ، وقال : (ان الطاغية بعث اليك هذه الكتب على سبيل الهدية والاكرام ، لانه بلغه أنك لما كنت بالاسكريال ، ودخلت خزانة كتب المسلمين ، أردت اخراج شىء منها ، ويقول لك : لو كان أمر كتب الاسكريال بيده ، لاعطاك منها جميع ما تريد ، لكنها محبسة على ذلك الموضع من عهد الملوك الاول ، وهى على يد

البابا ، والى نظره ، وحيث بلغه أنك أردت اخراج شيء من الكتب المذكورة ، ولم يمكنه اسعافك الى ذلك ، بحث فى اياالته ، فلم يجد غير هذه الكتب ، فبعثها على سبيل الهدية ، فسررنا بذلك كثيرا ، وجازيناه خيرا على فعله ، ثم ودعنا وانصرف) .

على أنه اذا لم يكن هنا ــ كما يبدو ــ أمر رسمى بالمفاوضة بالاسترداد ، فهناك ارادة استطلاع ، وينم عليها هذا الحرص على القراءة المتأنية ، وتعداد محتويات الخزانة من الكتب العربية ، مع التصفح المستقصى الذي لفت الانظار ، وبلغ خبره ملك الاسبان .

وحبك الشيء يأتى بما لا يخطر بحسبان .

وقد رأينا أن الآثار الفكرية التى ظفر بها السفيران ، قد جمعت من غير ما مكان ، ولا يعنى هذا أن التراث الفكري الاندلسى ، قد ظلت منه بقايا متوافرة بعد جلاء المسلمين عن الجزيرة ، فان عملية تنصير أولئك المسلمين ، الذين ظلوا بها ، قد كانت مقرونة بالقضاء على مقوماتهم الفكرية والاجتماعية، وبكل ما يذكر بالروح الاسلامية ، وما زال تاريخ ذلك الفردوس المفقود يثب بالاذهان الى ذلك اليوم المشؤوم من أيام سنة 1499 ، حين جمعت الكتب الاسلامية من مختلف الحواضر الاندلسية ، وكدست أكداسها الهائلة فى ساحات غرناطة ، ثم ألقى بها فى احتفال دينى مقدس ، الى ألسنة النار ، فتتعالت فى صفحات مائة ألف سفر ، على أدنى ما قدره المقدرون ، الذين أخذوا بالاعتدال ، والمعروف أنه لم يبق جناة هذه المذبحة

الفكرية من تلك الاكداس ، الا على نحو ثلاثمائة كتاب من كتب الطب ، وهى التى روأوا فيها مصلحتهم العاجلة والآجلة ، وقد آلت الى جامعة ألكالا « القلعة » دي هنارس (الآثار الاندلسية الباقية للاستاذ محمد عبد الله عنان) .

ومن المفهوم ازاء عجلة القوم فى ذلك الحين لمحو كل ما هو مخالف لكاثوليكيتهم فى الدين ، أنه قد كتبت السلامة لبقية — ولو يسيرة — من الكتب ، فظلت قابعة فى مختلف بلاد الاندلس المعروفة بخزائنها كمالقة ، ورندة ، ووادي آش ، والمرية ، وغيرها ، وهى التى أخذت تتعقبها فيما بعد ، تلك السياسة الهوجاء ، ونقرأ فى سيرة فيليب الثانى من أسرة هبسبرج ، الذي تولى بعد وفاة فيليب الاول سنة 1598 ، أنه وقع مرسوما بطرد المغاربة الذين ظلوا فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة ، وذلك لثوراتهم ضد محاولته ارغامهم على الارتداد عن دينهم ،وللعسف فيهم بتهديم مبانيهم الجميلة ، وحرق كتبهم الثمينة ، وتذكر أيضا فىهذا المقام ، عمليات محاكم التفتيش التى كانت جرائرها فى اسبانيا أدهى ، وأمر ، وأشد من أختها التى عرفت فى أوربا منذ القرن الثالث عشر ، وقد كان تعصبها الطائفى المحموم فىاسبانيا ، يجرف كل ما يخالف نزعتها الكاثوليكية ، فضلا عن الاسلامية ، التى كانت يؤمئذ مقنعة ، ويعض أصحابها بالنواجد على آثارهم الروحية .

وعلى الباحث أن يجعل نصب عينيه أن تلك المصلحة الاسبانية التى أبقت على كتب الطب ، وما هو من قبيلها ، قد ساقت الى خزانة فيليب الثانى ، ثم الى خزانة فيليب الثالث ،

بعض هذه الآثار الفكرية الاندلسية المرغوب عندهم فيها، ومنها تكونت ــ وهذا قول الباحثين ــ الرفوف الاولى من خزانة كتب الاسكوريال ، كما هو الشأن بالنسبة لمجموعة كتب الطب، التى انتهت الى جامعة القلعة ، أو مكتبة دير ساكرو مونتى بغرناطة، أو الى بعض المكتبـــات الخاصة ببعض الديـــرة ، وقد يدعو الالتفات فى هذا المقام الى بعض الآثار الاندلسية ، التى آلت فيما بعد الى مكتبة أكاديمية التاريخ الملكية ، ومكتبة مدريـــد الوطنية ، وأعنى بهذا أن هناك كتبا أبقى عليهـــا للمصلحــــة الاسبانية نفسها ، وأخرى امتنعت على التفتيش الاسبانى، حتى نقلها معهم الاندلسيون المهاجرون الى المغرب الاقصى .

ومن أهم ما انتهى الى خزانة الاسكوريال، على يد فيليب الثالث ، مجموعة نفيسة ، ضمت ثلاثة آلاف سفر، وهيجموعة خزانة السلطان مولاي زيدان السعدي (1012 ــ 1037) ، التى شاء لها القـــدر أن تقع قسرا فى يـــد قرصان اسبانى ، فى قصة معروفة أشار اليها باختصار ، صاحب كتـــاب « الاستقصا » (ج : 3 ، ص : 129) وتفصيل ذلك ، أن هذا قد حدث عندمـــا قامت ثورة على السلطان ، وخشى أن تذهب الفتنة بمكنونات خزانة كتبه ، فآثر انقاذها بنقلها الى احدى موانىء الصحـــراء المغربية عن طريق ميناءآسفي ، ومنه شحنت سنة 1614 ، فى مركب استؤجر من صاحبه الفرنسى ، غير أن ظروف الاحداث المتوقعة أذهلت المكلفين عن اتمام صفقة الايجار بالاداء ، واذا بصاحب المركب ينشر شراعه للرياح ، ويلوي بمركبه الى عرض البحر محملا برزق ساقته الاقدار ، ولكنه سرعان ما اعترضه

أحد مراكب قراصنة الاسبان ، وساقه الى ساحله غنيمـــة باردة ، وعلى قرب الدار ،وأخيرا آلت شحنة الاذهان الى قصر فيليب الثالث ، ثم منه الى خزانة الاسكوريال ، وبذلك أصبح القسم العربى فيها يحتوي على نحو عشـــرة آلاف مــــن المخطوطات ، مغربيات ، سبيات ، وأندلسيات جلبن من الحواضر الاسلامية المذكورة التى فتشت خزائنها ، وسلب أهلهـــا المدجنون كل نفيس وغال ، من قبيل الروحيات ، وذكريات أيام السعد والاقبـــال .

ثم فى سنة 1671 ، أي قبل سفارة الغسانى بنحو عشرين سنة ، شب فى المكتبة ذلك الحريق المذهل الذي وصف آثـــاره الغسانى سفير المولى اسماعيل ، وبعده حدثنا السفير ابـــن عثمان فى رحلته الى اسبانيا (رحلة الاكسير) سنـــة 1779 ، فأفاد ــ حسبما سمعنا عنه منذ لحظات ــ ان عدة كتـــب المسلمين التى تحتوي عليها خزانة الاسكوريال ألف وثمانمائة سفـــر .

ويلاحظ هنا أن هذا الرقم الذي أفاد به السفير ، هو تقريبا نفس رقـــم المخطوطات العربية ،المسجلة فى فهرســت الاب الغزيري (مجلد : 2 ، ص : 352) الذي لم يتجـــاوز 1851 مخطوطا ومن بينها القطعة من قاموس ليون الافريقـــى (بالعربى والعبري واللاتينى) ، وهى التى أفادت بفقرات فى آخرها أن ليون الافريقى صاحب القاموس ، هو الوزان الفاسى، والمعروف أن المستشرق الفرنسى درنبوغ ، الذي جدد فهرست الاسكوريال ، قد استخرج من خرم خزانة الاسكوريال 104

مخطوطة أخرى ، حسبما نستفيده من مجلد فهرسته الذي بين يدينا الآن ، وبذلك فان محتويات خزانة الاسكوريال من الكتب المغربية والاندلسية تكون 1955 مخطوطا ، ومنها ما كتبت فيه صيغة التملك بخط مولاي زيدان نفسه ، ومن كتب خزانة مولاي زيدان بين هذه المجموعة « لباب المحصل لابن خلدون ، و « المباحث الشرقية » لفخر الدين الرازي ، والسفر الثانى من « نهاية الامل فى شرح الجمل » لابن مرزوق التلمسانى ، وتوجد بالخزانة الملكية بالرباط ، النسخة الكاملة ، وهى بجزئيها فى سفر واحد ، به بتر من أوله ، رقم : 1075 ، ومن الكتب الزيدانيةأيضا فى مجموعة الاسكوريال « جواهر العقدين فى فضل الشرفين » لنور الدين على أحمد الحسنى ، وتوجد أيضا من هذا المخطوط نسخة بالخزانة الملكية بالرباط ، تحت رقم : 3532 .

وبعض مخطوطات خزانة مولاي زيدان ، يجدها زائر مكتبة دير الاسكوريال مصورة معروضة بالقاعة ، ومن بينها مصحف والده السلطان المنصور الذهبى رحمه الله .

وهنا ينشأ فى النفس سؤال ملح ، حول ما اذا كان قد اتجه نظر مولاي اسماعيل ، ثم حفيده المولى محمد بن عبد الله ، الى مجموعة السلطان السعدي زيدان ، حين تعلقت هتهما بتحرير كتب الاسلام من خزائن الاسبان ، ويزيد فى الحاح السؤال أن المستشرق الفرنسى الاستاذ هنري بريس ، يرى (اسبانيا فى نظر الرحالة المسلمين من سنة 1610 الى سنة 1930) أن الغسانى سفير المولى اسماعيل ، الذي أشار فى رحلته الى أن معظم خزانة كتب الاسكوريال ، جلب من اشبيلية وقرطبة ،

يدل بوضوح على أن السفير لم يكن على علم بحكاية مكتبة مولاي زيدان .

والواقع أن ذكر قرطبة واشبيلية فى كلام السفير ، هو من نوع ما جاء فى كتاب المولى اسماعيل الى كرلوس الثانى ، الذي نص على هاتين الحاضرتين ، وعطف عليهما غرناطة وما والاها من المدن والقرى ، وفى أثناء كتابه صاغ أيضا مطلبه فى عموم عبارة كتب الاسلام ، وهو تعبير مقصود — فيما يظهر — لئلا يظل مطلبه محصورا فى فهم الاسبان على المجموعة المغربية، دون سواها ، فيسهل الجواب على الاسبان بأن حريق الكنيسة قد أتى على ذلك المراد المقصود بالذات ، وكفى اللهالمومنين القتال ، وليس من شك فى أن البلاط العلوي الذي ظل متعلقا باسترداد هذه الكتب ، قد كان يريد أن يصل الى اليقين فى مصيرها فى الحريق قبل أن يعين فى مطلبه ما يعين ، وأحسب أن تلك الفترة الطويلة التى قضاها السفير ابن عثمان فى خزانة الاسكوريال ، متصفحا ، ومراجعا ، ومعنيا بالتعداد على غير المعهود فى مثل هذه الزيارات ، حتى بلغ خبرها الملك كرلوس ، لتنم على أنه كان بسبيل البحث عن معالم مغربية الكتب ، والظفر بما يكتب عادة على ظهرها من اسماء المتعاقبين على ملكها ، أو سماعات رواتها ، وما أشبه هذا ، مما يخرج بالسفير من الشك الى اليقين فى هويتها ، وواضح أن السفير لم تواته الصدفة بمراده ، كما واتتنا نحن أهل العصر الحديث ، والمؤكد أنه لو وقع على شىء من هذه الامارات ، لسجله فى رحلته ، وهذا يفيد من جهة أخرى أن المجموعة

العربية بمكتبة الاسكوريال لم يكن قوامها مجموعة خزانة مولاي زيدان فقط ، بل أن الحريق قد عفى على مجموعة من هنا وهناك ، وعفا عن مجموعة أخرى من مخطوطات المولى زيدان ، ومن المخطوطات الاخرى التى انتهت اليها خزائن حواضر الاندلس الاسلامية على ذلك الوجه الذي عرفناه .

وهكذا ، وبهذه الهمة الثقافية ، والروح الفكرية، ظل الشعور عند الملكين المجاهدين العالمين ، موقدا من وراء أجيال وأجيال ، تجاه فداحة النكبة العلمية التى حلت بالمسلمين الاندلسيين ، بأثر فاجعة الجلاء .

ان تعلق همتهما باسترداد ما ضاع ، ليوازي أعظم الفتوح فى رسالة تهذيب النفوس ، والعمل لصالح الشعوب ولامراء .

وتتوالى صحائف التاريخ لتعرض علينا مظاهر هذه العناية بالمعرفة وآثارها عند الاحفاد والاخلاف ، واذا هو تقليد مرعى ، ووليد غريزة تتسع معالمها فى صفحات سيرهم ، وتنطبع آثارها على سير الحركات العلمية فى عهودهم ، وان المثل الفريد الذي سطر فى هذه الصفحات ليسد مسد التعداد ، ويغنى عن كل عرض أو تفصيل فى هذا الباب ،وقد عرفت تراتيب البلاط الملكى فى المغرب ، واتصل ذلك الى ما قبل عهد الحماية ، ما كان يطلق عليه (بنيقة) النساخ ، وليس المراد بها ديوان كتاب انشاء الدواوين المتعارف فى أنظمة الاندلس والمغرب على السواء ، وانما هو ديوان خاص لنسخ كتب العلم وتخريجها للنفع العام ، ولا شأن له بالمكاتبات الديوانية ،

الراجعة الى شؤون الحكم والسلطان ، ومن تراتيب البلاط ، ان هذه الهيئة من الكتاب والنساخ ، مرتبة فى حاشية السلطـان ، التـى تـلازم ركابه فى الحضر والسفر ، وذلك حرصـا على استنسـاخ ما انفردت بـه الاقاليم من كنوز المخطوطـات ، ولتسجيل محاورات مجلس علماء الركب الملكى ، ومساجلات أهل الادب ، والبلاغة ، والانشاء فى هذه الجولات .

وشاءت الاقدار أن يشـارف ركـب الحمايـة الاجنبيـة بجحافله ومعداته ، أبواب هذه البلاد ، فكان المصباح على العهد الحفيظى ، يزهر مرة وينطفىء أخرى ، أمام هبات بلبلـة الاحوال ، واعصار النذير ، بمبادرات التدخل الاجنبى فى مصير البلاد ، وبين أكوام القواطع والعوارض ، التى تضجع فى السير ، كانت عجلة المطبعة تسير سيرها على موفور اطمئنان ، وكأن متاعب صاحب الامر ، انما هى كابوس عابر ، وأضغاث أحلام ، فصدرت عنها نفائس مطبوعات ، ما زالت حتى اليوم مهـوى أفئدة طلاب العلم ، وقنية المثقفين من سائر البلدان .

وها نحن ، وقد بعثنا على ظهرها ، وكأن كل ما جرى وكان، انما هو حلم عابر ، كما كانت تتراءاه المطبعة التى أصبحت فى عهدنا تقهقه قهقهة الظافر الجذلان ، فلقد كانت حالنا نحن الذين عاصرنا عهد المقدس فقيد العروبة والاسلام ، جلالة محمـد الخامس رضى الله عنه ، وكأننا من ورائه وبيديه الكريمتين آلة تصوير ، تقرب لابصارنا المنظر البعيد لمشاهد دنيا العلم ، وآيات تطوراته فى العصر الحديث ، وما يتراءاه فيه لتجديد

بلده وبيئته ، ولكن الحامين المستعمرين دأبوا على اعتقادهـم أن ليس من حظ مداركنا غير النظر من بعيد ، والكفاف كـل الكفاف فيما ينفحوننا به بالصبابـة ، ونلعقـه بالحسـاب وبالمقياس ، فالشبع والري ليس مما برأ الله له استعدادات أهل هذه الاوطان ، وطبيعة بنية هذه الاجسام .

ولكن شعبه المتحفز من ورائه ، كان مومنا بالفتح المبـين على يده ، ففي معترك نضاله أنشأ له صروح المعرفة ، وزود البلاد بمرافق المجتمع المتحضر فى الحاضـرة وفى البادية ، وفسح له ، بطرائقه فى تنشئة ولي عهده ، سبيل الاقتـداء ، والسير وراءه على ذلك المنهاج ، ولقد شهدنا نحن المعاصرين ، سياسته الحكيمة ، وهي تتدرج فى ذلك المعترك من الحـوار الذكى ، الى الصراع العنيف ، الى مجابهة الالتحام الذي كان يعرف مبدأه ، ولا يخشى عواقب منتهاه ، الى أن كانت معجزته الكبرى بالخروج عن دنيا ملكه ، فى سبيل مطلب تحرير شعبه ، واستقـلال بـلاده .

وهكذا أتيح لمعاصري ملكهم المجاهد ، وولي عهده النابغ، الذي شاركه السراء والضراء ، وانتصب فى معمعة النضال بعدة المعرفة ، وخبرة ممارسة الكفاح ، أن يشهدوا على يد ذلك الاسد وشبله ، ميلاد استقلال البلاد ، وانبثاق حركة التحرر الافريقى، من فيوض القدوة بذلك الكفاح المرير ، وهى التى أضـاءت الطريـق للمقتدين ، وركزت الصوى ، والمعالم للسائرين على الهدى من أهل افريقيتنا الاقربين والابعدين .

وما من شك فى أن المآثر والاعمال على جبهات تخليص الاوطان ، أو فى ساحة تحرير العقول ، وتنوير الاذهان ، وأن اختلفت مظاهرها باختلاف أجيال المولى اسماعيل ، ومن آتاه الله الملك قبله وبعده من هؤلاء الشرفاء العلويين ، وتغيرت الى ذلك المفاهيم ، بين مختلف الحقب وفترات التاريخ ، وتجلت على هذا الوجه ، الذي نشهده ، وتقتضيه مطالب كل وطن ، وتهفو اليه أفئدة الطامحين ، فان الباعث عليها فى مجرى تاريخهم ، وطابع مآثر سيرهم ، انما هو أصالة الجذم الذي انبعثت عنه ، وخلوص الارومة التى تمخضت عنها ، واذا كانت مثيلاتها مما ذكر به فى الاقدمين ملك عظيم ، أو فاتح خطير ، فانها بفراهتها وسماتها العلوية ، مما لم يعقد مثله فى تراجم القدماء والمحدثين .

وهكذا شاء لنا حسن الطالع ، أن يتربع على عرش المملكة ، ذلك الذي عرفنا فيه سر أبيه ، وأطلت علينا من مقوماته العلمية ، ارهاصات دخولنا على يده الى بحبوحة واقع الصورة التى كنا نرنو اليها من بعيد ، وقام اليقين مقام الفراسة فى عهد الحسن المنيف، فدخل بنا عالم العصر الحديث ، من بابه الواسع العريض ، وسرعان ما شهدنا مجتمعنا يحول تحويلا الى مجتمع علمى شامل ، وعاينا قاعدة السياسة الوطنية تؤسس بكاملها على مفهوم العلم فى العصر الحديث ، والتخطيط والتنفيذ جاريان مجراهما فى السياسة العلمية لمواكبة عالم يكاد يكون كل ما فيه خاضعا لما اكتشف من حقائق العلوم فى النظر وفى التطبيق .

واذا كانت الجامعة بفروعها ، وهى من أيسر منجزاته ، قوامة على شحذ الاذهان ،واعداد القوى الانسانية للمشاركة العملية فى دولية وعالمية العلم ، فقد ربأ بها عن أن تكون تحت سطوة المادية العلمية ، وهى التى تتصاعد بطبيعتها الى حد الطغيان ، والتأثير حتى فى نفس وعقلية الانسان ، فقد انتصب لها ملكنا بعقليته الواعية ، فتشبث بالتاريخية ، وأقام سوقا نافقة للعلوم الانسانية ، والمعارف الشرعية ، التى تؤمن الخلقية فى الاقوال ، والاعمال ، وممارسة الواجبات ، وتلوى بالمادية الى أنسية الدين ، التى تفىء بنفس الانسان الى الاطمئنان ، وتشيع فى المجتمعات الهناء .

وانه ليمتنع على الملاحظ أو المستقرىء ، سبيل الاحصاء والتعداد ، فمبلغ القول فى هذا أن جلالته يمارس موازنة بين تراث الحضارة الانسانية ، وبين التراث القومى ، ويستروح من المزاوجة بينهما ، التخطيط والمنهاج ، وقد أشرع باب خزانته الملكية الخاصة ، أمام الباحثين ، والعلماء ، وهى فى أصلها خزانة تراث ، فلم تكن منه غير لفتة علوية ، تركز شعار ذلك المنهاج على باب قصره بالذات ، وتوحى بأن التراث القومى لبنة الاساس فى اقامة صرح العلم بهذه البلاد ، وهى هداية من لم يقف عند حد الادراك ، والتصميم ، والتنجيز ، وانما يجمع بين ذلك وبين الارشاد بالقول والتقرير ، وان مجموعة خطب هدايته المسموعة والمقروءة ، لتؤلف بحق ، كتاب هداية الجيل ، الذي يمتنع على كل باطل أو تحريف يأتيه من قريب أو بعيد .

وهكذا تعادلت الحسنيات فى كل ميدان ، وأشعت على كل حاضر وباد ، وأخذت طابع المعجزة والتحدي ، وتبرجت بملامح الموروث ، وقسمات الموهوب ، وروح الشباب المشبوب .

وحقيق بمن جاء بمعجزة العصر ، وسار بشعبه فى مسيرة خضراء ، فحرر ، ووحد ، وأعطى درسا فى ممارسة السلم ،حين تكشف الحرب عن ساق ، ويهدر نفيرها بتسيير معدات الحديد والنار ، لاراقة الدماء ، أن يسير بشعبه نحو مراقى العز والمنعة، وحياة الرغــد والهنــاء .

الربـــــاط **عبد الرحمن الفاسى**

من ذيول معركة "وادي المخازن"

أمير سعدي
في خدمة البلاط الإسباني
(القسم الثاني)

محمد العربي الخطابي

قضى الامير مولاي الشيخ فى البرتغال مدة تنيف عن عشرة أعوام (ديسمبر 1578 – يناير 1589) ، وكان عمره حينما حل بلشبونة اثنى عشر عاما وغادرها وهو فى الثالثة والعشرين . ومنها رحل الى كرمونا حيث مكث الى أواخر 1592 أو أوائل 1593 ثم ذهب الى أندوخر (Andujar) .

وليس فى مستطاعنا أن نقدم عن مقام مولاي الشيخ فى البرتغال وفى كرمونا (اسبانيا) سوى معلومات قليلة مستقاة من رسائل ضون كريستوبال دي مورا (Don Cristobal de Moura) والدوكى دي ألبا (Don Cristobal de Alba) الموجهة الى ملك اسبانيا ضون فيليب الثانى .



بعد معركة القصر الكبير مكث مولاي الشيـخ بمازكـان (البريجة) الى أواخر ديسمبر 1578 برفقة عمه مولاي نصر . وفى هذه الاثناء شاع أن السلطان أحمد المنصور أخذ يتأهـب للهجوم على مازكان ، وراجت أخبار مفادها أن السلطان الجديد يبدي تصلبا فى قضية افتداء أسرى المعركة ويرفـض التفاوض فى شأنهم ما لم يعمل الجانب البرتغالى على تسليم الاميريـن مولاي الشيخ ومولاى نصر . وكان أحمد المنصور مهتما بتدعيم الامن الداخلى فى مملكته وكان يخشى قيام أحد الاميرين بثورة ضده ، لذلك فانه أوفد ، بعد ثمانية أيام من نهاية معركة وادي المخازن ، مبعوثا من قبله الى أصيلا هو بلشيور دو أمـارال (Belchior do Amaral) ليطلب تسليم كل من مولاي الشيخ ومولاي نصر . . (*)

الا أن البرتغاليين كانوا يرون من واجبهم حماية الاميرين. واذا كان حاكم أصيلا بيرو دا مسكيتا (Pero da Mezquita) قد أمر بحبس مولاي نصر فى قصبة المدينة فانه لم يفعل ذلك الا ليطمئن السلطان السعدي . بيد أن أحمد المنصور لم يهدأ فكلف برتغاليا اسمه انطونيو دى مورا طيبيس (Antonio de Moura Telles) باغتيال مولاي نصر نصر مقابل 5000 كروزادوس تسلمها فى الحين على أن يتقاضى 30.000 كروزادوس بعـد تنفيذ القتل . غير أن هذا البرتغالى أحس بالندم حين وصولـه

(*) آثرت أن احتفظ باسم هذا الامير كما ورد فى المصادر الاسبانية التى اعتمدت عليها ، مع أن أن المصادر العربية تسميه مولاي ناصر .

الى مازكان حيث تم نقل مولاي نصر فلم ينفذ ما كلفه بـــه السلطان وأعاد اليه ما قبضه من مال .

وفى شهر ديسمبر من نفس العام قرر البرتغاليون نقـــل أسرة محمد المتوكل الى لشبونة ، وربما فعلوا ذلك بطلب مـــن الاميرين اللذين كانا يحسان بانعدام الامان فى بلاد لا يرجوان فيها عفو السلطان ولا يقدران على القيام بثورة ضده .

كان القائد عبد الكريم ابن تودة أول من وصل الى لشبونة، وبرفقته سيدي حمو بن حميدة . هذا ما يستخلص من رسالة بعث بها الى العاهل الاسبانى ضون فيليب الثانى عميله النشيط فى البرتغال .

أما مولاي الشيخ فقد وصل الى لشبونة فى اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر 1578 قادما من مازكان بصحبـــة حاكمها مارتين كوريا دي سيلبا (M.C. di Silva) الذي عهد اليه العاهل البرتغالى ضون انريكى (Don Enrique) بمرافقة الامير وحمايته . واستقر الامير المغربى فى بيت هـــذا الحاكم حيث وجد العزاء وحظى بعطف صاحب البيت وزوجته .

ولم يتأخر كريستوبال دي مورا فى اخبـــار العاهـــل الاسبانى بوصول مولاي الشيخ الى لشبونة وذلك فى رسالـــة بتاريخ 29 ديسمبر جاء فيها (حل بهذه المدينة أول أمس مارتين كوريا سيلبا ، حاكم مازكان ، الذ يقص اخبارا مفجعة عـــن الخسائر الذي أصابت (البرتغاليين) ، وقد وصل مصحوبا بأحد

أبناء الشريف (محمد المتوكل الذي مات) مع الملك (البرتغالى ضون سباستيان) . وقد جعلوا يخاطبونه هنا بصاحب السمو . وهو لم يتوجه الى الآن لمقابلة الملك (ضون انريكى) ، ولا يعرف الغرض من مجيئه هو والمغاربة الآخرين الموجودين هنا) (*)

وبعد مدة من الزمن غادر الامير مولاي الشيخ وصحبه والحاشية حاضرة لشبونة متوجهين الى بلدة (البلدي Alvaladi) حيث قضوا سنة 1879 معززين مكرمين يشملهم الملك ضون انريكى بصلاته المالية .

وفى منتصف السنة المذكورة أوفد الملك ضون فيليب الثانى الى البلاط المغربى مبعوثين هما : ضون بيدرو بنيغاس دي قرطبة ، حاكم مدينة مليلية ــ الذي كانت له معرفة كبيرة بالمغرب ــ والراهب ديغو مارين ، وهو من أصل موريسكى يتقن اللغة العربية ويتمتع بثقة العاهل الاسبانى . وحمل المبعوثان معهما هدية سنية من ضون فيليب الى سلطان المغرب . والهدية ــ كما قيل ــ عبارة عن ياقوتة فى حجم الكف ، وزمردة كالتفاحة ، وعقد منظوم من الياقوت و 120 أوقية من اللؤلؤ أصغر حباته فى حجم الجوزة .

وقد حظى السفير الاسبانى ورفيقه بحفاوة واكرام بالغين من قبل السلطان المنصور على عكس ما لقيه السفيرين البرتغالى

(*) الرسائل التي أوردها المؤلف مكتوبة باللغة الاسبانية القديمة ، وقد تصرفنا بعض الشيء فى ترجمتها ليسهل على القارىء فهمها .

فرنثيسكو دا كوستا (Francisco da Costa) والانجليزي ادموند هوكان (Edmond Hozar) من استقبال فاتر .

مات ضون انريكي ، ملك البرتغال ، في 31 يناير 1580 ، فنهض أنصار المطالب بالعرش ، ضون انطونيو ، وجعلوا ينظمون صفوفهم . وكان ضون انطونيو هذا ، من قبل، أسيرا في القصر الكبير، وربما كان قد خطر لهأن يستميل الاميرين مولاي الشيخ ومولاي نصر الى قضيته . وقد اتصل بهما في (شنترين) حيث كان معسكره . ولم يلبث الملك ضون فيليب الثاني أن علم بالامر عن طريق عميله (مورا) المذكور الذي بعث اليه برسالة مؤرخة في اليوم السادس عشر من فبراير 1580 يقول فيها : « ان المغاربة الذين تسأل جلالتكم عنهم ما زالوا حيث كانوا في شنترين . . . ان لديهم أخبارا تقول بأن الشريف (عبد الملك) قد مات بالحبن (الاستسقاء) وأن أتراكا قد خرجوا من الجزائر عائدين الى فاس ومعهم مولاي اسماعيل أحد أبناء السلطان ، فاذا ما انضم هذا الامير الى المغربيين الموجودين هنا (مولاي نصر ومولاي الشيخ) فانهم سوف يتمكنوا من تأليف جماعة مفيدة » . ويتضح من هذه الرسالة أن (مورا) قد تنبه ، كما فعل ضون فيليب ، الى أن الشخصيتين المغربيتين يمكن أن يفيدا سياسة اسبانيا في المغرب .

في 18 يوليو 1580 بويع ضون انطونيو في شنترين ونودي به ملكا على البرتغال فأسرع متوجها الى لشبونة، الا أن ملكه لم يدم أكثر من شهر ونيف اذ هزمه (الدوكى دي آلبا) قائد الجيش الملكى الاسباني الذي دخل الحاضرة لشبونة منتصرا يوم 25

أغسطس من نفس السنة ، ومنها كتب الى عاهله رسالة يقـول فيها : « ان المغربيين ابنى أخ الشريف (أحمد المنصور) ، اللذين كانا برفقة ضون انطونيو بعثا الى برسالة باللغة العربية ، وقد ترجمها لى (ديغو مارين) ، وهما يعربان فيها عن رغبتهما فى أن يدخلا فى خدمة جلالتكم وأن يمثلا لديكم لتقديم طاعتهما . وقد بعثت لهما جوابا أطلب فيه منهما أن يسارعا بالقدوم مؤكدا أن جلالتكم سوف تستقبلهما وتأمر أن يعاملا بالحسنى » .

وتلقى العاهل الاسبانى هذا النبأ بارتياح فكتب على الفور، وهو فى باداخوس ، رسالة الى الدوكى دي ألبا يقول فيـها : « علمت أن المغربيين اللذين كانا فى ركاب ضون انطونيو يطلبان الدخول فى خدمتى ، وقد أحسنت صنعا بقبول طلبهما ، وانـه من الخير ابقاؤهما راضيين ، ذلك أن وجودهما بين ايدينا سيكون، كما سبق أن أبلغتك ، خير أداة للضغط على الشريف (سلطان المغرب) سواء فى موضوع العرائش أو أية مسألة أخرى يمكـن أن نطلبها منـه . . . »

وفى 11 شتمبر نودي بضون فيليب الثانى ملكا علـى البرتغال ، وقد استمر الدوكى دي ألبا فى تزويده بأخبار الاميرين المغربيين وبأحوالهما ، لا سيما المادية منها

وفى اليوم الثانى من شهر يونيه 1581 حل الملك ضـون فيليب الثانى بلشبونة حيث استقبل استقبالا حافلا . وأثنـاء مقامه بها استقبل مولاي الشيخ ومولاي نصر فى القصر الملكى،

ويخبرنا بيدرو بلاسكو (Pedro Velasco) ، قائد حـرس الملك الاسباني ، أن الاميرين السعديين طلبا من فليب الثاني أن يمدهما برجال ومال لكي يتمكنا من استعادة مملكة المغرب . وأكد مولاي الشيخ للعاهل الاسباني أن أنصار أبيه سوف يهبون لمؤازرته بمجرد ما تطأ قدماه أرض المغرب . الا أن العاهـل الاسباني لم يكن من رأيه في ذلك الحين أن يسمح لمولاي الشيخ بالاقدام على عمل كهذا بل كان في نيته الاحتفاظ بالاميريـن واغرائهما بالوعود ليتأتى له الاستفادة منهما في الوقت المناسب لصالح بـلاده .

ويبدو أن العاهل الاسباني قد تأخر بعض الشيء فـي استخدام الاميرين وسيلة للضغط وحرب الاعصاب . ذلك أن العلاقات بين المغرب واسبانيا كانت ودية وظلت على هذه الحال من سنة 1581 الى 1588 .

ففي سنة 1581 أبرمت بين العاهلين المغربي والاسبانـي معاهدة سلم لمدة عشرين عاما تعهد فيها الجانب الاسبانـي بمساعدة المغرب عسكريا ضد أي هجوم عثماني محتـمـل ، وتعهد المنصور بتسليم العرائش للاسبان ، الا أن السلطـان السعدي نقض ما تعهد به حينما علم أن علوج علي ـ الذي كان يعد العدة للهجوم على المغرب انطلاقا من الجزائر ـ قد عـدل عن خطـتـه .

وفي سنة 1583 وقعت مفاوضات أخرى بين أحمد المنصور والاسبان وذلك حينما كان السلطان السعدي يخشى أن يهاجم

الاتراك بلاده اذا ما تحرك الاسطول الاسباني فى اتجاه العرائش، وكان من رأي اسبانيا أن توجه سفنها نحو الجزائر . وكانت المفاوضات المذكورة ترمى الى ابرام حلف مع اسبانيا يلتزم فيه الطرفان بالتعاون العسكري فى حالة هجوم على ثغر العرائش . وما أن علم المنصور السعدي بابتعاد الخطر التركى حتى تراجع عما كان ينوي ابرامه مع الاسبان ، الا أن هذا الموقف لم يكن ليتسبب فى القطيعة بين المغرب واسبانيا ، اذ سرعان ما يبادر السلطان الى تقديم الاعذار مع الوعود الزائفة والمبادرات الودية ، فيتقبل العاهل الاسبانى ذلك بحذر وهو يعلم أن المنصور يواجه السياسة الاسبانية والتركية بالحيلة كى يتمكن من الحفاظ على تمام أراضى ملكته . ورغم ذلك فان العاهل الاسبانى لم يفقد الامل فى حيازة العرائش مع أنه كان يخشى من أن يتقرب المنصور من الاتراك العثمانيين ، ولذلك بقى حريصا على أن تظل الروابط موصولة بينه وبين السلطان .

هذا وكانت اسبانيا تعلق أهمية كبرى على حيازة ثغر العرائش لتجعل منه قاعدة ترتكز عليها لقمع قراصنة البحر من مختلف الجنسيات الذين كانوا ينطلقون من الشواطىء المغربية الاطلسية لمهاجمة السفن الاسبانية القادمة من بلاد الهند الشرقية والغربية محملة بالفضة والذهب والتوابل والسكر

❋

فى سنة 1588 بدأت تلوح بعض بوادر التوتر بين سلطان المغرب وملك البرتغال . ذلك أن أعداء فليب الثانى من

البرتغاليين اللاجئين فى انجلترا أخذوا يبذلون مساعيهم لعقد تحالف مع السلطان السعدي ضد فليب الثانى . وكانت العداوة مستحكمة بين الانجليز أنفسهم والاسبان . وفى هذه الاثناء ظهر للعاهل الاسبانى أن الوقت قد حان لاستخدام كل من مولاي الشيخ ومولاي نصر فى محاولة لعرقلة خطط الملكة اليسابيت الانجليزية والامير البرتغالى ضون انطونيو بريور دي كراتو الذى ما فتىء ، منذ سنة 1586 يبذل المساعى للحصول على تأييد السلطان السعدي له فى محاولته استرجاع عرش البرتغال . وكان لهذا الامير عميل فى البلاط السلطانى اسمه ماتياس بيكودو (Matias Becudo) . وفى سنة 1588 كان السلطان المنصور يكاتب ضون انطونيو والملكة اليسابيت الانجليزية فى موضوع الامير البرتغالى . ويبدو أن المحادثات فى هذا الشأن كانت تسير فى طريق حسن فى الشهرين الاولين من السنة المذكورة ، وقد اشترك فيها السفير الانجليزي هنري روبرتس (Henry Roberts) الذى وعده المنصور بأن يأذن له بالعودة الى لندن صحبة سفير مغربى يعهد اليه بالاتفاق على شكليات عقد يبرم بين السلطان وملكة انجلترا وأمير البرتغال . غير أن المنصور بقى يعمل على تأخير رحلة السفيرين وفى نيته أن يعرف قبل ذلك نتيجة الحملة التى كان العاهل الاسبانى يعتزم القيام بها ضد الجزر البريطانية .

وما أن تواردت على البلاط الملكى فى مراكش أخبار عن هزيمة الاسطول الاسبانى حتى هبت الجاليات البريطانية والهولندية والفرنسية الى تنظيم مظاهرة فرح أمام بيت

المبعوث الاسباني ديغو مارين ، فما كان من هذا الا أن خرج من بيته مهتاجا وطعن عددا من الاشخاص كانوا يشتمون اسبانيا .

وفى ذلك الحين صمم المنصور على متابعة مفاوضاته مع ضون انطونيو . وفى شهر أكتوبر 1588 بلغ الى علم السفارة الاسبانية فى باريس أن ضون انطونيو يعتزم ارسال ولده ضون كريستوبال الى المغر بليبقى ضمانة عند السلطان فى مقابل مبلغ كبير من المال وعد هذا الاخير بدفعه للامير ضون أنطونيو . واذن المنصور فى النهاية للسفير البريطانى هنري روبرتس بمغادرة المغرب الى لندن مصحوبا بالسفير المغربى فوصلا الى العاصمة البريطانية فى أوائل يناير 1589 حيثعرض هذا الاخير عزم السلطان على تقديم مساعدة قوامها الرجال والمال والمؤون مع السماح للسفن الانجليزية بالرسو فى المراسى المغربية فضلا عن مساهمة المغرب نفسه فى الحرب ضد اسبانيا وتموين الاسطول الانجليزي أثناء هجومه المرتقب على البرتغال ، وأداء مبلغ 150.000 دوكادوس نقدا للملكةاليسابيت.

وقبل وصول السفير المغربى الى لندن غادر انجلترا ضون كريستوبال ابن ضون انطونيو تنفيذا للاتفاق الذي أشرنا اليه.

وفى هذه الاثناء كان الاسطول البريطانى يتأهب لغزو البرتغال تحت قيادة دريك (Drake) ونوريس (Norris) وبدأ الاسطول تحركه نحو شبه الجزيرة فى أبريل 1589 ، وعند وصوله الى لشبونة رده الاسبانيون على أعقابه وألحقوا به خسائر كبيرة . وفى يونيو من نفس السنة عاد الاسطول الى

انجلترا ، وعزى الانجليزيون فشل حملتهم الى السلطان أحمد المنصور الذي أخلف الوعود التى قطعها على نفسه تجاههم فلم يدفع لهم المال الذي تعهد بدفعه كما أن الاسطول البريطانى لم يقترب من الساحل المغربى بعد أن أدرك الانجليز أن السلطان لم يكن على استعداد للوفاء بتعهداته ، ذلك أن الملك فليب الثانى لم يخلد للراحة أثناء تلك الشهور الاولى من سنة 1589 فقد كان على علم بالمناورات بين الانجليز والبرتغاليين والمغاربة، فأقدم على فتح سلسلة من المفاوضات مع أحمد المنصور وأخذ يحرك فى مفاوضاته هذه الاميرين مولاي الشيخ ومولاي نصر بادئا بنقلهما من البرتغال الى الاندلس قريبا من المغرب ليثير بصنيعه هذا قلق السلطان وخوفه من أن يتيح العاهل الاسبانى للاميرين السعديين حرية الحركة التى يطمحان اليها وأن يمدهما بالعون المادي فتنشب فى المغرب حرب أهلية .

وهكذا أمر فليب الثانى بنقل الاميرين الى الاندلس فى رسالة وجهها الى (الدوكى دي مدينسيدونيا) بتاريخ 21 مارس 1589 جاء فيها : « أما وقد راج القول بأن الانجليز يؤلبون على السلطان (أحمد) فان من الخير تقريب الاميرين المغربيين الموجودين فى لشبونة . . . فينبغى أن تخبرونى بعد حين بالمكان الذي يمكن أن يقيم فيه الاميران المذكوران على ألا يكون هذا المكان قريبا من البحر . . . ولا متوغلا فى الداخل ، واعملوا على أن يبقى العم وابن أخيه (مولاي نصر ومولاي الشيخ) فى مكانين مختلفين بحيث لا يكون بينهما اتصال » . وقد رد (الدوكى دي مدينسيدونيا) على رسالة عاهله بتاريخ 27 مارس

مقترحا توجيه أحد الاميرين الى أولتيرا (Ultera) والآخر الى كرمونا (Carmona) .

وسارت الامور بسرعة فنقل مولاي الشيخ الى اشبيلية فى اليوم التاسع عشر من مايو مصحوبا بحاشيته المؤلفة من ستة وخمسين فردا من بينهم ست نساء ، وقبل ذلك ، أو بعد ذلك بقليل ، وصل مولاي نصر الى اشبيلية برفقة حاشيته المؤلفة من سبعة وأربعين فردا . وعلى الفور نقل مولاي الشيخ الى كارمونا ومولاي نصر الى أولتيرا ، حسب الخطة المقررة . وعلى اثر ذلك بدأ فليب الثانى محادثاته مع السلطان السعدي فى أمر تسليم الاميرين ، وجعل يهدد بالسماح لهما بالعبور الى المغرب بحجة أن مجلس الدولة يرى « ان الاميرين ما داما قد رغبا طوعا واختيارا فى حماية صاحب الجلالة فانه لا مسوغ لاستبقائهما بالقوة » ـ كما جاء فى كتاب « تاريخ فليب الثانى » من تآليف كابريرا دي كوردوبا (Cabrera de Cordoba) وهذه المفاوضات لم تؤد الى النتيجة التى كان يطمح اليها السلطان أحمد الا أنها أسفرت عن ارضاء ما كان يرغب فيه العاهل الاسبانى . ذلك أن السلطان السعدي قد تملص من وعوده بخصوص الحملة الانجليزية على البرتغال من غير أن يفوز بما كان يطمع فيه من تسليم الاميرين له ، فبقيا فى اسبانيا بمثابة ضمانة ترغم السلطان على التفكير فى الخطر الذي يتهدده ان هو استمر فى معاداة الاسبان .

ثم ان الانجليز لم يتقاعسوا من جهتهم عـن طلـب ود السلطان واستمالته اليهم . ففى شهر شتمبر وفد على المغرب خوان كاردنياس المدعو سبيريانو (Juan Cardenas, Cipriano) ــ وهو من أصل أسبانى ــ مبعوثا من قبل الحكومة البريطانية ومكلفا بعقد حلف جديد بين المغرب وانجلترا ضد اسبانيا . وقد كان الفشل مآل هذا المبعوث اذ أن أحمد المنصور رفض استقباله كما رفض أن يسلم له الامير ضون كريستوبال البرتغالى ما لم يقم الاسطول البريطانى بحملة أخرى على البرتغال . والواقـع أن المنصور أخذ يتهرب فى تلك الاثناء من التعامل مـع الانجليز ويواصل مكاتبة فليب الثانى . وقد فسـر خوان دي كاردنياس موقف السلطان السعدي فى رسالة بعث بها الـى الوزير الانجليزي والسينغام (Walsingham) بتاريخ 8 أكتوبر 1589 يقول فيها بأن فشله فى مهمته يرجع الى تخـوف أحمد المنصور مما يمكن أن يقدم عليه العاهل الاسبانى مـن اثارة مولاي الشيخ ومولاي نصر ضده الامر الذى قد يؤدى الى خلعه . وهذا هو سبب امتناعه عن الوقوف الى جانـب الانجليز ولو أنه كان يتوق فى قرارة نفسه الى تألب الانجليـز علـى الاسبانيـين .

وفى هذه الاثناء استعاد المغاربة مدينة أصيلا ، وكان فليب الثانى قد أمر بالجلاء عنها فى الثالث عشر من سبتمبر 1589 ارضاء للسلطان واعتبارا للضغط الذي كان الانجليز يواصلـون ممارسته على أحمد المنصور طمعا فى أن يدفع للامير البرتغالى ضون أنطونيو المال الذي وعد بدفعـه ، وقدره 200.000

كروزادوس . وقد استمر السلطان فى مواجهة المحاولات الانجليزية بالمراغة والوعود الزائفة .

وفى يونيه 1590 ازدادت الامور تعقيدا ، ذلك أن الامير اسمعيل بن السلطان عبد الملك السعدي كان فى كفالة باشا الجزائر حسن البندقى ، عدو أحمد المنصور وزوج أرملة عبد الملك . وكان الخليفة العثمانى فى القسطنطينية متضايقا من كون أحمد المنصور لا يبعث اليه بالهدايا المعتادة التى كان يعتبرها بمثابة خراج مفروض على السلاطين الخاضعين للخلافة ، فاعتزم ، باتفاق مع الباشا حسن ، القيام بحملة على المغرب مستخدما فيها الامير اسمعيل بدعوى أنه صاحب الحق فى عرش المغرب خلفا لابيه عبد الملك . وأمام هذا الخطر سعى أحمد المنصور الى تعزيز روابطه بفليب الثانى لمواجهة العدو المشترك. وبدأت المفاوضات فعلا بين الدولتين وكان موضوعها فى هذه المرة امكان تسليم الامير البرتغالى ضون كريستوبال الى الاسبان . ولم يلبث الخليفة العثمانى من جهته أن طالب بتسليم هذا الامير له .

وحينما علم ضون انطونيو والملكة اليسابيت بهذا الخبر ارتاعا وأصابهما قلق شديد فبادرا الى مطالبة السلطان برد ضون كريستوبال واعادته الى انجلترا . الا أن أحمد المنصور كان يعمل بدهاء على تأخير البت فى قضية ضون كريستوبال — وكان السلطان منشغلا فى فتح السودان — ولم يأذن المنصور للامير البرتغالى بالعودة الى انجلترا الا فى منتصف سنة 1592 ،

وذلك حينما علم أن مبعوثا من قبل الخليفة العثمانى يوشك أن يصل الى مراكش ليطلب تسليم ضون كريستوبال ونقلـه الى القسطنطينية تنفيذا لرغبة الخليفة .

أما مولاي الشيخ ومولاي نصر فقد بقيا حيث كانا فـى كارمونا وأوتريرا ينتظران بفارغ الصبر أن تتاح لهما الفرصة لعبور البوغاز والالتحاق بأنصارهما . الا أن ضون فليب كـان يرى أن الوقت لم يحن بعد لمنحهما حرية التحـرك . على أن الاميرين لم يخلدا للراحة ، فقد كانت تتوافد عليهما من كرمونا ومن جهات أخرى فى الاندلس ، وفود مؤلفة من أحفاد العـرب المسلمين المنحدرين من أصلاب أولئك الذين كانوا يحكمـون اسبانيا من قبل . وكان القصد من هذه الزيارات عرض المظالم على الاميرين ، فضلا عن أنها كانت ولا شك مناسبة لحبك خطط التحرير والخلاص . ولذلك فان فليب الثانى ، الذي استشعـر الخطر الكامن من وراء تلك الزيارات ، فكر فى اعادة الاميرين الى البرتغال الا أنه تدبر الامر فراى أنه من الانسب أن يستقـر الامير مولاي الشيخ فى بلدة أندوخر Andujar حيث عاش منـذ سنة 1593 ، وفى هذا العام نفسـه اعتنـق الاميـر النصرانية وكان عمره سبعا وعشرين سنة . وهذا الحدث هـو الذي استلهم منه الشاعر الاسبانى لوبى دي بيكا مسرحيتـه التى أشرنا اليها فى القسم الاول من هذا المقال وعنوانها «مأساة الملك ضون سباستيان وتعميد أمير مراكش » ، وهو يرسـم فى الفصلين الثانى والثالث من هذه المسرحية قصة ردة الاميـر واعتناقه للديانة المسيحية كما يتعرض لسخط أفراد هاشيتـه

عليه بسبب ذلك ثم يتابع الامير فى حياته بأندوخر ومدريد وصلاته بالبلاط الملكى الاسبانى .

❋

رأيت أن أقف عند هذا الحد بعد أن لخصت أهم الاحداث التى وردت فى كتاب (خيمى اولبير أسين) ولها علاقة مباشرة بمعركة وادي المخازن وما أعقبها من نتائج لاسيما فى محيط العلاقات المغربية الاسبانية فى عهد المنصور الذهبى وفليب الثانى ملك اسبانيا والبرتغال ، مبرزا الدور الذي لعبه وجود مولاي الشيخ ومولاي ناصر فى قبضة الملك الاسبانى .

وقد رأيت أنه لا فائدة من سرد تفاصيل حياة مولاي الشيخ فى أندوخر ومدريد وميلانو ، بعد أن تنصر ودخل فى خدمة البلاط الاسبانى الى أن مات على نصرانيته — حسب الكتاب الذ اعتمدنا عليه — فى فيجيبانو القريبة من ميلانو سنة 1621 (❋) .

وبالرغم من الوثائق والمراجع العديدة التى استند اليها (خيمى أولبير أسين) لاخراج كتابه « حياة ضون فليب الافريقى » فانه من الطبيعى أن يتحصن كاتب غير متخصص فى التاريخ مثلى بشىء من الحذر والتحفظ ازاء الوقائع التى رواها مؤلف الكتاب المذكور ولخصناها للقارىء بأمانة .

❋) رغبة فى الايجاز تعمدت ان اترك لمناسبة اخرى تحليل مسرحية لوبى دي بيكا ومقارنة أحداثها بوقائع التاريخ المتصل بحياة الامير مولاي الشيخ . وقد رايت ان هذه المسرحية تستحق دراسة منفصلة.

ومهما يكن من أمر فاننا نرى أن هذا الكتاب وما يحويه من مراجع ووثائق يمكن أن يعين الباحث المغربى على استجـــلاء كثير من الغوامض التى تحيط بالتاريخ السعدي ، وبمعركـة وادي المخازن وما لازمها وتلاها من أحداث تتصل بعلاقـــات المغرب الدولية وسياسته ومواقفه تجاه اسبانيا والبرتغـــال وانجلترا وتركيا العثمانية دون اهمال للعوامل الداخلية التـــى كانت تدفع بالمنصور الى اتخاذ هذا الموقف أو ذاك . والـــذي يدعو الى مواصلة البحث فى هذا الموضوع قصور المراجـــع المغربية المتداولة والمعروفة ، وضآلة المعلومات التى تقدمها عن العصر السعدي ورجاله وأحداثه ، ولا أدل على ذلك من سكوت هذه المراجع تقريبا عن ذكر مولاي الشيخ بن محمد المتوكل مع أنه كان حاضرا كما يبدو فى ساحة الصراع الذي طبع علاقـــات المغرب واسبانيا والبرتغال وكان يتحرك أو يحركه آخرون فى رقعة الشطرنج السياسية . هذا الى جانب أسئلة كثيرة أخرى تفرض نفسها بالحاح حول تصرفات محمد المتوكل وعبد الملـــك وأحمد المنصور وأطماع الخلافة العثمانية فى المغرب وتحريكها لمولاي اسمعيل السعدي لتهديد المنصور والضغط عليه ثـــم موقف الشعب المغربى من كل ذلك . مثلا : هل كان المنصور السعدي يعتزم حقا التنازل للاسبان عن ثغر العرائش ، وهـــل كان ينوي تسليم ضون كريستوبال الى الاسبان رغم تعهداتـــه للانجليز ولانصار ضون انطونيو ؟ هل كان المنصور يتخوف حقا من وجود مولاي الشيخ ومولاي ناصر فى قبضة فليب الثانى ومولاي اسمعيل تحت رعاية العثمانيين ؟ وهل كانت ميولـــه

الحقيقية متجهة نحو الاسبان أم الانجليز أم أنها مجرد مناورات كان يرمى من ورائها الى كسب الوقت لحماية عرشه وتدعيم حكمه فيبرم العقود ثم ينقضها ويقطع العهود ثم يخلفها من باب الدهاء الذي تفرضه حماية المصالح ويبرره الظرف التاريخى الذي عاش فيه ؟

أسئلة كثيرة تتطلب الجواب بعد تمحيص الوثائق - المغربية والاجنبية منها - وتحليلها ومقارنتها لاستخلاص معلومات موثوقة تسلط الاضواء الكاشفة على العصر السعدي وتخرجه من ظلال الروايات الرسمية للتاريخ والاحداث، وهى روايات نعلم أنها ناقصة ومتحفظة ، كما نعلم أن محفوظات الوثائق المغربية والاجنبية لم ينفض عنها الغبار بعد بالشكل الذي يجلوها ويمهد السبل للافادة منها ، وهى وثائق ما يزال معظمها مبعثرا أو مجهولا أو غير مدروس بما فيه الكفاية .

الرباط **محمد العربى الخطابى**

التواصل بالترجمة
وصعوبة نقل النصوص الأدبية*

د. عباس الجراري

من البديهي أن معرفة لغة ما ، تتيح ـ أفضل مما تتيح الترجمة ـ امكان الاطلاع على أدب هذه اللغة والتسرب الى روحها والتعرف على عقلية الناطقين بها .

---

*) انعقد في بلغراد من 17 الى 23 اكتوبر 1978 لقاء دولي للكتاب ، دار حول « قدرة الادب المعاصر على التواصل » . وقد تناول الدارسون ـ انطلاقا من الموضوع الرئيسي ـ موضوعات متفرعة عنه ، هي :
1 ـ امكان تطبيق النظريات الاعلامية المعاصرة في نقل الاعمال الادبية
2 ـ التواصل بين الآداب المنتمية لمجالات لسانية مختلفة .
3 ـ المشاكل المتعلقة بالترجمة باعتبارها اهم وسيلة في التواصل بين آداب اللغات المتباينة .
وبايفاد من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، شارك كاتبه في هذا اللقاء . والقى في الموضوع الاخير عرضا بالفرنسية ، هذه ترجمته

ومع ذلك ، فانه لا مناص من اللجوء الى الترجمة ، لانه بات من الصعب أن يتم الاتصال المباشر بكل الآداب الاجنبية فى لغاتها الاصلية ، ان لم يكن ذلك من قبيل المستحيل ، اذ لا يعقل ، بل لا يتصور اجبار أية عبقرية على تعلم جميع اللغات ، مهما كانت درجة تفوق هذه العبقرية .

كذلك تفرض الترجمة نفسها حين يتعلق الامر بدراسة العلاقات التى تربط بين مختلف الآداب ، وبمعرفة تاريخ الحضارات والثقافات التى تحيلنا عليها هذه الآداب .

يضاف الى ذلك أن الترجمة تعد السند الاساسى الذي اعتمد عليه الادب المقارن منذ نشأته وما زال ، باعتبارها الوسيلة العملية لاحداث التواصل بين الآداب .

وحتى بالنسبة للذين لا يهتمون بهذا النوع من الدراسات ، فقد أصبح ضروريا ، فى مجال الثقافة الواسع ، فتح آفاق جديدة على المجتمعات البشرية المختلفة وما تبدع من انتاج .

❋

وعلى الرغم من شيوع الترجمة وسعة انتشارها ، فان الغموض يكتنف بعض جوانبها ، مما يجعلنا ، رغبة فى توضيح مفهومها ، لا نتردد فى طرح السؤال : ما هى الترجمة ؟

والجواب أنها ، ليست كما قد يظن الكثيرون ، مجرد البحث عن معادل معجمى للكلمات التى تشكل نصا ما ، وان كان

هذا البحث يقتضى معرفة بالمدلولات المتعددة لتلك الكلمات ، ولكنها العلم الذي يتيح فرصة تكوين معطيات بيانية واضحة تعبر بدقة عن نفس المدلول الذي تطرحه المعطيات المقابلة فى لغة أخرى .

ومع أن الترجمة فى مبادئها الشكلية ومعاييرها الخارجية تبدو وكأنها تدخل فى نطاق اللسانيات ، فانها فى العمق تقتضى مهارة ذهنية فنية ، وتتطلب احساسا ذاتيا بالامكانات الاسلوبية فى كلتا اللغتين .

وهذه حقيقة تجعل من الترجمة علما وفنا فى نفس الآن ، علما بالنظر الى جانبها اللسانى ، وفنا بالنظر الى ما وراء هذا الجانب . ذلك لانها اذا كانت فى مفهومها البسيط تعنى انتقال مدلول نص مكتوب بلغة ما الى لغة أخرى ، فانها تحتم علينا أن نربط النص ، من حيث هو علامات ورموز لسانية ، بكل المضمون الذي يكونه ، والسياق المتكامل الذي يتعلق به ، سواء فيما يتصل بالعمل ومؤلفه وعصره ، أو بمختلف الاشارات الجغرافية والتاريخية ، والقرائن الثقافية والاجتماعية .

كما أنها تحتم علينا أن ننظر الى المعنى ، باعتباره فى مرحلة أولى يمثل مدلول التركيب الصياغى الجزئى أو المقطعى ، دون أن ننسى مدلول الكلمات التى تشكله من حيث هى مفردات . وان هذا المعنى ليستتبع ضمنيا مجموع العلاقات المعقدة والمنوعة التى يقيمها التركيب مع التركيبات الاخرى فى النص ، ومع كل الاطار البنيوي والثقاف الذي يحيط به .

ان اللغة فى واقعها ليست سوى مجموعة من المركبات والحقائق المربوطة فيما بينها بسياق معقد . فهى تمثل جملة كلمات تدل على تجارب وتصورات عند الناطقين بها . وهذا واقع ينتج عنه فى أحيان غير قليلة عدم امكان التعبير فى لغتين عن نفس التجارب والتصورات ، لان اللغات ليست نسخا حرفيا لحقيقة انسانية واحدة ، ولكنها ـ وأعنى كل واحدة منها ـ توازي تنظيما خاصا لمعطيات التجربة البشرية ، وتبرز التجربة ما وراء اللسانية على طريقتها .

ومن ثم ، فانه لا ينبغى اعتبار الترجمة مجرد انتقال من مجموعة كلمات الى مجموعة كلمات أخرى فى لغتين مختلفتين ، ولكن ينبغى اعتبارها الابراز العميق للحقيقة الخاصة بهذه اللغات ، من حيث بناؤها اللسانى وواقعها الماورائى الكامن خلف هذا البناء وفى ثناياه ، والمرتبط بالحضارة والثقافة .

من أجل ذلك ، يلزم فى المترجم المجيد أن يكون عارفا بلغته ولغة المؤلف الذي يترجم منه ، وأن يكون مطلعا على حضارتهما وثقافتهما معا ، وأن يكون قادرا على الكتابة فيهما ، أي أن يكون قادرا على فهم ما يختصان به من فلسفة وروح ، وادراك ما يميزهما من دقائق ذهنية وملامح جمالية وخصائص أسلوبية .

ولعل هذا ما جعل البعض يعتقد أن الترجمة لا يمكن أن تطرح أي مشكل لمزدوجى اللغة الذين تعلموا اللغتين وتعاملوا معهما ، تلك التى يترجمون اليها والاخرى التى يترجمون منها ، أو على الاقل لا تضع عليهم نفس المشاكل التى تواجه المترجمين

الذين لم يتقنوا اللغتين بمستوى واحد ، أي أولئك الذيـــن لا يقيمون علاقات مباشرة بين هاتين اللغتين وحقائقهما ومعطياتهما، بدءا من الروابط بين الكلمات والاشياء التى تعبران عنها .

❋

ومع ذلك فان الترجمة تثير صعوبات حقيقية وملموسة ، من بينها صعوبات ناتجة عن الحواجز الاسلوبية المتعلقة مثـــلا بالانواع الادبية ، وخاصة الاشكال الشعرية ، وناتجة كذلك عن الفوارق الموجودة بين البنيات النحوية للغات . كما أن الترجمـــة تبدو صعبة بالنسبة للكلمات التى تكون متعذرة النقل . وليـــس هذا بغريب ، لان من الطبيعى أن تكون فى لغة ما ألفاظ معينـــة للدلالة على الحقائق غير اللسانية التى تشكل حضارتهــــا وثقافتها ، كما أن من الطبيعى ألا تتوافر لغة أخرى لا تقتســم نفس الحضارة والثقافة على ألفاظ محددة موازية .

من هنا فانه ليس عجيبا أن يكون فى اللغة العربية أكثر من مائة كلمة للدلالة مثلا على الجمل والفرس والاسد والسيف . وفى هذا ما يؤكد أمرين :

أولهما أن الترجمة الحرفية أو النقل اللفظى يبدو غير ذي جدوى ولا يحقق أي هدف ،

الثانى أننا نستطيع نقل حقائق أجنبية عن طريق الاقتباس اللغوي أو شرح مفهوم الكلمة التى تكون متعذرة الترجمة .

ولكن ، اذا كانت الترجمة بصفة عامة تطرح مثل هـــذه المشكلات ، فانها تبدو أكثر صعوبة حين يتعلق الامر بنقـــل النصوص الادبية . لماذا ؟

لان الترجمة ليست تبليغا مجردا بسيطا ، ولكنها فى أبعادها الواسعة تأثر وتأثير واندماج فى تيارات فكرية وذوقية عميقة . فهى لا تقتضى فقط وفاء للمفردات والتركيب النحوي والصوتى ، أو ما يدخل فى عبارة النص ، ولكنها تقتضى وفاء للنص نفسه ، أي للمعنى الذي تعطيه اللغة الاصلية ، وبالتالى لهذه اللغـــة وأثرها وروحها وعبقرية المبدعين بها . هى بذلك مطالبـــة بأن تحدث فى قارئها الذي هو أجنبى عن اللغة المترجم منها نفـــس المفعول والانطباع اللذين تثيرهما الكتابة فى قارىء هذه اللغة .

والحقيقة أن ترجمة نص أدبى لا تعنى ترجمة بنية بقدر ما تعنى نقل التأثير الذي تحدثه هذه البنية ، ونقل المتعـــة الجمالية التى تنبعث منها ، وكذلك نقل مختلف العناصر الخاصة بروح الاديب وثقافته ، وقبل ذلك امكان الاحساس بوسائـــل هذا النص وغاياته وادراكها فى تحديد وتمييز .

من هذا المنظور ، تعتبر الترجمة عملية أدبية ذات طابـــع جمالى يتسم بالذاتية والشخصية ، دون اغفال مختلف الملامح العلمية اللسانية ، وتعتبر بالتالى تمرينا أدبيا ينبغى أن يقـــوم به كتاب أدباء ، وليس مطلق تراجمة مهما كان مبلـــغ علمهـــم واحترافهم ، فضلا عن استبعاد اللجوء الى الآلات المترجمة .

أما فيما يتعلق بالمشاكل الصادرة عن الاسلوب ، كما هـو الشأن فى ترجمة قصيدة شعرية ، فانها لا تحل بمجرد نقـل الجانب العروضى للاصل ، أو نقل المفردات والتراكيب ، ولكن بامكان اكتشـاف السمات الجمالية والشعرية المنبثة بتكامل فى القصيـدة .

اذ ذاك ، تصبح الترجمة ابداعا جديدا وخلقا ثانيا لاشكال مشابهة أو مخالفة ، يكون لهانفس المفعول الشعري للابـداع الاول .



وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات ، تكتسب الترجمـة أبعادا يزيد اتساعها يوما اثر يوم ، باعتبارها وسيلة تواصـل بين اللغات ، وتحتل بذلك مركزا هاما فى الحياة المعاصـرة والعلاقـات الدوليـة .

ثم أنها بطابعها العلمى والفنى ، تتيح فرصة الاطـلال برؤيا جديدة على عالم انسانى للفكر والشعور يتجلى فيـه الترابط والتضامن ،وتسمح بالوقوف على ما تختص به اللغات وما يميز عبقريتها ، وبالتالى عبقرية المجتمعات الناطقة بها .

فمع نقلها للمؤلفات ، تنقل الامزجة والعقليات والعبقريات وما يميزها من خصائص ذاتية أصيلة وملامح شخصية وطنية وسمات بارزة متفردة . كما تنقل ألوانا من الروابط والعلاقات، القائمة بين مختلف العواطف والافكار ، وتمكن حركاتهـا ـ

الهادئة حينا والمتأججة أحيانا كثيـــرة ـــ من أن تلتقى وتتفاعل ، وقد تتيح لها أن تتسرب وتسري من قطر لآخر ومن قارة الى أخـــــرى .

وهذا ما يجعل الترجمة فى النهاية دعوة انسانية تلح علـــى المعرفة والتفاهم ، وتؤكد على التوافق والتضامن ، وتحث على تقارب الآراء والمشاعر بين جميع شعوب العالـــم .

الربـــــاط **د . عباس الجراري**

قضايا اللغة

د. تمام حسان

لم يتشعب اهتمام الناس بشيء قدر ما تشعب اهتمامهم باللغة . فالزوايا التى نظروا من خلالها الى اللغة متنوعة كثيرة ، ولكنها فى النهاية متكاملة غير متعارضة . وأعلى درجات هذا التشعب ما نراه من اختلاف الاهتمام باللغة بين النظر والتطبيق . فهناك الدارسون أصحاب النظريات والاصول المجردة التى يتناولون بها اللغة ايضاحا وتنظيما ، وتبويبا وتقسيما ، وكل همهم أن يعطوا الظاهرة حقهـا من الدراسة لتوضيح أبعادها وعلاقاتها ، بنشاط علمى نظري ، قد يمهد الطريق للتطبيق العملى ، ولكنه لا يجعل هذا التطبيق جزءا من منهجه . ثم هناك العمليون ذوو الغايات النفعية الذين لا يقتنعون بأن « العلم للعلم » وانما يسعون الى جعل العلم مسخرا للمجتمع ، وأن يصبح وسيلة من وسائل الانتاج أو الخدمات . ولقد عمد هؤلاء الى النتائج النظرية التى وصل اليها الدارسون النظريون ، فطوعوها لغاياتهم ، وبنوا عليها من التطبيقات المفيدة ما لم يرد بخاطر أولئك الدارسين وأصحاب النظريات . وهكذا تعددت طرق الافادة من الدراسات اللغوية ، ونشأ حقل جديد من هذه الدراسات يسمى باللغويات التطبيقية ، ليكون موازيا للغويات النظرية ،

اى « علم اللغة » كما تعودنا أن نسميه . واذا كانت هذه الثنائية المتمثلة فى التقابل بين « النظر » و « التطبيق » هى اعلى درجات التشعب ، فان كلا من هاتين الشعبتين تشتمل أيضا على فروع كثيرة العدد ، كما سنرى بوضوح فى الفقرات التالية .

فاما فى الجانب النظري فقد كان انشغال الدارسين ، وما يزال ، منصبا على العلاقة بين المبنىوالمعنى ، وعلى البحث فى قوة هذه العلاقة وضعفها ، للكشف عن مواطن « اللبس » و « أمن اللبس » فى الاتصال اللغوي . ولقد فطن الدارسون منذ البداية الى أن اللغة تشتمل على « ثوابت » و « متغيرات » ، ففصلوا ثوابت اللغة عن متغيراتها فى بحوثهم ، وجعلوا الثوابت مسرحا للقواعد ، وتركوا المتغيرات للنقد الادبى حينا من الدهر ، حتى هيأ نمو الدراسات اللغوية لهذه الدراسات أن تزحف الى هذا الميدان ، بغية التفسير لا بغية التقعيد . والمقصود بالثوابت العناصر التى يتكون منها نظام اللغة (ومن ثم تخضع فى سلوكها للتقعيد المنظم) كما أن المقصود بالمغتيرات العناصر اللغوية التى لا تعتبر جزءا من النظام ، على رغم كونها من مادة اللغة ومن كونها ضرورية فى الاستعمال اللغوي . ولعل افضل مثال يوضحالفارق بين « الثوابت » و « المتغيرات » أن نصوغ « جملة » لا معنى لها (كما يبدو لنا لاول وهلة) ، ثم نحاول الكشف عما لم نتمكن من اهداره من العناصر اللغوية ، فاضطررنا من ثم الى ايراده فى هذه « الجملة » ، وعندئذ نشير الى الثوابت ، ونحدد المتغيرات . والى القارىء الكريم هذه الجملة :

« حنكف المحنكف بسقاحته فى الكمظ ، فخزب الخسيل خزبا قليضا » .

فالعناصر اللغوية التى لم نتمكن من اهدارها فى هذه « الجملة » هى التى اقصدها بعبارة « ثوابت اللغة » ، والعناصر التى أمكن اهدارها ، فصارت الجملة هراء بسبب هذا الاهدار ، هى المعنية بالمتغيرات . فما الذينجده فى هذا الهراء من ثوابت اللغة) الجواب اننا نجد ما يلى مما لم يمكن الاستغناء عنه :

1 ـــ ان السياق ينقسم الى كلمات متراصة بطريقة معينة .

2 ـــ ان لهذه الكلمات قوالب وصيغ (لاحظ أن « حنكف » على وزن « فعلل » . . . الخ) .

3 ـــ ان الكلمات التى تتوزعها الصيغ قد تترابط فى حـــدود المـــادة الاشتقاقية (لاحظ العلاقة فى الاصل الاشتقاقى بين «حنكف» و «المحنكف»، ثم بين « خزب » و « خزبا ») .

4 ـــ ان الاصوات العربية لم يمكن الاستغناء عنها فهى من الثوابت ، وكذلك طرق تقلبها فى السياق كالادغام والاخفاء . . الخ .

5 ـــ ان الضمائر ثابتة لا يمكن اهدارها حتى فى الهراء (لاحـــظ الضمير فى سقاحته) .

6 ـــ ان الادوات وحروف المعانى واللواصق والزوائد هى أيضا من الثوابت ، فلا يمكن الاستغناء عنها ، وقد اضطررنا فى هذه « الجملة » لايراد اداة التعريف وباء الجر وفى وفاء العطف وتاء التأنيث .

7 ـــ ان هناك علاقات بين أجزاء الجملة الواحدة كالاسناد والتعدية والاضافة وبيان النوع والتبعية .

8 ـــ ان هناك قرائن لفظية كالاعراب والرتبة والمطابقة والربط والتضام مما يعتبر من ثوابت اللغة العربية الفصحى ، فلا يتحقق الاستعمـــــال بدونها (لاحظ اعراب كلمات الجملة بالحركات،وحفظ الرتبة بين الفعل وفاعله، والحرف ومدخوله ، ومطابقة الضمير لمرجعه ، والمصدر لصفته ، والربط باعادة الضمير وبحرف العطف ، والتضام المتحقق بملازمة الفاعـــــل للفعل . . . الخ) .

9 ـــ ان « الجملـــة » ذات نمط تركيبى محدد لا يمكن اهداره ، فهى هنا من قبيل الجملة الفعلية والخبرية .

10 ـــ ان « الجملة » قد تكون كبرى أو صغرى ، وقد تكون منقطعة عما عداها (فبينها وبينه تمام الانفصال) . وقد تكون مرتبطة به (والـــذي

لدينا هنا جملتان متعاطفتان) .

كل هذا تحقق فى جملة لم نستطع أن نفهم بها معنى ، لانها لا تحمل القسط الذي تتحقق به الافادة من المعنى اللغوي . ومع أنها لا تحمل هذا القسط المفيد نراها حملت القسط « الوظيفى » من هذا المعنى ، وهو القسط الذي تحقق بالثوابت العشرة المذكور ، وبذلك أمكن لهذا الهراء ان يصلح للاعراب ، ففى طوق التلميذ المبتدىء ان يعرب هذه « الجملة » اعرابا صحيحا .

وهكذا يبقى علينا بعد الاشارة الى الثوابت أن نحدد المتغيرات . وفى محاولة هذا التحديد ينبغى ان نطرح على انفسنا سؤالا عما أمكن اهداره فى هذه الجملة من عناصر اللغة ، وسنرى ان العناصر المفقودة هى المفردات التى تحمل معانى معجمية ، اذ لا يمكن العثور على اية كلمة من كلمات هذه الجملة السابقة الذكر فى القاموس ولا فى غيره من المعاجم العربية ، واذا خلت الكلمات المفردة من المعنى المعجمى ، فلابد ان تخلو الجملة من المعنى الدلالى ، مهما تحقق المعنى الوظيفى بوجود الثوابت . ومعنى هذا ببساطة ، ان المعنى فى نطاق القواعد (اي المعنى الوظيفي) مرتبط بالثوابت ، ولكنه فى حدود المعجم والدلالة يرتبط بالمتغيرات . والمقصود بالمتغيرات هنا ان يكون العنصر اللغوي الذي بين ايدينا صالحا لان يستبدل به غيره ، مع بقاء العلاقات فى داخل الجملة على صورتها . فاذا كان لدينا معنى يمكن التعبير عنه بعبارة « قرأ محمد كتابه » امكن أن نعبر عنه كذلك بقولنا :

طالع محمد سفره ،

أو تلا محمد مجلده .

بل ان محمدا نفسه من المتغيرات ، اذ يمكن ان نضع فى مكانه خالدا او بكرا . . الخ مع بقاء العلاقات « اللغوية » داخل الجملة على حالها ، وهكذا نستطيع ان نحدد طوائف من المتغيرات فى داخل هذه الجمل . فالمجموعة الاولى التى يحل احدها محل الآخر هى : « قرأ ، طالع ، تلا » والثانية هى : « محمد ، خالد ، بكر » والثالثة : « كتاب ، سفر مجلد » ؛

اما ما عدا ذلك فهو من الثوابت ، ويمكن للقارىء الكريم ان يرجع الى الثوابت التى اشرنا اليها سابقا ، ثم يبحث عنها بنفسه فى هذهالجمل . وهذه المتغيرات التي حددناها فى الجمل الثلاث تبين لنا بوضوح ما السبب الذي حال دون الهراء الذي سقناه من قبل وبين أن يؤدي المعنى المفيد ، فهـذه المتغيرات هى التى اهدرت ، ولمبيق بعدها الا الثوابت . وحين يتم الاقتراض فيما بين اللغات يتم فى مجال المتغيرات لا فى مجال الثوابت ، فتستعيـر اللغة من أختها اللفظ الذي يدل على معنى معجمى ، ولكنها لا تستعيـر منها قاعدة نحوية ، ولا ضميرا ،ولاحرفجر ، ولا صيغة صرفية . . الخ مما يقع فى قبيل الثوابت التى اشرنا اليها سابقا .

واذا كانت الثوابت ميدان اهتمام طلاب القواعد فان المتغيـرات مسرح نشاط نقاد الادب ، والشراح والمفسرين ، والمترجمين ، والفقهـاء والاصوليين ، والمهتمين بالمصطلحات والفاظ الحضارة من رجال المجامـع اللغوية ، وهلم جرا . بل أن نشاط المجامع من أوله الى آخره لا يكاد يتصل بثوابت اللغة ، وانمايقصرهمه على المتغيرات . ومع ان المنطق الارسطى حاول الوصول الى الصورية التى لا يمكن ان تتحقق الا من خلال الثوابـت المنطقية (وهى بالطبع غير ثوابت اللغة) ، نجده ينزلق الى العنايـة بالمتغيرات ويرمز لها بالحروف الابجدية (كأنها ثوابت) ، ويغفل عـن ثوابت هامة جدا (كالروابط مثلا) فلا يعطيها رمزها الصوري ، تاركـا ذلك للمنطق الرمزي الحديث الذي صحح هذا الخطأ ــ لقد كان قدماء أصحاب القواعد اللغوية أكثر توفيقا من قدماء المناطقة فى هذا المجال (مجال ادراك الفرق بين الثوابت والمتغيرات) فى نطاق مادتهم .

والمعروف أن القواعد فى مجال دراسة الاصوات تسعى الى ضبـط علاقات المخارج والصفات ، والمواقع التى تقعها الاصوات فيرتبط الموقـع بالظاهرة الصوتية كالادغام الخ . . . والمعروف كذلك أن قواعد الصـرف ترمى الى ضبط علاقات المبانى ، وان قواعد النحو تحاول تحديد علاقـات الابواب المفردة فى نطاق الجملة . وما دامت اللغة تجري (فى الاستعمال) على قواعد محددة ، فان تحديد هذه القواعد (بالدراسة) يقع فى ميدان الاكتشاف ، لا فى ميدان الاختراع. أما الذي يقع فى ميدان الاختراع فهـو طريقة النظر الى هذه القواعد ، أو بعبارة أخرى منهج البحث . واذا صح

لن تتنوع المخترعات باختلاف المخترعين ، صح أيضا أن تختلف المناهج باختلاف الباحثين زمانا ومكانا وثقافة ، فيحدث ما أشرنا اليه فى البداية من التشعب ، وينقسم الباحثون من ثم الى مذاهب ومدارس .

ولقد درج الناس فى العصور الاولى على أن ينظروا الى اللغة بأفكار الدين والفلسفة ، تلمح ذلك حتى فى النحو العربى ، كحين يحجم النحاة فى اعراب « لا اله الاالله » عن تطبيق قاعدة « لا النافية للجنس » بحذافيرها لئلا يسيئوا الى الدين بنفى جنس الاله بكل مفهومه نفيا مستغرقا ، وكحين يوغلون فى التعليل الغائى (الذي يجيب عن غايات الظواهر) ، فيفترضون العامل النحوي سببا لتغير الاعراب . فهم فى المثال الاول متدينون وفى الثانى فلاسفة . وكحين يقلد الباحثون فى احدى اللغات ما جاء به الباحثون فى لغة أخرى من تقسيم وتبويب ، مع اختلاف العلاقات الداخلية فى احدى اللغتين عنها فى الاخرى . ويتضح ذلك فى اللغات الاوربية الحديثة التى تفرض على أنفسها أبوابا ليست لها ، لمجرد أن النحاة القدماء كشفوا عن هذه الابواب فى اليونانية أو اللاتينية .

وظل القدماء مع ذلك يحصرون اهتمامهم فى نطاق اللغة الواحدة لا يتعدونه ، حتى اكتشفت اللغة السكريتية فى عام 1786 ، وهى لغة النصوص الدينية والفلسفية للهنود القدماء ، فاتضح للغويين الغربيين أن هناك علاقات تركيبية بين هذه اللغة واللغات الاوربية القديمة ، فبدأ الغربيون من أمثال بوب وشليجل وهمبولدت فى تأسيس ما يعرف باسم « النحو المقارن » وفى تصنيف اللغات الى طوائف بحسب علاقاتها التركيبية . ثم تنبه اللغويون من خلال المقارنات الصوتية الى فكرة التطور اللغوي ، فنشأ عن ذلك ما يعرف باسم « المنهج التاريخى » فى دراسة اللغة ، وكانت نشأته على يد من عرفوا باسم « النحاة الشبان » تحت زعامة بروجمان وأوستوف وهيرمان بول . ولقد قال هؤلاء باطراد القواعد الصوتية ، وبان علم اللغة تاريخى ، كما استعانوا فى دراساتهم بعلم النفس ومعطياته ، وبخاصة فى مجال العلاقة بين الفكر واللغة .

وجاءت الثورة على أفكار هؤلاء ومن سبقهم من قبل اللغوي السويسري « فردنان دي سوسير » الذي اهتم بالعلاقة بين الشكل

والوظيفة ، وأبرز أهمية النظر فى اللغة المنطوقة نظرا وصفيا بعد أن كان الدارسون ينظرون فى اللغات القديمة المكتوبة . وهكذا أرسى هـذا اللغوي الكبير اسس ما عرف من بعد باسم « المنهج الوصفى » . ولقد اختلفت اتجاهات اتباعه من بعده ولكن فى حدود الفهم العام لمنهجه . ففى كوبنهاجن نادي اللغوي « هيلمسلف » بضرورة الاهتمام بالعلاقات البنيوية فى اللغة ، وتعرف طريقته باسم « جلوسيماتيك » وفى براج نادي الامير الروسى المهاجر « تروبتسكوي » ومعه الروسى «جاكوبسون» (الذي هاجر من بعد الى أمريكا) ، وتبعهما اللغوي الفرنسى « مارتينيه » بالاهتمام بالوظيفة ، أما فى أمريكا فقد جنح « بلومفيلد » الى الاعتماد على الشكل مع تجاهل الوظيفة (أو المعنى) . واخيرا ظهرت فى أمريكا مدرسة أخرى على يدي « تشومسكى » لا تقنع بالوقوف عند مجرد الوصف، وانما تزيد الاهتمام بالايغال فى التجريد والتعميم ، حتى تصل من وراء ذلك الى ايضاح الصورة التى يتم بها « اكتساب اللغة » ، أي ايضاح « السليقة اللغوية » .

هذه جميعها تشعبات نظرية فى فهم قضايا اللغة . وقد يحدث التشعب فى الاتجاه الفرعى الواحد ، كالذي نعرفه من انقسام اللغويين العرب (مع اتحاد الاصول) الى بصريين وكوفيين ، وتشعب التحويليين الامريكيين الى قائلين بأن أصل التوليد اللغوي هو العنصر النحوي ، وقائلين بأنه العنصر الدلالى فى اللغة .

كل ما سبق كان تشعبا فى النظر الى الثوابت وما يتصل بها من تقسيم وتبويب وتقعيد . أما فى حقل المتغيرات فان الامر أعقد من أن يلخص على هذه الصورة التى سبقت ،وحسبنا للتدليل على ذلك أن نشير الى تعدد المذاهب النقدية ، والاختلاف حول التفسيرات اللغوية والشروح ، والاجتهادات الفقهية فى فهم النصوص ، والجدل حول المصطلحات ، مما لا يمكن أن يساق الكلام فيه على النحو السابق . ومعنى هذا ببساطة أن الجانب النظري فى حقل المتغيرات لا يخضع للقواعد الجامدة كما خضع لها النظر فى الثوابت ، ولكنه يترك الباب مفتوحا للاجتهادات من جهة ، وللاعتبارات الذوقية والذاتية من جهة أخرى .

يأتى بعد ذلك دور الكلام فى التطبيق اللغوي ، وهو الذي يقابل الجانب النظري الذي انتهى الكلام فيه . والتطبيق هو تسخير النتائج التى يصل اليها الباحثون أصحاب الجانب النظري لخدمة المجتمع . وليس التشعب فى هذا الحقل تشعبا مذهبيا كالذي سبق ، ولكنه تنوع فى طرق « الانتفاع » بمعطيات البحث . فهذه المعطيات تعين على التطبيق فى عدد من الحقول العملية فى النشاط الانسانى ، وعلى امتداد التفكير الى حيث يدور حول انجع الوسائل للتطبيق ، مما ساعد على أن ينشأ من امتداد التفكير المذكور دراسة عرفت باسم « علم اللغة التطبيقى » (فى مقابل علم اللغة النظري) كما سبقت الاشارة فى بداية المقال. ومن حقول التطبيق اللغوي ما يلى :

1 ـ التخطيط اللغوي ، كأن تخطط الدولة لنفسها باتخاذ لغة ما لغة رسمية لها ، مثل الانجليزية فى الهند وغرب افريقيا ، بل وفى امريكا أيضا ، وكحركة التعريب فى الجزائر وبلاد المغرب العربى ، وكتحول الترك عن الرموز الكتابية العربية الى الحروف اللاتينية . كل ذلك تخطيط لغوي، ومن التخطيط ايضا عمل المجامع اللغوية فى عالمنا المعاصر (وهو يتناول المتغيرات دون الثوابت) . وقد نكرم الاصوات المشبوهة الخافتة الداعية الى اللهجات العامية بديلا عن الفصحى فى العلم والفن اذا زعمنا انها من قبيل الكلام فى حقل التخطيط اللغوي .

2 ـ هندسة الاتصال اللغوي ، وهذا هو الفرع الذي يطبق المعطيات النظرية لدراسة اللغة للوصول الى الكفاءة والوضوح فى عملية الاتصال الآلى الاذاعى أو الهاتفى أو غير ذلك . وأكثر دراسات هذا الفرع يتصل بالجانب الصوتى من دراسات اللغة فيحاول الوصول الى سماع واضح لا تعطله الاصداء ، ولا الضجة الجانبية ، ولا الاخطاء الفنية والهندسية .

3 ـ لغة الاعلام ، وهو حقل من حقول التطبيق يرمى الى الاقناع والتأثير النفسى بالكلمة المنطوقة او المكتوبة ، وبهذا يتجه الاعلام الى العقل أولا ثم الى العواطف بعد ذلك اذا كانت الحقائق المجردة غير كافية وحدها للوصول الى الغاية المنشودة . وللاعلام كليات خاصة به فى الجامعات ، مثل كلية الاعلام بالقاهرة .

4 ــ والاعلان فى حقل الاقتصاد لا يقل خطرا عن الاعلام فى حقل السياسة والاجتماع . وهذا الحقل يزاوج بين استعمال اللغة واستعمال الفنون اللونية والحركية . وهو على عكس الاعلام يسعى الى التأثير النفسى اولا ثم الى الاقناع عند امكانه . فالاختلاف بين النشاطين اختلاف فى الوسيلة والدرجة .

5 ــ ومن حقول التطبيق اللغوي كتابة المعاجم . ولعل العرب والصينيين من اقدم امم الارض اهتماما بهذا الفرع من فروع التطبيق ، ولكن هذا الفرع نما وازدهر وتنوعت صوره واخيرا أصبح العرب فيه أمة متخلفة . بل أن المعاجم التى وضعها السلف تبدو مع التطورات الحديثة عبئا على طالبها لا عونا له .

6 ــ واقدم حقول التطبيق اللغوي على الاطلاق حقل تصميم الانظمة الكتابية. ولقد كانت البداية التاريخية لهذا التطبيق فى الرقعة التى يحتلها عالمنا العربى هذا (فى مصر والعراق) فى فى بلاد الصين، وما يزال الانسان يعمل جاهدا فى هذا المجال ، واغلب الظن أن استمرار نشوء اللهجات الجديدة ، واكتساب احداها اهمية لم تكن لها من قبل ستمد فى عمر هذا النوع من التطبيق .

7 ــ ومن مجالات التطبيق اللغوي محو الامية . ولكثرة ما شغل الناس بهذا الفرع فى الامم المتقدمة نشأت له أصول وطرق ، وادخلت على وسائله تحسينات مختلفة ، حتى دخل من أوسع الابواب فى نطاق الدراسات التربوية تحت عنوان « تعليم الكبار » .

8 ــ النقد الادبى وأصول التذوق . ولقد سبق ان أشرت الى أن الدراسات اللغوية الحديثة بدأت تزحف الى ميدان النقد الادبى ، لتعزز الجوانب الذاتية فى هذا النقد بدعائم موضوعية ، ولتكسبها بعض الضبط الشكلى الذي يخفف من اغراقها فى الذاتية ، وتقرب بها من الطابع العلمى المنظم . ولقد كانت البلاغة العربية سبقا تاريخيا فى هذا المجال .

9 ــ ومن هذه الحقول التطبيقية ايضا التحليل النفسى ، لان هذا

التحليل يرتبط باستنباط التشخيص للمرض من مجرى سياق لغوي يستدرج انيه المريض . ولهذا الاستنباط أصوله المرعية التى يعرفها اصحاب التحليل النفسى ويطبقونها ، وهى أصول تأخذ فى الاعتبار معطيات البحث اللغوي .

10 — ومن ذلك ايضا غلاج العيوب النطقية ، سواء فى ذلك أن تكون اسباب هذه العيوب نفسية كالحصر ونحوه ، أو عضوية كعيوب الاسنان ، او جراحية كانشقاق الشفة أو سقف الفم . فكل علاج لاحد هذه الاسباب لابد أن يأخذ فى اعتباره معلومات عن اللغة ونتائج بحوثها .

11 — ودراسة جغرافيا اللهجات حقل من حقول التطبيق اللغوي . ولقد نشطت هذه الدراسة فى القرن الحاضر حتى لم يعد بلد من البلاد المتقدمة يمناى عن العناية بها . ويعتمد هذا الفرع على رسم خريطة خاصة بكل نطق معين ، سواء أكان هذا النطق صوتا أم كلمة ام ظاهرة صرفية او نحوية مـا .

12 — ومن التطبيق اللغوي طرقاستخدام العقولالالكترونية، سواء فى ذلك ما يسمونه البرمجة ، أو التخريم ، او الوصول الى النتائج . وحسبنا أن نعلم أن المشتغلين بهذه الآلات يعترفون بوجود لغات متعددة خاصة باستعمال العقل الاليكترونى ، تشتمل كل منها على التعليمات المستخدمة فى استنباط المعلومات من هـذه الآلة .

13 — ومما يتصل بتطبيق نتائج البحوث اللغوية أيضا الترجمة الآلية التى تتم بواسطة العقل الاليكترونى ، وذلك بتحويل المادة المستعملة من صورة الى أخرى بدون أن يتحول معناها . وقد أمكن بهذه الواسطة ان تتم عملية الترجمة الآلية بين اللغات الطبيعية .

14 — ولكن أوسع حقول التطبيق اللغوي على الاطلاق هو حقل تعليم اللغة . ومن مظاهر اتساع هذاالميدان واهميته انك تدهش لكثرة فروع المعرفة التى تعتبر روافد لهذا المجرى ، سواء فى ذلك العلوم ، والفنون ، والحرف . وفيما يخص النحو العربى من هذا النشاط نجد أن طابع التعليم غالب على منهجه الى أن يكاد يذهب بطابع البحث وروحه . حتى أن عبارة المؤلفين اتسمت بالخطاب المباشر للتلميذ فى بعض العصور اذ يقولون :

« اعلم يا فتى » أو « اعلم أيدك الله » أو حتى مجرد « أعلم » مما يدل على الطابع التعليمي لهذا النحو .

هذه طائفة من جوانب التطبيق اللغوي ، ولكنها ليست كل الجوانب ، والملاحظ ان كل جانب منها اصطنع لنفسه أصولا عامة ، ودراسات ومسائل فكرية ، وتقاليد يسير عليها ، حتى أصبح فرعا قائما بذاته ، يتميز عن تلك البحوث النظرية التى نعرفها تحت عنوان « الدراسات اللغوية » بل ان هذه الاصول والافكار والتقاليد تختلف فى جانب من الجوانب المذكورة سابقا عنها فى الجانب التطبيقى الآخر . وهكذا نجد التشعب فى قضايا اللغة غير قاصر على الجانب النظري فقط ، أو العلمى فقط ، وانما يشمل النشاط اللغوي بمختلف صوره . على أن هذا التشعب لا يستحق منا العجب ، لان النشاط اللغوي يملأ علينا جوانب الحياة أفرادا كنا أم جماعات .

ولولا اللغة ما امكن للفكر الفردي أن ينمو ، ولا أمكن للحياة الاجتماعية أن تتحقق ، فهى كبرى الظواهر الاجتماعية ، والرابطة بين أفراد الجيل الواحد فى المكان ، وبين الاجيال المختلفة فى الزمان ، فهى أهم مقومات كل أمة ، ووعاء تراثها ، وقوام شخصيتها .

الربـــاط   د. تمـــام حسان

مأساة الحسين

في الأدب الأندلسي

(3)

د. عبد السلام الهراس

مرت فترة عارضة بالاندلس برز فيها غرض جديد على ادب هذه البلاد تناول بعض الافكار الشيعية التى بادر بها الشعراء أمراء بنى حمود طمعا فى عطائهم لا استجابة لعواطف صادقة ، بل ولا حتى لمطالب الامراء ورغباتهم . لذلك قلنا ان تشيع هؤلاء الشعراء فى ظروف الفتنة لا يعدو ان يكون — عموما — تحولا انتفاعيا اعتدناه من الشعراء فى عهود الانحطاط والتخلف والانهيار وقد عبر بكر بن حماد ، مادح احمد بن القاسم بن ادريس حاكم البصرة المغربية فى الضفة المقابلة للاندلس عن تلك الانتفاعية اذ يقول فى قصيدة ، يمدحه فيها (1) :

ان السماحة والمروءة والندى — جمعوا الاحمد من بنى القاسم

وبجعفر الطيار فى درج العلــى — وعلى العضب الحسام الصارم

انى لــمــشتاق اليك وانما — يسمو العقاب اذا سمى بقوادم

(1) البيان المغرب 1 / 236

فابعث الى بمركب أسمو بـه على أكـون عليك اول قـادم
واعلم بانك لن تـنال محبـة الابعض مـلابس ودارهـم

فما ان اختفى بنو حمود الادارسة حتى اختفت تـلـك الحالـة العارضة ، ولكن الفتنة القرطبية التى افقدت الاندلس خلافتها تمخضت عن تمزق سياسـى خطير اذ استقل كل رئيس بجزء من الارض وصار يحكمها ناصبا نفسه ملكا عليها ، وكل واحد من هؤلاء الملوك كان عاجزا عن أن يستقل بنفسه أو أن يدفع البلاء عن بلده ، مما اضطر هـؤلاء لضعفهم من ناحية ، وقوة النصارى من ناحية اخرى الى ان يكونوا تبعا لهم يدارونهم ويؤدون الجزية لهم ، وكانت علاقات الطوائف فيما بينهـم علاقة عداء وتحارب وتآمر كما هو الحال تماما بالطوائف العربية الجديدة، وهكذا استمرت الاوضاع السياسية فى الانهيار ، ومما ادى بالاندلس الى أن تتعرض لرجات عنيفة انقضت على هذه البلاد ابان حكم الطوائف، فكانت جديرة بزلزلة النفس الاندلسية ، وتعميق ندوبها ، وتوسـيـع جراحاتها ، واشاعة الحزن والالم فى أجوائها ، وقد شاهد ادباء الطوائف مصرع كثير من رؤسائهم وملوكهم وسوق آخرين أسارى بعد خلعهم عن عروشهم وازعاجهم عن اوطانهم وحرمانهم من حياتهم المترفة الماجنة. ومهما تكن تلك الاسباب والمسوغات لخلع اولئك الملوك ، فان احـدا لن يستطيع أن يلتمس لهم العذر فى تضييع الامانة والاستهتار بالمسؤولية ، وتعريض الاندلس الاسلامية للتنصر والضياع ، واذا كان كـثـير من شخصيات الاندلس قد ابتهج للتغيير الذي تم على يد المرابطين ، فان مأساة ملوك الطوائف كانت شديدة الوقع على بعض الادباء وغيرهم ممن كانوا ينتفعون بحكم الرؤساء واشباه الملوك ، لذلك فقد بكوا أسيادهم بكاء مرا فيه حرارة الاخلاص ، وعمق الوفاء .

ان الدموع الغزيرة التى سفحها هؤلاء الشعـراء ، واولـئـك الملوك كانت حقا دون ما تقتضيه المأساة التى لم تكن سوى حلقة مـن سلسلة المآسى المتتابعة على الاندلس منذ اختفاء محمد بن ابى عامر ، وان البطولة النادرة والاستشهاد السخى المتواصل الذي ابداه المرابطون

خلال اضطلاعهم بمسؤولية الدفاع عن الاندلس لم يستطع وقاية هـذه البلاد من حتمية التدهور الملحاح رغم ناجيلهم له بعض الوقت . وفى جو الاحساس الصادق بالمأساة والتصور السليم للخطر المفجع الذي كانت الاندلس تؤول اليه بالاضافة الى بعض العوامل الشخصية — يزدهر ادب البكاء والاسى ، ومن الادباء من صار يبحث فى تـاريـخ المآسى الاسلامية عن رمز مأساوي يستلهمه ويتخذه موضوعا لنحيبه ونشيجه فلم يجد رمزا اشد تأثيرا وايحاء من مأساة الحسين رضى الله عنه ، واول من دشن هذا الموضوع حسب ما لدينا من المصادر هو ابو عبد الله محمد ابن ابى الخصال الشقوري (465—540 هـ) الكاتب المرابطى البليغ ، فلقد استحيى مأساة الحسين وجدد ذكرى كربلاء ، ولا شك انه أنشأ عدة قصائد وقطع نثرية فى الموضوع ، لان الرجل كان غزير الانتاج جياش العاطفة ، يمتح من نفس مليئة بالاحزان تنفجر من أغوار عميقة ، لكن لـم نسمع من ذلك الانتاج الا بعض الابيات خلال قصائد نبوية ، وقصيدتين رواهما ابن خير عن الشاعر نفسه كما نص على ذلك فى كتابه المفيـد « الفهرست » (2) والقصيدتان حسب ما وصل عن ابن خير احداهما على قافية النون المردفة بالالف ، والثانية على قافية التاء بعـد ألف . والى حدود السنتين الاخيرتين كان البحث يعتبرهما مفقودتين الى أن وفقنـا أخيرا الى اكتشافهما ، فوقفنا بذلك لاول مرة على بداية واضحة وصادقة لشعر بكاء الحسين فى قصائد مستقلة يقول فى الاولى : (3)

عرج على الطف ان فاتتك مكرمـة   واذر الدمـوع بها سحـا وهتانـا
وابك الحسين ومـن وافى منيتـه   فى كربـلاء مضـوا مثنى ووحدانـا
ياليت أني جريح الطـف دونهـم   اهين نفسـا تفيد العز من هـانـا
انـى لاجعل حزنـى فيهـم ترفـا   يكـون للذنب تكفيـرا وغفـرانـا
لله عيـن بكـت أبنـاء فاطـمـة   تـرى البكـا لهم تقـوى وايمانـا

(2) فهرست ابن خير ص : 421
(3) مصورة لمخطوط يملكها الاستاذ مصطفى الطاهرى الذى يهيىء رسالته باشرافى لنيل دبلوم الدراسات العليا فى موضوع « ابن أبى الخصال حياته وأدبه »

ما سرني ببكائي ملك قاتلهم ومثله معه لو صح او كانا
آليت بالله لا انسى مصائبهم حتى اضمن اطباقا واكفانا
فيا محمد قم لله معترفا فان ربك قد اولاك احسانا
لم يفرغ الله في جنبيك حبهم الا لتلقى به فوزا ورضوانا

وهي تبلغ عندنا ثلاثة عشر بيتا .

اما الثانية فتبلغ تسعة وعشرين بيتا يقول فيها :

لهف نفسي على الحسين ومن لي ان يقضي حقوقه عبراتي
يا جفوني برئت منك اذا لم تغرقي في بحورها نظراتي
لهف نفسي على قتيل يعزى عنه خير الآباء والامهات
اي عيش يطيب بعد قتيل مات بالمرهفات اي ممات
حرموه ماء الفرات ولولا جده ما سقوا بماء الفرات
وثووا في قصوره واطمأنوا وبنات الرسول في الفلوات
ان في كربلاء كربا سقيما فتن المؤمنين والمؤمنات
يذهب الله بالقرون ويأتي وهم بكل كل ماض وات
انا في غمة بكم شهد الله (م) ملقى بما لقيتم حياتي
فاتني نصركم بنصلي فنصري بفؤاد مجدد الزفرات
وقواف مرسومة بدموع قدحت في توقد الجمرات
ما بقاء الدموع بعد حسين فخذي من صميم قلبي وهات
اتكون الدموع فيه وفي النا س سواء كلا وهادي الهداة
هون الاله بعدهم كل خطب وحلت لي علاقم الحادثات

ولـم يـرقـبـوا الا لآل محـمـد ولـم يذكـروا ان القيامـة موعد
وان عليهـم فى الكتـاب مـودة بقرباه لا ينحاش عنهـا موحـد
فيا سرع ما ارتدوا وصدوا عن الهدى ومالوا عن البيت الذين بهم هدوا

الى ان يـقـول :

ويا كـبدي ان انـت لم تتصدعن فأنت من الصفوان أقسى واجلـد
فيا عبرتـى ان لم تفيضى عليـهم فنفسـى اسخى بالحياة واجـود
انتهب الايـام فـلـذة احـمـد وافـلاذ من عاداهـم تـتـودد
ايضحى ويظـمـا احمـد وبناته وبنت زيـاد وردهـا لا يصـرد
وما الديـن الا ديـن جدهم الذي به أصـدروا فى الصالحين واوردوا
ينام النصارى واليـهـود بأمنـهم ونومهـم بالخـوف نـوم مشرد
وما هـى الا ردة جـاهـلـيـة وحقـد قديـم بالحدث يؤكـد

ان ابن ابى الخصال يلح على المأساة ، مأساة كربلاء ويقدمهـا فى صور شتـى ويكرر افكاره خلال قصائده ، كما يهمه أن ينقل الى الخارج شعوره بالمأساة واحساسه نحو الحسين وآل البيت واحترامه لهم وكأنه يتحدث عن حادثة معاصرة له لا تزال تنزف دما ودموعـا وآهات كمـا أنه يحمل على قاتليهم ويتهمهم بالردة والحقد والتنكر .

وهو اول شاعر اندلسى ــ فيما نعلم ــ يعتبر قتل الحسين ردة جاهلية ذلك القتل الذي كان بدافع حقد قديم يضمره بنو عبد شمس لبني هاشم قبل الاسلام واكده (الحديث !) كما ابرزته الاحداث بعد الدعوة الاسلامية ويؤكد كفر القتلة نثرا فى بعض رسائله بقوله (5) « وما يلقاها الا كل خارج عن الاسلام ومارق ، كلا ان ملائكة العذاب لتدخل عليهـم بالمقامع من كل باب ، فأي وسيلة بينهم وبين شفاعة جده يوم الحساب ».

(5) رسائل ابن ابي الخصال ــ توجد لدى الاستاذ الطاهري مصطفى .

كيف ارجو بكشف آل حسين ستر اهلي من بعدهم وبناتي
فضح الدهر اهله وبنيه اذ رماهم بغرقة وشتات

. . . .

والقصيدتان بكاء مر على الحسين وتجاوب صادق مع مأساة كربلاء واستعراض اليم لهذه المأساة وتنديد بقاتليه واتهام لهم فى ايمانهم وعقيدتهم ولكن الحديث عن تأثره بالمأساة كان بأبيات كثيرة تبلغ خمسة عشر بيتا فى القصيدة الثانية ، اما القصيدة الاولى فكلها عبرات وحديث عن تأثر الشاعر الذي حدا به الى أن يتمنى لو كان هو صريعا بالطف دونهم :

لله عين بكت ابناء فاطمة ترى البكاء لهم تقوى وايمانا
آليت بالله لا انسى مصائبهم حتى اضمن اطباقا واكفانا

وبجانب هاتين القصيدتين فلابن ابى الخصال عدة قصائد نبوية منها قصيدته الشهيرة المسماة بمعراج المناقب ومنهاج الحب الثاقب عارض بها بعض قصائد حسان بن ثابت رضى الله عنه ، وقد خمسها أبو عبد الله محمد بن الحسن بن جيش المرسى ، وبفضل هذا التخميس استطعنا التقاط أبيات من شعر أبى الخصال فى هذا المجال يقول فى الموضوع الذي يهمنا :

ويلحقهم فضل الشفاعة بالرضى كلوا واشربوا من خير أكل(4) ومشرب
سوى أن قوما جعجعوا بابن بنته وحفوا به من قاتل ومؤلب
وانحوا على أوداجه كل مرهف طرير وحزوا راسه لتترب
كأنهم لما أباحوا حريمه اباحوا حريم الديلمى المحرب

ويقول فى احدى الحسينيات :

ولو حدثت عن كربلاء لابصرت حسينا فتاها وهو شلو مقدد
وثانى سبطى أحمد جعجعت به رعاة حفاة وهو فى الارض أجرد

(4) ازهار الرياض — 4 / 287 — 288 مخطوط بالخزانة العامة بالرباط .

غير ان غضبه لا يتعدى نطاق يزيد وقائده عبيد الله . اذ نراه يترحم علـــى معاوية وهو يحمل على يزيد قائلا : « وانتشى — ومن له — ذلك السلك باد ، وقد ظن ان لا يبيد ، ونقص حين رجا ان يزيد فـــليــت معاوية رحمه الله لم يلد يزيد . »

ان الظروف الخاصة التى كان يعيشها ابن ابى الخصال والحيـــاة العامة التى كانت تعيشها الاندلس لتسمح لنا بالقول بان دوافع ذلك البكاء كانت ذاتية محضة وان كنا لا نغفل هنا العوامـــل الاجـــتـــماعية والسياسية التى اسهمت فى ظهور هذا الاتـــجـــاه الذي تزعمه ابن ابى الخصال لارضاء الذوق العام بفنـــه والخاصة والـــعامـــة بموضوعـــه كما كان مع ذلك يعبر عن مشاعره واحاسيسه .

ومهما يكن من شىء فان الذات والموضوع هنا يمتزجان فى نفسيـــة الرجال ومشاعره اذ كان ابو عبد الله محاطا بظروف سياسية عصيبة كما انه عانى من صراعات سياسية عاتية ، فقد فتح عينيه على النـــكـــبات المتوالية من خلافات داخلية قاتلة ، وطغيان جبار خارجى لا يرحم ضعف الاندلسيين ، بل انه يمعن فى خنقهم والتضييق عليهم مستغلاً ذلك الضعف ثم يبتهج وهو فى ريق الشباب كما ابتهج جميع الاندلسيين بالانتصارات المرابطية الباهرة ، ولكن نكبة ملوك الاندلس على يد المرابطين ، وبالحاح من فقهاء الاندلس وقاداتها العلماء لم تثلج صدور جميع الاندلسيين ، ولعل أسرة آل الخصال لم تكن بريئة من عاطفة صادقة نحو النظام السابق وتذمر من المرابطين كما تفصح عن ذلك الرسالة اللاذعة المشهورة التـــى كتبها أخوه أبو مروان علـــى لسان علـــى بن يوسف موجهة الـــى جيش المرابطين لانهزامهم فى معركة ، فى منتصف سنة 523 (6) والتى خدشت مخالب كلماتها كرامة المرابطين واشعرتهم بسوء ما يضمره ابو مـــروان نحوهم رغم انه كان فى خدمتهم كما ان اشتراك ابى عبد الله فى بـــعض التمردات على المرابطين مما يدل على انه يكن بأقل من اخيه فى هذا الشعور.

---

(6) انظر عن هذا الكتاب : عصر المرابطين 1 / 18 — 119 للاستاذ عبد الله عنان

ادرك ابن ابى الخصال مكانة عالية على عهد المرابطين ، كما يتبين ذلك من انتاجه الادبى الغزير لكنه نشب فى ثورة فاشلة عليهم مع عامل قرطبة ابن الحاج الذي كان ملازما له بالاندلس والمغرب ، وقد نجا من هذه الورطة ليعتزل الحياة السياسية ، ويزهد فى المناصب سيما وقد شاهد من الفتن والقلاقل والتمردات ما زهده فى تلك الحياة «فلزم داره خائفا من تلك الاحقاد القديمة وراضيا بالاياب اليها من الغنيمة » (7)

ان لهيب الفتن كان اعتى من كل محاولة واشد فتكا حتى باولئك الذين لاذوا بقعر بيوتهم ، وقد اضرم اوارها ظهور الموحدين بالمغرب وتحريضهم الاندلسيين على المرابطين ، وكانت مطارداتهم لتاشفين واضطراب الادارة المرابطية بالاندلس مما شجع ابن حمدين على اعلان الثورة على المرابطين بقرطبة مستعينا بالنصارى القشتاليين فاعادت هذه الفتنة لقرطبة ما عهدته من ظروف قاسية اواخر القرن الرابع واوائل الخامس ، فووجه التمرد الحمديني بمقاومة صارمة من انصار المرابطين بزعامة ابن غانية وفى غمار هذه الفتنة ازهقت ارواح ومزقت بقايا قرطبة شر تمزيق ، وكان من ضحاياها ابو عبد الله ابن ابى الخصال الذي ذبحه بعض الجنود الاجلاف واقتحموا داره ونهبوها وكان ذلك يوم السبت 12 ذي الحجة سنة 540 وهكذا يلحق ابو عبد الملك بولده الذي قتل سابقا وبكاه بكاء مرا .

افلا يحق لهذا المنكوب ان يبكى كثيرا وكثيرا ، وهل هناك فجيعة فى الاسلام افظع وابشع من فجيعة آل البيت من طعن على وسم الحسن وقتل الحسين شر قتلة وتشريد اسرته الشريفة ؟ ليت السيوف والرماح والشفار التى فتكت بآل البيت كانت تتوجه نحو اعداء الاسلام الذين كانوا ينامون ملء جفونهم وهم يتآمرون على المسلمين .

ينام النصارى واليهود بامنهم ونومهم بالخوف نوم مشرد

وفى الفتن تنقلب المقاييس وتتاح الفرص للرعاع والاذناب التصدر والتمتع بخيرات الامة فى حين يحرم منها مستحقوها مثلما وقع لآل البيت ولشخصيات اندلسية اخرى اثناء الفتن وهو من ابرز تلك الشخصيات :

(7) ازهار الرياض 4 / 265 (خ) .

اتنتهـب الايـام افـلاذ أحـمـد وأفـلاذ مـن عاداهـم تتـودد
ايضحـى ويضمـأ احمد وبناتـه وبنـت زيـاد وردهـا لا يصـرد

اذن فلتكن هذه المأساة ملهمته وموضوعا حبيبا لقلبه ، ففى ذلك سلوى وعزاء عن مصائبه المتوالية وفى نفس الوقت تربـى لله وعربون على محبته للرسول صلى الله عليه وسلم وقد بث الرجل المنكوب خلال هذه القصائد أدق واعمق عواطفه واحاسيسه الحزينة مما جعله رائد هذا الادب فى فترة خطيرة من حياة الاندلس ، التى تراكمت فيها سحب مظلمة سوداء غطت آفاق الاندلس بعد صفاء جميل عقب ظلام كثيف ، ولكن الصفاء المرابطى لم يلبث الا قليلا لتستانف الاندلس مسيرتها المـشـؤومـة نحو مصيرهـا المحتـوم .

كان الرجل جديرا بتقدير من عرف حياته وتذوق أدبه ، فقد حرصوا على هذه القصائد ودورها فى حياته كما رأينا ذلك عند ابن خير ، ولما توفى الرجل كان العلماء والادباء يقصدون قبره ويزورونه ويجيبونه بقولهم : « السلام عليك يا زين الاسلام » وقد اهله لذلك ادبه النبوي وشعره فى بكاء الحسيـن والحسـن .

وفى هذا العصر نسمع صوتا نشازا وغريبا يصدر عن عالم الاندلس وحافظها أبى بكر ابن العربـى المعافري (ت 543) اذ يـعـاكس التيار الاندلسى والراي العام السائد ، بل حتى موقف الدولة المرابطية وعواطف رجالها فيقول : ان الحسين قتل بسيف جده او هكذا نسب اليه وما كان يجرؤ أحد على هذا القول ، مما حمل ابا عنان المرينى (ت 759) فيما بعد على محاولة اخراج جثته واحراقها، وكاد يفعل لولا أن ثناه عن ذلك بعـض العلماء من بطانته (8) « لكون الفعل المذكور لا يسوغ فعله بأحد شرعا، ولانه ربما تكون المقالة المذكورة مدسوسة عليه كما دسوا على غير واحد من الاكابر اشياء كثيرة » وقد شدد ابن السكاك فى نسبة هذه القولـة لابى بكر ابن العربى وقال : وعلى تقدير صحتها يتلطف فى تاويلها ... ونحن قد نميل الى هذا الاحتمال ، فالرجل من العلم والورع والكياسة والمحبة

(8) الاعلام للمراكشى 3 / 18 ط الاولى سنة 355 / 1936 .

لآل البيت ما يربأ بنا أن ننسب اليه هذه الكلمات السمجة والمصادمة للمشاعر الاسلامية ،نعم ان عبارته يفهم منها أنه كان الاجدر بالحسين رضى الله عنه أن يكف عن الخروج ، سيما بعد مقتل ابن عمه مسلم بن عقيل ، غير أنه كما يقول ابن‌العربى : « تمادى واستمر غضبا للدين وقياما بالحق ولكنه — رضى الله عنه — لم يقبل نصيحة أعلم اهل زمانه ابن عباس ، وعدل عن راي شيخ الصحابة ابن عمر ، وطلب الابتداء فى الانتهاء والاستقامة فى الاعوجاج ونضارة الشبيبة فى هشيم المشيخة ليس حوله مثله ، ولا له من الانصار من يرعى حقه ، ولا من يبذل نفسه دونه ، فأردنا أن نطهر الارض من « خمر » يزيد ، فأرقنا دم الحسين فجاءتنا مصيبة لا يجبرها مرور الدهر » (11) . ومن هذا النص ندرك مدى اجلاله للحسين وتاثره لمأساته التي يعبر عن شعوره بها فى مكان آخر بقوله (10): « يا أسفا على المصائب مرة ويا أسفا على مصيبة الحسين الف مرة ، وان بوله يجري على صدر النبى ودمه يراق على البوغاء ولا يحقن ، يا لله ، ويا للمسلمين » ، ولكن يبدو أن هذه القولة ظلت مرتبطة بصيغتها تلك بابن العربى الى ايامنا هذه ، مما اثار عليه ما أثار ! وقد رد عليه ابن الخطيب بعد أن جهل من يرى أن يزيد خليفة قائلا : « واغرب من ذلك واشد بعدا فى المعصية والجاهلية من قال — وقد اجري ذكره فى بعض كتبه — فانما قتله سيف جده ، وليت شعري من قلد يزيد سيف جد الحسين عليه السلام أي من حكم له بانه أولى منه لسيف جده (11) ، ومهما يكن من شيء فان قتل الحسين رضى الله عنه كانت تعتبر بالاندلس من مصائب المسلمين الكبرى ومآسيهم حتى عند أعرق الاندلسيين ولاء للامويين مثل ابن حزم (12) وقد ساد الحزن على الحسين بالاندلس أثناء حكم المرابطين والموحدين الى سقوطغرناطة ، يقول ابن الخطيب : « ولم يزل الحزن متصلا عل ىالحسين والمآتم قائمة فى البلاد يجتمع لها الناس ويختلفون لذلك ليلة يوم قتل فيه بعد الامان من نكر دول قتلته ، ولا سيما

---

(9) العواصم فى القواصم ص 231 — 232 ط : محب الدين الخطيب
(10) المصدر نفسه
(11) أعمال الاعلام لابن الخطيب ج 1 مخطوط غ . م . رقم 807 — 697
(12) انظر جوامع السير 357 تحقيق د . احسان عباس وناصر الدين الاسد . والروض الباسم 2 / 35 — 36 — 40 .

بشرق الاندلس ، فكانوا على ما حدثنا به شيوخنا من أهل المشرق يقيمون رسم الجنازة حتى فى شكل الثياب يسجى خلف سترة فى بعض البيت ، وتحتمل الاطعمة والاضواء والشموع ، ويجلب القراء المحسنون ، وتوقد البخور ، ويتغنى بالمراثى الحسنيه » . (13)

هذا النص على جانب كبير من الاهمية ، لانه يكشف لنا ان المجتمع الاندلسى بعامة وشرقيه بخاصة اصبح يحس بمأساة الحسين ، فاستحيا ذكراها الاليمة بعد اربعة قرون او خمسة ، لم يكن فيها للاندلسيين اهتمام بها ، فهل كانت ثمة تاثيرات فى شرق الاندلس من جانب الفاطميين او بقايا عاداتهم ام أن مآسى الاندلس منذ الفتنة القرطبية وسقوط قلاع وقواعد هامة اندلسية فى يد النصارى اثارت فى الاندلسيين أشجان الماضى فلم يجدوا ما يعزيهم فى مصابهم الماثل افضل من مأساة الحسين التى كانت مأساة أمة الاسلام كلها ؟

أيا ما كان الدافع فان مآتم وحفلات كانت تقام هنا وهناك وكان بشرق الاندلس يوم مشهود يجتمع له الناس وتهيأ فيه الاطعمة وتوقد البخور وتشعل الشموع ويتغنى بقطع غنائية خاصة بهذه المناسبة حتى أصبحت حلقات « الذكر » وما يصاحبها من حركات وانشادات تعرف « بالحسينية » ، كما يقد مشهد جنائزي عند موت الحسين ومراسيم دفنه لتكون الذكرى أكثر تجسيما وأكثر اثارة وتاثيرا . وفى هذا الجو الملىء بالحزن والاسى يتقدم الشعراء أمام الحفل لينشدوا قصائدهم فى موضوع « كربلاء » ومأساة آل البيت ، ومن هؤلاء الشعراء اللامعين أبو بحر صفوان ابن ادريس (561—598) . فقد كان يلقى قصائد بهذه المناسبة التى تقام فى كل سنة ليلة العاشر من محرم أو ليلة عاشوراء ، ومن تلك القصائد قصيدتان احتفظ بهما ابن الخطيب فى كتابه «اعمال الاعلام» يقول الشاعر فى الاولى التى تعد باكورة شعره فى هذا الموضوع :

---

(13) اعمال الاعلام نفس المخطوط .

اذا جـادت دموعـى بانتحابـى فمـا دعـوى الغمـام بالانسكاب

وحـق لى البكـاء فان حـزنـى يثيـر الدمـع ، فى جفـن السراب

وانـى لـى العـزاء وقد تـردى فـراش الصبـر فى نـار المصاب

فيـا عينـى ان لـم تستهـلا ـ ثكلتكما اذن ـ بـين السحـاب

على سبـط الرسـول على حسين على نجل الشهيـد ابـى تـراب

يزيـد وكـم يزيد عليـك حقـدي رزئـت الفوز من حسـن المـآب

قتلتـم سبطـه قتـل الاعـادي لقـد وفقتـم لسوى الصـواب

وسقتـم اهلـه سـوق السبايـا أهـذا مـا قـراتـم فى الكتـاب

ويدعو على يوم الطف الذي جعل الاسد نهبـا للكلاب كما يدعـو على يوم عاشوراء ويحمـل على عبيد الله بن زياد الذي يقول له :

نصيبـك من نصيـب الخلـد فاهنا نصيب ابيـك من صـدق انتساب

ويستعظم شنيع فعله فى الحسين الذي لو كان ابوه هناك لسلط على القتلة سيفه ذا الفقار ثم يختم القصيدة بقوله :

ولـو انـى حضـرت بكـربـلاء اذن حـمـد الحسيـن بها منابى

اذن لسقيت عنـه السيـف ريـا وليس سوى نجيعـى مـن شراب

أمـولاي الحسيـن نـداء عبـد عظيـم الحزن فيـك والانتـحاب

منحتـك من بنـات الفكـر فكـرا اطـار شرارهـا زنـد اكـتئاب

عسـى الرحمـن يقبلهـا فتضحى شفـاعـة أحمـد عنهـا ثوابى

والقصيدة الثانية أعمق تأثرا وتأثيرا من الاولى كما أنها كشفت لنا عن بعض مراسيم هذا المأتم ، ولقيمة هذه القصيدة أسوق معظمها يـقـول :

سـلام كازهـار الربـى يتنسـم على منزل مـنـه الهـدى يتعلم

على مصـــرع « الفاطميين » غيبت لاوجهـــهـــم فيـــه بدور وأنـــجـــم
على مشهد لو كنت حاضرا اهلـــه لعاينـــت أعضـــاء النبـــى تقســـم
على كربـــلاء لا اخلف الغيث كربلا وإلا فان الـــدمـــع أنـــدى واكرم
مصارع ضجت يـــثـــرب لمصابـــها وناح عليـــهـــن الحطيـم وزمـــزم
ومكـــة والاستـــار والركن والصفا وموقـــف جمـــع والمقـــام المعظم
وبالحجر الملثـــوم عنـــوان حسرة السـت تـــراه وهو أسود أفحم

ويستمر على هذا المنوال يسقط الآلام على المشاعر المقدسة ومعالم مكة والمدينة ويستصغر بكاء البلاد واهلها أمام فداحة الرزء لينتقل بنـــا الى مشهد جد مؤثر فيقول :

واقبلـــت الزهـــراء قـــدس تربهـــا تنـــادي أباهـــا والمدامـــع سجـــم
تقول أبـــى هم غادروا ابنـــى نهبة لما صاغـــه قيـــن وما مـــج أرقم
سقـــوا حسنـــا للســـم كاسا روية ولم يقرعـــوا سنـــا ولم يتنـــدموا
وهم قطعوا رأس الحسين بكربـــلا كأنهم قد أحسنوا حـــين اجرمـــوا
فخذ منهم ثاري وسكـــن جوانحـــا واجفـــان عيـــن تستطيـــر وتسجم
ابى،!! وانتصر للسبط واذكر مصابه وغلته والنـــهـــر ريـــان مفعـــم
وأسر بنيـــه بعـــده واحتمالهـــــم كأنهـــم من نســـل كـــسرى تغنموا
ونقر يزيـــد فى الثنايـــا التى اغتدت ثناياك فيها أيهـــا النـــور تلثـــم

ثم يستسلم للقضاء ويسترسل فى النشيج والبكاء ويستبكى الحاضرين ويستسعدهم يقـــول :

قضى الله أن يعصى عليهم عبيدهـــم لتشقـــى بهم تلك العبيـــد وتنقـــم
هـــم القـــوم امـــا سعيهم فمخيب مـــضـــاع وأما دارهـــم فجهنـــم
فيا أيهـــا المغرور واللـــه غاضب لبنـــت رســـول الله أين تـــيمـــم

الا طرب يتلى الاحزن يصطفـــى الا ادمع تجري الا قلب يــضــــرم
قفوا تساعدونا بالدموع فانهـــــــا لتصغـــر فى حق الحسيـــن ويعظم

وله قطعة اخرى فى الموضوع نفسه يقول فيها (14) :

اومض ببـــــرق الاضلـــــع واسكـــب غـــمـــام الادمـــع
واحـــزن طـــويـــلا واجـــزع فهـــو مكـــان الـــجـــــزع
وانثـــر دمـــاء المـــقلـــتيـــن تالـــمـــا علـــى الـــحسيـــن
وابـــك بدمـــع دون عـــيـــب ان قـــل فيـــضـــى الادمـــع

وهـــى قصيدة عارض بها الحريري فى قوله :

خـــل ادكـــار الاربـــع

ولـــه قصيـــدة مطلعها :

يـــا عيـــن سحـــى ولا تشحـــى ولـــو بـــدمـــع بحـــذف عـــيـــن

ويفهم من سياق المقري ان هذه القصيدة فى رثاء الحسين ايضا ويقول ابن الابار حسب الزيادة الواردة فى النص المنقول عنه فى النفح :

« وله رسائل بديعة وقصائد جليلة وخصوصا فى مراثـــى الحسين رضـــى الله عنه (15) ، ويقول فيه ابن عبد الملك : وانفرد مـــن تأبين الحسين وبكاء اهل البيت بما ظهرت عليه بركته من حكايات كثيرة (16)

ونفهم من هذه النصوص ان للرجل انتاجا هاما فى هذا المجال ، ولكننا لم نستطع أن نعثر الا على ما قدمنا من شعره اليسير ، ومعنى ذلك أن جل ادبه الشعري والنثري فى رثاء الحسين وبكاء آل البيت قـــد

(14) نفح الطيب 5 / 69 .
(15) نفح الطيب 5 / 70 ولم نسرد العبارة الاخيرة فى ترجمة صفوان بالتكملة 2 / 768 ط العطار ،والنسخة المخطوطة الملكية كذلك ، وانظر الاعلام للعباس بن ابراهيم 7 / 367
(16) الذيل والتكملة 4 / 140 والاحاطة : 2 / 350 .

ضاع بضياع ديوان شعره وديوان نثره . ورغم ان شعره فى الموضوع قد ضاع فان هذه البقية توقفنا على بعض أفكاره وملامحه الفنية فهو فى شعره يترسم بعض خطوط ابن ابى الخصال التى رسمها من قبل فى تناول هذا الموضوع كالحملة على الامويين وانذارهم بسوء المصير ووعيدهم بجهنم مثواهم وقرارهم ، ثم الافصاح عن عواطفه نحو آل البيت ومأساة كربلاء ، غير ان رثاء صفوان — عموما — يتسم بعمق الاحساس وتوهج مرارة العاطفة ولوعة الاسى وقد وفق الى حد كبير التعبير عن هذهالمأساة وتصويرها فى صور موحية ينسجم فيها اللون والحركة والايقاع كما قدم امامنا لقطات مثيرة باسلوب متوجع ونبرات مجهشة . وليبلغ مدى بعيدا فى التأثير لجأ الى تشخيص بعض مشاعر الحج ومعالمه المقدسة وابرز عنصر الامومة ولكن أمومة بنت رسول الله رضى الله عنها على مسرح الاحداث ، وهى تشكو لابيها مصابــهـــا بدموع غزار تستـــنـــجـــد به وتستنصره على من قتلوولدها الحسين رضى الله عنه ، وهو عموما يكثر من اسلوب الاستصراخ والتفجع معتمدا على النداء والاستفهام والاستبكاء والاستيقاف ، لقـــد كان صفـــوان أديب المأساة ولـــم يتخـــذ الشعر مكسبا . وقد حاول مرة الا انه خاب فاتجه نحو ربه يرجـــوه وحـــده ويخص رسول الله وآل بيته الطاهرين بأمداحه فقضى الله اربه المادىونراه يفصح عن مذهبه فى المدح بقولـــه :

ولســـت أديـــل بالمدح القوافـــــى   ولا ارضـــى بخطتهـــا اكتسابـــــا

أأمـــدح من بـــه أهجـــو مديحـــى   اذا طيبـــت بالمســـك الـــكـــلابا

سأخزنهـــا مـــن الاســـماع حتـــى   أرد الصمـــت بينهمـــا حجابـــا

فلست بمـــادح مـــا عـــشـــت الا   سيـــوفـــا او جيـــادا أو صحابـــا

والحقيقة انه تغنى كثيرا ببلده وراسل اخوانه شعرا ونثرا وقـــد حظـــى بالثناء على دينه وفضله رغم انه كـــان شابا نابغة يعيشـــ فى أحضان والده الذيفجع بموته وهو لـ ميبلغ بعد الاربعين سنة 598 وكانت ولادته سنة 561 رلمه اللـــه .

فـــاس د . عبد السلام الهراس

حَدِيثٌ صَامِتٌ

عبد المجيد ابن جلون

ترى ماذا كان يحدث لى لو علم الحضور ماذا يدور فى خلدي أو علم كل امرىء منهم ماذا يدور فى خلد الآخر ؟ أما كان هذا العرس الرائع ينقلب الى مأتم . . تتحول فيه الكراسى المتراصة الى شظايا . . والسرادق الانيق الى خرق والحديقة الجميلة الى أطلال . . ؟

ما لى التفت الى الرجل عن يمينى فيحدجنى بنظرة صارمة كما لو كانت نظرتى اعتداء . . ولكننى انظر الى الآخر عن يساري فيتهلل وجهه بابتسامة مشرقة وأنا أبادله التحية . ؟ لماذا يتباين الناس هذا التباين العجيب اذا كانوا جميعا من سلالة حواء وآدم . . وذلك الشاب الذي يسترق نظرات الاعجاب الى فتاة خلابة ألا يعلم أنها متزوجة وزوجها موجود معنا فى حفلة

الزفاف . . ؟ وهناك امرأة فى فصل الخريف من حياتها تلتفت الى رجل يجلس الى جانبها لا تكاد تهمس اليه بشىء حتى ينفجـر ضاحكا ، ولكن سحنتها هى تحتفظ بوقارها دون أن تتجاوب مع ضحكته حتى بابتسامة . ؟ وهى المسؤولة عن انفجاره بالضحك ..

وأرى يدين فى قفازين أبيضين تتقدمان الى بصينية تكدست فوقها الحلويات وعندما ارفع عينى الى حاملها معتذرا يصدمنى وجه فى مثل سواد الفحم . . فأنا لم أتعود أن أتناول أي شىء بين وجبات الطعام غير دخان السجاير ؟ . ويطوف بالصينية ما شاء له الطواف ثم يضعها على مائدة صغيرة ، فيقوم رجل ليسير فى اتجاهها بخطوات تنم عن أنه يصبح عديم المقاومة كلما وقع بصره على أي شىء قابل للاكل . ويلتهم الواحدة تلو الاخـرى على عجل كأنه يعلم علم اليقين أن حاملها آت لالتقاطها فى أية لحظة . . ألا يوجد بين هؤلاء المدعوين الكثيرين من يستطيع أن يطلعه على أنه يحفر قبره بأسنانه . . ؟ وأنه كان من الجائـز أن تستغنى البشرية عن الاطباء لولا الطعام . . ؟ ومن خلفـى فتى ماكر يهمس لفتاة لماذا رأيتك أمس فى أحلامى ؟ فيجيبه صوت ناعم ، لانك كنت فى عالم من أضغاث الاحلام . .

وتنطلق الموسيقى فجأة بأنغامها الاندلسية فى الشرفـة العالية التى تقع فى مواجهتى لاجل أن تغطى بضجيجها علـى أصوات الناس كأنها ضاقت بهم وبأصواتهم فقررت أن تغرقهم فى ألحانهـا . . وأشعر بالضجـر وبالرغبة فى الانصراف . ؟ وان رتابة هذه الموسيقى تكاد تطير صوابى . . نغمة واحدة يخيل

الى أنها تكررت آلاف المرات . . ويأتى الفرح فجأة هو أيضا . ؟
وتتغير النغمة البطيئة المتكررة لتخلفها أخرى خفيفة راقصة
فأشعر بارتياح ، ويبدو على وجوه الناس أنهم يشاركوننى
فى ذلك . . فاذا كانت رسالة كل فن هى أن يثير ازمة حادة فى
النفس الانسانية حتى اذا ما تعقدت أفرج عنها فان الموسيقى
الاندلسية سيدة جميع الفنون . . ثم أن لها صدى صاخبا يصدم
جدران الدور الفاخرة المحيطة بنا ، على نحو يجعلها خليقة بأن
تعزف على قمم الجبال . . أو فى أعماق الصحراء . ؟ أو فوق
أعالى البحار ؟ .

وأخيرا تتوقف الموسيقى لتختلى الى نفسها وتقوم بتدبير
المؤامرة المقبلة على ما يبدو . . فيعلو السعال القصير الذي
يشبه صيحة فى كل مكان . ؟ فهل يعدي الناس هنا بعضهم بعضا
بالسعال كلما اجتمعوا فى مكان . . التثاؤب داء معد اذا صدق
الحدس عن طريق النظر ، ولكننى لم أكن أعلم أن السعال مثله
يعدي عن طريق السماع . .

كيف فات ذلك الرجل أن حامل صينية أكواب الشاي
المنعنع تجاوزه . . ولكنه لا يطيق على ذلك صبرا وانما ينهض
قائما ليسير فى أثره ويشده من كمه ، حتى اذا ما استدار
تناول منها كوبا وعاد الى مجلسه .

اننى أشعر بالوحدة بالرغم من هذا الجمع الغفير من
الناس . . لم تبق لى من تسلية سوى تزجية الوقت يتأمل ما

يدور حوالى ، وقد أخذ الكرسى الخشبى يؤلمنى . أعـــرف كثيرا من وجوه المدعوين ، ولكننى لا أعرف أكثر من وجوههم . . لا أعرف أسماءهم ، ولا أين يضطربو نفى أعمالهم . . ولذلــك فليس من اليسير أن أفتح معهم أي حديث . . هذا الرجــل الجالس عن يساري مثلا الذي حيانى بوجهه المشرق منـــــذ برهة . . لماذا لا أتحدث اليه ؟ ولكن ماذا أقول له ؟ آخر كتاب قرأه ؟ ولكنه قد يكون من الذين لا يقرأون على الاطلاق ، ومــا أكثرهم ، آخر رواية شاهدها ؟ ولكنه قد يكون ممن لا يرتادون دور السينما . هل هو متزوج ؟ عنده أولاد ؟ هل هو من أقرباء صاحب الحفلة أو من أصدقائه فقط ؟ ما اسمه ؟ أسئلة سخيفة لا نهاية لها . . فانك لا تستطيع أن تستمتع بحديث مع شخص لا تعرف عنه أي شىء ، ولذلك فانه يحس أن أستمر فى صمتى ، منصرفا الى تأمل ما يرى حولى فى حفلة الزفاف الانيقة التــى سوف يتحدث عنها المدعوون بعد عودتهم لمنازلهم الى ما بعــد منتصــف الليــــل . .

وأتذكر أن والد العروسة قبل خدي عند وصولى ، وأنــا أستهجن جميع أنواع القبل ، باستثناء تلك التى تجود بهـــا الفتيات اللطيفات عن خلق كريم ، فهى وحدها التى لا يمكن أن يستهجنها أحد . . وأنا أتذكر ذلك لان الوالد السعيد يتنقل بين ضيوفه وهو يوزع ابتسامته العريضة بوجهه اللامع ، وهــو ليس مثلى يطرح على نفسه عشرات الاسئلة قبل أن ينبس بكلمة واحدة . . وانما عنده ما يقول فى جميع الاحوال . ؟ ولذلك فهو يتحدث بذلاقة الى ضيوفه فى كل مكان مرحبا بهم ملاطفا لهم . .

ويبدو على الناس أنهم رأوا العروسة قد ظهرت عند مدخـــل الشرفة التى تقع خلفى لان أعناقهم تشرئب اليها ، ويشرئـب عنقى بدوره اليها ، ولكن كثرة الواقفين خلفى تحول دون أن أراها ، فأشعر بالاسف لاننى أحب أن أرى أبناء أصدقائى لاقارن بينهم وبين آبائهم . . فان تحسن نسلهم مما يهمنى . ؟

وتعيد الموسيقـى سيرتها الاولى . . وتتعقد أزمة الرتابة من جديد . . ثم تنفرج ؟ ؟ ثم تتوقف الانغام . ؟ وتعلو أصوات الزغردة من مكان مجهول غير مرئى ؟ . ثم . . يتتابع السعال الذي يشبه الصيحة ؟ ؟ ويتتالى أسراب المدعوين من القادمين.. وأسراب المدعوين من الذاهبين . . وهم يتبادلون التحيـات والتمنيـات . .

ولكن ماذا ؟ كيف تقبل امرأة أن تتمنطق بسلاسل مـن الحديد الذهبى كما فعلت تلك المرأة الجالسة بالقر بمن زاويـة السرادق ؟ فى أي عصر من عصور الرخاء الاقتصادي نعيش حتى يتمنطق نساؤنا بالثروات . . الى متى نعيش فى عصر ما قبل الباخرة والقطار . . ؟ أفى عصر تجميد الاموال نحن ، أو نحن فى عصـر توظيفهـا . . ؟

وتبدو على المغاربة سعادة حقيقية حينما يحضرون حفلات الزفاف ، فهم لا يشاركون مضيفهم ما يشعر به بحضورهـم فحسب ولكنهم يشاركونه فى ذلك بقلوبهم أيضا . . أليس هذا مما يسر ؟ الوجوه مبتهجة وطافحة بالبشر ، والقليلون هـم

الذين يتحدثون فى موضوعات تتعلق باعمالهم أو تدور حـــول اشاعات قرب سقوط الحكومة . . والكثيرون هم الذين يتحدثون بهذه المناسبة عن والد صاحب الدار وجد العروسة ويتحســرون صادقين على موته قبل أن يحضر مثل هذا اليوم المشهود ، تغمده الله بواســع رحمتــه . .

ان المرء ليكاد يشعر بالاختناق حينما تمر عليه فتـــــرة طويلة من الصمت دون أن يتكلم . . خصوصا اذا كان فى حشـــد من الناس منهمكين فى الثرثرة . . كما يشعر بالجوع اذا كان فى حشد منهم منهمك فى الاكل . . يبدو أن هنـــاك أمراضـــا معدية كثيرة لم يرد لها ذكر فى معاجم الطب ، أكثر جدا مـــن التثاؤب والسعـــــال . .

ولكن لماذا لا أبحث لى عن مشكلة اجترها وأقتل بهـــا الوقت الى أن يحين موعد الانصراف ؟ مشكلة ؟ لماذا أذهـــب بعيدا وهؤلاء الناس الغافلين أمامى يمثلون هم أنفسهم أعوص مشكلة ؟ كيف ينسون ما يعرفون من أنهم محكوم عليهـــــم بالاعدام منذ اللحظة الاولى التى ولدوا فيها . . ؟ هل يغتبــط بالحياة هذا الاغتباط المحكوم عليهم بالاعدام لمجرد أنهم لا يعرفون ساعة التنفيذ . . ؟ وأتبرم بهذه الفكرة المظلمة وأنصرف الى البحث عما يطردها من عقلى بسرعة فتقع عينى على فتاة جالسة مثلى فى صمت بين الجماهير وأحاول أن أتخيل فيـــم تفكر ، ولكننى أعجز عن ذلك ، انك لا تستطيع أن تتخيل ما يدور فى خلد امرىء صامت لا تعرفه بالضبط كما لا أستطيع أنا أن

أتحدث اليه . . فمن حسن حظ الانسان أنه مثل الثياب التى لها ظهارة وبطانة ، ظهارة لامعة وبطانة أقل لمعانا فى كثير مـــن الاحيان ، بل وممزقة فى بعض الاحيان . . وعندما خطرت ببالى هذه الفكرة التفت الى الفتاة فاذا بها منهمكة فى الحديث مــع الفتاة التى كانت تجلس الى جانبها . . فأشعر بالخذلان . ؟

وتعيد الموسيقى سيرتها الاولى . . وتتعقــد أزمة الرتابة من جديد ؟ . ثم تنفرج ؟ . ثم تتوقف الانغام ؟ . وتعلو أصوات الزغردة من مكان مجهول غير مرئى مرة أخرى ؟ . ثم . . يتتابع السعال الذي يشبه الصيحة . ؟ وتتعالى أسراب المدعوين مــن القادمين . . وتتبادل التحيات والتمنيات مع أسراب المدعوين من الذاهبين وأنا من بينهم هذه المرة . . فقد اختنقت صمتــا وخرجت أبحث عن أحد يمكن أن أتبادل معه الحديث . . .

الرباط — عبد المجيد ابن جلون

أضواء على رحلة محمد بن عمر التونسي للسودان وأهميتها التاريخية

د. شوقي عطا الله الجمل

التونسي من الرحالة المغاربة الذين زاروا السودان (سودان وادي النيل) ودونوا ملاحظاتهم عنه ، وقد اقام التونسي فى السودان نحو عشر سنوات من 1803 الى 1813 ووصل الى (دارفور) ثم (واداي) عن طريق (درب الاربعين) الذي يبدأ من مدينة اسيوط بجمهورية مصر العربية ، واتجه فى صحراء ليبيا مارا بالواحات والآثار المختلفة ، وقد وصف التونسي هذا الطريق الطويل (1) .

والحقيقة ان رحلة التونسي ـ بالاضافة للمعلومات التى تمدنا بها عن بلاد دارفور وواداي فى وقت زيارته ـ لها اهمية خاصة لا بد من الاشارة اليها ، فهي تثير موضوعا هاما يتعلق بالرحلات المتواصلة فى التاريخ الاسلامى للتجارة والحج والعلم .

---

(1) بطل استخدام هذا الطريق حاليا ، لكن توجد قلاع ومخافر ومقابر وآثار ترجع لعهد الرومان ، وتدل على ان الطريق كان فى الماضي عامرا ومسلوكا
وقد اورد علي مبارك فى خططه جـ 17 ص (31 ـ 33) بيانات وافية عن درب الاربعين

فكثير من العلماء ــ المغاربة بالذات ــ شغفوا بالانتقال من بلادهم وعادة تقترن الرحلة لطلب العلم بأداء فريضة الحج ، ومع الفريضة تجارة وطلب علم . والوقت لم يكن فى أيامهم ضيقا كأيامنا هذه ، فالرحلة تستغرق سنوات ، ولا يجد الرحالة غضاضة فى أن يستقر فى الطريق فى بلد يمر به فيقضى سنوات يتصل فيها برجال العلم فى هذا البلد وهكذا حتى يتهيأ لاداء الفريضة .

واثر هؤلاء العلماء على المجتمعات التى استقروا بها كبير ، وملاحظاتهم التى دونوها عن البلاد التى زاروها وعادات أهلها وتقاليدهم لها أهميتها العلمية فى هذا الوقت المبكر الذي كان العالم المتحضر يجهل فيه كل شىء عن هذه المناطق . (2)

تعريف بالرحالة وظروف رحلته للسودان

يعطينا محمد بن عمر التونسى ترجمة لحياته فى المقدمة التى أودعها كتابه الهام الذى سنشير اليه بتفصيل فى هذا المقال والمعروف بأسم « تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » (3) .

فجده سليمان كان من عظماء أهل تونس ومن أهل العلم بها وكان وكيلا من طرف سلطان المغرب المولى المرحوم الشريف محمد الحسنى . (4)

خرج الجد سليمان من تونس فى سفينته الى البحر المتوسط قاصداً الحج ، لكن رحلة الحج هذه لم تتم فى يسر ولم يعد منها الى بلده تونس

(2) ارجع لما كتبه كاتب هذا المقال عن بعض هؤلاء الرحالة من امثال ابن خلدون ، الحسن بن محمد الوزان ، التيجانى ، فى مجلة المناهل الاعداد : الثانى ، الثالث ، الرابع والخامس .

(3) سنشير فيما بعد لظروف تاليف هذا الكتاب ، ونشره ومحتوياته وقيمته العلمية .

(4) انظر مقدمة كتابة تشحيذ الاذهان ــ تحقيق د. خليل محمد عساكر ، د. مصطفى محمد (1965) ص 7 وما بعدها (وهى الطبعة التى سنشير لصفحاتها باستمرار) .

بل زار مصر بعد رحلة شاقة غرقت فيها سفينتهم وضاع ماله ثم وصل الحجاز (5) ٠

واجتمع فى ميناء جدة باناس من اهل سنار وارتبطت بينهم صحبة (6) فعاد معهم الى بلادهم ٠

فلما علم الملك (7) انه رجل من اهل العلم غريب الديار قد انكسرت سفينته وضاع ما كان يملكه من مال وغيره — رحب به ، واجزل له العطاء ، فاستقر الجد سليمان بسنار وتزوج هناك ونسى أهله بتونس فتكفل بهم خال الرحالة وكان هو ايضا من العلماء يشتغل بالتدريس (8) ٠

وقد خرج والد الرحالة وهو السيد عمر التونسى صحبة خاله من تونس بقصد الحج ايضا فركبا البحر من تونس الى الاسكندرية ومنها الى القاهرة ثم توجها الى القصير على البحر الاحمر للابحار الى الحجاز، وتشاء الصدف أن يحضر جد الرحالة من سنار لمصر بقصد التجارة فيلتقى بابنه (والد الرحالة) وبخال الرحالة قبل سفرهما للاراضى الحجازية ويتواعد الجميع على اللقاء ثانية فى القاهرة بعد عودتهما من الحج ، لكى توفى خال الرحالة فى مكة المشرفة ودفن هناك ورجع والده الى القاهرة على امل أن يلتقى بالجد ، فلما طال به الانتظار توجه الى سنار حيث وجده قارا فى داره مغتبطا باولاده ولا يخطر له السفر على بال فعكف والد الرحالة راجعا الى مصر (9)٠

---

(5) كان الحج فى ذلك الوقت وما زال من اهم العوامل التى تيسر للمسلمين فرصة الالتقاء والتبادل الفكرى والثقافى . وكان حجاج شمال افريقيا وغربها يطرقون عدة طرق للاراضى المقدسة اهمها هذا الطريق للساحل البحر المتوسط ثم مصر ومنها عبر البحر الاحمر الى الحجاز .
— انظر ما كتبه عن طرق الحج فى هذه العصور :
Triningham, J. Spencer : Islam in West Africa (Oxford 1964)

(6) مقدمة كتاب تشحيذ الاذهان ص 30 .

(7) مك وجمعها مكوك تعنى الرئيس ، وقد أطلق على حاكم الاقليم من قبل سلطان سنار حيث قامت فى هذه المنطقة سلطنة الفونج الاسلامية

(8) مقدمة تشحيذ الاذهان ص 32

(9) نفس المرجع ص 34

واستقر السيد عمر التونسي ـ والد الرحالة ـ بمصر حيث كان يحضر العلوم بالجامع الازهر ، وتزوج من والدة الرحالة .

ولد الرحالة ، كما يقول هو ، في يوم الجمعة منتصف ذي القعدة من عام (1204هـ) . (1789م) . وهو في سن السابعة سافر أبوه ثانية للسودان حيث بلغه خبر وفاة جد الرحالة في سنار ، أما الرحالة نفسه فقد بقي بمصر يحفظ القرآن ويحضر دروس العلم بالازهر (10).

ولما طال غياب أبيه وانقطعت اخباره اعتزم الرحالة البحث عنه في بلاد السودان ، وكان قد بلغ الرابعة عشرة من عمره ، وتشاء الظروف مرة أخرى أن يلتقي محمد بن عمر التونسي في وكالة الجلابة بمصر بتاجر سوداني يدعى السيد احمد بدوي من كبار تجار دارفور وهو صديق لابيه الذي كان قد ارتحل من سنار واستقر بدارفور فسافر معه صحبة قافلة مسافرة الى دارفور عبر درب الاربعين ، وكان الرحالة طوال الطريق موضع رعاية واهتمام ذلك التاجر (11) .

ولما وصلت القافلة الى دارفور جاء عم الرحلة المدعو أحمد زروق وصحبه الى حيث يقيم ابوه عمر التونسي في اقطاعه الذي منحه اياه سلطان دارفور السلطان عبد الرحمن الرشيد في (أبو الجدول) (12).

وبعد ان استراح الرحالة من مشاق السفر قدمه ابوه للسلطان محمد الفضل الذي كان قد خلف اياه عبد الرحمن الرشيد في حكم دارفور، ولوزيره الاعظم الشيخ محمد كرا واستأذن هو في السفر الى تونس لرؤية أهله وأقاربه بعد أن اطمأن الى ان ابنه سيقوم عنه بادارة شؤون اقطاعه في (أبو الجدول) من اعمال دارفور .

واتجه الوالد في طريقه الى دارفور الى واداي ، لكن سلطان واداي السلطان محمد عبد الكريم صابون قربه اليه واقطعه أملاكا في احدى

---

(10) تشحيذ الاذهان ـ المقدمة ص 38 .
(11) تشحيذ الاذهان ـ المقدمة ص 53
(12) ارسل والد الرحالة مع اخيه خطاب شكر للسيد احمد بدوي على ما صنعه للرحالة من معروف ـ ومعه هدية عبارة عن عبدين سداسيين ومهر أحمر . انظر مقدمة تشحيذ الاذهان ص 58 .

قـــرى واداي وجعلـــه في منصـــب وزيـــر في حكـــومتـــه فاستـــقـــر هناك عدة سنوات ثم ترك اخاه أحمد زروق للاشراف على أملاكه في واداي وسافر الى تونس .

وقد قضى الرحالة محمد بن عمر التونسى فى دارفور نحو سبع سنوات ونصف سنة الم خلالها بأحوال البلاد وبعادات سكانها وتقاليدهم وبلغتهم الماما كاملا ، وغادر دارفور الى واداي حيث احسن السلطان محمد عبد الكريم صابون وفادته لما كان لوالده مـــن مكانـــة لديـــه ، وبقى فى واداي مـــــا يقـــرب مـــن العـــام والنصـــف حيث غادرهـــا فى عام (1228هـ) . (1213م) متجها الى تونس . ثم غادرها بعد ذلك الى القاهرة بعد غيبة حوالى عشر سنوات قضاها فى دارفور ، وواداي .

كتاب تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (13) .

ترجع ظروف وضع هذا الكتاب الذي جمع فيه الرحالة المغربـــى محمد بن عمر التونسى مشاهداته وملاحظاته خلال الرحلة التى قام بها لدارفور وواداي وما سمعه عن هذه البلاد خلال اقامته فـــيـــهـا ــ الى الظروف التى ربطت بين الرحالة والمستشرق الدكتور بيرون Perron الفرنسى .

فبعد عودة محمد بن عمر التونسى الى تونس من رحلته الى دارفور وواداي التى استغرقت ، كما قلنا ، حوالى عشر سنوات قفل راجعا الى القاهرة وهناك التحق بخدمة الجيش المصري فى وظيفة واعظ ، وسافر

(13) تثير هذه التسمية الكثير من التساؤلات ، فالكتاب يتعلق ــ كما سنوضح بعد ــ بمشاهدات المؤلف وذكرياته عن البلاد السودانية التى زارها واقـام فيهـا وهـــي « دارفور » و « واداي » ، ولعله يقصد ببلاد السودان التى تسكنها القبائـــل العربية . هذا وان كان المؤلف قد اشار فى كثير من المواضع الى الاراضى الحجازية التى كانت زيارتها الهدف الاصلى لمغادرة جده ، ثم ابيه ثم هو نفسه لبلادهـــم ، على اننا لا نستبعد ان يكون ذكره لبلاد العرب رغم انه لم يتعرض لها فى كتابه الا فى مواضع محدودة من قبيل التماس البركة .

الى المورة مع الفرقة المصرية التى اشتركت فى حرب المورة (14) فى عام 1827 .

لما رجع التونسى من المورة فى عام 1832 عمل مصححا لكتب الطب التى كانت تدرس فى مدرسة الطب بابى زعبل فاتصل فى اثناء قيامه بهذا العمل بالاساتذة الاوربيين الذين استقدمهم محمد على للتدريس بهذه المدرسة وغيرها من المعاهد التى انشأها وكان منهم بيرون ، وقد تلقى هذا الاخير دروسا فى اللغة العربية على يد محمد بن عمر التونسى ، وكان المتبع فى مدرسة الطب فى ذلك الوقت أن يضع الاساتذة الاوربيون مؤلفاتهم بلغتهم ثم يقوم مترجمون فى المدرسة بترجمتها الى اللغة العربية ؛ وهؤلاء كانوا عادة من اعضاء البعثات التى ارسلها محمد على الى اوربا، وعادة يكونون من المتمكنين فى اللغة العربية من رجال الازهر فيقومون بصقل العبارات المترجمة وتحسينها قبل طبعها وتداولها بين الطلاب (15).

وكان التونسى من هؤلاء المترجمين فاختص بترجمة كتب الطبيعة ، وقد ابدع فى اعداد وتهيئة هذه الترجمات السقيمة ووضعها فى لغة عربية سليمة ، وقد اشار لكثير من الكتب العربية القديمة ولامهات الكتب ، وذلك لكى يستخرج التعابير والتعريفات والعبارات المناسبة . وهذه الملاحظات تعطينا فكرة عن المؤلف فهو من الرواد الاول فى مصر فى تعريف المصطلحات الطبية والعلمية قبل انشاء المجامع اللغوية فى البلاد العربية.

ولما عين بيرون مديرا لمدرسة الطب بالقصر العينى فى عام 1839 اوصى بتعيين التونسى كبيرا للمراجعين واتاح ذلك للتونسى فرصة لتقديم خدمات جليلة للغة العربية وللمثقفين العرب فى مجال الطب والعلوم.

---

(14) كانت بلاد اليونان الى اوائل القرن التاسع عشر جزءا من السلطنة العثمانية يحكمها ولاة آتراك ترسلهم حكومة الاستانة ، ولكن قامت فى عام 1821 ثورة فى بلاد اليونان واستنجدت تركيا بمصر ، فاجاب محمد على دعوة الباب العالى ، لكن تدخلت الدول الاوربية فى صف الثوار ، وانتهت بواقعة نافارين البحرية (20 أكتوبر 1827) التى تحطم فيها الاسطول المصرى والتركى ــ انظر :

عبد الرحمان الرافعى : عصر محمد على (1951) ص 209 وما بعدها

(15) شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ــ مرجع سابق ص 295 .

ولما علم بيرون من التونسي برحلته في بلاد السودان شجعه على تدوين مذكراته عن رحلته لدرافور وواداي التى اتخذ لها هذا العنوان الذي يلتزم فيه بالسجع « تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ».

والنص العربى لهذه الرحلة والذي كتب بخط الرحالة مفقود ولا نعلم عنه شيئا حتى اليوم .

لكن قام بيرون فى عام 1845 بترجمة الرحلة الى الفرنسية وطبعها فى باريس تحت عنوان

Voyage au Darfour ; ou l'Aiguisement de l'esprit, par le voyage au Soudan et parmi les Arabes au Centre de l'Afrique.

وذيل بيرون هذه الترجمة الفرنسية بملاحظات عديدة وتوضيحات اعتمد فى أغلبها على ما أمده به الرحالة نفسه من معلومات وبيانات وشروح، كما أضاف فصلا عن السلطان أبو مدين (17) بالاضافة الى مقدمة لهذه الترجمة من وضعه (وضع بيرون) ، واخرى لجومار E.F. JAMARD الذي يرجع اليه الفضل فى الانفاق على نشر رحلتى التونسى ، مع معجم صغير بالمفردات (الفوراوية) ومقابلها بالفرنسية من وضع جومار ، هذا خلاف الكثير من الحواشى والشروح الاضافية ، وبعد ظهور هذه الترجمة الفرنسية للرحلة بخمس سنوات أي فى عام 1850 نشر بيرون طبعة عربية للكتاب طبعت على الحجر فى باريس بدار طباعة كبلين KAEPLIN وهذه النسخة العربية المطبوعة على الحجر بخط بيرون — وقد ظهرت هذه الطبعة العربية فى حياة المؤلف نفسه (18) .

---

(17) السلطان ابو مدين هو شقيق السلطان محمد الفضل سلطان دارفور فى زمن حملة محمد على باشا والى مصر على سنار وكردفان ، وكان ابو مدين يزاحم شقيقه على الملك ففر الى مصر واخذ يهون على محمد على فتح دارفور ، فارسله محمد على الى كردفان للسعى مع مديرها فى ذلك فبقى فى الابيض الى أن توفى .

(18) توفى محمد بن عمر التونسي بالقاهرة فى عام 1274 هـ (1857 م) وكان فى اواخر ايامه يقوم بالقاء دروس فى الحديث بمسجد السيدة زينب فى يوم الجمعة من كل أسبوع .
انظـــر : ENCYEL of Islam, art. TUNSI

وقد قام الدكتور خليل محمود عساكر ، والدكتور مصطفى محمد مسعد بنشر رحلة التونسى الى دارفور اعتمادا على هذه النسخة الحجرية التى نشرها بيرون بخطه مطبوعة على الحجر لان النسخة الاصلية باللغة العربية التى كتبها المؤلف بخطه مفقودة (19) .

اما عن رحلة التونسى الى واداي — وهى مكملة لرحلته لدارفور بل لعل من الارجح أن — الاثنين هما كتاب واحد وان تقسيمهما الى كتابين انما هو من صنع بيرون نفسه — فقد نشرها بيرون بالفرنسية تحت عنوان:
Voyage au Soudan Oriental — Le Ouday.

واضاف الى ذلك قوله أنها تؤلف تكملة لرحلة دارفور :

Et faisant suite au voyage au Darfour

ولعل هذا يؤكد ان الرحلتين انما هما كتاب واحد أعطاه الرحالة هذا العنوان :

« تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » (20) .

هذا وقد اثيرت عدة تساؤلات حول الظروف التى نشرت فيها رحلة دارفور ، ومدى مطابقة الطبعة الحجرية التى نشرها بيرون للنسخة الاصلية بخط الرحالة .

ورغم ان الدكتور خليل عساكر والدكتور مصطفى مسعد يذهبان الى ان النسخة العربية المطبوعة بالحجر بمثابة نسخة خطية للكتاب ويؤيد ان هذا الراي بأنها كتبت فى زمان المؤلف ثم روجعت بعد الطبع وقوبلت على نسخة المؤلف بدليل وجود تصويبات فى آخر هذه النسخة المطبوعة بالحجر — فان الاخطاء اللغوية والنحوية وفى قوافى الشعر التى وردت بهما — تجعلنا نتردد فى نسبها الى التونسى وهو عالم ويعتبر من

(19) اعتاد علماء الازهر المغاربة ان يودعوا مؤلفاتهم فى مكتبة رواق المغاربة التى ضمت فيما بعد الى مكتبة الازهر مع مكتبات الاروقة الاخرى — لكن التونسى ، للاسف ، لم يودع مؤلفاته فى مكتبةالرواق .

(20) لم يعثر على النسخة العربية لرحلة التونسى لوادای — وقد اخذ على بيرون انه لم يودع النسخة العربية للرحلة فى مكتبة عامة كالمكتبة الاهلية بباريس لتعم الفائدة — طالما لم تتح فرصة نشر هذه الرحلة بلغته الاصلية (العربية) .

أوائل الرواد فى تعريب المصطلحات الطبية والعلمية ، فضلا عن ملكته فى تذوق الشعر بل وفى نظمه كما يتجلى ذلك فى الشواهد التى تمثل بها .

مدى اهمية رحلة التونسى الى دارفور :

تقاس اهمية هذه الرحلة بمدى ما استطاع الرحالة أن يضيفه الى معلوماتنا عن الاوضاع الجغرافية والتاريخية والحياة الاجتماعية فى المناطق التى زارها وعاش فيها وسجل ملاحظاته عنها .

واهمية رحلة التونسى وقيمتها الحقيقية تظهر بالمقارنة بالرحلات المماثلة التى قام بها غيره من الرحالة الاجانب لزيارة هذه المناطق التى زارها التونسى ومحاولة التعرف على احوالها ووضع الحقائق الخاصة بها تحت انظار العالم المتحضـــر .

ومن اهم هذه الرحلات تلك التى قام بها الرحالة الانجليزي د. دينهام ، وكلاربتون ، واودنى فى الفترة بين 1823—1824 والتى نشرت نتائجها بالانجليزية تحت عنوان رحلات وكشوف فى شمال ووسط افريقيا، وكذلك رحلات كلاربتون ولاندر فى الفترة بين 1825 ، 1827 (21) والتى نشرت بالانجليزية أيضا تحت عنوان « قصة كلاربتون عن رحلته الثانية فى قلب القارة الافريقية (22) .

وكذلك رحلة بارث Barth فى الفترة بين 1849 — 1855 وقد نشرت نتائجها فى خمس مجلدات باللغة الانجيلزية بعنوان : « جولات وكشوف فى شمال ووسط افريقيا ما بين عام 1849 — 1855 » (23) .

---

(21)
O. DE NHAM, H. Clopperton and W. Dudney : Travels and Discoveries in Northern and Center of Africain 1822-4 (1826)

(22)
Clapperton's Narrative of a second Expedition into the interior of Africa (1829).
Barth, H. : Travels and Discoveries in North and Central Africa (1849-1855) 5 Vols (London 1857-1880)

— وعن تفاصيل هذه الرحلات انظر :
شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (1971) ص (95 — 101)

(23) Eneysl. of Islam, Art. Tonsi

والسؤال الذي يفرض نفسه علينا هو : ما موقف التونسي بالنسبة لهؤلاء الرحالة الاجانب الذين زاروا هذه المنطقة فى فترة قريبة زمنيا من زيارته لها ؟

والحقيقة ان رحلات التونسي تعتبر فى نظرنا اضافة هامة للمعلومات الخاصة بافريقيا لا يغض قط من قيمتها اغفال الاوربيين لذكرها او قلة تقديرهم لها . وقد اشار الى هذه الحقيقة شترك Streck محرر مادة التونسى فى الموسوعة الاسلامية فقال : « ان كتابات التونسى تعد مصدرا هاما لدراسة الاحوال الاثنوغرافية والثقافية والسياسية لبلاد السودان التى زارها ، ولكنها مع ذلك لا تلقى سوى قليلا من الاهتمام والتقدير .

كما اشار لذلك (جومار) فى مقدمته التى صدر بها رحلة التونسى الى دارفور ، اذ قال : « لقد اتضح لى عند قراءتى لهذه الرحلة انها ستضيف الكثير الى ما لدينا فى الوقت الحاضر من معلومات عن افريقية وانها ستكون نعم العون لاولئك الذين سوف يعتزمون السياحة الى ذلك البلد النائى الذى يمكن ان يعتبره مدخلا الى البلاد السودانية . (24)

لقد استطاع التونسى ان يعيش فى منطقتى دارفور ووادي ما يترب من عشر سنوات وبالنظر لما كان لوالده من مكانة لدى السلطان ولمكانته العلمية ، بالاضافة لعامل اللغة — فقد كان يسيرا عليه أن يندمج فى هذا المجتمع الذي عاش فيه وان يعايش الناس ويخاطبهم باللغة العربية التى يفهمها عامتهم ويتفهم عن قرب عاداتهم وتقاليدهم ، بل استطاع أن يحضر مجلس السلطان ويقف على كثير من أسرار السياسة وتقاليد البلاط ونظم الحكم والادارة والقضاء ، ويشهد بعض الاحداث السياسية والحربية الهامة ، وتجول بحرية فى كل انحاء دارفور مدنها وقراها واسواقها والمناطق الجبلية الوعرة التى لا يسمح لاحد بالدخول فيها الا باذن من السلطان .

---

(24) يلاحظ ان النسخة العربية لكتاب تشحيذ الاذهان التى نشرها د. خليل عساكر ، د. مصطفى مسعد — للاسف لم تتضمن المقدمات التى صدر بها بيرون وجومار الترجمة الفرنسية .

وقد اشار بيرون فى مقدمته الى هذه الحقيقة فذكر : « لا بد من أن يكون المرء قد عاش مثل التونسي فى هذه البلاد حتى يحصل على جميع التفصيلات والدقائق التى اودعها كتابه » (25) .

من جهة أخرى يمكن أن نعتبر رحلتى التونسى حلقة متأخرة من حلقات الكتابات العربية عن افريقية لانها بها أشبه — فهى تذكرنا بما كتبه الرحالة العرب القدامى الذين لم يقتصروا على ايراد ما امكنهم ايراده من وصف للمعالم الجغرافية للبلاد التى جالوا فى ربوعها ، بل كتبوا عن نظامها ووقائع تاريخها ومآثر أعلامها وعادات أهلها ومذاهبهم . واذا صح ما قاله أحد المستشرقين من ان الجبرتى هو آخر من يمثل المؤرخين العرب فى الكتابة طبقا للتقاليد العربية فى تدوين التاريخ ، فان التونسى يمثل ايضا آخر من كتب طبقا لاساليب الرحالة العرب (26) .

والحقيقة أن ما امتاز به الرحالة من بعد نظر وذكاء وشدة الملاحظة بالاضافة الى علمه الغزير كل ذلك جعله يقف عند الاحداث التى يمر عليها الانسان العادي دون ان تلفت نظره او تثير انتباهه او تشغل فكره ، أما هو فيتوقف ويناقش ويربط بين الحاضر والماضى ، ويقارن بين العادات والتقاليد المختلفة ويثير الامر العادي قريحته فيتمثل بأبيات من الشعر القديم او الحديث أو ينظم هو من الشعر ما يناسب المقام .

لمحة عن محتويات كتاب تشحيذ الاذهان : (27)

يقع الكتاب فى 480 صفحة من القطع الكبير ، وقد نشرته الدار المصرية للتأليف والترجمة فى عام 1965 ، وكما أشرنا فقد اعتمد الناشران فى تحقيق النص العربى على الطبعة الحجرية لبيرون وعلى الترجمة الفرنسية له ، وقد اضاف المحققان عدة حواش استنادا للعديد من المصادر .

---

(25) مقدمة بيرون للترجمة الفرنسية .
(26) عبد العزيز عبد الحق : مرجع سابق ص 64 .
(27) كما سبقت الاشارة — سنركز الحديث على الطبعة العربية التى نشرها الدكتور خليل عساكر والدكتور مصطفى مسعد باعتبارها الطبعة الوحيدة المتاحة للقراء

وقدم المحققان للكتاب بتصدير اوضحا فيه موضوع الرحلة وأشارا لطبعات بيرون لها وللمنهج الذى اتبعاه فى نشرها ، كما اوردوا ثبتا بالمراجع التى استندا اليها فى تحقيق الرحلة والتعليقات الواردة فيها

والكتاب من مقدمة ، ومقصد وهو الجزء الرئيسى فى الكتاب ثم خاتمة .

أما المقدمة فهى فى ثلاثة ابواب — شرح الرحالة فى الباب الاول السبب الباعث لرحلته لبلاد السودان ، وفى الثانى مشاهداته اثناء الرحلة من الفسطاط الى دارفور .

والباب الثالث من المقدمة اورد فيه نبذة عن سيرة السلطان عبد الرحمن الملقب بالرشيد ، واول أمره وولايته ووفاته .

والمقصد فيه ثلاثة أبواب سجل فيها مشاهداته ، ففى الباب الاول تحدث عن صفة دارفور (28) وأهلها وعوائدهم وعوائد ملوكهم (29) واسماء مناصبهم ومراتبهم ، وعن ديوان السلطان ، وزي الملوك .

وفى الثانى تطرق للحديث عن بعض التقاليد والعادات الاجتماعية المتعلقة بالزواج والاسرة فى دارفور .

وفى الباب الثالث تحدث عن بعض الامراض المنتشرة فى دارفور وكيف يعالجونها — ثم تطرق للحديث عن بعض الاطعمة عندهم ، وعن الوسائل المستخدمة لصيد الطيور والحيوانات وعن المعاملات والعملات السائدة فى المعاملات الجارية عندهم .

أما الخاتمة : فقد تحدث فيها عن المحاصيل التى تزرع فى دارفور.

كما يتحدث عن السحر وضرب الرمل وكيف أن بعض النباتات عندهم تستخدم لعلاج بعض الامراض او لجلب منفعة او درء ضرر او خطر

---

(28) تحدث فيه عن موقع دارفور من اقاليم السودان الاخرى (سنار ، ثم كردفان ، ثم دارفور) ، والممالك الصغيرة التابعة لها ، والقبائل التى تدين بالولاء لسلطان دارفور وبين أماكنها على خريطة .

(29) يقصد نظام حكمهم .

هذا وقد اضاف الناشران للطبعة العربية للكتاب ثلاثة ملاحق :

الملحق الاول وعنوانه : الامير ابو مدين ابن سلطان دارفور ومشروع الحملة المصرية على دارفوور سنة 1843 .

وهذا الملحق كتبه فى الاصل الدكتور بيرون نفسه والحقه بالنسخة الفرنسية للرحلة الى دارفور Voyage au Darfour وقد استقى بيرون معلوماته من الامير ابى مدين نفسه أثناء اقامته فى مصر من 1834 الى 1843 وقد ترجمه الناشران والحقاه بالطبعة العربية (30) .

أما الملحق الثانى فموضوعه تاريخ سلطنة دارفور منذ اول نشأتها الى الفتح المصري ، وقد نقله الناشران من كتاب : نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته (3 أجزاء — القاهرة 1904) (31)

أما الملحق الثالث فهو معجم عربى — فوراوي ، عبارة عن ترجمة للمعجم الفرنسى — الفوراوي الذي اضافه جومار لمقدمة الطبعة الفرنسية للرحلة مع بعض ألفاظ وعبارات عربية فوراوية جمعها الناشران مشافهة عن اهل (جبال مرة) اثناء الرحلة التى قاما بها الى دارفور فى شتاء عام 1961 (32) .

كما أضاف الناشران الى الكتاب عددا من الصور والاشكال والخرائط اخذت عن الترجمة الفرنسية أو عن مجلة السودان فى مذكرات ومدونات Soudan Notes and Records هذا بالاضافة الى كشاف لاسماء الاعلام والبلاد والاماكن ، وبمصطلحات الوظائف والرتب والالقاب ،ثم النبات والاشجار والاطعمة والاشربة وفصول السنة وشهورها والامراض والمساكن والمبانى واقسامها ، وانواع الرقص والسحر وضرب الرمل الواردة فى الرحلة رتبها وصنفها الناشران فى مجموعات .

---

(30) انظر الرحلة ص 343 — 366

(31) انظر الرحلة ص 367 — 414

ملاحظة : هذه الاضافة للترجمة العربية للرحلة قد يكون لا مبرر لها خاصة وان كتاب نعوم شقير فى متناول الايدى ، كما انه ليس الكتاب الوحيد الذى تحدث عن دارفور ، والمؤلف وهو مؤرخ له وزنه ولكنه ليس معاصرا للرحلة 367 — 435 .

(32) الرحلة ص 415 — 435

كما الحق بهذه الطبعة العربية جدول لسلاطين دارفور ابتداء من السلطان سليمان سلونج (1640—1670) حتى السلطان على دينار (1896 — 1916) وذكر الناشران انهما اعتمدا فى ترتيب هذا الجدول على ما ورد فى الرحلة بالاضافة الى دائرة المعارف الاسلامية . والى ما جاء فى كتاب نعوم شقير (تاريخ السودان) . (33) .

جهود التونسى الاخرى فى الميدان العلمى :

لم يقتصر الجهد العلمي للتونسى على تسجيله لمشاهداته وملاحظاته والمعلومات التى استقاها اثناء رحلته فى (دارفور) و (واداي) . بل انه قام — كما ذكرنا سالفا — اثناء عمله كمصحح بمدرسة الطب فى مصر بتصحيح وتنقيح العديد من الكتب الطبية والعلمية نذكر منها :

— الدر اللامع فى النبات ، وما فيه من الخواص والمنافع .
— كنوز الصحة ويواقيت المنحة .
— روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى .
— الدر الغوال فى معالجة أمراض الاطفال (34) .

كذلك قام التونسى بتحقيق طبعتى مقامات الحريري ، والمستطرف للابشيهى اللتين اخرجتهما مطبعة بولاق .

كما أشرف على تحقيق القاموس المحيط للفير وزابادي الذي طبع بمطبعة بولاق ، بعد مراجعة نسخة كلكتا على نحو سبع نسخ مخطوطة لهذا القاموس .

هذه لمحة سريعة عن بعض جهود هذا الرحالة المغربى ، وهى كما نرى تسير به الى مصاف أكبر الرحالة الاوربيين الذين ذاع صيتهم فى اوربا وكرمتهم دولهم والجمعيات العلمية ، بل انتقل صدى كل هذا لبلادنا العربية حيث يعرف المثقفون فيها الكثير عن هؤلاء الرحالة الاجانب بينما لا يعرف التونسى وامثاله من الرحالة والعلماء العرب الا عند القلة المتخصصة .

القاهرة — د . شوقى عطا الله الجمل

---

(33) الرحلة ص 478

(34) جمال الدين الشيال : دكتور بيرون ، والشيخان محمد عياد الطنطاوى ومحمد بن عمر التونسى — (مقال نشر بمجلة كلية الاداب — جامعة الاسكندرية — المجلد الثانى — 1944 — ص 221) .

قصة

الديوان

د. محمد زنيبر

كل عشي يجمعنا مقهى ــ الشيكي ــ وسط ضجيج المارة ونداء الباعة ودخان الشوائين ورائحة التوابل ممزوجة بروائح الخلق الذين تكتظ بهم طريق « السويقة » الطويلة . وقد سمى المقهى بمقهى « الشيكي » لان صاحبه كان أول من ادخل فرن غاز وحنفية كبيرة من الخزف الابيض اللماع . وأصبح هو القهوجي الاول فى تلك الطريق ، مما زاد فى زهوه وتيهه على الاقران وحتى على الزبناء .

ولم يكن فى طوقنا ، نحن الاربعة ، ان نذهب لاي مكان آخر . فصاحب المقهى الذي يؤجرناغرفا فى الطابق الاول يعاملنا بالقرض الى آخر الشهر ويجد مصلحته فى ذلك لاننا ننساق تلقائيا نحو استهلاك بضاعته بدون حساب . كما أنه لا يتردد فى تكوير ارقام الديون التى له علينا كلما كان ذلك لفائدته . ولكن ، اين نذهب ؟ فكل ثقب فى البلد مسكون تختنق فيه الانفاس من شدة الزحام !

ثم أن كل واحد منا غارق فى شغله الى الاذنين . وبعد جهد النهار المضنى ، لم يكن لنا من حيلة الا أن نقعد وسط هاته الجدران الداكنة التى

لا يزينها أي شيء، ونحن ننظر الى أمواج البشر المتدفقة من النافذة الكبيرة . كانت هذه هي فرجتنا الوحيدة في كل يوم : وجوه وهامات وهياكل تمر بدون انقطاع ، حتى أنه قلما تتاح لنا الفرصة لرؤية الجدار المقابل .
ومع ذلك ، فلا تعجب اذا أكدت لك اننا كنا نستطيع أن ننعزل وسط هذا الضجيج ! ويكفي أن ننساق مع أحلامنا العديدة وآمالنا الكبيرة ، لقد كانت حياتنا في بدايتها وشبابنا ما يزال غضا فتيا . ولم نكن نتعارف من قبل حتى التقينا في هذا المقهى وفي الطابق الذي يعلوه . اتى بنا الاسترزاق من أماكن مختلفة وآفاق بعيدة الى هاته المدينة الكبيرة التى لا نعرف فيها أحدا ، نمر في شوارعها مرور الغرباء المتواضعين الذين لا يسأل عنهم سائل ولا ينفتح لهم باب ، ولا يسمعون حتى من ينادي باسمهم .

ولذلك ، فقد كنا نتنفس الصعداء كلما التقينا في العشي ونحن أشوق ما نكون لبعضنا حتى صارت تلك الساعة تحسب ، في أعيننا ، من ضروريات حياتنا اليومية . فهي لذتنا الروحية الوحيدة التى تساعدنا على تحمل كثير من المصائب .

كان صديقنا « العربي » في هذا العشي واجما ، على خلاف عادته ، يحتسي قطرات القهوة بصورة آلية ويدخن ، ثم يتناسى سيجارته حتى تنطفيء ، ويشعلها ثانية وثالثة . وكنا نعرف مشاكله لاننا لم نكن نخفي عن بعضنا شيئا . ومع ذلك، فقد كنا نلمس فيه شيئا من التعفف يجعله يسكت ، في غالب الاحيان ، عن جوانبها الحادة والمستعصية . ومن الضروري آنذاك أن نلح عليه بالاسئلة ونضايقه بفضولنا وأن ننتزع منه الاعترافات انتزاعا .

واخرجته عن وجومه بسؤال : « هل تقدم مشروعك في هذا النهار ، يا عربي ؟

فهز نحوي بصره وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة ساخرة وقال : لم اشتغل به مطلقا .

— وصاحبك المدير ؟

ـ انه هو هو ، دائما فى نفس الحال !

ـ رغم كل ذلك ، صدقنى ، يا عربى ، انك احسننا حظا ، لان مشاكلك أنت ، على الاقل ، تتحرك وتتنوع .

ـ هذا هو الظاهر ، ولكن يجب أن تنظر الى الباطن .

كان يعمل صحافيا فى احدى الجرائد اليومية . وكنا نحن الثلاثة الآخرين أساتذة فى التعليم الثانوي . ومن خلال مجالسته ومحادثته ، كنا نتصل بما يجري فى العالم القريب والبعيد ونخرج من قوقعة الاستاذية التى هى من اشد القواقع صلابة وثقلا . وكنت أراه ، فى أول معرفتى به ، يحقق حلما طالما راودنى منذ سن المراهقة : حرية وتنوع فى العمل ، كتابة فى موضوعات مختلفة، اتصالات متعددة : فكيف تعرف السآمة منفذا الى حياة تدور فى مثل هذا الفلك ؟

ولم أقلع عن وهمى الا يوم استحكمت بيننا الصداقة وسقطت الكلفة ودخل متسللا فى حجرتى ذات مساء وأنا أ أهب للنوم . كان فى يده دفتر يمسكه بحرص وعطف . لقد جاء ليعرض على شعره الذي لم يقراه على احد والذي لم ينشر منه ولا قطعة واحدة . فكان فى موقفه آنذاك كمن يتدم الى هدية خاصة ونفيسة يصعب عليه ان يقدمها لشخص آخر .

وكان ذلك منه عنوان ثقة وتقدير اذ كان يرى فى الاستاذ الذي تعود على تدريس الادب وتحكيم ذوقه وحاسته النقدية ، عن ايمان لا عن امتهان . فجلست له وأنصت بأذن مرهفة .

وفوجئت بما سمعت ، وصادفت فوق ما كنت اتصور . وبدا لى أن النعوت المستعملة ، عادة ، مثل « جميل » و « جديد » و « عميق » الخ ... لا تؤدي ما انطبع فى نفسى . فلقد هزنى شعره حقا وحملنى الى ضفاف أخرى من نهر الحياةالمتدفق ، تظهر فيها الاشياء شفافة بمكنونها ، ناطقة بلغزها . وكان هنالك شوق واهتزاز وثورة ، دون أن أجد أي اثر للبكاء والانين والتشكى التى اعتدت أن اقراها فى الكثير مما ينشر من الشعر الجديد . وأخذت بتلك الروح التى تتحمل مصيرها دون أوجاع صارخةوبرجولة تختفى وراءها عزيمة صامدة متحفزة . فلم أتمالك أن قلت له : وماذا تنتظر ، يا اخى ، لنشر هذا الشعر ؟

فانطلقت من نفسه زفرة عميقة وقال : هيهات ! والف هيهات !

ــ ولمه ؟ لست افهم .

ــ هنا تبتدىء ماساة الشاعر الطويلة ، ولا أريد أن أملأ قلبك وانت مقبل على النوم .

ــ ولا عليك ! هذا اهم عندي من النوم .

وانبرى يحدثني بقصته :

« حينما دخلت الى الجريدة ككويتب مغمور موضوع على سبيل التجربة ، كان لي أمل في المدير الذي سمعت عنه من بعيد انه اديب يعطف على الادباء ويريد ان يحبب الادب الى الجمهور . وفآمنت بما سمعت واخذته فقها مسلما وبدات أشتغل بجد ومواظبة . الى ان واتت فرصة اختليت فيها بالمدير ، فعبرت له عن رجائي في ان يتبنى بنفسه نشر مجموعة اولى من شعري . لكنه لم يكتف برفض الفكرة فحسب ، بل رفض حتى أن يقرأ قصيدة واحدة منه وقال لي بلهجة ابوية : « لا أعتقد ان هذا بخل مني وتثبيط لقريحتك . ولكن ، يهمني ، الان وقبل كل شيء ، أن تصبح صحافيا قديرا وتعيش في الواقع وتترك عنك ، موقتا ، متاهات الشعر . وستأتيك الفرصة لتعود اليه . فأنت ما زلت شابا في مقتبل العمر . »

وكنت ما ازال أثق به آنذاك . فعملت بنصيحته وطويت الدفتر وتشمرت للعمل الصحافي بكل صدق واخلاص ، وادركت في قرارة نفسي ان هذا العمل له حرمته وجلاله ويستحق كل عناية واهتمام ، فصرت اكتب وأصحح واسهر الليالي المضنية .

وفي ذات يوم ناداني وكلفني ، لاول مرة ، بعمل صحافي خارج الادارة . لقد كان علي أن أقوم بتحرير بيانات مفصلة عن احدى المحاكمات . رحت للمحكمة وتتبعت الجلسة الاولى وتأثرت بما شاهدت وسمعت وانا في بيت العدالة وموئل القضاء اتفرس في الوجوه وانصت لاعترافات المتهمين وقصصهم . فكتبت بيانا أولا ما أظن اني اجتهدت في عمل كما اجتهدت فيه وسلمته لرئيس التحرير وأنا أشعر في أعماقي بارتياح من أدى الواجب .

وبعد ساعة ، وجه المدير فى طلبى ، وكنت ، والله ، اعتقد انـــه سيهنئنى على عملى لانى الى حد ذلك الوقت كنت مقتنعا بأنه صاحب فكرة وعقيدة . وما أن وقعت عينه على حتى صاح فى وجهى : ما هذا البيان الذي كتبـــــت ؟

ــ انه العمــل الذي طلبت منـــى .

ــ انت تعلم ان هذه ليست طريقتنا فى العمل .

ــ اسمح لى ، يا سيدي المدير ، لم اكن اعلم ان هنالك طريقة خاصة تتبعها الجريدة . وكل ما فهمت هو أن أقدم بيانا عما شاهدت وسمعت

ــ آه ! فهمت الآن ! وانا المخطىء ! انت شاعر وتريد أن تدخـــل الشعر والشعور حتى فى التحقيقات الصحافية !

ــ اقسم لك ، يا سيدي المدير ، انى قمت بهذا العمل كشاهد عيان فقط ، كما هو واجبى .

ــ شاهد عيان أم شاهد قلب ؟ فليكن فى علمك ان القلب لا محـــل له بيننا ! اننا عيون فقط ، عيون بدون قلب ! هذا واجبنا كصحافيـــــين موضوعيين . هل فهمت ؟

ــ بالضبط ، كانت تلك هى طريقتى . فقد اكتفيت بتسجيل ما رايت وسمعت ، دون أن أقدم اي انطباع شخصى . واهتممت كذلك بتسجيـــل شعور الناس حتى ابلغ كل الحقائق للقراء ، وانا مقتنع ان هذا هو واجب الصحافـــــــى .

ــ انصت ! لا يوجد عندنا هنا محل للمناقشة ! وقد منحتك فرصة لاظهار مهارتك ومقدرتك ، ولكن تبيـــــن لي ، الآن ، انه من الاحســــن أن استغنى عنك فى مثل هذا العمل .

ومنذ ذلك الحين صنفني المدير فى صنف خاص ؛ فلم يعد يسند الى اي عمل خارج الادارة . ووجد طريقة غريبة لاستغلالى فصار يوجه الــــى افتتاحياته وكل المقالات المهمة لمراجعتها من ناحية العربية وتصحيـــــــح أخطائها النحوية وتهذيبها من ناحية التعبير والاسلوب ان اقتضى الحال .

وانكسر تحمسى وانهد الطموح الذي نشأ فى نفسى نحو العمل الصحافى المتقن ، ووجدتنى ، مرة اخرى ، فى حضيض التساؤلات والمشاكل العقيمة . فعدت للشعر وفتحت الديوان من جديد عسانى انسى الاوحال التى كنت غائصا فيها » .

وتوقف العربى عن الكلام . فقلت وقد شعرت بعطف متزايد عليه : كثيرا ما يصطدم النبوغ ، فى البداية ، بالعراقيل وخيانة الحظ . وهذا شىء معروف فى التاريخ ، واظننى فى غنى عن سرد عدد من الامثلة عليك . فاياك أن تنكص على عقبيك !

— اننى لم أنكص . ولكن الابواب ما زالت كلها مسدودة امامى .

— يجب أن تعرف كيف تفتح واحدا منها بمهارة !

— كيف ؟ اشر على برأي .

— اليس معك بعض الزملاء الذين يتعاطفون معك ؟

— تعاطف سطحى ، هذا موجود . ولكن ذلك لا يصل الى درجة الاهتمام بشعري ، فأحرى الاهتمام بنشره .

— موقف جماعى بهذه الصورة ؟ ! ان فى ذلك ما يملأ النفس خيبة !

— لا أسمح لنفسى الا باستثناء واحد واقصد به رئيس التحرير الذي يغمرنى بالابتسام من وراء نظارتيه الداكنتين ويبشر ولا ينفر ويظهر شيئا من العطف والاهتمام . ولكن كلما حاولت أن آخذ منه شيئا صحيحا وملموسا ، لا اقبض الا الريح . انه يراوغ بتؤدة ودون أن يبتعد عنك بحيث يستمر الحوار كأن شيئا لم يكن .

فقلت بشىء من السذاجة : لم يبق ، اذن ، اي خير يرجى فى البشر !

— لست ادري هل من الحق أن تعمم هذه الفكرة ، ولكن تستطيع ان تقولها عن البشر الذين اشتغل معهم .

ـ حقا ، اننا كلنا فى عملنا المهنى خاضعون ، أحببنا أم كرهنـا ، لالوان من العبوديات والمضايقات ! ولكن . . هنالك فكرة أخرى : لم لا تبحث عن ناشر حر ، وانا اضمن لك كل النجاح لدى الجمهور الشاب ؟

ـ هذه قصة اخرى لا أريد أن أدمى قلبك بسماعها .

ونظر الى ساعته وقال : « هذا نصف الليل . وهو موعد الذهـاب الى الجريدة لاقضى فيها حصتى الليلية . الى اللقاء ، اذن » .

وفى الغد ، لما خلونا الى بعضنا ، عرفت الفصل الثانى من القصة . لقد وضعه المدير فى كتابته الخاصة ، نظرا لاحتياجه المستمر اليــه . وهناك تعرف على صاحب مطبعة كان له اتصال وثيق بالمدير ، وحدثه عن ديوانه الشعري ورغبته فى طبعه ان وجد ناشرا يتحمل مصاريف النشر . ولم يصادف من مخاطبه الا التشجيع والملاطفة . فعقد معه موعدا فى مطبعته وذهب اليه بالمخطوط واستقبله الآخر بلطف وبشاشة وتناول الديوان واخذ يتصفحه بعجل ثم رفع بصره نحو الشاعر وقال : « لم لم تحاول نشره فى مطبعة الجريدة ، اذ ربما وجدت هناك تسهيلات أكبر ؟

فأجابه : أفضل أن تبقى علاقاتى بالجريدة مهنية بحته .

ـ حسن ! اترك لى المخطوط حتى أدرس الموضوع مليا واعطيـك جوابى بعد يومين او ثلاثة ، وأؤكد لك أنه من ناحية المبدأ ليس هنالك أي مشكل . ولكن الديوان الشعري فى حاجة الى اخراج خاص . ولربما كان من الضروري تزيينه ببعض الصور الفنية !

واعتقد ، وهو يسمع مثل هذا الكلام ، انه عثر على ضالتــه المنشودة . فودع صاحب المطبعة شاكرا وترك له الديوان وخرج من عنده مغمورا بالتفاؤل والارتياح . وفوجىء فى الغد بنداء غير معتاد من لــدن المدير . فدخل الى مكتب هذا الاخير وسد الباب وراءه . ودخل المدير معه فى الموضوع توا دون أن يدعوه للجلوس ورفع نحوه نظرة سخط واستنكـار تفجرت فى هاته الكلمة : « بدأت الآن تستغل النفوذ ، أليس كذلك ؟

ـ استغل النفوذ ؟ أي نفوذ ؟ والله انى لا أفهم شيئا ، يا سيــدي المديــر .

ـ انتلا تفهم أم أنك تحاول ان لا تفهم ؟

ـ انى لا افهم مطلقا واود أن تقدم لى ايضاحات عن الموضوع .

ـ كيف ؟ وضعتك فى مكان الثقة والامانة فوجدتها فرصة سانحة لاستغلال معارفى واصدقائى . هل يسوغ لك أن تنكر هذا ؟

ـ انى لا افهم شيئا ...

ولاحت من العربى عند ذاك التفاتة الى طاولة المكتب ، ففوجىء برؤية مخطوطه ، فاستدرك قائلا : « اللهم الا اذا كان الامر يتعلق بهذا المخطوط ، ولكن . . .

فقاطعه الاخر : ـ فهمت الآن ماذا اقصد باستغلال الثقة ؟

ـ ولكن ، كيف سمح صاحب المطبعة لنفسه بمثل هذا التصرف بعدما اظهره من مجاملة ولطف ؟ ! هذا منافق واي منافق !

ـ بل رجل مخلص ! وهل تظن أنك تستطيع أن تقضى مصالحك من وراء ظهري مع أصدقائى دون ان اكون اول من يعلم بذلك ؟ ! انك لغر ساذج !

ـ مهما يكن ، اسمح لى ، يا سيدي المدير ، ان أؤكد لك انى لم استغل ايثقة ، وليس فى طبعى مثل هذا التصرف . ولو كنت أريد أن استغل النفوذ لقدمت المخطوط الى مطبعة الجريدة .

ـ انت تعرف أن مثل هاته الالاعيب لا تنطلى علينا ها هنا ، ولهذا رحت تتسلط على أصدقائى .

ـ رحت الى رجل صاحب مطبعة وعرضت عليه مخطوطى بالطرق العادية والمشروعة .

ـ ومن اين لك أن تعرف هذا الرجل لو لم تره هنا ؟ !

ـ هذا رجل بابه مفتوح للزبناء يأتونه من كل مكان .

وعندمذ استشاط المدير غضبا وقال : « ألم اقل لك ان المناقشة ليس لها محل هنا ؟ !

ــ ولكن اسمح لى ، يا سيد يالمدير ، أن اقول لك ان هذا الموضوع ليست له اية علاقة بالشغل ، بالجريدة . هذا موضوع شخصي ولا حق لاحد فى التدخـــل فى شأنـــه !

ونهض المدير من مكانه والشرر يتطاير من عينيه واعصابه ترتجــف وقال بصوت مرتفع : « وتواصل المناقشة معى ، بكل وقاحة ؟ ! اخرج عنى حالا ! لم يبقلك مكان عندي ها هنـــــا !

وأجابه العربى ، بكل برودة : « أنت فى غنى عن كل هذا الغضـــــب والقلق ! سانسحب ، حالا ، واريحك من رؤيتى . وانما اسمح لى أن آخذ مخطوطــــى » .

واخذ العربى مخطوطه ورجع الى مكتبه وانهمك حالا فى جمــــــع اوراقه وقد صمم العزم على التخلى عن عمله فى الجريدة . لقد خاب ظنه فى المدير الذي كان يتراءى له من بعيد كأحد رعاة الادب والثقافة . فـــاذا بالحقيقة تنكشف له عن العكس . واذا به يذوق مرارة الاوهام الساخرة ! كلا لن يبقى هنالك لحظة واحدة . ووضع أوراقه فى حقيبته . ولمح مسودة فوق مكتبه ، فأخذها ومزقها بقوة وشتتت قطعها فى سلة المهملات . انه الخطاب الذي كان المدير سيلقيه فى احدى الندوات عن موضوع الصحافة ودورها التربوي والاخلاقى . لقد كلفه منذ أيام بكتابته ، معتمدا عليه فى كل شىء ، بحيث لا يبقى له الا أن يعلو المنصة ليقرأ بفصاحة ما كتــــب له . وخف نحو الباب ليغادر مقر الجريدة واذا بالوصيف يناديه من الخلف باستعجال : « يا سى العربى ! المدير يطلب منك أن تنتظر قليلا » .

فأجابه على الفور : « قل لسيادة المدير أن الامر قد انتهى بيننا » .

وما أن اتم هاته الجملة حتى احس بيد لطيفة لينة تربت على كتفه ، فالتفت فاذا برئيس التحرير نفسه يشع عليه بابتسامة مشرقة هادئة . ودعاه بلهجته المهذبة الى الدخول معه فى مكتبه . وهناك أخذ يطيب خاطره ويهدىء من روعه ويرجوه أن لا يحمل غضب المدير محمل الجد ويتضامن معه فى جوهر القضية ويدعوه الى أن يكون متفهما وواقعيا ، فالمديــــر معروف بأزماته الغضبية العارضة ، والكل متعود عليها . ثم ختم كلامه قائلا : « لا تكن سريع الغضب ، انت ايضا ، تتأثر لادنى شىء ! ان

مستقبلك هنا معنا ، يا عربي . انت واحد منا . ولديك معرفة وكفاءة يعترف بها الجميع . وأنا اضمن لك ان الفرص ستأتي لتحقيق مشاريعك الادبية الموجودة والتي ستوجد . فلا تكن ابله وتضيع مستقبلك لاسباب تافهة ! وأستطيع أن اقول لك منذ الآن ان لدى فكرة مهمة سأعرضها عليك حينما تكون أكثر استعدادا للمذاكرة في مثل هاته الشؤون » .

ولم يكن قادرا على مقاومة هاته التدخلات الممزوجة بمظاهر العطف والاخاء وتملكه الخجل وظل صامتا لا يحير جوابا . فسأله رئيس التحرير : « أراك صامتا . ماذا تقول ؟

ــ ماذا اقول ؟ وهل بقي لى رأي امام هذا التناقض بين لطفك وشراسة المدير ؟

ــ شكرا . ولكن اسمح لى ان أقول لك انك ما زلت لم تعرف المدير على حقيقته . انه رجل لابد من تحمله في صبر وأناة . ثم انه ، في الواقع ، ينسى في اللحظة الثانية ما قاله في اللحظة الاولى . والدليل على ذلك هو أنه ، بعد مخاصمتك بدقائق معدودة ، وجه اليك يطلب منك الخطاب الذي كلفك به . فلما لم يجدك في المكتب ، تذكر ما حدث ورغب الى في أن استرضيك وأن أعتذر لك باسمه وأن لا أتركك تنصرف ، لانه لم يكن في نيته أن يطردك وانما يناقشك ويعاتبك . والآن ، اسمعني وارجع الى مكتبك وعملك كأن لم يكن شيء . »

واستمع العربي الى النصيحة وعاد الى مكتبه وانبرى ، من جديد ، يحرر خطاب المدير الذي مزق مسودته منذ لحظات وهو يتساءل في قرارة نفسه اليس ذلك الخطاب هو السبب الحقيقي في محاولة استرضائه والالحاح في رجوعه .

واخذ جانب من الحقيقة المخبوءة ينكشف له بعد ايام حينما فاجأه رئيس التحرير بزيارة ودية في مكتبه آخر العشي . جاء يشكو من كثرة الاشغال وثقل المسؤوليات وقلة اليد العاملة الخبيرة الصالحة وضياع المشاريع الجيدة من جراء ذلك . وتبادلا الراي في الموضوع . الى أن بدرت من رئيس التحرير هاته الملاحظة : « حينما افكر بعمق في الموضوع ، لا أجد الا شخصا واحدا هو الذي يمكنني أن أعتمد عليه . . .

ـ مـــن ؟

ـ انت ، يا عربى ؟ السؤال لا محل له .

ـ شكرا . ولكن هناك من هم اقدم منى .

ـ الاقدمية ليست هى المقيـاس الوحيـد .

ـ على كل ، انا اشتغل الآن ، باستمرار ، واقوم بالمهمة التى تنتظر منى قبل ان أستمع الى طلبـك .

ـ انا اعرف ذلك . ولكن المهمة التى اقترح عليك الآن من شأنها ان تركز عملك فى الميدان الذي يتلاءم أكثر مع مواهبك وذوقك ، واعنى بـه ميدان الادب . وهذا يعنى أنك ستخفف من عـدد من الاعبـاء الصغـرى والهامشية . ولكن أريد أن اعرف هل يهمك هذا ، من الوجهة المبدئية ؟

ـ هذا يهمنى طبعا ؟ ولكن ، لا أقدم جوابا نهائيا قبل أن أعرف كـل شىء بتفاصيلـه .

ـ لعلك ما زلت تذكر انى حدثتك ، منذ أيام ، عن فكرة جديـدة نريد تحقيقها فى الجريـدة ؟

ـ نعم .

ـ والفكرة هى ايجاد ركن خاص بالنقد الادبى ، واعنى بذلك النقـد الحى الذي يهم الجمهور ويثير النقاش المفيد . ولما عرضت الفكرة علـى المدير استحسنها وبادر بذكر اسمك كمسؤول عن هذا الركن . فماذا تقول؟

ـ فكرة نيرة وجيدة ولكن هل هناك تعليمات خاصة فى طريقـة انجازهـا ؟

ـ لك كامل الحرية ، يا عربى . وكل ما نطلبه منك أن تستفيد مـن أحدث النظريات فى النقد الادبى حتى لا نكون متخلفين عن الركب .

ـ على هذا الاساس ، لا مانع عندي من القيام بهاته المهمة .

وكتب المقال الاول والثانى فى هذا الركن الجديد خصصهما لبعض الافكار والمبادىء الاساسية التى يراها كمنطلق لمذهب خاص بالنقد الادبى فى المغرب . وكان ذلك توطئة منه لاستعراض بعض الآثار المكتوبة وبعض المؤلفين فى سلسلة من المقالات . وفوجىء بزيارة خاصة لرئيس التحرير الذي جاء ، حسب تصريحه ، لتهنئة العربى على ما كتبه ، ولكن تبين أن زيارته كان لها هدف آخر . فبعد جمل التهانى قال : « اذا سمحت ، يا عربى ، لدي اقتراح . . مجرد اقتراح . .

— تفضل . . .

— انك ستدخل الآن فى نقد الاشخاص وآثارهم . وأرى من المفيد ان تبدأ ببعض الاسماء » .

وذكر له جملة من اسماء الكتاب المعروفين بالمغرب . فاعترضه العربى : « لماذا هاته الاسماء بالضبط ؟

— هؤلاء أصنام أدبية ، يجب تحطيمها ، انهم شغلوا المكان والزمان وشغلوا العقول أكثر مما يجب .

— ولكن ، سامحنى . ربما كان من بين هؤلاء الاشخاص من يستحق التقدير والتنويه . فكيف نعمل على تحطيمهم ؟ ان هذا ، فى رايى ، يتنافى مع مفهوم النقد الادبى الصحيح .

— انا افهم تورعك فى هذا الموضوع . ولكن ، ما قيمة اشخاص معدودين اذا كنا نريد ان نحدث تغييرات فى حياتنا الفكرية والادبية ؟

— واذا كان هؤلاء الاشخاص يعملون هم ، أيضا ، من أجل هذا التغيير ويؤمنون بذلك ؟ أليس من الظلم اتهامهم ومهاجمتهم ؟ على كل ، أنا لا أعتقد اننا سنخدم نهوضنا الفكري بهاته الطريقة .

— ولكن ، ارجوك أن تفهمنى ، فلربما خانتنى الصراحة الكافية وأنا احادثك فى الموضوع . ان المدير نفسه يقترح هاته القائمة على أساس التشهير بعيوب كل واحد منهم فى ميدان الكتابة . فهاته على أي حال ، الخطة التى تريد أن تسير الجريدة فيها .

ــ آه ! الآن فهمت ؟ هؤلاء الاشخاص يعتبرهم المدير خصومـــا ومنافسين ويريد أن يسخر الجريدة من أجل القضاء عليهم ؟ أليس كذلك ؟

ــ مع شيىء من تلطيف العبارة هذا هو المطلوب ، بالضبط .

ــ يستحيل على أن أستجيب لمثل هذا الطلب .

ــ ولمـــــه ؟

ــ جوابى يتلخص فى كلمتين : الضمير المهنى .

ــ الضمير المهنى ؟ هل تظن أن العالم يسير حسب الضمير المهنى ؟ وهل تظن أنك بموقفك هذا ستحول دون السير بالمشروع الى هدفه ؟ لا تكن مغفلا ، يا عربى ! هنالك العشرات من حملة الاقلام على استعداد للقيام بهاته المهمة ، دون أدنى تردد . وأنا ما حرصت على أن تكون أنـــت صاحبها الا لكونى أميل اليك وأعدك صديقا .

ــ شكرا ، ولكن يستحيل على ان اقوم بهذا العمل على الصورة التى ذكرت . أنا مستعد أن اكتب نقدا أومن به واتحمل مسؤوليتى كاملة فى كل كلمة من كلماته . أما أن أكتب نقدا تفرض على افكاره مسبقا ، فهذا ما لا أستطيع أن اتصوره ولا ان اقبله !

ــ انى آسف ، والله ، لكوننا لم نتفق على موضوع بسيط وواضح كهذا . وأفضل أن اترك لك مهلة تفكر فيها قبل أن تقدم لى جوابك النهائى.
ــ بكل صراحة لست أرى فائدة من وراء أي مهلة ، مهما طالـــت فالمسألة بالنسبة لى ، أيضا ، واضحة وبسيطة . انها مسألة مبدأ . فالنقد فى اعتباري مسؤولية فكرية واخلاقية . وانا اقدر هاته المسؤولية حـــق قدرهـــــا .

ــ مهما يكن ، يا عربى ، أرجو أن يبقى هذا الحديث سرا بيننا .

ــ اطمئــــن .

وخرج رئيس التحرير من المكتب . وتوقف العربى عن مواصلـــة الكتابة فى ركن النقد ، وقد فهم الغاية من ايجاد مثل هذا الركن. وفوجىء ،

بعد ايام ، بتوظيف شاب فى مكتب المدير . واتضح له من المعلومات التى اكتسبها أن ذلك الشاب هو ، ايضا ، من الكتاب الناشئين ، وانه يمكن ان يكون بديلا له فى كل شيء . وهكذا أصبح المدير قادرا على ان يستغنى عنه متى شاء ، ما دام قد اتى بهذا المنافس الجديد . فأسلم نفسه لتصرفات القدر وهو مستعد لكل الطوارىء . واصبح منذ ذلك الحين يمارس عمله بصورة روتينية دون اقبال ولا تحمس . وهو لا يرى فيه الا وسيلة ضرورية لكسب قوت يومه .

ولم أستطع أن أحبس الثورة التي كانت تصرخ فى نفسي : كيف يظل مثل هذا الشاعر النابغ مجهولا منسيا ، يعيش فى حجرة بالية رديئة بحى السويقة ، مع أن الوطن ربما صاغ له اكاليل المجد يوم ينتبه له وقد مشى علية القوم وراء نعشه ليهيلوا التراب على جسده الهامد ؟ وكيف يتسنى لجماعة من سماسرة الاقلام واقزام الفكر أن يتلاعبوا بالمواهب ويكبتوا القرائح المبدعة ويجلسوا على ارائك الزعامات والرياسات دون أن يوبخهم ضمير أو يصيبهم ندم ؟ وكيف تظل هذه الجواهر النفيسة مخبوءة مجهولة ، فى حين تبدد الاموال كل يوم فى السفاسف والترهات ؟ فما قيمتك ، يا فكر ؟ انك تحتج ، وتصرخ وتسترعى الانظار ، وتوضح وتقدم الحجج والبراهين ، ولكن من يحملك محمل الجد ؟ ومن ينصت لك ؟ ومن ينتبه لوجودك ؟ فصح ما شئت أن تصيح ، فأنت ، فى نظر الكثير ، مثل المجنون الذي لا يكف عن الهذيان وهو يمر فى الازقة والشوارع !

لقد كنت أفكر آنذاك كشاب ، ما فى ذلك شك . ومع ذلك ، فما زلت الى الآن ، بعد مرور سنوات وسنوات ، وبعد أن علمتنى الحياة أن اكون « واقعيا » ، أشعر ببقايا هاته الثورة فى نفسى . اشعر بها شعورا قويا لا نى حاولت أن افعل شيئا اغير به هذا الواقع المر . فما زلت اذكر كيف تأثرت وتحمست وقلت لصديقى ، بعد أن علمت بقصته من أولها الى آخرها :

« أظن انه ليس من الممكن الاستسلام للامر الواقع ! بل لابد من رد فعل !ان هؤلاء المتنصبين فى المناصب والمراتب حينما يفعلون ما يريدون، يعتمدون فى الدرجة الاولى على شيء واحد ، وهو طبيعة الجبن والكسل

والاستسلام المسيطرة على غالبية الناس . ولذلك فانهم يخافون من كل انتفاضة تتولد عنها اليقظة والشجاعة .

— معك حق . لقد فكرت جيدا فى الامر . ولكن ، ماذا أفعل بالشيخ والعجوز والاولاد الذين تركت فى القرية ؟

ولاول مرة يحدثنى عن عائلته . فقد كان هو عمدتهم الوحيدة . الشيخ والده أصبح عاجزا عن العمل ، والوالدة طريحة الفراش لكثرة الاولاد . وهنالك أخوة وأخوات صغار يملأون كل فضاء البيت الصغير المتواضع . والكل ينتظر فى آخر الشهر الحوالة التى تنزل عليهم كالرحمة من السماء والتى يقتاتون ويكتسون منها .

فقلت له وانا استوعب كل هاته المعلومات الجديدة :

« انى لا اقترح عليك أن تتخلى عن عملك الحالى . بل كل ما افكر فيه الان هو أن نتعاون ، نحن الاربعة ، على نشر هذا الديوان .

فبدرت منه حركة تعفف وامتناع وقال : — هذا مستحيل ! فانتم فقراء مثلى ولديكم عائلات تساعدونها .

— أعرف هذا ، ولكن اذا اقتسمنا الحمل ، نحن الاربعة ، فلربما تغلبنا على المشكل . ويمكن أن تعتبر مساهمتنا المالية فى نشر الديوان كقرض ترده لنا فيما بعد . وكن متيقنا منذ الآن أن الصديقين الاخرين سيرحبان بالفكرة .

— لست أشك فى حسن نيتكم ، ولكن اظن أنك تتحمس بسرعة دون أن تفكر فى العواقب ! لقد قامت صداقتنا الى الآن على التقارب الروحى . وما دخل المال فى علاقة طاهرة من هذا النوع الا وأفسدها وغير مجراها .

— أظن أنك لم تفهم الموضوع ! فالمال ثانوي فى الموضوع وليست له أهمية مطلقا ! ذلك أن ربحنا فى القضية ليس هو طبع ديوان فقط ، بل هو أن نرى واحدا منا ، شابا من جيلنا يخترق هاته السدود السميكة الصلبة التي وضعها الاوصياء المتنصبون والانتهازيون المخاتلون واعداء التحرر الفكري ! ان نشر ديوانك فيه نصر لقضية الجيل الصاعد ، للفكر الحي الفتى وعن طريق هذا الديوان سنؤكد حضورنا لاولئك الذين يريدون أن يتجاهلوه.

ـ مرحى ، مرحى ، ايها الاخ العزيز ! ولكن ، الست ترى انكم تريدون أن تلتزموا بما يتجاوز طاقتكم المحدودة . وانا لا أريد احراجكم . ولذلك ، فلا أستطيع أن اقبل اقتراحكم .

ـ هذا خطأ ! وانت تعلم انه من الاشياء العادية فى العالم بأسره نشر الكتب عن طريق الاكتتاب ! ان ما نقترحه عليك ليس من قبيل المعجزة.

ولم يجب ، وظل واجما ، جاد الملامح ، واصابعه تضغط على كتفه بشدة ، ثم قام من مكانه فجأة وكأن قوة كامنة استيقظت فى نفسه ودفعته من مقعده . وخطا خطوات آلية فى الحجرة الصغيرة كمن يحاول ان يبرد جرحا مؤلما ، بينما تشاغلت برؤية المطر الذي بدأ يضرب على زجاج النافذة . واذا به يلتفت الى ويحدق فى عينى ويقول وكأنه ينتزع الكلام من أعماق نفسه :

« لعلك تعتقد أن رفضى صادر عن كبرياء ! اعلم ، يا أخى ، انى فقدت كل كبرياء منذ قدمت الى هذا البلد ! واعلم ، أيضا ، انى تعلمت الخضوع والمسكنة ، وطويت جوانحى ، كل يوم ، على جراح الهوان . ورايت نفسى آلة مسخرة فى اياد عابثة تمسكنى بدون اكتراث كما تمسك السكين أو الملعقة فى ساعة الاكل ، ثم تطرحنى جانبا الى وقت آخر .

« لقد كنت اكتب الشعر وانا أنظر الى الحياة ، من بعيد ، كشراع أبيض خفاق يظلل وجوها مشرقة حالمة . ومع ذلك ، فلم اكن خياليا ولا مثاليا أعيش بالوهم والسراب . بل كنت أعرف أن الشر موجود ، ولكن ما كنت اتصور انه يمد جذوره الى كل هاته الاعماق ويعبر عن نفسه بكل هاته الوقاحة . وهل تتصور ما هو مضمون ذلك التعبير ؟ ان مثلى لا حق له فى الحياة او ، ان سمح له منها بنصيب ، فهو نصيب الآلة التى تستخدم ، دون رعاية ، حتى تبلى وتفل وتقذف فى الخردة .

« وهل تتصور ما هو دوري كآلة ؟ هذه اشياء منعنى التعفف عن ذكرها الى حد الساعة . او لعله الكبرياء ؟ لست أدري . على كل ، ها أنا أبوح لك بها كما هى دون تمويه ولا تجميل . ان دوري ، أيها الاخ العزيز ، هو أن أحرر الكثير من أبواب الجريدة ومقالاتها . فأنا ماكينة للتفكير والتحرير . ولكن ، لا يعترف لى بهذا . فالكثير مما احرره ينشر

بدون امضاء ، بدعوى أن الجريدة عمل جماعى لا يصح أن يبرز فيه الافراد . ولكن هذا لا يمنع المدير أو رئيس التحرير ، فى بعض الاحيان ، من وضع امضائه على ما دفعت فيه عصارة فكري وسهرت فيه ليلى ، بدعوى تحمل المسؤولية . والحقيقة أن كل واحد منهما يترصد لاحسن ما اكتب فيتبناه بكل بساطة .

« وحتى ذلك الشاب الذي اتى به المدير أخيرا ليكون منافسى أصبح فى مستطاعه أن يصول ويجول على ، بعد أن تمكن من اكتساب ثقة المدير بالانحناء والتصاغر والتملق . فهو لم يتردد فى القيام بالمهمة التى رفضتها . وصدرت له مقالات انتهش فيها أعراض عدد من الكتاب وحملة الاقلام . متعسفا فى أحكامه ، متحاملا فى تحليلاته بحيث لا يرى الا السيئات ولا يسلم بحسنة من الحسنات . كل هذا أعطاه الحق ، فى نظره ، ليخاطبنى من اعلى ويبلغنى تعاليم المدير واوامره . ثم انه ، هو الآخر ، أصبح لا يتردد فى استغلالى ، عند الحاجة ، واختلاس انتاجي بطريقة صبيانية . فكم مرة يأخذ ما كتبت ويقراه ثم يعود الى بعد ساعة ليناقشنى مناقشة اللغويين والنحاة فى بعض الكلمات ، ممهدا بذلك لتغييرات طفيفة فى النص الذي حررت ! وبهذا التدخل يسمح لنفسه أن يخرج المقال ، بعد ذلك ، بامضائه .

« فأي أهمية تبقى لاصدار الديوان فى عينى وانا ارى حقى فى الحياة مغموطا الى هذا الحد ؟ ولنفرض انى تغلبت على كل المصاعب ونشرت الديوان ، هل تظن ان ذلك انتصار ؟ قد يكون فوزا بالنسبة الى كفرد بين العديد من الافراد ، ولكنه ، فى الواقع ، اختلاس لان المجتمع ، كما هو ، ما كان ليسمح لك بهذا الحق ، وانما انتزعته منه عن طريق الغفلة . وكم هم أولئك الذين لهم دواوين غير منشورة ، كما هو شأنى ! وكم هم أصحاب المخطوطات فى ميدان القصص والرواية والنقد واصحاب الابداع فى ميدان الفن الذين لا يجدون الوسائل للاتصال بالجمهور ولا يجدون الا التجاهل والاعراض لدى من يستطيع أن يمد لهم يد المساعدة ! ماذا نقول عن كل هؤلاء أو كيف نحل مشاكلهم ؟

« المسألة هى ، قبل كل شىء ، دفاع عن كرامة ، تأكيد لوجود ، تحقيق لحرية . فهاته الايادي التى تضعنا فى الحظائر مثل السوائم والدواجن

وتحاول أن تسحقنا ، يجب أن نقطعها ، اولا . هل فهمت ؟ يجـــب أن نقطعهـــــا ! » .

فقلت له ، وقد شجعتنى اعترافاته على التمسك بفكرتى :

ــ هذا بالضبط ما سنصل اليه اذا اخذنا بالفكرة التىاقترح عليك . انها فكرة ستجعل منا قوة أمام اولئك الانتهازيين الذين يقفون حاجزا فى الطريق ، ويستغلون غفلة الشبا بوتشتت صفوفهم وفوضويتهم ليحتلوا مركزا كبيرا لا يستحقونه فى المجتمع ، ويمارسون ، عن طريق الاغتصاب، وصاية على الفكر تأخذ بخناقه ! وعلى كل ، يا عربى ، أنا لا اريد أن افرض عليك شيئا من الآن . فاقتراحى ما زال مطروحا عليك حتى تفكـر على مهلك فى الموضوع وتقرر فى شأنه ما شئت ؟ وانما لا تنس انها قضية مهمة بالنسبة الينا ، أيضا ، وأن مساهمتنا فى هذا العمل هى نضال من اجـل التحــرر .

وامكننى بعد ايام ان اقنعهبقبول الفكرة ، وان كان اقتناعه اكتسى صورة التنازل والاستسلام اكثر من صورة اليقين والايمان . فقد قال لى وهو يعلن موافقته على اقتراحى : « انصت . فانا موقن بأن الشر لابد من أن يستأصل من جذوره . أما انت ، فتتركه يعيش ، ويكفيك أن تسترق غفلته . وبرغم كل هذا ، فانا اقبل أن احاول معك هاته المحاولة » .

وكنت ، فى هاته الاثناء ، قد حدثت صديقى الآخرين فكان ما توقعت من اهتمامهما واقتناعهما بالفكرة . وامكننا فى ظرف شهور معدودة أن نوفر قدرا من المال للمساهمة بصورة فعالة فى نشر الديوان الذي بدا يتراءى لنا كرمز ، كحدث تاريخى . وحينما اخبرت العربى بالامر ، اظهر كل شكر وارتياح . واتفقت معه ، فى الحين ، على الشروع من الغد فى تنفيذ الفكرة .

وذهبنا ، بالفعل ، فى صبيحة الغد الى صاحب مطبعة حدثنى عنـه بعض الزملاء . وعرضنا مشروعنا عليه ، وتعرفنا على الشروط والثمن ، وتبين لنا أن عرضه كان لا يخلو من اغراء بالقياس الى ما هو جار به العمل. وودعناه على اساس أن نعود اليهلنتفق اتفاقا نهائيا .

كان العربى رضى النفس مرتاحا وهو معى فى طريق الرجوع الى المقهى . ولاول مرة رايته يخرج عن تحفظه المعتاد ليعبر لى عن صداقتـــه العميقة ، وكانه عاشق كان يجهل من قبل انه يحب ! وكنت موقنا بصدقه لانه قلما واتاه الحظ حتى تنشرح نفسه ويتفتح قلبـــــه .

عدنا الى المقهى ، فمد له صاحبها كتابا مختوما فأخذه وذهب الى غرفته . ولم أحزر آنذاك ما لذلك الامر من خطورة ، وانما شعرت حينما نزل العربي من غرفته بعد ذلك بساعة أن شيئا ما تغيـــر فيه ، وانـــه يتكلف الكلام . كان مطرق الرأس ، مركزا نظره فى الارض يفكر ويفكر وهو يتظاهر بالانصات لما نقول . ولم أجرؤ على استفساره ، وانما سألته هـــل أخبار العائلة طيبة فأجاب بالايجاب .

وانهمك كل منا فى شغله أثناء الايام التالية ، ولم نعد نتكلم عن نشر الديوان . والحقيقة اننا اعتبرنا دورنا قد انتهى لما رصدنا قدرا من المال كمساهمة فى المشروع وتركنا المبادرة للعربى فى انجاز الباقى . لكن العربى ظهر وكأنه تخلى عن كل مبادرة وكأن الموضوع لم يعد يهمه فى شىء . وبدأ صاحباي يتساءلان عن هذا الموقف . لقد كان لهما الحق ، من دون شك ، أن يريا ولو قليلا من أثر مجهودهما وتضحيتهما . ولكن متى كانت شؤون الحياة تسير فى طريق واضح مستقيم ؟ ! كان هناك ، اذن ، سر ؟ لغز ؟ فلم ، يا ترى ، يتظاهر العربى بعدم الاكتراث ويتمسك بالصمت ؟

ولما كنت أكثر مداخلة له فى شؤونه ، فكرت أن اناتـــحه فى الامر ، وانتظرت عودته بالمساء . ولكنه لم يعد . ومر نصف الليل دون أن يظهر له أثر . وبحثت عنه فى الصباح ، لكنه لم يكن موجودا بحجرته . فأين قضى الليل ، يا ترى ؟لاشك أن شيئا ما حدث له ، اذ ليس من عادته ، ولو تأخر فى أشغال الجريدة ، أن يغيب الليل كله .

وخرجت الى باب المقهى استطلع الطريق . كانت الساعة نحو الثامنة. ولم أقف طويلا حتى فوجئت بمنظر غريب : أشباح متماسكة تقترب ببطء ! آه ، ماذا ؟ هل هو العربى ، يا ترى ؟ نعم ، انه هو . ولكن ، ماذا حدث له ؟ انه ما يكاد يحرك رجليه الا بمشقة ويحاذيه رجلان يمسكانه من تحت ابطه . وحولهم بعض الفضوليين . لا شك أنه كان ضحية حادثة ما ؟ ولم

ادر كيف اخترقت طريقي نحوهم وقد بلغ مني الجزع كل مبلغ . لقد كان مسترخيا في يد الرجلين اللذين كانا يدفعانه بمشقة في خطوات المشي . وهو ، تقريبا ، في حالة غيبوبة وتسمات وجهه متدلية . ولم يكن هنالك شيء يشير انه ما زال على قيد الحياة ، ما عدا شفتيه اللتين كانتا تنبسان بكلمات لم أميز منها ولا حرفا .

وعاد لي شيء من الاطمئنان حينما اخبرني مرافقاه أنه لا يشكو من اي بأس وان كل ما به أنه تجاوز الحدود في السكر حتى فقد وعيه . فقد امضى اكثر ليله في احدى الحانات يشرب ويشرب حتى أقفل الحان ، ولا شك أن صاحبه طرده منه ، اذ استطاع بعد ذلك أن يشتري زجاجة نبيذ من بقال مجاور واستمر في شربه الى أن فقد وعيه وهو على عتبة الحان . ولمحه رجلان وهما يمران في الطريق وتذكرا انهما رأياه في اول المساء بالحان وانه استلفت نظرهما بوحدته ، وبكيفية شربه . لقد ظهر لهما وكانه في حوار طويل مع نفسه . فعطفا عليه وهذا ما جعلهما ينحنيان عليه ويساعدانه على العودة قبل ان تكتشفه الشرطة .

ولقينا جهدا ومشقة في تنحية الفضوليين عن باب المقهى . واخيرا ، استطعنا أن نصعده الى حجرته حيث استلقى بثيابه على الفراش دون أن يعيرنا اي التفات . ولما عدت من عملي في الظهيرة كان ما زال يغط في نومه ، فلم احاول ازعاجه ولم أستطع ان اجده في حالة اليقظة الا عند المساء .

ورآني ادخل عليه وهو ما زال مضطجعا على السرير . وشعرت أنه بذل مجهودا كبيرا ليستطيع أن يبتسم ابتسامة رقيقة ما تكاد تبين . فبادرته سائلا : « لعلك ما زلت متعبا ؟

— شيئا ما . ولكن كنت انتظر زيارتك بفارغ الصبر .

— اذا كنت متعبا ، فالافضل أن اتركك تستريح .

— كلا ! تعبي سيزول في الحين اذا قعدت معي وآنستني واستمعت الي . انا اعرف اني خيبت ظنكم . . .

ـ كلا ، كلا . . .

ـ ثم انى ، ولا شك ، شوشت بالكم بغيابى ليلة أمس .

ـ هذا صحيح . فقد انتظرتك طويلا ليلة أمس ، برغم حاجتى للقيام الباكر صباح اليوم .

ـ اعلم ، يا أخى ، انى انا ، ايضا ، كنت فى اشد الحاجة لفعل ما فعلت بالامـــس .

ـ ولكن ليس من عادتك أن تشرب .

ـ نعم ، الشراب ليس من عادتى . ولكن ، بالامس كان من الضروري ان اشرب واشرب حتى اغيب عن الوجود . والا كنت أنفجر أو انتحر أو اقتل أو يحدث لى شيء افظع من كل ذلك .

ـ ولمـــاذا ؟

ـ ستفهم حالا . انصت ، يا اخى . ان السحب اذا تلاحقـــت فى السماء الصاحية وتراكمت وتلبد الجو بها ، لابد أن تنفجر ، فيكون برق ورعد . ولكن السماء عريضة ، فسيحة تتسع لكل الكوارث والتقلبات ، ثم تعود الى زرقتها الناصعة المشرقة لتوحى بمعنى البقاء والقوة والخلود . افترض ، الآن ، أن هاته السحب ، بدل ان تنفجر فى السماء ، تنفجر فى حيز ضيق ، وضيق جدا كجمجمة الانسان ، مثلا .

ـ أنا اسايرك وافترض معك ما شئت من الفروض ، وان كنـــت لا أفهم وأعتقد انك ما زلت تحت أخيلة الثمل !

ـ انك مخطىء وانا أتكلم معك بكامل الوعى والجد ! فالذي ذكرته لك هو ما حدث لى بالضبط . فالحياة بمشاكلها كلها امواج عاتية من السحب ينقشع البعض منها ويظل البعض . وحينئذ تملى علينا الحكمة أن لا نترك هذا البعض ، الذي يبقى ، يتراكم ويتكثف حتى يبلغ حد الانفجار . ولكن ، هل كان فى طوقى أن أكون حكيما ، ولو عرفت ما هى الحكمة ؟ !

وتوقف لحظة ، كأنه يذكر شيئا أو يفكر فيما يقول ، ثم استأنـــف حديثه : « نعم ، هذا ما حدث لى ، بالضبط . فقد ذهبت البارحة كالمتعاد،

إلى الجريدة ، تاركا ورائى مشاكل اقضت مضجعى ، فى هاته الايـام ، وحرمتنى مذاق الراحة والسلو . » .

فقاطعته ، مستنهما : « حقا ، لقد شعرت ، هذه الايام ، انـك فى حالة غير عادية . وهذا ما كنت اريد أن اسألك عنه بالامس .

— وانا ، أيضا ، كنت أريد أن احدثك عن ذلك ، ولكن اعتبر انـي شغلتكم كثيرا بمصائبى ، فلم أجرؤ على ذلك . انت تذكر كم كنا مرحين ، مسرورين ، بعد مقابلتنا لصاحب المطبعة ، ولكن عندما تسلمت الرسالة بعد ذلك بقليل ، تغير كل شىء . هذا والدي يكتب الى رسالة طويلـة مؤثرة يطلب منى فيها مساعدة مالية كبيرة جدا . ويبـرر هـذا الطلـب بالدفاع عن شرف العائلة . ذلك أن شقيقتى الكبرى خطبها احد ابنـاء البلد ، وهو من أعيانها . ووالدي ، كما لا يخفاك ، لا يمكنه أن يرفض مثل هاته المصاهرة ، برغم كونها فوق مستوانا العائلى . وهو ، فى نفس الوقت، لا يسوغ له أن يظهر بمظهر الفقير المدقع الذي يعجز عن تجهيز ابنته . وانا اعرف انه قادر ، برغم شيخوخته ، أن يحمل ادواته من جديـد ، ادوات البناء الذي امضى عمره بين الرمل والاسمنت والحصا ، ليشتغـل ليل نهار حتى لا يظهر ضعيفا مغلولا . وانا أراه الان يتململ فى مكانـه ويعقد كفيه بشدة من حين لآخر ، ويثور ويتنهد لانه لا يملك الوسائـل التى تساعده على أن يسير الامور كما يريد .

« الوسيلة الوحيدة التى بقيت فى يده هى أنا . ولذلك ، فهو ينـزل على بالحمل كله ، ويكلفنى بانقاذشرف العائلة واظهارها بالوجه اللائق . ويؤكد لى فى رسالته ، بعبارات بسيطة ومؤثرة أن هذا آخر طلب يتقدمـه لى قبل أن يموت وانه حريص على أن يذوق هذه اللحظة الاخيرة مـن السعادة فى حياته لانى ساكون أنا ، ولده البكر وعمدته الوحيدة فـى الدنيا ، السبب فيها . وهكذا وجدتنى ، بين لحظة واخرى ، فى واد بينمـا ظل الديوان فى واد آخر . بل الصواب هو أن اقول أن العائلة هى التى جاءت ، هاته المرة ، لتطعن الديوان من الخلف .

« انسد أمامى الافق ، من جديد ، حينما قرات الرسالة واستوعبـت محتواها . وفكرت وفكرت وأدركت ، فى النهاية ، انى متفق مع الوالد فى

شعوره وموقفه . ربما كنت اختلف معه في نوع تفكيره وفي مقاييس اختياره ، ولكن دوافع اقوى من كل ذلك كانت تدفعني بشدة نحو التضامن الكامل معه . ومهما يكن ، فلم يعد الى الاستقرار النفسي والارتياح المعنوي الا عندما قررت تلبية طلبه . وهل من المعقول أن اتخلى عن شقيقتي واتركها تزف الى زوجها كالبنت التى تدخل من الشارع ؟ !

« وقلت في نفسي ، وانا انتهي الى هذا القرار : لا على في الديوان ! فليظهر متى شاء له الحظ ان يظهر ! ورايت الشيخ ينظر الي من بعيد نظرة استنكار وسخرية ويلوح الي بعصاه وكأنه يقول : هل يجوز لك أن تتردد وتتلكأ في هذا الامر ؟ كلا ، يا أبتاه ، لا يجوز لي .

« نعم ، اني شعرت بنوع من الارتياح وانا اؤثر العائلة على نفسي واقدم على هاته التضحية . وكنت ارى في ذلك ميلادا جديدا لشخصيتي . فانا ادوس كل ما رغبت فيه وكل ما عملت على تحصيله ، لاتحدى القدر!

« واجبت والدي ، في الحين ، اطمئنه واؤكد له بأنه يستطيع أن يعتمد علي . كان ، اذن ، ذلك هو قراري وهو القرار الوحيد الذي يتجانس مع حالتي النفسية ويتجاوب مع ارادتي الكامنة ، ارادتي العميقة ، ارادتي الحقيقية التي كنت اشعر بها ولا استطيع التعبير عنها .

« بقي علي أن افسر لكم هذا الموقف . وهذا ما استعصى علي وتركني حيران طيلة أيام . فانتم لا تشعرون باهمية المشكل العائلي كما اشعر به أو ، بالاحرى ، انتم لا تعيشونه بتفاصيله واطواره واشخاصه كما أعيشه انا ؟ انه مسرحية حقيقية تدور في راسي ، ولا أحضرها كمتفرج، بل أرى نفسي في وسطها بطلا رئيسيا ، وان كنت غائبا عن الانظار ، ومحطا لانظار الابطال الآخرين ، كل منهم ينظر الى على شاكلته وينتبه لادنى حركة من حركاتي ، وينتظر ان اقوم بالدور المنوط بي .

« هذه اشياء تراءى لي انكم لا تدركون اهميتها بالنسبة الي مثلما تدركون اهمية صدور الديوان . سيما وقد وضعتم في هذا المشروع كل ما تحملون في نفوسكم من قوة التحدي ورأيتم فيه بذرة لانتصار حقيقي ، صورة براقة لقوة التضامن . انه عمل حر يقوم به رجال احرار . فهذا

الديوان لا ينشر عن طريق الانتهاز والاختلاس ، او لان الشاعر تمسح على اذيال فلان وفلان ممن له موسائل ونفوذ وهو يرنو اليهم بعين الاستعطاف والاستجداء ، ولكنه ينشر لانجماعة من الرجالقرروا أنيخرقوا اسوار الكبت وينشروه بوسائلهم . كنا ، اذن ، سنحضر جميعا ميلاد قوة جديدة ، قوة جميلة وواعدة . كنا ننتظر متعلقين متحمسين ونحن نتحرك نحو الهدف . فكيف آتي أنا في اللحظة التي وضحت فيها الطريق لاوقف السير واقطع التيار وابدد هاته القوة الجميلة ؟ ! » .

وقاطعته آنذاك قائلا : « هذه ، اذن ، هي السحب التي تراكمت في دماغك وانفجرت بالامس وقادتك الى الحان ؟ لم يكن شيء اسهل من أن تفسر لنا هذا الوضع الجديد والمفاجيء لك ولنا جميعا .

ـ مهلا ، مهلا ، يا أخي ان القصة لم تقف عند هذا الحد ، بل عرفت اطوارا اخرى . ولكن قبل أن أتمم حكايتي ، اريد أن اجعلكم في حل من المبلغ المالي الذي رصدتم من اجل نشر الديوان .

ـ هذا أمر لا تشغل به بالك ! فالمبلغ ما زال عندي وسنرى بأي طريقة نتصرف فيه . والامر ،مهما يكن ، لا يدعو لاي استعجال .

ـ انى حريص على الا ازعجكم اكثر مما فعلت ، وبدون طائل .

ـ انك تزعجني اكثر بمثل هاته المجاملات .

ـ طيب ، طيب .

وتناول سيجارة من علبته واشعلها وتشاغل بتصاعد دخانها . ثم قام الى الحنفية وبرد وجهه واطرافه بشيء من الماء وعاد واستوى قاعدا امامي على كرسي من خشب . وكنت اود ان اقول شيئا لا يكون مجرد عطف كلامي ، حتى لا أظل في موقف الانتظار السلبي ، ولكن كم كنت عاجزا !

كان ينظر الى مبتسما كانه يستطلع ما يروج في ذهني من ملامح الوجه . ثم قال : « لست ادر هل يستطيع الانسان أن يشعر بالانتصار وهو في بؤرة البؤس والشقاء ! أما انا ، فهذا ما أشعر به الآن . في ظلام

اليأس استطعت أن احسك خيوط العبودية بأظافري . ولا على ان كسرتها وأدميت اصابعى !

«انى أجد نفسى من جديد ، نفسى الشريدة ، الطريدة ! انى متفق معها الان . ولم أعد أراها بعيدة عنى تنظر الى ساخرة من صورتى الممسوخة المشوهة ، ضاحكة من نظراتى التائهة وحركاتى الآلية الرتيبة . انهــا الآن معى استأنس بمناجاتها واستدفىء بقربها . نعم ، لقد اكتشفتها من جديد بالامس ، وما كان أعظمه من اكتشاف ! ولست افهم ، الآن ، كيف دفعتها وحبستها واسكتها لاسير مع حكمة « الواقعية » التى تخفى وراءها استسلام العبودية . أجل ، كان اكتشافا حقيقيا لانه جرى بدون تهيؤ وبكل بساطة كنت أنا اول من يفاجأ بهــا .

« هذا فى حين كانت الاصابع التى اعتادت ان تحركنى وتدفعنــى كل يوم فى مضايق ومسالك لا أختارها ولا أريدها ، كالمسمار الذي يدق وسط كثافة الخشب ، تتقدم الى بمهارة متزايدة وخبرة تضاعفت بطول المــران واستمرار العادة ، لتدفعنى من قفاي الى المكان الذي اختارته وقــررته لى . أصابع لدنة لطيفة ، ولكنها واثقة من قبضتها ، ومن وراء نعومــة الملمس تنبض عروقها بالجبروت والغطرسة والحقد . انها تريد أن تطوي كل شىء لارادتها وسط الصمت المخيف .

« ولكن قفاي لم تنحن فى هاته المرة ، وقدماي لم تندفعاقى الحركــة الآلية ، حركة كل يوم وكل ساعة . وتعطلت الدورة الميكانيكية التى ألفت أن تنساب فى شبكة الدواليب خفية ، بدون رنين ولا دوي ، حينما تصلــب جسمى ثائرا ، ونطقت شفتاي بالاباء ، بالرفض . حقيقة واحدة ظهرت لى فى تلك اللحظة النادرة وغطت على غيرها ، وهى أننى حاضر وموجود بعد غياب طويل . هل تدرك هذا ، يا أخى ؟ هل تتصوره ؟ هل تــدرك وتتصور أن الانسان يمكنه أن يغيب عن نفسه طويلا ، بل أن يغيب عنها مدى الحيــاة ؟

ـــ نعم ، أفهم ان الانسان قد ينفصل عن نفسه مع الخضــوع والانقياد ، وقد يكتشفها ، من جديد ، مع الرفض . ولكن كفاك تلميحــا ودورانا حول الافكار . افصح لى عما حدث لك بالضبط .

ـ لقد أردت ، أولا ، أن اشعرك أني اعيش لحظة حاسمة في حياتي ، لحظة انتصار ، ولو كانت قائمة على تضحية واستطيع أن اقول الآن لنفسي اني تحررت وأني مرتاح لهذا التحرر مهما كان ثمنه . أما قصتي فها هي ، واعذرني ان كنت لا اعرف من أين ابدأ ومن أين انتهى .

« منذ يومين غادرت مقر الجريدة في الساعة النظامية اي السادسة ، وهذا ما لا يحدث لي الا نادرا . ولكن فكري ما زال يشتغل وحده وانا اسير في الطريق ، فلم اكن أرى شيئا ولا انتبه لاحد : واذا بصوت نسوي يناديني بنبرة خافتة ، ولكنها واضحة ؟ فأوقفت الماكينة التي كانت تغلي في دماغي بجنون ، والتفتت ؟ واذا بي أمام كاتبة الحسابات .

فلما كانت تتكلم ، وقلما كانت ترفع رأسها لتسرح بصرها الى الامام . دائما في حوار لا ينقطع مع الارقام ومع الآلات . تعلمت من الارقام صرامتها وجديتها . فلم تكن تنفرج شفتاها عن أقل ابتسام وهي تسلمنا الاجرة الشهرية . ولم يكن أحد يفكر في مقاربتها برغم جمالها . انها تحمل وقار الرموز الحسابية . انها والآلات التي تحيط بها شيء واحد . فهي تتكامل معها ولا يمكن تصور الثانية بدون الاولى .

شعرت بنوع من الاعتزاز وأنا أسمع نداءها لانها قلما كانت تنادي احدا بصوتها وانما تتعامل مع الجميع بالاوراق والدعوات المكتوبة . قالت لي وهي تصل الي : « هل يمكنك أن ترافقني لحظة في الطريق ، لان لدي شيئا أريد أن اقوله لك ؟

ـ بكل سرور ، ولكن لم لم تطلبيني في مكتبك حيث كان يمكن أن نتحادث في هدوء ؟

فاجابتني بصوت لا يخلو من شدة وشراسة :

ـ لا احب ان ادعو الناس الى مكتبي لمحادثتهم . ثم أن الذي أريد أن قوله لك لا يمكن ان يقال في المكتب .

ـ عجيب !

ـ يجب ن يقال في الهواء الطلق ، في الهواء الحر .

ــ وهل هو لهذه الدرجة من الاهمية ؟

ــ نعم ، بالنسبة الى وبالنسبة اليك ، على السواء . هو لا اهمية له بالنسبة للاخرين ، ولكنه مهم جداً بالنسبة الينا .

كنت انصت دون ان افهم شيئا ، ولكنى كنت متيقنا ان وراء هــــذا الكلام ما وراءه ، وان على أن انتظر المفاجأة مهما كان نوعها . كانت تحدق فى بعينين استطعت ان اقرأ فيهما ، بقدر ما سمح لى ضوء النهـــــار المحتضر ، شيئا شبيها بثورة صادقة ، شيئا شبيها بايماءة الجريح وهو يعلن عن اصابته ، ولكنه جريح شجاع يريد ان يعود الى المعركة فى الحين بعد أن يضمد جرحــــه .

ــ انى لست افهم شيئا مما تشيرين اليه ، يا آنستى .

ــ ستفهم فى الحين . ولكنى ما زلت أتساءل لحد الساعة هل اقول لك ما اريد ان اقول ، منذ شهور وانا أفكر ، كل يوم ، فى ذلك ، وأتوقف فى اللحظة الاخيرة . وادركت ، فى النهاية ، ان الصمت دواء العاجزيــن ، دواء ينسى ولا يشفــى .

ينسى ولا يشفى ؟ مماذا لا يشفى ؟ ماذا تريد أن تقول الآنسة ؟ هل تعود اليها الحياة بكل ينابيعها الثرية وأجنحتها الخفاقة ، بعد الساعــــة السادسة ، بعد مغادرة العمل والخروج الى الهواء الطلق ، فتيفض نفسها بالحنان الدفين ، وتنطلق خلجات قلبها مع آخر شعاع ترسله شمـــس النهار ؟ أم أنا الذي أعود من بعيد كالفلك الصغير التائه فى البحـــار ، اليائس من النجاة والذي تتقاذفته الامواج نحو جزيرة مجهولة كانت الغيوم الكثيفة تخفى مباهجها والوانها الساطعة ؟

ولكنى كنت أنظر واتوسم واتخيل واتصور واذهب بفكري كــــل مذهب ، دون طمع ولا امل ، واعود فأقتنع بالهباء ، بشعر اللحظة ، ثـم اعى الواقع من جديد ، والمسه بيدي لمسا ، فأرى هاته الآنسة التى تسير بجنبى أداة من أدوات الادارة المسلطة علينا الممسكة بزمامنا الواضعــــة أصابعها بمخنقنا . فأنقبض واتحفظ وأصمت . ولكنها هى التى كانــــت تتكلـــــــم :

« نعم ، لم يعد فى مستطاعى أن أستمر فى الصمت . كل شىء لـــه نهاية . يجب أن أتكلم ، أن اقول الحقيقة ، مهما كلفنى ذلك من تضحيـــة واذا ما كانت تضحية ، فلك نصيب من المسؤولية فيها . هل فهمت ؟

ـــ ما زلت جاهلا بالموضوع الذي تتحدثين عنه واتعجب من كونـــك تحمليني مسؤولية لا أعرف شيئا عنها وعن اسبابها .

ـــ نعم ، نعم ، يا سيدي . أنا اعرف انك برىء . وهذا هو سبـــب المصيبـــــة .

ـــ يا لله ! خلصينى ، يا آنستى ! برىء مماذا ؟ ماذا فعلت ؟

ـــ هدىء روعك ! اردت أن اقول انك برىء من معرفة الحقيقة التى كان يجب عليك أن تعرفها بنفسك . ومسؤوليتك هى انك لا تبحث عـــــن الحقيقة ، الحقيقة التى تهمك وتمس بـــك .

ـــ اي حقيقة ؟ ان عملى كصحافى ، كمثقف ، كشاعر ، كله بحـــث عـــن الحقيقـــــة .

رنت ضحكتها مؤلمة موجعة فى اذنى ، ولاول مرة كنت اسمعها تضحك. ثم قالـــــت :

ـــ الشعر ، الصحافة ، الثقافة ، كل ذلك جميل ، وانما هو سراب وخيالات واوهام ! واذا اردت أن تصل الى الحقيقة ، فلست فى حاجة الى أن تعصر فكرك تعصيرا . الحقيقة ابسط واقرب اليك من ذلك ، ويجب ان تتعلم كيف تنظر اليها بدون جهد ولا مخاض . ويكفى أن تسير اليها مباشرة بعين مفتوحة وقلب صادق ، وتكون لك رغبة خالصة فيها . ولكن موقفك يدل على انك لا تبالى بالحقيقة !

ـــ ظننت انى فهمت ، فقلت مغامرا ، وانا أسخر من نفسى :

« هنالك حقيقة احملها فى نفسى دوما ، ولكن بدون أمل . انظر اليها من حين لآخر لاشعر بوجودها ، ثم اطوي عليها جوانحى بحنان كشىء عزيز على اخاف أن يضيع منى !

فقالت لى بقوة وكأنى فاجأتها : « اي حقيقة تعنى ؟

ــ ان الحظ لو أراد أن يبسم لي لمنحني شريكة في حياتي مثلك !

فادارت وجهها عني ولولا نزول الليل لبدا لي احمراره ، ثم قالت :

ــ اسمع ، يا رجل ، لا تنحرف بحديثنا الى ما لا نريد ! فليست تلك هي الحقيقة التي احدثك عنها والتي تعنيك كما تعنيني .

فتنفست الصعداء وقلت :

ــ كنت عارفا ان الحظ بعيد عني ، ولذلك كنت اخفي هاته الحقيقة التي أنطق بها ، احيانا ، في اشعاري .

ــ اترك عنك الآن هاته الاحلام واسمعني جيدا . ان ما اقوله لــك الان سيلزمني أن اقدم غدا استقالتي من الوظيفة ألتي أشغلها لاني سأفشي لك ما يسمونه « سرا مهنيا » . هل فهمت ؟

ــ فهمت الآن ! هنالك ، اذن ، « سر مهني » يتعلق بي وانا لا علم لي به . لكن لا أريد أن اتسبب لك في ضياع وظيفتك وارجوك ان تحتفظي بسرك في طي الكتمان .

قلت ما قلته وانا لا ادري هل اقول الصدق أم الكذب . ولكني كنت ، في أعماق النفس ، حريصا على ان اعرف تلك « الحقيقة » ان اكشف عن المفاجـــــــأة .

ــ اني لا أتبرع عليك بشيء . وانما اريد ، بكل قوة ، ان اتحرر من عبء يثقلني .انها حاجة ملحة في نفسي . ولكن قل لي : لماذا لا تهتـــــم بشؤون حياتك كما يهتم بقية النـــاس ؟

ــ لست أدري عماذا تتكلمين ، يا آنستي ! بلى ، اني اهتم . ومـــن قال لك اني لااهتــم ؟

ــ انك تضحكني . انت تعرف أن ملفك في يدي واني اتتبع احوالـــك شهــرا بعد شهـــر .

معها حق ! انها تعرفني من خلال ملف يسجل فيه كل شيء . أمـــا أنا ، فقد نسيت نفسي . كان لدي شعور غامض بأنني موجود . لكني لم

احاول ان اتلمس هذا الوجود كنت غارقا في الواقع حتى صرت لا انفصل عنه لاعرف حدودي وأدرك كياني واشعر بفرديتي وحتى اتمكن ، بالتالى ، من رؤية الواقع وفهمـــه .

ــ خلصينى ، يا آنستى ، وقولى لى ما عندك .

ــ هذا ما سأفعل . وانما هنالك شياء غريبة أحاول ان افهمها . مثلا ، أليس لك مصالح فى هذه الدنيا ؟ اليس لديك ما تدافع عنه ؟

ــ بلى ! لدي أشياء كثيرة .

ــ هذا لا يظهر ، على اي حال ، من سلوكك .

ــومن عرفك بذلك ؟ . . آه ! سامحينى ، نسيت أن لديك ملفا عنى !

ــ كم وددت أن هذا الملف ليس عندي ! انه يطعننى طعنة جديدة ومؤلمة كلما ذكرته ! انه يقلق راحتى !

ــ الهذا الحد ، يا آنستى ؟ وأنا اجهل ذلك ؟ وماذا عسى أن يكـــون فى هذا الملف الجهنمى ؟ خلصينى من فضلك .

ــ اطمئن ، يا سيدي ، ليس فيه ما يمس شرفك وانما شرفى أنا هو المهدد . نعم هو المهدد ! وهذا ما لا اقبله !

ــ شرفك مهدد ! كيف ؟ ! كيف ؟ ! وما دخلى أنا فى هذا الامر ؟ وضحى لى ، انى ما زلت لم أفهم شيا .

ــ انه مهدد ، لانك لا تدافع عن نفسك وتريد أن تبقى مغفلا وبريئا بدل أن تتحمل كل مسؤوليتك بشجاعة

جننت وثارت اعصابى ووقفت مكانى وصحت وانا ناس أنى فــى الطريق العمومى :

ــ مرة أخرى ، انى لا افهم ، لا افهم ! عجلى بالايضاح من فضلك .

ــ اقتصد شيئا ما من ثورتك وغضبك ، فأنت محتاج اليهما فى وقت

آخر . لقد حاولت أن أرشدك الى الحقيقة عن طريق الاشارة والتلميح ، ولكن يظهر انك مغفل الى الدرجة القصوى . فانصت لى اذن لتسمع كل الحقيقة وليكن ما يكون ! كل الناس يسعون لمصالحهم ويدافعون عن حقوقهم الا أنت . كل المستخدمين فى الجريدة ، من الكبير الى الصغير ، ومن العاجز الى المقتدر ، لا يتركون فرصة تمر دون أن يطالبوا بتحسين وضعيتهم واعتبار خدمتهم ويصلون الى نتائج . وأنت الذي تشتغل حقا ، وباخلاص ودون مساومة ، تظهر زهد الاغرار المغفلين الذين ينطلى عليهم كل الحيل . فأين أنت ؟

— ولكن . . . ولكن . . . هل تستطيع الادارة ان تظلمنى هكذا وحدي دون النـاس ؟

— ولم لا ؟ الق السؤال عن نفسك وانظر هل يستحيل عليها ذلك .

— حقا ، ان ما تقولينه ربما كان ممكنا . ولعلنى مغفل كما تقولين . انهم يضعون فى يدي قدرا من المال آخر كل شهر وكأننى ربحته فى اليانصيب ويبتسمون لى كرجل محظوظ ويهمسون لى بكلمات طيبة فاعتقد انى أعامل معاملة خاصة وأن الضيم لا يمكن أن يطوف بساحتى .

ضحكة اخرى زعزعنى رنينها الساخر :

— ما اشد غفلتك ، يا رجل ، واقوى اغترارك بنفسك ! أليس لك صديق يصدقك ويخبرك بما يجري ؟ . . . ألا تستطيع ان تسأل زملاءك سؤالا صريحا وتعرف منهم ما يطرأ فى الخفاء بين وقت وآخر وما يحاك فى الظـلام ؟

حقا ، لم يكن لى صديق . ان خيوط التعاطف كلها متقطعة حولى . أين من ينصح ؟ أين من يحذر ؟ أين من يأتيك بالنبأ الصادق ؟ ومن لي بشخص ذي نية حسنة أستطيع أن اعتمد عليه واركن اليه ؟ اني وحيد فى طريقي لا يحاذيني الا الفراغ . فكيف لي أن أعرف الحقيقة القريبة مني ، حقيقة كل يوم التى يعجن معها مستقبلى باستمرار ؟ فما اسهل أن أخدع وأن يكذب على ! فأنا الضحية المنشودة ، الضحية الطبيعية المشروعة لكل خداع ، الضحية التى تنهار على الارض بكل ثقلها ، فلا يتحرك لها أحد من مكانه . نعم ، نعم ، اذن الحق دائما مع كاتبة الحسابات .

ـ هل تعرف ، يا رجل ، كم كذبوا عليك وخدعوك واستغلوا غفلتك؟

ـ كلا ، كلا ، فسري لي من فضلك .

ـ زادوا الصحافيين الزيادة الاولى منذ سنة ، وانت الوحيد الذي لم تكن فى القائمة . فلما ذكرتهم بالامر خشية أن يكونوا نسوك عجبت لما قالوا لى انهم لم ينسوك وافهمونى أن هذا الامر لا يعنينى ، وان على ان احترم سر المهنة . ثم زادوا الزيادة الثانية منذ سبوع ، ولم يكن اسمك فى القائمة . فطرحت عليهم نفس السؤال وتلقيت منهم نفس الجواب . فماذا جنيت ، يا تعيس الحظ ، حتى ينزل عليك هذا الشؤم كله ؟

الحق معها دائما . أنى لم اكن أعلم شيئا مما ذكرت . لقد ظل السر مكتوما عنى ، ولم يحدثنى عنه اي واحد من زملاء المهنة . مؤامرة صمت . ولكن ، أين كنت طوال هاته السنة حتى يغيب عنى سر يعلمه الجميع ؟ انها هى التى ستذكرنى اين كنت :

ـ انا أعلم انه لا جواب لديك على سؤالى او ، بالاحرى ، انى أعرف ما هو جوابك الحقيقى ، لو استطعت أن تبصر فى نفسك بكل شجاعة . لقد كنت مع الديوان تصعد وتنزل معه وتلوي معه فى كل منعطف . ولم يكن شيء آخر يهمك فى الدنيا . انه دافعك للمزيد من الحياة . وفى ذات الوقت كان الآخرون ، اي زملاءك واقرانك ، يتفرجون عليك من بعيد تناجى ربة الشعر وتركع وتسجد لها ، فيغتنمون غيابك وغفلتك ، ويدفعهم الحقد الدفين فى نفس الانسان الى السكوت والاضراب عن نصحك وتنبيهك . ولم لا يتركونك تسير مع مسارب خيالك تغمض عينيك وتحلم ؟ لا فما دمت لا تأخذ من يدهم الا الاحلام ، فهم يتبرعون عليك بدون شرط . ويريدون‌منى أن اكون شريكتهم ولو بالصمت ، أن اكون الآلة الطيعة التى تحقق مبتغياتهم ؟ هل فهمت ، الان ، لماذا ثرت ، لماذا لم اقبل الاستمرار فى السكوت ؟

ـ نعم ، وانى لا أعرف كيف اشكرك .

ـ لا تشكرنى . يكفينى انى تحررت ، ولو اضطررت غدا الى التخلى عن عملى لانى لم احترم « سر المهنة » .

وسرنا لحظات صامتين واجمين . ثم قالت لي : « الآن وقد عرفت الحقيقة ماذا عساك فاعل ؟

ــ لست أدري . على كل ، ساتجنب كل ما من شانه أن يضر بـــك ويهددك في وظيفتك .

ــ لا تهتم بامري . وفي مستطاعك أن تهاجمهم كما تشاء أن تشفي غليلك . أليس المهم في مثل هذا الامر هو شفاء الغليل . وازاحة الضيمباليد القوية والراس المــرفــوع ؟

ــ هذا صحيح بالنسبة الي ، يا آنستي . وانـــت ؟ لماذا تؤديـــن الثمــن معــى ؟

ــ سؤال غريب ! هل أحتاج أن أقول لك أني أقوم بواجب ؟ وانـــي اجد في ذلك راحتى ؟ . . . ثم انى لربما كنت انا ، أيضا ، شاعرة علـــى شاكلتى الخاصة .

قالت ذلك وضحكت ضحكة خفيفة لم تخف على سخريتها اللاذعة . فقلت وانا لا ادري هل أضحك أم أبكى :

ــ نعم ، اننا مساكين نحن الشعراء ! . . . ولكن ، هنالك اشيـــاء تثير تعجبى . أشياء لا يمكنأن توجد في الملف ، أشياء داخلية ، محجوبة عن كل الانظار . ومع ذلك تبين لى أنك تعرفينها . كيف ؟

ــ مثلا ؟

ــ كيف تعرفين أنى منشغل بالديوان انشغالا مستمرا ؟

ضحكت ، مرة أخرى ، وقالت :

ــ وتظن ، يا سيدي ، أن ذلك سرا ؟ ! كل زملائك حينما يتحدثون عنك يقرنون اسمك بالديوان . أنت بالنسبة اليهم رمز للديوان أو ظاهر يختفي وراءه باطن هو الديوان . وكلما شاهدوك تفكر شبهوك بالحامل في طور المخاض والوضع . هم يعرفون أنك تعيش للديوان ويعترفون لك بالنبوغ والتفوق . ولكن . . . !

انهم يعرفون الان دخيلة نفسى ، ينفذون الى سري ، ويظنـــون انهم وصلوا الى راس الحبل الذي يقيدوننى ويجروننى به ! الديوان ؟ نقطـــة الضعف ؟ أم المصائـــب ؟ مجـــد الشاعـــر ؟ حصـــاد الهشيم ؟ وكنت أرى رئيس التحرير وهو يخبط فى عجينه اليومى يلفنى داخله مكفنا فى أوراق الديوان حتى الين وأذوب واندمج فى الكل ، الذي يمسكه بيده الصناع فيصوغ منه الدمى التى يلعب بها آخر النهار عند ما تحل ساعة العبث ! انه يرى نفسه فى مقام الفنان الاكبر الذي يمسك بين يديه مصائر الفنانين الآخرين ، ويستطيع أن يحركهم من وراء ستار .

ــ معك حق ، يا آنستى . لست الا شاعراً مغفلا ! لست أعرف كيف اعيش مع هؤلاء الناس . وافضل لى ان اغادرهم نهائيا .

ــ وأين تذهب ؟

ــ الى جهة أخرى . الى أناس آخرين .

ــ اينما وليت وجهك ، فالامر هو هو . صدقنى ، يا سيدي .

ــ ما العمل ، اذن ؟

ــ يجب ان تكافح ، ان تدافع عن حقك .

ــ كيف ؟ كيف ؟

ــ انك قوي ، وتجهل قوتك .

ــ اين قوتى ؟ أين قوتى ؟

ــ قوتك هى صدقك . هى صدعك بالحق . وهذا ما جعلنى أغـــار عليك ، فى الحقيقة . صدقنى ، ان لم يستمعوا اليك ، اليوم ، فسيستمعون اليك غدا . هل فهمت ؟ سر فى طريقك صامداً .

لم أتمالك عن اخذ يدها وضغطها بقوة وأنا اقول : « يخيل الى ، يا آنستى ، ان مصيرينا مرتبطان . أنت ، أيضا ، صادقة ، وقوتك فى صدقـــك .

ـ نعم . رأيتك وحيدا فى صدقك ، اعزل من كل سلاح ترفـــض المراوغة والمخاتلة والاحتيال وتسير وسط الطريق فى رابعة النهار ، دون خوف ولا وجل ، تتحدى الذئاب والثعالب الكامنة وراء الاكام . فأعجبت بشجاعتك وصدقك ، انا التى لدى ملفات عن الآخرين ، وأعرف كـــم يتصاغرون ويتذللون وينزلون الى أحط درجات القماءة ، ويتظاهـــرون بالقوة والعظمة .

ـ الآن أشعر بأنى لم اعد وحيدا . فهل أنا مخطىء ؟

ـ كلا ، تستطيع انتعتمد على .

قالت ذلك بلهجة تريد ان تكون شديدة ، ولكنها لا تخلو من حنان . وكنا قد وصلنا آنذاك الى شارع تحفه أنارة قوية ؟ فقالت لى : « الآن وقد اخبرتك بما كان يجب على أن اخبرك به ، أودعك والى اللقاء .

ـ هكذا نفترق ؟ اننا لم نتمم حديثنا .

ـ على ما أرى ، لم يبق أي شىء يقال .

ـ أريد فقط ان تسمحى لى بالتعبير عن رجاء .

ـ تفضل .

ـ هل تسمحين لى بأن احبك ؟

ـ وكيف لى أن امنعك من ذلك ؟

ـ أن هذا الحب هو بالنسبة الى نهاية الصحراء التى قطعتها والتى لم أعرف غيرها منذ وقفت على قدمى . هل فهمت ؟ انى فى هاته اللحظة النادرة بدات أطل على الواحة الظليلة بعد تيه سنوات . فهل تسمحين لى بالامل فى الدخول اليها .

ـ لقد أعطينا لليوم حقه . ولنترك لغد حقه . كن رجلا وشجاعا الى اللقـــــــــاء .

ثم صافحتنى بيدها وانصرفت وأنا أسمع دوي حذائها يبتعد وهو يضرب على الاسفلـــت .

« وفى الغد ، أي البارحة ، ذهبت الى الجريدة كالمعتاد . لقد كانوا كلهم هنالك متأنقين ، معطرين بقمصانهم البيضاء ووجوههم الطرية وبشرتهم اللامعة ، وكأنهم فى مناسبة عظيمة . ولم اكن انا على علم بأي شيء . ووجدت نفسى ، فى وسطهم ، وانا ببذلتى المتواضعة ، كالطفيلى المتسلل الى المأدبة . ولم اتمالك عن تسجيل ابتسام الشماتة الصادر عن بعض الاغبياء والثقلاء . وتجلدت وتظاهرت بعدم الاكتراث وهممت بالانسحاب معتذرا .

لكن رئيس التحرير بادر الى وضمنى بين ذراعيه ، وافهمنى أنى من القوم المرغوب فيهم جدا بهذه المناسبة . وقال لى ، على سبيل العذر ، انهم فى تلاحق الشواغل والطوارق نسوا ان يخبرونى ان الجريدة تستعد للاحتفال بذكراها السنوية بعد ان سلخت اعواما عديدة من عمرها المديد . وفاجأنى المدير بأدبه وتواضعه حيث دعانى الى جنبه وأخذ يلاطفنى ويمازحنى كأخوين تلاقيا بعد طول غياب . ثم صب لى الشاي بيده ومد لى طبق الحلوى . وهمس لى بلغة الصداقة أنه يقدر مجهودي ومساهمتي، وان الوقت يعوزه دائما ليبلغ شعوره الحقيقى للمستحقين من أسرة الجريدة ، وما اقلهم ! وان مناسبة الذكرى سمحت له بوقت يتحرر فيه من عقال المشاغل والمسؤوليات . فهو ، اذن ، يستطيع ان يفتح قلبه لمن يقدر عملهم ويعرف كفاءتهم .

كل هذا كان جميلا ومفاجئا حتى انى تلعثمت فى الجواب وتقاطرت الكلمات على شفتى فى فوضى واضطراب . وكنت مثل العصفور الذي باغته الصياد وامسكه برفق وهو يفرح به ويشير له بالالتفات الى القفص الذهبى الجميل الذي كان قد أعده للمناسبة . واستسمحنى المدير بلطف ليستقبل بعض الزوار . وبقيت فى مكانى افكر واحلم ، وانا فى غياب عن صخب الحضور وجلبتهم .

كنت عازما ان افعل شيئا ، ولكن ماذا ؟ وفى نفسى من حديثى مع الانسة بقايا من الحرقة والامل . فانا مقيد امام نافذة تشققت لى على الحياة . وبدل ان انظم الشعر اصبحت أعيش الشعر . لقد خرجت من مغارة افلاطون ، لكن النور ما زال يبهرنى وانا أحمل جراحى التى تأبى

ان تندمل ؟ نداء الثورة والانتقام يهزني من الاعماق . ولكني ساكن في مكاني ، مخدر مسلوب اجيل امامي نظرا شاردا . الى أن شعرت بيد تربت على كتفي . انه رئيس التحرير يعود الى ، مرة أخرى ، ليتمم ما بداه المدير . وهذا لم ادركه الا من بعد .

بسمة كلها عسل ، وعين تغمز من حين لآخر كانها تدعو لمغامرة شيقة . وجذبني رئيس التحرير من ذراعي الى ركن فيه طاولة صغيرة ومقاعد . ثم خف كالريشة ليأتي بمشروبات . وكنت أشعر بثقل في فكري وبطء في ادراك الاشياء وفهمها ، كالصخرة التي تلطمها الامواج وهي لا تريم مكانها ، حين نطق الرئيس وكأنه يفضي الى بسر : « أنت لا تعرف ، يا سي العربي ، أن المدير يقدرك كثيرا ؟

وتوقف كأنه ينتظر جوابا . ولكني ظللت ساكتا ، فواصل كلامه : « هو ، كما تعلم ، لا يظهر للناس الا حدته وغضبه ، ولكنه ، مع ذلك ، يعرفهم ويعرف قيمة كل من يتعامل معهم . وربما كان يحبهم ويعطف عليهم في سريرة قلبه دون أن يظهر لهمشيئا من ذلك .

ثم سكت ، مرة أخرى ، كأنه ينتظر مني رد فعل ، ولكني بقيت جامدا محترزا ، وأنا أبتلع بهتانه وكذبه واعجب من مهارته في التمثيل . ولكني استطعت أن اضبط اعصابي وانا انظر وانصت اليه بابتسامة اجتماعية كأنه يحدثني في اشياء مسلمة لا تقبل المناقشة . فما كان منه الا أن استأنف حديثه :

« حقا ، أنا أفهم احترازك وتشكك بعد قضية الديوان . ولكنك كنت مبتدئا . ولم يكن آنذاك يعرفك حق المعرفة . ثم أن قضية الشعر ، كما لا شك تعلم ، تختلف ، اليوم فيها الاذواق والمذاهب . ولكن ، ربما جاءت الفرصة لتحقق مشروعك وترضي طموحك .

ولم أدر كيف صدرت مني هاته الكلمة بقوة وسلطة : « وكيف ؟

فابتسم ابتسامة المنتصر لانه نجح في اثارة اهتمامي وقال : « وكيف ؟ وكيف ؟ في الحقيقة ليس لدي حل جاهز . وانما خطرت لي فكرة ربما فتحت بها الابواب التي كانت مقفلة .

ــ فكرة ؟ اية فكرة ؟

وفى تلك الاونة ، بالضبط ، حانت منى التفاتة فوقعت عينى على آنسة الحسابات وهى بصمتها وتؤدتها المعهودة تنصت الى الحديث الجاري وسط الجماعة . ورغم أن صورتها آنذاك عادت تشخص الاداة البيروقراطية ، فقد كان حديثها الحى ما يزال يرن فى دماغى .

ــ مثلا ، لماذا لا تنشر قصيدة بمناسبة ذكرى الجريدة ؟ هذه فرصة سانحة . وربما أثارت الانتباه اليك .

ــ لم أكن اعتقد ان هذا ممكن ولذلك لم افكر فيه .

ــ بلى ، هذا ممكن ، وبالاخص فى هاته المناسبة .

فى سبيل الديوان ! ويا ما اقبل من أجل الديوان ! لننس السيئات ولنرحب بالحسنات ! ولاعتبر هذا مفاجأة سارة جاءت فى الوقت المناسب . استطيع ، اذن ، أن استجيب لصراخ ابى و ، فى نفس الوقت ، ان امهد لنشر الديوان من هاته الباب التي انفتحت فجأة ! وتراءت لى الحياة ، لاول مرة ، قادرة على أن تجر فى تيارها الداهم بعض المصادفات الحسنة . . فقلت وانا اصدق الكذب واكذب الصدق واردع الثورة التى تجيش بها نفسى :

« اسمح لى ان اشكرك على هذا اللطف ، وهذا الالتفات . ولهذا ، سأختار أحسن قصيدة فى الديوان لانشرها بالجريدة .

ولكن ، ما اتممت كلامى حتى قرات الخيبة فى عينيه وراعنى صمته ووجومه . واخيرا ، نطق قائلا : « أظن اننا لم نتفاهم ، يا سى العربى .

ــ وكيف ؟

ــ ان الذي ننتظر منك ، اليوم ، ليس هو نشر قصيدة من ديوانك القديم ، بل أن تنظم قصيدة جديدة فى موضوع المناسبة ، موضوع الذكرى ، تدشن بها ديوانا جديداً .

ــ وماذا اقول فى هاته المناسبة ؟

ــ لست ادري ! فما انا بشاعر ! والمناسبة توحى بما يجب أن يقال . ومزيتكم ، انتم الشعراء ، هى انكم تخلقون شيئا من لا شىء . أنتم قادرون ان تنطقوا الجماد وتخرجوا الوجود من العدم !

ولم يستطع ان يحبس ضحكة يؤكد بها ما تراءى له كنكتة جرى بها لسانه الذلق . ودفعنى التعجب مما أسمع الى الصمت والتوقف عن كل جواب حتى استرجع انفاسى التى اجهدها تلاحق المفاجآت . وكنت أرى دائما رئيس التحرير كرجل أنيق مهذب ، دون أن أعرف كل الحقيقة التى تختفى وراء ذلك المظهر الوادع . وأمام صمتى المتواصل ، ابتدرنى مرة أخرى :

ــ لم تقل شيئا يا سي العربى .

ــ وماذا تريد أن أقول ، بالضبط ؟

ــ هل تقبل اقتراحى ؟

ــ كما هو ؟

ــ أو مع بعض التعديل بشرط أن لا يفرغه التعديل من محتواه .

كنت ، فى الواقع ، العب واراوغ ، ولدي الشعور القوي اننى لا احسن اللعب والمراوغة . والحق انى كنت مترددا لا فى الجواب ولكن فى اسلوب الجواب . فقلت :

ــ اعطينى مهلة للتفكير .

ــ لم يبق وقت ، يا عربى ، والعدد الممتاز سيظهر بعد أسبوع ، وأكثر المواد جاهزة .

ــ لست اطلب منك يوما او يومين ، وانما ساعة واحدة . ساجيبك فى آخر الحفلة .

ــ فليكن .

تحررت منه وما صدقت انى انفلت من يديه الناعمتين وانصرفت نحو بعض الزملاء أصافحهم وأشاركهم الحديث . وبدا لى أن البعض منهم كانت تنتابه الغيرة من هذا الاهتمام الذي صادفته من المدير ومن رئيس التحرير ولم يتردد كاتب المدير من أن ينفث لى سمومه فى الكلام المعسول . يا لهم من مساكين ينتظرون فتات الموائد ويعيشون كمتسولين وهم يعتقدون بكل يقين وارتياح أنهم رجال فكر وقلم !

أشحت عن الجميع بوجهى واتجهت نحو مائدة الحلوى . فاذا بها واقفة هنالك . انها فى وضعها المعتاد ، اي وحيدة تناجى نفسها وتسترق النظر حواليها . ضمير حى يقظ . وما ان رايتها مرة ثانية حتى كان قراري قد اتخذ ، وكأنها أمدتنى بقوة جديدة فهمست لها وانا آخذ الحلوى :

ـ ما اسعدنى برؤيتك يا آنستى !

ـ ماذا فعلت فى تضيتك ، يا مغفل ؟

ـ لا شىء الى حد الساعة .

ـ ماذا ؟ كيف ؟

ـ ولكنى عازم قبل أن ينتهى هذا النهار أن افعل شيئا .

ـ لا تخف ! كن شجاعا !

ـ سأزداد شجاعة اذا وثقت من . . مساندتك و . . . حبك !

احمر وجهها وابتسمت وقالت :

ـ ما هذا التخليط بين المواضيع ، ما مغفل ! ألست ترى الناس حوالينـــا ؟

ـ الا تسمحين لى بأن اعبر عن امل وانا أواجه قضايا مصيرية ؟

ـ اذن ، اعرف كيف تختار مصيرك . وتيقن انك لن تكون وحيدا . أنا مستعدة أن أعمل من أجل اثنين !

لم أصدق أذنى ودارت بى الارض دورة الفرح ولم اتمالك أن صحت:

ــ اذن انــت . . .

ــ لا تتمم ، يا مغفل ! نعم ، نعم . أنا معك ، وأنا أحبك . ولكن ، سينتهى اليوم كلامنا عند هذا الحد . والآن عد الى معركتك ، وسنلتقى بعـــد اليـــوم .

وانسحبت بهدوء وحركة طبيعية نحو جماعة كان الضحك المستمر يعلن عن اغراقها فى المرح . ووجدتنى وحيدا ، من جديد . فالتفت يمنـة ويسرة أبحث بالحاح عن رئيس التحرير . لقد كان القرار القوي الصارم الذي انتهيت اليه فى تلك اللحظة يحركنى بسرعة نحو هدف ما زلت لـم اتبينه بوضوح ولكنى كنت أسير اليه بدون تردد . وأخيرا ، دخل رئيس التحرير من احدى الابواب فتقدمت نحوه كالجندي فى المعركة . وفاجأتــه بمبادرتى فقال لى مبتسما : « آه ! لعلك انتهيت من مرحلة التشـــاور والتفكير ؟ فماذا عن لك فى شأن اقتراحى ؟

ــ اذا كنت تريد أن تسمع منى كلاما صريحا ، فالجواب هو لا .

ــ فاجأته بجوابى الذي أطاره من مكانه وجعله يحاول ضبــط أعصابه ومواصلة الحوار الهادىء :

ــ انصت ، يا عربى ، تعال معى الى المكتب حيث نستطيع ان نتمم حديثنا فى هدوء ، دون أي ازعاج .

رحنا الى مكتبه ، وهنالك أعاد على اقتراحه من جديد فكررت لــه رفضى . فقال :

ــ ولمه ؟ ولمه ؟ هاته فرصة سانحة قلما تجود الظروف بمثلها ، وتضيعها هكذا ! انى لا أفهم ! لا أفهم !

ــ كيف لا تفهم ، يا سيدي ، أن أرفض التضحية بكرامتى ؟

ــ وما دخل الكرامة فى الموضوع ؟ ان المطلوب منك هو ان تمجــد الصحافة وتدافع عنها ، وانت تعرف أنها مظهر حقيقى من مظاهر الكرامة البشريـــة !

ــ هذه الفاظ ، وأنا لا اريد ولا أقبل أن أغتر بالالفاظ ! اذا كنــــت تريد منى ان امجد الصحافة ، بصفة عامة ، كمؤسسة مثالية تسعـــى لتحقيق حرية الري وتدافع بصدق عن قضايا الانسان ، فانا مستعد لان انظم ألف قصيدة فى الموضوع . ولكنك تطلب منى الآن ، يا سيدي ، ان امجد صحيفة بعينها لها اسمها وتاريخها ورجالها ! فالامر يختلف تماما !

ــ ولكن هاته الصحيفة صحيفتك ورجالها اصحابك وزملاؤك .

ــ انك تثير عجبى ، يا سيدي رئيس التحرير بمثل هذا الكــلام ، وانت تعرف انه بعيد كل البعد عن الحقيقة .

وحاول أن يحتج ، ثم ضبط أعصابه وقال :

ــ طيب . لنفرض الآن أننا طوينا صفحة الشر لنفتح صفحــــة الخير ، افلا تريد أن يكون لك فضل الابتداء وتشرع فى التجربة الجديدة ؟

ــ انى لا ارفض أن اكون أنا هو البادي ، ولكن من الجهة التـــى يتحقق فيها الخير ، فعلا .

ــ وما هى هاته الجهة ؟

ــ هى الجهة التى تجعلنى اساهم فى تحويل الجريدة أكثر فأكثر الى اداة نصح للشعب وصدق مع القارىء واحترام للجمهور بحيث لا تبقى اداة غرور وسفسطة وكبرياء .

ــ انك تبالغ ، يا عربى . وما كنت أظن أن رأيك فينا يصل الــى هاته الدرجة من القساوة . ولكنى ادعوك الى نسيان كل ما فات . والمستقبل امامك ، فلا تضيع الفرصــة .

ــ الذي لا افهمه ، يا سيدي رئيس التحرير ، هو هاته الاهميــة التى تعلقونها على قصيدتى فى المناسبة . وبما انى لست بشاعر معروف ، فلن ينتبه احد لشعري مهما رق وجاد .

ــ سننبه اليه الناس . ونحن نعرف كيف نصنع حينما نريد أن نصعد بأحد الى عنان السماء : كلمة من هنا ، واخرى من هناك ، واشـــارات عابرة ، واذا بالماكياج اللفظى يكسو الشخص الخامل الغفل الوانــــا

راهية . فتنزل عليه الشهرة دفعة واحدة ، كالمطر حين يهطل فوق الارض القاحلة . واما الحاحنا عليك ، أنت بالخصوص ، دون شعراء الحلبة (وما اكثرهم !) فلاننا نقدر نبوغك ونعترف بشاعريتك ، لا أكثر ولا أقل ! نقدر الحظ الذي نضع بين يديك كل التقدير وانها فرصة ربما لا تتكرر فى العمر مرة ثانيـــة !

ــ انى اقدرها حق قدرها ، ولكنى لا أريد أن أدخل من هاته الباب بل أحرص كل الحرص على أن آتى من باب الاستحـــــقاق الطبيعى ، الاستحقاق الذي يناله المرء بكد يده ، بدون احتيال ولا بهرجة .

ــ المشكلة فى هذا الموضوع ،يا عربى ، هى ان الاقتراح جاء مـــن المدير نفسه . ولا تستغرب انقلت لك انه أراد بذلك أن يصلح ما قـــد يكون فرط منه فى حقك . فكأن القضية قضية ضمير بالنسبة اليه ، قضية اخلاقيـــــــة .

ــ ويكون اصلاح الخطأ الذي وقع فى حقى واعادة السكينة الـــى ضمير السيد المدير هو أن أنظم قصيدة فى مدح الجريدة ومدح السيـــــد المدير بالتبعية والاشادة بخطة الجريدة ؟ أليس كذلك ؟

ــ هو ذاك ، وان كان صراحتك فيها شىء من التشويه .

ــ ولكن لست أدري ما هو الخطأ الذي ارتكبه فى حقى السيد المدير وما الذي يزعج ضميره بالنسبة الى . أنا ، شخصيا ، لا أرى شيئا مـــا عدا بعض الاحتكاكات التى مرت وتنوسيت .

لقد تراءى لى فى تلك اللحظة بالذات ان أبحث عن حقيقة ما يلمح اليه رئيس التحرير . هل يشير الى الاخطاء التى ذكرتها لى بالامس آنســـة الحسابات أم هو مجرد تمويه لفظى ؟ وهل تكون لديه الشجاعة الادبيـــة ليعترف لى بالاساءات الحقيقية ؟ وهل اصر مع ذلك على قراري الصـــارم الذي وطنت النفس عليه ، اذا ما كان هذا الاعتراف ؟ لكنى سرعان مـــا رجعت الى صرامة العزم ووضوح الموقف ففاضت نفسى بالكلمـــات الحاسمة القويـــة :

ـ اظن ، يا سيدي رئيس التحرير ، انى فهمت لماذا يلح السيد المدير على أن انظم قصيدة فى مدح الجريدة . لقد راى أنى اتساهل فى كل شيء فى الاجرة فى أوقات العمل ، فى كل الحقوق المادية ، ما عدا شيئا واحدا وهو الكرامة الشخصية . فلم يعجبه ذلك ، وهو يريد منى ، اليوم، ان استسلم كليا ، مائة بالمائة ، وأن أحبو عند قدميه وأنا أضرب فى دف المداحين . انه يلتذ سلفا بهذا المنظر ، منظر الرجل الذي ينسلخ عن كبريائه ليقدم نفسه فرجة للغير ، والذي يؤلمنى ، يا سيدي رئيس التحرير ، أنك تشارك فى كل هذا ، مع أنى كنت أضعك فى منزلة أخرى . فها أنتم تريدون أن تقتلوا فى الانسان الذي ما زال يفكر ويطمح ويريد انكم تتآمرون جميعا لتجهزوا على تلك البقية فى نفسى التى ما زالت تشدنى الى كرامة الانسان وتجعل للحياة معناها الرفيع بالنسبة الى . وهذا ما يجعلنى ارفض وارفض وأوغل فى الرفض الى اللانهاية . انى أفضل أن أشق طريقى بيدي فى الحجر الصلد فأتعب وأعد ولكنى اشعر بأنى حر واستنشق نسيم الحرية » .

وانفتح الباب فجأة عند هاته الكلمة الاخيرة . لقد تغير وجهه كلية واربد لونه وحل العبوس محل الابتسام . ومن دون شك أنه كان ينصت لحديثنا . وبدون مقدمة سأل رئيس التحرير : « ما جواب العربى عن اقتراحنا ؟

ـ هنالك بعض الصعوبات ، ولكن . . .

ـ صعوبات ؟ صعوبات ؟ امنحه الفرصة ليصول ويجول كشاعر ويخلق لى صعوبات ؟ ماذا يريد ؟

فأجبته فى الحين : « يريد أن يحصل على قوت يومه ، دون أن يضيع شيئا من حرمته وكرامته .

ـ آه ! تتكلم ؟ انت الآخر تتحدث عن الحرمة والكرامة ؟

ـ وهل تريدون أن تحتكروها لانفسكم ؟

ـ كنت اتوقع أن الحديث معك لن يكون وراءه طائل ؟ واذن ، ما دمت تبحث عن الحرمة والكرامة فهذه أشياء لا توجد عندنا ها هنا ، ويمكنك أن تبحث عنها فى مكان آخر . وقد طالت هاته المهزلة اكثر من اللزوم !

ـ انها لم تطل عبثا ، يا سيدي المدير ، لانها اظهرتك على حقيقتك التى يجهلها الكثير ممن يدعون أنهم يعرفونك !

« هكذا انتهت المهزلة ، ولم ادر كيف غادرت المكان بسرعة ، وانا اتساءل هل اضحك أم أبكى هل اهتف هتاف الانتصار ام اتشكى سوء الحظوظ . لقد كانت الافكار مختلطة فى ذهنى . ولم أكن اتصور أن اي مكان يستطيع ان يحتضننى ويعيد الى السكينة والاستقرار . فسرت وسرت فى طرق لا تنتهى . كنت اعرف ان الحق معى ، ولكنى كنت وحيدا فى معركتى. وانا موقن أن الناس سيكونون كلهم بجانبى لو أتيح لهم أن يشاهدوا الوقائع عن كثب ، ان يلمسوا الحقيقة بيدهم . ولكن ، كيف السبيل لان يعرف الناس ما يجري حواليهم من مظالم ، وتحريك ما فى نفوسهم من قوى كامنة لمناهضة البهتان والعدوان ؟ يستطيع الظالم ، اذن ، ان يصول ويجول دون أن تنكشف عوراته وهو يضحك من غفلة الملأ ! ولا شيء أفضل من ثورة قوية وعارمة لتقليم اظافيره وتكسير شوكته ! ولابد من ارجاعه الى جحره المظلم ليعيش وسط الظلام الذي كان يحبك فيه خيوط مؤامراته !

« آه ان يد العدل ، حينما تظل مشلولة ، تحرك العاصفة فى النفوس ، وتلهب الدماء فى العروق ! وأن العجز ، حين لا يمكن تلافيه فى الحين ، يحز فى القلب ويملأه حسرات ! ذلك ما شعرت به آنذاك وسط الطريق وأنا ، فى حيرتى ، أرنو الى الافق البعيد باحثا عن وسيلة ينتصر بها الحق . ولكن الوسيلة فى الارض لا فى السماء ! . . . ووجدتنى آنذاك بجانب مقهى . فما كان منى الا أن دخلت اليه وخلافا لعادتى طلبت خمرا . لقد كنت أريد أن أنسى نفسى وأنسى الواقع وانا اردد ما قاله الشاعر منذ العديد من القرون : اليوم خمر وغدا امر ! هاته قصتى كما جرت بدون زيادة ولا نقصان . فما رأيك ؟

ـ لعلك ستظننى أجاملك اذا قلت لك انى معجب بك وانى اهنئك !

ـ حقا ؟ الا ترى انى تصرفت تصرف شاغر مغفل ومتهور ؟

ـ من قال لك هذا ؟

ـ أنا اقوله لنفسى فى بعض الاحايين .

ـ كلا والف كلا ! انــك لو لم تفعل ما فعلــت لعشت فى التعاسة والندامة . حقا ، انك فقدت شغلا وستعرف ساعات صعبة ، ولكنــك تستطيع الآن أن تعتز بنفســك .

وفى تلك اللحظة وقع طرق فى الباب . انه نادل المقهى جاء ليخبر العربى أن سيدة تنتظره فى الطابق الاسفل . فانبسطت أساريره وهو يتهيأ للنزول : « اي صدق ! اي وفاء ! ألست متفقا معى ؟ » .

ـ لعلها صفحة جديدة وجميلة فى حياتك ؟

ـ من المحقق ، على أي حال ، أن هنالك ديوانا جديدا ينتظرنى .

ونــــزل .

سـلا   محمد زنيبـر

من ذكريات الحب في

مجتمع فاس التقليدي

عبد العلي الوزاني

لو انك رجعت بالحب الى أصوله فى النفس الانسانية ، لوجدتهـا واحدة رغم اختلاف الاجيال والعصور ، شأنه فى ذلك شأن جميع الغرائز والميول الفطرية . نعم ، قد تتفاوت مستويات الحب سموا وانحطاطا ، رقة وغلظة ، تسطحا وعمقا ، اعتدالا وعنفا ، الا انه بعد ازالة هذه الفروق، تبقى هناك عاطفة واحدة تكررت فى نفس كل انسان ، ورافقت البشرية منذ كان الانسان ، وسوف تبقى رفيقة رحلته الطويلة الى ان يواريه ظلام العدم . واذا كانت عاطفة الحب ذات أصل واحد ، فان مظاهرها وأساليبها الاجتماعية ما تفتأ قلبا حولا لا يقر لها قرار . وهي ما يميز تطبيقات الحب العملية في مختلف البيئات والعصور . ذلك ان الحب يتمثل فى علاقات تربط الذكور بالاناث ، وهي علاقات متغيرة ، ككل العلاقات الاجتماعيـة الاخرى ، بتغير أحوال الشعوب والمجتمعات . فكل جماعة تمارس الحب على نحو يتفق وما تهيأ لها من الوان التحضر ، منفعلة فى ذلك بمجمـوع حصيلتها من التقاليد ، وما تكون لها من ذوق ، وما استوى لها من طبع . فاذا كان الحب فى مجتمع ما له وقائع دامية يسقط فيهـا الضحايـا ،

وتنتهك الحرمات ، وترفع فيها العذارى مكرهات الى صهوات الجياد ، فانه في مجتمع آخر له وشوشات تدغدغ الحواس ، وهمسات تروق الخواطر ، وغدوات وروحات ذات سحر وفتون . وهو في مجتمع ثالث يدخل البيوت بدون استئذان ، ويتصدر المجالس وسط العائلات ، ويمشي في الطرقات منتصب القامة ، مسدد النظرات ، واثق الخطو ، وقد شدت اليه عيون كلها شوق واعجاب ، وهو في مجتمع رابع يزور لماما كألوان الطيف ، أو أشباح الخيال ، ثم ينشر أجنحته للتحليق نحو أفق جديد ، بينما هو في مجتمع خامس ساكن طويل الاقامة ، ثابت العنوان ، يشاهده الناس كل مساء ، وقد أخذ أهبته الكاملة لاحياء ليلة من لياليه ذات السحر والرواء..

والحديث عن الحب في مجتمع فاس من الاحاديث الشيقة العبقة ، المسيلة للعاب ، الفاتحة للشهية .. وما ظنك بحديث تتفتح براعمه بين الشفاه ، وينساب ماؤه في جداول المخيلة ؟ فما من واحد لقيته من أبناء جيلي ، وتشقق بنا الحديث عن الحب في هذه المدينة الرقيقة ، الا والفيته يتحول الى شاعر في لحظة خاطفة ..

كان الحب في فاس سرا مصونا ، تتهامس به الشفاه ، وتتناجى الضمائر ، بعيدا عن خائنات الاعين ، ومسترقات الاسماع .. وكان شريفا عفيفا نقي الثوب ، طاهر القلب ، منزها عن الشوائب ، مترفعا عن المنافع في غالب الاحوال ، يهتز للكلمة الجميلة ، ويتفتح للخلق الرضي ، وتنساب دموعه لمراى مظاهر الالم في حياة الناس .. وكان حييا خجولا فيه رقة تجعله يخطف النظر اليك ، ولا يحملق في وجهك ، ويصافحك بأنامل رقيقة شفها الوجد ، وأنحلها الهيام .. وكان يعيش في الظل ، وتحت أجنحة الظلام ، كأنه الخواطر تتردد في الصدور ، أو الاشباح تتراقص بين أواخر الليالي والبكور .. يغمغم ولا يفصح ، ويرمز ولا يعبر ، ويلوذ بالصمت في غالب الاحيان . واذا أعلن عن نفسه ، فبقارورة العطر ، وبالمنديل المطرز ، وبالرأس المعصوب ، وبالوجه النحيل ، والبشرة الذابلة ، والخطوات المترددة .. وكاد يستعين بالرسل يحملهم رسائل الشوق ، وينشر على أيديهم آيات الغرام ، ويجعلهم شهداء على ليالي السهاد ، وأمناء على أسرار

القلب ، متخذا من السنتهم تراجمة لاشواقه ، ومن أحداقهم معابر للواعجه .. وكان كثيرا ما يرى الدنيا من ثقب الابواب ، ويتنفس من سم الخياط ، ويتلصص من خصاص النوافذ ، ويسترق السمع والنظر من فوق الاسوار ، ومن فرجة الابواب ، مشتعلا بمجرد اللمحة ، محترقا بمجرد الاشارة . نظرة تؤرقه ليالي ذوات العدد ، وايماءة تخلق له قصة طويلة من تهاويل الاحلام ومتاهات الظنون .. اذ كان يحيا على الاوهام أكثر مما يحيا على الحقائق الا اذا كانت حقائق القلب والوجدان .. تجده مندفعا كألسنة النار عميقا كعروق الاشجار .. طاغيا كهجوم العاصفة .. ولماذا ؟ لان خصلة شعر برزت من تحت جلباب .. أو لان عينا كحيلة أشرقت خلف نقاب .. او لان صوتا رخيما تكسر من وراء حجاب ..

رايت الشبان العاشقين فى مدينتي – وانا غلام يافع – تائهين فى دروبها وراء صور جذابة ثلاثة ارباعها من نسج الخيال ، ووحي الامل .. مشبوبي العواطف ، مرهفي المشاعر ، نظرة تقتلهم ، وأخرى تحييهم . وما بين مصرعهم ومبعثهم خيط رفيع .. قد يكون إستدارة جيد ، أو رقة شقة ، أو تنغيم لفظ .. رايت الواحد منهم يتخطر فى جلبابه الابيض الناصع ، نحيل الجسم ، رشيق القوام ، تضمخ بالطيوب ، ونقع ثيابه فى ماء الزهر ، يسكرك شذاه ، وبينك وبينه بضع خطوات . فاذا كان الوقت صيفا أمسك بمنديل شديد البياض ، زكي الرائحة ، شفاف الاديم ، كأنه النية الصافية ، او الصفحة الشعرية ، يجعله اداة تهوية ، ووسيلة تعبير عند تراسل النظرات ، وتقابل القسمات .. رايت عاقا من مدينتي يرفعون العيون دون الرؤوس الى اعالي الاسوار ، ويمدونها خلال ما انفرج من الابواب ، ويقضون ساعات من الليل ، تحت اعمدة مصابيح شحيحة الضوء، وينفقون جزءا كبيرا من النهار ، يطاردون الاشباح فى الدروب والمنعطفات .. وكان بينهم الكثيرون من طلبة العلم .. كراريسهم الصفراء تحت آباطهم .. وفقر طالب العلم باد على هزالهم ورقة حالهم .. ولكنهم فرسان الحب .. يتركون درس الأستاذ الى غزل الفتاة .. ويوثرون هياكل الحب على رحاب الجامعة .. لهم غنية فى العيون الحوراء عن قصائد الشعراء .. وفى لذاذات البرحاء عن وسائل البلغاء .. خطرات رقية او فاطمة او

سعاد ، اشهم اليهم من مشاكل سيبويه .. وعروض الخليل .. وتأمل الصبايا الملاح ، أحب اليهم من استعادة الدرس فى كل غدو أو رواح ..

واليك الجانب الآخر للصورة .. رأيت نساء عاشقات من مدينتي فى خلواتهن .. ودسست أذني بين أحاديثهن .. واسترقت السمع الى مناجاتهن .. كما تسترق الشياطين السمع الى صلوات الملائكة .. وانا ما زلت فى تلك السن الطرية ، التي تشعر النساء بالامن ، وتجعلهن لا يتحرجن من ارسال نفوسهن على سجيتها .. ولكن فاتهن ان سني يومئذ ، لم تكن تعبر عن حقيقتي .. فقد كنت يومئذ ذكي القلب ، متفتح الخاطر ، واسع الخيال ، ذا عين لاقطة ، وأذن مرهفة ، وقابلية عجيبة لاستقبال كل الاشارات ، كجهاز الرادار الصغير الذي يعلو ظهر بعض السفن .. رأيت نساء عاشقات من مدينتي منهمكات فى كتابة قصة قيس وليلى ونسخها على ورق شفاف . يغمسن أقلامهن القصبية المرهفة فى المادة الحمراء القانية ، التي يصبغن بها شفاههن وخدودهن .. ثم يجرينها على الورق ، فاذا بالكلمات تبدو وكأنها تقطر دما .. ورايتهن يتهادين القصة ، ويجعلنها موضوعا للسمر حول آنية الشاي .. أو حول مجامر احمرت حدقاتها ، وقد تصاعد منها بخور العود والند ، فى ليالي الشتاء الباردة .. ورايتهن يعتلين الاراجيح فى الجنان والعرصات أيام الربيع الخضراء ، وقد تدلت منها سيقانهن البضة الناعمة .. وبينما تكون الاراجيح تذهب فى الفضاء وتجيىء بحمولتها الرائعة ، تكون اصواتهن الرخيمة ترتفع بأغان شعبية تعبر عن لدعة الشوق ، ومتعة الحنين .. ورأيت منهن من تنقطع عن مائدة الاسرة عدة أيام .. جبينها معصوب ، وعيناها محمرتان من سهاد وبكاء ، وقد شفها الغرام ، وأتلفها الشعور بالغربة والبعاد .. ورأيت منهن من لا تحمل حبها محمل الجد ، بل هي تجعل منه انيسا لطيف العشرة ، خفيف الظل ، تبادله رقيق الاحاديث ، وتجعله بهجة للخاطر ، لا هما على القلب، قطعة من رياض الجنة ، لا بابا من ابواب جهنم .. لذته متعة ، وألمه متعة، وما بين لذته والمه ، نعيمه وشقائه ، مستراح للقلب الجذلان ، والطبع المرح ، ومن ثم فضحكا تهاترن فى جوانب الدار ، ودعاباتها توزع عن يمين ويسار ، والجو من حولها مشبع من انتشاء ومراح ..

عاشقات مدينتي كن ياخذن أهبتهن ، للنزول بالحب من داخل البيوت الى الشارع .. والخروج به من الحجرات المحجوزة الى الهواء الطلق .. والانتقال به من الزوايا المعتمة الى نور الشمس .. فخطفن الخطوات الى منازل المعارف والجيران .. ثم تنقلت أقدامهن الملفوفة المضطربة بين بعض دروب المدينة ومتاجرها ، وقد خفيت قاماتهن تحت ازار فضفاض ناصع البياض ، وتوارت ملامح وجوههن خلف نقاب سميك ، ينزل الى الصدر ، ويرتفع الى ما يقارب الحاجبين ، ولكن لم يلبثن ان تركن ذلك الى جلباب ، كان رحبا فى أول الامر ، ثم أخذ يضيق على قدودهن شيئا فشيئا ، الى ان التصق بها .. وكشف عما بها من أقواس واستدارات .. بينما اخذ النقاب يرق ويشف .. وكل يوم يمضي يذهب بخيط من خيوطه المتداخلة ، الى ان صار هفهافا .. ارق من أوراق الورد ، وأخف من النسيم . زانت حواشيه نخيلات طرزتها أنامل رخصة رقاق .. واختير قماشه من اجمل الثياب الحريرية .. وأريقت عليه قطرات من ارفع العطور .. فجاء مبديا للمحاسن ، ساترا للعيون ، داعيا الى الحب ، مثيرا لشغاف القلوب ، فاتنا للخيال ، خالقا للظنون ، وهو الذي كان فى أصله وقاية وصيانة ، وحاجزا بين عالم الذكور وعالم الاناث . ثم أخذ ينزل قليلا قليلا ، الى ان تعلقت قطعة منه بأرنبة الانف ، وبرزت من جانبيه خصلات الشعر .. واستدارات الخدود .. فصار اغراء يضطرب أمامه أصلب الرجال ، وفضيحة تنتشر حولها الظنون والشائعات .. وبعد ذلك سقط سقطته الاخيرة .. وطوي فيما طوي من أزياء الامهات والجدات .. ولله فى خلقه شؤون ..

ولقد كان للنقاب دوره الخطير فى تاريخ الحب بمدينة فاس .. كدور رقاق السحب فى لعبة اختفاء القمر .. او كدور أوراق الخمائل ، عندما تحجب مغازلة الفراش لاكمام الزهر ، او كدور غلائل الحرير لما تحيط مخدع العروس .. كن يعنين به عناية فائقة . يخترن لونه ، وصنفه ، وشكله ، ويضعنه على وجوههن بطريقة لا بد ان تراعى فيها شرائط الاناقة والجمال ، حتى كان اول ما ينظر اليه الرجل ، عندما يواجه بغادة حسناء ، كما يواجه القلب الجذلان بموكب الربيع ..

وتعتبر الابرة الفاسية مسؤولة عن روعة النقاب .. اذ هي تأخذ قطعة من قماش .. ثم تعمل فيه بحذق ومهارة ، تنمنمه ، وتزرع فى صفحته سلال الورد .. فلا تتركه الا وقد استحال قطعة هربت من بستان أنيق .. او رقعة تخلفت من خمار اعتماد ايام العز المجيد .. لقد كانت الابرة فى أصابع المراة الفاسية ، كالقلم فى انامل الشعراء .. حركاتها الخفيفة الرشيقة تعيد خلق الربيع .. وهمساتها لخيوط الثياب، فتنة للرجال كهولهم والشباب .. دقيقة ضئيلة ، ارق من شعاع الامل البعيد .. وانحل من خيوط الايمان فى قلب الفاتك العربيد .. ولكنها من وراء ملاحم الحب والغرام .. كما يكون القلم وراء أضخم دواوين الشعر.. ما من عاطفة حب اشتعلت فى قلب عاشق ، او خاطر فاتن تألق فى خيال ولهان ، او معنى طريف تمثل لذهن صب مستهام ، الا وكان للابرة الفاسية دخل فى صنعه ، كما كان لعيني عبلة الد عجاوين دخل فى بطولات عنترة.. وكما كان لفتون ولادة دخل فى نهوض مجد ابن زيدون ، وربما كان نصف الحضارة الفاسية مدينا للابرة السحرية ، التي انحنت عليها رؤوس اسكرتها نشوة الفن ، انحناء أمهر العازفين على آلاتهم يستلهمونها روائع الانغام ..

صدقوني اذا قلت لكم ان الابرة الفاسية كتبت تاريخ حضارة فاس ، اكثر مما كتبها القلم .. كان القلم أحيانا يدركه العياء ، فيتوقف عن الحركة، وكان يتعرض لنكسات ، فتنزل درجة حرارته حتى يتجمد المداد فى عروقه .. اما الابرة فكانت دائبة النشاط كنحلة .. تسل خيوط النور من احداق النساء الفاسيات ، وتحني ظهورهن بكر الليالي ومرور الايام .. فلا يشتكين ولا يلتقطن الانفاس . ظهورهن الفت الانحناء ، وعيونهن تعودت الرحلة الطويلة على خيوط الحرير .. وكم فقيرة رقيقة الحال منهن ، صنعت لكرائم العائلات المترفات ، ما بواهن عرشا فى قلب الزوج العتيد، واضفت عليهن من هبات اصابعها الكادحة ، حللا يخطفن بها الابصار ، ويجررن ذيول الخيلاء ..

وعلى النقاب والمناديل الحريرية ، زاولت الابرة راق العابها السحرية .. ونسجت من الخيوط النحيلة رسائل حب ، ووثائق غرام ، تصل ما

تباعد من القلوب ، وتؤلف ما تنافر من الطباع ، وتبني أعشاشا جميلة دافئة لذكور واناث .

وتغير مفهوم النقاب لما استحال الى ضرب من العمل الفني .. يعبر عن مهارات جاءت خلاصة لتجارب طويلة في حقول الخيوط ، وتموجاتها الحريرية . لقد صار النقاب يرمز الى معنيين متناقضين : احدهما يصدك عن صاحبة النقاب ، والآخر يغريك بها اغراء ، فتضطرب خطواتك بين السلب والايجاب ، بين الاحجام والاقدام ، وتحتار وساوسك بين اليأس والامل ، فلا تدري ، أيكون النقاب وثيقة اتهام ضد الرجل .. أم يكون بطاقة دعوة موجهة اليه ..

لقد عرفت المراة الفاسية كيف تنتقم من الذين فرضوا عليها النقاب. اذ خلقت منه تحفة فنية رائعة ، وجعلته شاشة صغيرة ، تعرض عليها صور الفتنة والجمال ، فكانت كالسجين الذي يزين جدران زنزانته برسوم فيها جاذبية واغراء .. او كالبلبل الذي يجعل من قفصه الضيق قطعة مختصرة من الفضاء الواسع .. فيوسعه من شدو وتغريد .. كما عرفت كيف تضحك به على أذقان الجميع .. فبذكائها وغريزتها استطاعت ان تجعله يبديها اروع جمالا اذا كانت جميلة .. ويظهرها كالجميلة اذا كانت عادية بين النساء ، وان يرفعها الى مستوى العادية متى كانت ذميمة ، حتى لتبدو جميع المنتقبات جميلات .. ينظر الرجال اليهن كما ينظر الاطفال الى الملبس زاهيا في أوراقه الملونة المسيلة للعاب ..

عندما تصل الطفلة الى العاشرة من سنها الغفة ، كانوا يضعون على وجهها نقابا ، تبدو به أكبر من سنها الحقيقية بكثير ، وتشعر معه بأن انوثتها قد اكتملت ، ومن ثم تبدأ قصتها مع الرجل تمر بأول فصولها .. فهو البعيد القريب .. والعدو الحبيب .. مناط اليأس ومعقد الرجاء .. وهو الفاكهة اللذيذة المحرمة .. ويحيطها النقاب بهالة من الجاذبية ... ويضع فيها سرها الخاص .. الذي يبحث عنه عشاق الغواني .. بعد ان كانت بنتا عادية ، تتجاوزها الابصار ، ولا تسكن بها الاسرار ..

اذا اردت اغراء اللصوص بكسر باب فضع عليه قفلا .. واذا شئت اثارة خيال المغامرين ، فتحدث عن طريق ممنوع .. واذا رمت تحريض الرجال على فتاة ، فاجعل على وجهها نقابا .. ان خفاء بعض صور الخيال، هو الذي الهم السليقة الفنية لدى الشعراء .. وأن دقة المعاني البلاغية كانت تحديا لملكات البلغاء ، وان انضمام أوراق الورد هو الذي اغرى بها الفراش .. وان احتجاب وجه المرأة هو الذي صنع بطولة الفاتكين من الفتيان ..

واصبح النقاب المطرز الجميل شارة الغانية الفاسية .. يتقدم روائعها كما يتقدم الزهور شذاها العبق .. وكما يتقدم النجم نوره الالق.. والكثيرون كانوا يهوون بأفئدتهم الى المدينة الساحرة ، لمشاهدة أشياء عديدة لها الق يفتن الابصار ، وفى طليعتها النقاب العتيد ، ذو الصيت البعيد .. مثلما يتقاطر عشاق الفن على باريس او لندن او مدريد ، من أجل بضع لوحات تمثلت فيها عبقرية الخلق والابداع .. وقد اقتنعت المرأة الفاسية بأهمية النقاب ، وما له من سحر .. فحتى بعد سقوطه ، حرصت على التزين به أحيانا ، لداع من دواعي الوجاهة والدلال .. فأنت عندما تجوس خلال المدينة ، تطلع لك من حين لآخر امرأة معطرة أنيقة تسربلت بجلباب فاخر ، وانتقبت بحجاب أتخذ للزينة لا للتصوف .. فجاء كالقلادة للعنق ، او السوار للمعصم ، او الخاتم للاصبع ، يؤدي مهمة جمالية من الدرجة الاولى ..

لقد شهد النقاب الفاسي عصر الكلاسيكية .. ثم عصر الرومانتيكية .. فحين كان المجتمع الفاسي محافظا على شخصيته بكل مقوماتها ، كان النقاب مستجيبا لهذه المحافظة ، جاثما على وجه المرأة كالهم الثقيل على القلب ، لا يسمح لها بالتنفس الا بصعوبة ، فلما دخل المجتمع فى طوره الرومانتيكي ، وهبت رياح الهوى على ربوعه ، وذاب فيه جليد الجمود والتزمت ، كان النقاب قد أصبح كالخيال الرومانتيكي .. والعاطفة الرومانتيكية .. فيه منهما الشفوف الذي يثير .. والشاعرية الموحية بالرؤى والاطياف ..

وتخطرت الغواني منتقبات فى ازقة المدينة ، تخطر المحظيات بين فصول الف ليلة وليلة .. وتخطر الحب حولهن ، راشقا سهامه فى قلوب فتيان واقعين بين فتنتين : فتنة الهوى ، وفتنة الشباب .. وكانت المدينة المرهفة الحس ، لا تنام وتفيق ، الا على قصة غرام عنيف يحرك ما هجع فى الصدور الآمنة .. ويهيج ما سكن فى القلوب المطمئنة .. واكثر احداث الحب تقع خلف النقاب .. كما ان اضطراب العواطف يقع وراء اقنعة الوجوه .. وكما ان تيارات الحياة تتدافع تحت سطح البحيرات الهادىء .. ولما كانت العينان هما أبرز ما صار مكشوفا من الوجه الموضوع خلف النقاب ، فانهما تحملتا العبء الاكبر فى التعبير عن اللواعج والحرقات .. وكانتا محط عناية واهتمام .. حتى تكون قدرتهما على تأدية المعاني اكمل وأروع .. وربما كان الذكاء المشرق فى عيون نساء المدينة راجعا الى التجربة الطويلة فى الالتقاط والارسال ..

كانت المراة المنتقبة قد اجادت النظر قبل اجادة الكلام .. فاستطاعت ان تقول كل شيء بعينيها لا بلسانها .. لان المجتمع سمح لها بأن ترى قبل ان يسمح لها بأن تتكلم .. فحين تكون عيناها ناطقتين ، يكون لسانها اخرس .. وتعلمون خطورة حديث العيون .. انه كبعض صور البيان الرفيع .. تحتمل ضروبا من التأويل .. خصوصا اذا كان حديث عينين مؤنثتين .. مشرقتين .. ذكيتين .. ماكرتين .. المرأة لغز .. حتى ولو تكلمت بأفصح لسان .. وواضح بيان .. فكيف بها اذا لم ينطق فيها الا العينيان .. وهما مثار الظنون ومصدر الايهام .. وهناك صنف من العيون ، يتلون بحسب ما ينعكس عليه من الاشعة ، كعيون القطط .. ترى فيها صفاء الصباح .. وعمق المساء .. وحمرة الغروب .. وخضرة الربيع ..

كان الحب من وراء النقاب ينمو بسرعة خرافية .. نمو البذور الكريمة تحت اديم التربة الطيبة .. وكان يتألق تالق الخواطر الشعرية فى القرائح الخصبة .. ولم يكن كبير الطموح .. قانعا بالنظرة ، والابتسامة .. أقصى امانيه ان تحتضنه الضلوع ، وتحنو عليه الاكباد ، وتنضم عليه

معاقد الاجفان .. ولم يكن المجتمع يسمح به الا من طرف خفي .. فكان يهرب تحت ثياب الخادمات .. ويعبأ في قارورات العطر .. ويلـف في مناديل الحرير .. ويخرج الى الناس في ملابس تنكرية .. ويتقدم اليهم بأسماء مستعارة .. حتى لا يرجم بالحجارة .. ولا تنهش عرضه الالسنة الحداد .. يختفي وراء حمرة الخجل .. ويحتمي بشعاع من اشعة الامل .. ويلوذ بما يكتنفه من غموض ، كما يلوذ العصفور بوكره ، عند هبوب العواصف ، ودوي الرعود .. ولكنه كدفقات الماء ، أو نفحات الهـواء ، لا بد ان يجد له متنفسات ولو بين جلاميد الحجارة ، وأمنع السـدود ، واثقل القيود .. ومن ثم كان الحب يومها يسخر بجلاديه ، ويهزأ بمصادريه، فهو تارة يمر من بين أرجلهم ، وطورا يمرق من خلف ظهورهم ، وأخـرى يحلق فوق رؤوسهم ، فلا يرون منه الا أطيافا كأحلام النائم ، واشباحـا كأخيلة الواهم ، وقد لا يرون منه شيئا على الاطلاق . ان امره لعجيب ، يدخل المناطق المحرمة ، ويجتاز الاسلاك الشائكة ، ويقتحم الحواجـز ويتسلق الاسوار ، فيكون من جلاده على بعد بضع خطوات ، وهو به غير عليم .. لم يكن المجتمع يعترف بشرعيته ، وكان الناس يتحاشون الحديث عنه ، ولكنه مع ذلك موجود . يسعد به قوم ، ويشقى آخرون . يتسلل الى مخادع النساء .. ويتخذ له مكانا في قلوبهن ، ويغفو في عيونهـن ، ويسكر آذانهن بأنغام عذبة لعلها اشهى الى نفوسهن من كل متع هذه الحياة .. وفي طبيعة الحب عناد ليس له نظير .. لا يزيده الاضطهاد الا شبابا وقوة .. وقد يكون اهماله وعدم المبالاة به ادعى الى هزاله ، وتجريده من أقوى أسلحته .. وقد علمنا تاريخ المحبين انهم يستميتون في الوفـاء لعواطفهم كلما تعرضوا للون من الوان الاضطهاد . فاذا خلي بينهم وبين ما يريدون من أوطار الفؤاد ، بردت عواطفهم ، وهدأت أعصابهم ، فصرفتهم مشاغل الحياة الكثيرة عما كانوا بسبيله من مزاولة العشـق ، واعـلان الصبابات والاشواق ..

والحب اذا لم يعترف بشرعيته من قبل المجتمع ، لا يكون طبيعيا . وانما يشوبه الشذوذ ، وتتعرض صحته للانحراف . وهكـذا كـان في مدينة فاس في وقت مضى : يترك الطرق الطبيعية ، ويبحث عن طرق

ومسالك غير مطروقة للوصول الى هدفه .. متجافيا عن الصراحة والوضوح ، موثرا حياة الابهام والغموض . يبدو خائفا يترقب ، مضطرب الخطا ، لاهث الانفاس ، متلعثم اللسان . يتوارى والناس صاحون ، ويقوم بجولته وهم نائمون . وقد يتحول من جراء ذلك الى مجنون أضاع صوابه ، او ناسك فقد ذاكرته ، او ماجن ضل السبيل .. وكثيرا ما يصير مجرد روح لطيف ، ليس له مكان ، ولكنه مع ذلك موجود فى كل مكان . يترقرق فى العيون ، ويرف على الشفاه ، ويقطر من الخضاب ، ويسيل من اطراف الاصابع ..

وكانت أعراس فاس ولياليها الساهرة ، وما تزدان به احيانا من لطاف المباهج ، ومواكب الربيع ، ومحافل الاعياد ، فرصا ذهبية للحب . يجوس خلالها ، ويتبختر في رحابها ، يعربد في الصدور المزدانة بالحلي ، ويلتف بالمعاصم المحاطة بالاساور ، ويتراءى فى الاكف المخضوبة بالحناء، وينساب من الحناجر الشادية بالاغاني ، ويتموج فى الشعور المعقودة بالمشابك ، ويرقص فى الالسنة المرتعشة بالزغاريد .. فمع زفاف كل عروس ، ومع الاحتفال بكل ربيع ، ومع فرحة كل عائلة ، ينطلق الحب من قيوده ، ويلبس اجمل ثيابه ، ويتضمخ بأزكى عطوره ، ليكون هدية العين للعين .. وهبة الاصابع للاصابع .. وأنشودة الافواه للاذان .. ولهذا كانت افراح فاس طويلة الذيول ، لا تكفيها الايام ، فتمتد الى الاسابيع .. انه الحب ، تترى بشائره ، وتتوالى مباهجه ، صانعا للرؤوس جميل الاحلام ، واهبا للنفوس رقيق الخواطر ، مزينا للقلوب رونق العيش ، محيطا الاحباب بهالة من النور ..

وبعد مرور أيام الفرح ، كان يخبأ فى أعماق الصدور ، ويخزن فى غلائل الثياب ، ويحضن بين نواعم الوسائد ، ويحفظ فى قرارة الوجدان ، وكلما طال عليه العهد ، ازدادت قسماته وسامة ، وصار كالخمر المعتقة ، عندما يفض دنانها برعاء الشاربين .. رائحته المسكرة تصعد من صناديق العرائس ، وانفاسه الحيرى تلهث بين اركان البيوت ، وأطيافه النشوى تتراءى بين الصدور والنحور .. يداعب المقل كالحلم العذب ، ويمتع

الخاطر كالامل الباسم ، ويلذ الخيال كالذكرى الحبيبة ، ويبني القصور كأوهام الطفولة ..

وفى أهل فاس رقة فى الطباع ، ودماثة فى الخلق ، ورهافـــة فى الحس . ابحث عنها فى جهاز العروس ، وفى خطوط المصاحف ، وفى نقوش الخشب ، وزخرفة الجدران ، وبدائع الفسيفساء .. وتأملها تتمثل فى قطع الاثاث ، وتتوهج فى كلمات القصائد ، وتتفتح بين أزهار البساتين .. والحب ينبع من الطبع الرقيق ، كما ينبع الماء الزلال من اخصب الاراضي .. ويصدر عن النفوس المرهفة ، كما يصدر الاريج عن أزكى الزهور .. لذلك كان أهل مدينتي يضعونه فى فنونهـــم وصناعاتهـــم ، ويزرعونه فى حدائقهم وعرصاتهم ، يحفرونه فى قطع الذهب ، ويسبكونه فى عمق الجواهر ، وينسجونه مع خيوط الحرير ، ويقدمونه فى هدايـــا المناسبات . ولكنهم عادوا نفوسهم عندما طاردوه فى الواقع ، وصدوه عن علاقات الناس ، فقصروه على أبراج الخيال ، فاذا نزل منها بمعجـــزة ، اختصر نفسه فى ايماءة عابرة ، او اشارة يد بارعة ، او طرفة عين ساحرة .. فكان المارد المحبوس فى قمقم ، والعاصفة المضغوطة فى زجاجة ، والمعنى الكبير ، المحشور فى لفظ صغير ..

وكان الاتهام بالحب شائعا بين نساء المدينة ، شيوع العبيـــر بين مسالك الحدائق .. فما ان يرين امرأة مسروقة بالذهـــول ، مشمولـــة بالشحوب ، هادئة الاطراف ، عميقة النظرات ، حتى يبادرن الى اتهامهـــا بالحب . ويأخذ خيالهن الخصيب ، فى نسج قصة غرام ، سرعان ما تكبر ، كما تكبر احداث الاساطير .. وكم كانت التهمة محببة لدى الكثيرات .. يتعشقنها ، ويتهيأن لها بكل ذرة فى قلوبهن ، وكل خفقة فى جنوبهن ، وكل قطرة من دمائهن .. وكثيرا ما تنكرها السنتهن ، ولكن يصدقها ارتقاف الجفون ، وتورد الوجنات ، واضطراب الالسنة .. كانت التهمة الجميلة تاتي حينا عن طريق التصريح ، واحيانا عن طريق التعريض والتلميح ... واية تهمة اجمل والطف من أن يتهم شخص بانه عاشـــق ومعشـــوق .. سيما اذا كان المتهم امرأة .. وهي التي يعتبر الحب قضيتها الاولـــى ،

ومبداها المفضل .. جعلته أسمى قيم هذه الحياة . يقيم بين يقظتهـــا ومنامها ، ويصل بين عقلها وقلبها . يعدها الوعود المعسولة ، ويمنيهـــا الاماني الجميلة . فهي من عبيره في نشوة دائمة ، ومن بشائره في فتنة ما لها من حدود .. والمتهم اما أن يكون امرأة صوحت زهرة شبابها ، وسرى الوهن في اعصابها ، فهي ناقمة على الصبايا الفاتنات المفتونات ، المائسات الرافلات في في حلل الملاحة والجمال .. وامـــا ان يكـــون منافسة في سطورة الحسن وفتنة الشباب ، تغار من مثيلاتها ، كما يغار الزهر من الورد ، او كما يغار الاقحوان من شقائق النعمان ..

كان المجتمع قد أقام اسوارا بين عالم الرجـــال وعالم النســـاء ، واوقف في أسفل الاسوار حراسا شاكي السلاح ، على استعداد للفتـــك بأي شاب جميل يقترب منها ، وصد كل امرأة شابة تريد تجاوزها .. ولكن طيورا كانت تحلق في الاعالي لم يكن لهم اليها من سبيل ، والوان طيـــف كانت تنعكس على الاسوار ما لهم بها من علم ، ونسمات هائمة كانت تداعب السطوح وتغازل الشرفات لم يكن لهم عليها من سلطان .. ولو أمكن القاء القبض على الحب ، ومنعه من الحركة والتصرف ، لامكن منع الزهور من ان تتفتح ، والدموع من أن تنسكب ، والامواج من ان تصطخب ، والاغصان من ان تتعانق ، عندما تلامسها رقاق النسمات ..

كان المجتمع يحسب انه بحبسه المرأة داخل اربعة جدران ، قد حصنها تحصينا كاملا ضد الحب ، وأحاطها بأسلاك مكهربـــة هيهـــات أن يخترقها اي فاتك جسور .. ولكنه لم يحسب حسابا للهواجس التـــي في الصدور ، والخواطر التي في الرؤوس ، والاحلام التي تحت الوسادة .. نسي أن العواطف تتوالد في القلوب ، توالد الاسماك في البحـــار ، وأن الارواح تتلاقح ، تلاقح النباتات في الحقول .. وان الاستعداد للوقوع في الحب ، كاستعداد السحاب لانزال المطر ، واستعداد القمـــر لارســـال الضياء ، واستعداد الورد لنشر العبير .. كان ينبغي له ان يذكر ، ان فرك النباتات العطرة يزيد في افشاء شذاها لنسمات الجو ، كما ان وضع الحب في غرفة التعذيب يجرئه على التمرد ، وشق عصا الطاعة ..

وكل جيل ياتي تكون له فى الحب رؤياه الخاصة .. ويحلم به على نحو خاص .. اذ الحب اشعاع يصدر عن القلب الانساني .. ولكنه اشعاع كثير الالوان .. كما ان خيوط الضوء كثيرة الالوان .. وألوان الحب منها الصارخ ، والخافت ، والصرف ، والمزوج ، وقد تتداخل فى اللـــون الواحد الوان مختلفة .. تداخل المواد الكيماوية فى كؤوس الخمر .. وأهل كل زمان يحبون على النحو الذي يرضيهم ، واضعين فى حبهم أذواقهم ومواهبهم ..

وفى ايامنا هذه ، لم يعد الحب فى فاس — وفى غيرها — كما كان فى القديم ولست واضعا شباب اليوم فى قفص الاتهام .. مثلما فعـــل الكثيرون ، فأزعم انه لا يعرف الحب .. فهو يفهم الحـــب على طريقتـــه الخاصة .. اذ ليس للحب قواعد ، بدليل أنهم حاولوا وضعه تحت مختلف العناوين ، فكان دائما يتركها الى حيث يريد .. ظنوه كائنـــا متزفـــا ، فصنعوا له ابهاء من ذهب ، وبنوا له أعشاشا من ريش ناعم ، وأحاطـــوه برفيع الاثاث ، وقربوا اليه نفيس التحف ، فكان يخرج عنها الى كوخ فى مكان موحش .. او غدير فى بقعة مهجورة .. وظنوه أحيانا فاسقا عربيدا ، فاستقبلوه باللفظ الفاجر ، ورشوه بالحرام الفاخر ، وتزينوا له بالرذيلة المتأنقة ، ولكنه كان معهم بالجسم دون الروح .. اما جسمه فنهـــب لانياب حادة شديدة الافتراس .. واما روحه فربما كانت غافية تحـــت جناح عصفور ، او حالمة بين واراق وردة ، او متمددة داخل ديوان من الشعـــــــر ..

وحب اليوم من نوع مختلف .. فهو لا يقبل الوصاية .. ولا ان يكون تلميذا فى حجرة الدرس .. اذا اردت لقاءه فلا تبحث عنه بين جدران البيوت .. ولا تحت سقوف المنازل .. فقد شم فيها رائحة الرطوبة .. ورآها تضيق عن مغامراته .. وطموحاته .. فهجرها الى الهواء الطلق .. الى دنيا الله الواسعة .. انه يود التسكع فى الطرقات .. وركوب متـــن الدراجات والسيارات .. والحملقة فى واجهات المتاجر .. كمـــا مـــل قاموسه القديم .. ولغته المنحدرة من صفحات التاريخ .. ودواوينـــه

المضروب عليها بخيوط العنكبوت .. باحثا له عن لغة جديدة .. ولا يمكن ان تكون لغته غير لغة الزمن الذي يعيش فيه .. يتعلمها من صناعة الافلام .. ويتلقاها من صفحات المجلات الجنسية .. وفى أفلام اليوم ، لا ينتظر البطل ظهور حبيبته على شرفتها ليالي ذوات العدد .. مثلما كان يفعل العشاق الميتون .. ولا ينظر اليها بتوسل وخشوع .. كأنه فى صلاة .. وانما يتجه نحوها راسا .. بخطوات لا تعرف التردد .. ويقول لها ما يريده باختصار .. اذ لا وقت لديهما يضيعانه فى أمور صبيانية .. فشاع بيننا حب ابطال الافلام .. الحب على طريقة جيمس بوند .. وصوفيا لورين وبرجيت باردو ..

لم يعد الحب اليوم حزينا يذرف الدموع فى صمت .. ويتمسح بأذيال المحبوب .. ويحكي قصته للوسادة .. ويتمثل بأشعار قيس صاحب ليلى .. ولكنه شد قامته .. وقفز الى الشارع .. مضغوطا فى سروال ضيق .. وحزام عريض .. خطواته ثابتة .. ونظراته فيها معنى التصميم .. وكلماته قاطعة كحد الموسى .. انه يعرف ما يريد جيدا .. فلا يدور حوله .. ولا يبتغي اليه الوسائل .. ولا يغازله من بعيد .. ومن طرف خفي .. وانما يسير اليه بخطوة الجريء ..

انظر اليه كيف يتماجن فى الطرقات .. وينضي عنه ثيابه بمرأى من الناس .. ويعلن عن نفسه بالصوت العالي .. والنبرة الرنانة .. رحم الله أيام الهمس .. أيام كان المحبون يتناجون بالنظرات .. ويتراسلون بالاشارات .. صار الحب اليوم يقبل .. ويعانق .. ويتعاطى التدخين .. ويضحك .. ويروي النكث والمستملحات .. وقليلا ما أراه يبتسم .. لان الابتسام هو مقدمة الضحك .. وهو لا يعترف بالمقدمات .. ومن تم كانت ضحكاته تفرقع من بعيد ..

وأصبح لا يدين بالتوحيد .. كان التوحيد فيما مضى ضرورة لا محيد عنها .. لان الطريق اليه لم تكن تكثر فيها اقدام العابرين .. اما اليوم فله الف طريق .. وكل طريق غاص بالسابلة .. وليس بينه وبينهم

الا بضع خطوات .. واللقاء متاح .. وفرصه كثيرة .. (1) (ومن يرى واحداً وأ اثنين .. ليس كمن يرى العشرات او المئات .. وليس هناك الواحد الذي توفرت فيع جميع الشروط .. ولكن الشروط موزعة بين العديد من الافراد) .. فهذا لديه المال .. وليس لديه الجمال .. وذاك لديه الحديث العذب .. وليس لديه القوام المعتدل .. لذلك صار الحب لا ينام على فراش واحد .. ولا يتناول شرابه من كاس واحدة .. فله اعشاش في كل الآفاق .. وله كؤوس مختلفة الاحجام والالوان .. وكم كاس حطمها بعد أن حسا منها بضع قطرات .. واخرى عب منها عدة ايام .. ثم استبدلها بأخرى ذات بريق يخطف الابصار .. والكاس الدائرة بين أصناف الشاربين تحمل بقايا من أنفاسهم .. وآثارا من بصمات أصابعهم .. فهي كالصحن الذي تختلف عليه شتى الايدي .. وكالمسبح الذي ينزل اليه عديد السابحين ..

هناك حقيقة لا يماري فيها أحد ، وهي ان الشيء الذي تعبنا في الحصول عليه ، وبذلنا فيه ثمنا غاليا ، نتسك به .. ونصونه من العوادي .. ولكن الشيء الذي حصلنا عليه بالمجان .. أو برخيص الاثمان .. او التقطناه عن طريق الصدفة .. لا نشعر بخطورة فقده .. ولا نخاف عليه .. فنفرط فيه بسهولة .. ونزهد فيه لاوحى الاسباب ..

وحب اليوم سخي بغير حدود .. لذته في العطاء الوفير .. لمن يستحق ، ولمن لا يستحق .. لمن يرد عليه عطاءه اعجابا ووفاء .. ومن يرده عليه زراية وشماتة .. وذلك أقل ما ينتظر الكرماء بغير حدود .. والذي يعطي بغير سؤال .. خليق به ان يتشدد في شروط القبول .. ووجهات العطاء كثيرة .. والآخذون يتلكأون في الاخذ .. لان كثرة البضاعة، وسهولة الحصول عليها ، مما يعطيهم الفرصة للاختيار والانتقاء .. ولعل مما يسر الكثيرين ، ان يجدوا الحب مباحا لهم .. ملقى بين أيديهم .. !

---

(1) ما بين القوسين اظنه صدى لاحد الكتاب ولكن لا اتذكره .

فحياتهم نزهة تمور بأجمل اللذاذات .. وأروع المسرات .. ولكن هناك متعة أروع من ذلك ، هي متعة اللقاء بعد تسويف .. والابتسام بعد عبوس .. هناك الفرحة بالشراب المنعش على ظمأ .. والاغفاءة المريحة بعد ارق .. والسكون المهدىء بعد حركة واضطراب ..

لو وعي الحب هذه الايام ، أية خسارة يمنى بها ، وأي مصير هو صائر اليه . لتجافي عن معترك الزحام .. وترفع عن سوق المزايدات .. واشترط على الراغبين فيه ، ان يفرشوا له خدودهم .. وينزلوه منزلة الحبة من الفؤاد ، والسواد من العين .. ولكنه بغفلته عن ذلك حرمنا دواوين من رائع الشعر .. قصائدها صلوات في هيكل الحب .. وحروفها اقباس من نوره الوهاج .. ولماذا الشعر ، وقد اطمأنت النفوس لسهولة الوصال .. وغاصت في الاوحال آيات الجمال ..

فـاس　　　　　　　　　　　　عبد العلي الوزاني

القهرمانات
في العصر العباسي

د. بدري محمد فهد

لعبت الجواري دورا في الحضارة الاسلامية ، وكان لوجودهن آثار لا تنسى فهن أمهات لبعض الخلفاء ، ومحظيات لآخرين ، ومنهن الخدم بشتى أنواع الخدمة . كما كان منهن صديقات للادباء والشعراء ومنهن الاديبات الظريفات والشاعرات المبدعات ، والمغنيات المتفوقات أو العازفات البارعات . ولقد ملأت أخبار هاتيك الجواري الظريفات دواوين شعراء العصر العباسي لاسيما الاول منه . وكن كثيرات موزعات في دور مختلف فئات المجتمع على اختلاف درجاتهم الاقتصادية أو العلمية والثقافية . فأشعن النكتة والظرف ، كما نشرن في المجتمع أنماطا من الأزياء في اللباس والمظهر أو ما يسمى في أيامنا هذه (بالموضة) . وكان للمترفات منهن

ممن عشن في قصور المترفين من رجال الدولة أو الاغنياء دور في انتشار أنواع كثيرة من العطور المختصة بالنساء. ولقد هيأت لهن حضارة بغداد الوسائل المادية لذلك من معاجين وأصباغ وألوان وآلات فصبغن الخدود وحمـرن الشفاه ولون الشعور بمختلف الالوان وطيبن الاجسـام والافواه بمختلف العطور من مرشوش وممضوغ ، وجملن العيون وزججن الحواجب ، وغيرن ألوان البشرة . حتى اقتضى ذلك تأليف الكتب لتنبيه الناس الى هذه الحيل التي قد تنطلي على الناس بالطلاء وأنواع الالوان التي تخفـي العيوب وتظهر المحاسن والمفاتن . كمـا تنبـه النـاس وخاصة من يرغب في شراء جارية على أنواع الخداع والمكر الذي قد تعرفه الجارية ، وتحـذر ذوي السلطـان مـن الموظفين من شراء بعض الجواري اللاتي يبعن عن عمد لغرض التجسس على هؤلاء الموظفين ورصد حركاتهـم في بيوتهم ونقلها الى ذوي الشأن (1) . فقد جاء عن الخليفة المأمون انه كان يدس الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار مـن شـاء . (2)

ولما كانت دور الخلافة تحوي أعدادا كبيرة منهـن ــ وقد قيلت في أعدادهن مبالغات لسنا بصددها ــ فكان من المعقول ان تبرز من بينهن الطموحات ممـن حباهـن الله

---

(1) انظر كتابنا العامة فى القرن الخامس الهجري : فصل الجواري .
(2) جرجي زيدان : التمدن الاسلامي : ج 5 ص 37 .

بالجمال الفائق أو الذكاء الحاد والنظر النافذ وان يؤثرن في الحلفاء كما فعلت حبابة بالخليفة الاموي يزيد بن عبد الملك حتى كادت ان تذهب بعقله وشغلته عن مهام الخلافة (3) . الا ان هذا الكلام لا يصدق على الخلفاء المؤسسين ممن أقام الدول كمعاوية بن ابي سفيان وعبد الرحمن الداخل وابي جعفر المنصور الذين شغلوا بالتأسيس وقمع المخالفين والمعارضين ، وتأليف الاعوان وبناء الجيوش .

واذا كانت دواوين الشعراء قد خلدت اسماء بعض الجواري أو سجلت كتب الادب بعض المغنيات فان كتب التاريخ قد خلدت لنا أسماء من قمن بأدوار سياسية اختلفت خطورتها باختلاف عهد الدولة العباسية قوة وضعفا . وقد أطلق على هاتيك الجواري اسم القهرمانات فمن اين جاءت التسمية ؟ يرى الجواليقي ان كلمة (قهرمان) اطلها قرمان ، وان العرب على عادتهم قد يزيدون او ينقصون من الاعجمية ، وفي هذه الكلمة قد زادوا فيها (4) .

وجاء في تاج العروس ان القهرمان هو المسيطر الحفيظ على ما تحت يده . وتمثل بنصف البيت ، « مجدا وعزما قهرمانا قهقبا » ونقل عن سيبويه قوله هو فارسي،

---

(3) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج 5 ص 37 .
(4) الجواليقي : المغرب 8 .

والقهرمانة لغة فيه . وعن ابن بري القهرمان من أمناء الملك وخاصته ، وانه فارسي معرب . وعن أبي زيد انه قال : قهرمان وقرهمان مقلوبة وهو بلغة الفرس القائم بأمر الرجل . (5) ويبدو أن هذه القيمومة عهدت الى النساء أيضا كما عهدت الى الرجال . قال الالوسي القهرمانة بلغة الفرس القائمة بأمر الرجال . وأورد المثال التالي « المرأة ريحانة وليست بقهرمانة » (6) .

ونرى ابن خلدون يستعملها بهذا المفهوم ، أو قريبا منه عندما يجعل القهرمان مرادفا للحاجب ، فتحت عنوان الحجابة تناول ابن خلدون هذه الوظيفة بادئا بالعباسيين والامويين بالاندلس ثم معرجا على دول الغرب الاسلامي معلنا أن هذه الوظيفة لم تكن موجودة في دول المغرب لوجود البداوة ، الا ان (بني حفص) حكام افريقية احتاجوا لهذه الوظيفة لاتساع ملكهم وكثرة المرتزقة بدارهم بقوله « لاتساع ملكه وكثرة المرتزقة بداره الى قهرمان خاص بداره في أحواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرها وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج اله في ذلك على أصل الحجابة فخصوه باسم الحاجب »» (7) واستعملها ابن خلدون مرة أخرى بمعنى القومة والحجاب بشكل عام

---

(5) الزبيدي : تاج العروس 9 : 38 .
(6) الالوسي : بلوغ الارب 2 : 8
(7) ابن خلدون المقدمة : 427 .

عند كلامه علي ديوان الاعمال والجبايات حيث قال : اعلم ان هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة من الدخل والخرج واحصاء العساكر باسمائهم . وتقدير أرزاقهم وصرف اعطياتهم من اباناتها ، والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها قومة تلك الاعمال وقهارمة الدولة وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك من الدخل والخرج ،،، » (8) .

وقد برز في أواسط العصر العباسي خاصة ، عدد كبير من القهرمانات ممن كن من جواري القصر ثم نلن هذه المرتبة ، وهي القيمومة بأمور زوجة الخليفة أو الخليفة نفسه ، حيث يكون للقهرمانة حق الدخول أو الخروج من قصر الخلافة والاتصال بالناس ، في حين لا تملك بقية الجواري هذا الحق . ويبدو ان القهرمانة كانت تلبس زيا خاصا يميزها عن بقية الجواري ، فقد وصف بزاز احدى جواري السيدة شغب أم المقتدر بالله ، والتي أصبحت فيما بعد قهرمانة « اذا بامرأة راكبة حمارا مصريا وعلى كفله منديل دبيقي ، وخادم ، وهي بزي القهرمانة فبلغت آخر السوق ثم رجعت فنزلت عندي » . ولما سأل البزاز عن أمر الجارية أجابه الخادم الذي كان بمعيتها « هذه مملوكة السيدة أم المقتدر ، وهي من أخص جواريها بها،

---

(8) نفس المصدر : 430 .

واشتهت رؤية الناس والدخول والخروج فتوصلت حتى جعلتها قهرمانة » . ولما أرادت أم الخليفة تزويج هذه القهرمانة أشرف الخليفة بنفسه على عقد القران (9) .

ولقد حضي عهد الخليفة المقتدر بالله بالنصيب الاوفر من تداخل الجواري في شؤون الحكم، وعلا شأن القهرمانات حتى لمعت على عهده اسماء عدد منهن ، وكان ذلك نتيجة ضعف الخليفة والدولة في تلك الفترة وهو ما لم تشهده دولة الخلافة ابان قوتها . فمن هاتيك القهرمانات : فاطمة التي كانت تملك أموالا عظيمة فقد أعطت ذات مرة شخصين مقدار 300.000 ألف دينار (10) عينا غير الهدايا . وقد غضب عليها الخليفة المقتدر ذات يوم ــ ولم يرد ذكر سبب غضبه ــ فأخذ ما عندها من المال ثم توفيت سنة 299 هـ . في شهر ذي القعدة واختلف في سبب وفاتها قيل مرضت ثم توفيت ، وقيل كانت راكبة في طيارها (11) في نهر دجلة فغرقت تحت الجسر في يوم ريح عاصف وأخرجت بعد يومين (12) ولعل وفاتها كانت مدبرة من منافساتها القهرمانات . ومن القهرمانات أم موسى التي كانت تتدخل في شؤون الوزراء ، وتستطيع ان تكيد لمن

---

(9) ابن الجوزي : المنتظم 6 : 254 .

(10) كان الدينار يساوي فى كثير من الأوقات عشرة دراهيم فضية .

(11) الطيار : نوع من السفن كانت تستعمل فى نهر دجلة .

(12) ابن الجوزي : المنتظم 6 : 112 .

يحاول ايقافها عند حدها . فقد جاء عنها أنها أتت ديوان الوزير على بن عيسى وهو أحد وزراء هذه الفترة ممن اشتهر بالعفة والدين مع فهم لادارة الدولة ومعرفة جيدة بتنظيم ميزانيتها ، وأرادت الدخول عليه ، وكان الوزير آنذاك يعلم أن منافسه الوزير السابق علي ابن الفرات يسعى لابعاده والحلول محله مما جعله ضجرا متبرما ، ومما زاد في تبرمه كثرة مطاليب الحاشية ، لهذا طلب استعفاه من الوزارة ، الا أنه لم يعف منها . فلم يجسر حاجبه على ادخال القهرمانة اليه أو أن يستأذنه في دخولها فردها عندما جاءت لدخول ديوان الوزير . فغضبت أم موسى وسارت الى الخليفة المقتدر والى أمه السيدة شغب وتخرصت عليه أحاديث . فصرفه الخليفة عن الوزارة ، وأمر باعتقاله عند القهرمانة زيدان بعد ان وزر ثلاث سنين وعشرة أيام وكان ذلك سنة 304 هـ (13) .

ويبدو ان أم موسى استطاعت بمالها من أعوان أن تستولي على أموال كثيرة لم يأت ذكر تفصيلها الا نه ذكر ان الوزير على بن عيسى انشأ ديوان المقبوضات لتدبير وادارة تلك الاموال التي استخرجت من القهرمانة أم موسى وأعوانها ، وكان استخراج تلك الاموال قد تم

---

(13) مجهول العيون والحدائق ج 4 ق 2 ص 263 ، 264 .

بواسطة القهرمانة ثمل (14) . وتوفيت أم موسى سنة 327 هـ ببغداد (15) .

ومن القهرمانات زيدان ، وقد ورد اسمها في حوادث سنة 298 هـ. عندما أمر الوزير ابو علي الخاقاني أحد اتباعه ابن ثوابة صاحب ديوان المصادرين بمحاسبة الوزير المنحى على ابن الفرات ومناظرته ، فيستأذن ابن ثوابة الخليفة في تعذيب الوزير السابق ابن الفرات ليستخرج منه ما يمكن استخراجه من أموال لتودع في خزينة الدولة، وكانت هذه الطريقة مألوفة في عهد انحطاط الدولة العباسية هذه التي نحن بصددها ، حيث يتولى الوزير الجديد مصادرة الوزير السابق واستخراج الاموال منه ومن أتباعه ، حيث كان لكل وزير بطانة تتولى بتوليته وتعزل بعزله ، وكان الوزير المنحى عن الحكم يحاول بذل الاموال لبطانة الخليفة ، وللخليفة ويوعده بوضع مبالغ معينة يغريه ليعيده الى كرسي الحكم ويعزل الوزير القائم ، ومن ثم يحين وقت انتقام الوزير الذي كان معزولا من الوزير القائم وبطانته . فأصبحت مصادرة الوزراء موردا لبيت مال الدولة ، وسمي الديوان الذي يشرف على الاموال المصادرة بديوان المصادرين . ولهذا وجدنا ابن الفرات يعذب ، ثم ينقل خبر تعذيبه الى الخليفة فيأمر بنقله الى بعض الحجر ليكون تحت اشراف القهرمانة

---

(14) مسكويه : تجارب الامم 5 : 84 .

(15) مجهول : العيون والحدائق ج 4 ق 2 ص 81 .

زيدان ، وبعد ان يتأكد الخليفة ان ابن الفرات لم يبق لـه مال ولا ذخيرة ، يأمر بالاحسان اليه . ولما كان ابن الفرات من ذوي الدراية بادارة الدوله لاسيما الميزانيه وجدنـا الخليفه يلجأ اليه بعد حين وهو في محبسه عنـد زيـدان يشاوره في كثير من الامور (16) .

وورد عنها خبر في سنة 303 هـ. على اثر خروج الامير الحمداني الحسين بن حمدان الى الزاب ، وكيف أن قائد الخليفة مؤنس جاءه بجيشه من مصر وحاصره ، فطلب الحمداني وعائلته الامان فجاء بهم مؤنس الى دار الخلافة ببغداد ، فأمر الخليفة بتسليمهم الى زيدان القهرمانـة وحبسهم عندها في دار الخلافة وكذلك القى القبض علـى الامير أبي الهيجا بن حمدان وحبس معهم أيضـا (17) . فمهمة زيدان هنا أشبه بالسجان في دار الخلافة ولعل ثقة الخليفة بها، أدى الى أن يوكل اليها سجن الامراء أو الوزراء خوفا من تآمرهم وشغبهم .

وجاء في سنة 304 هـ ان ابن الفرات أعيد الى الـوزارة فبادر الى مصادرة الوزير الذي كان قبلـه أبـي علـي الخاقاني ، وكذلك علي ابن عيسى وأخذ منهمـا أمـوالا كثيرة . وفي خلال ذلك أمر الخليفة أن يرد لهذا الوزير ابن الفرات ما كان قد أخذ منه من ضياع ثم أرسلت اليه أم

(16) مجهول : العيون والحدائق : ج 4 ق 1 : 238 .
(17) مجهول : العيون والحدائق : ج 4 ق 1 ص 261 .

الخليفة هدايا وتحفا . وهي بلا شك على سبيل المصانعة والمداهنة . ثم كافأ الوزير القهرمانة زيدان التي اوكلت به عند حجزه في دار الخلافة باعطائها واردات بعض المناطق الزراعية (18) ، ويبدو أن ذلك كان بسبب الرعاية التي أبدتها زيدان خلال حجزه عندها .

ولعل القهرمانة زيدان قد لعبت دورا في مجيء الخليفة المقتدر سنة 295 هـ. أو ساهمت بشيء في أثناء ذلك مما جعلها من المقربات . وكان المقتدر قد تولى الحكم وهو صغير عابث ضعيف الشخصية ، أدى عبثه الى افناء ما كان مخزونا من جواهر الخلفاء في دار الخلافة ممن تعاون على جمعه كثير ممن سبقوه في الحكم . فحين تولى المقتدر الخلافة بادر الى اعطاء الجواهر لخدامه أمثال صافي الحري ولوزيره العباسي الذي رده ولم يأخذه باعتباره من كنوز الخلفاء لا يصلح أن يوزع . وتمكنت القهرمانة زيدان من ذلك الجوهر وأخذت منه سبحة لم ير مثلها ـ كما قيل ـ وأصبحت تضرب بها الامثال فيقال سبحة زيدان . وشاءت الصدف أن يسأل عن السبحة هذا الوزير علي بن عيسى عند توليته الوزارة ، ويخبر الخليفة بأن ثمنها 300 ألف دينار ، وأنها أخذت من ابن الجصاص ، وهو أحد أثرياء هذا العصر فأجاب الخليفة أنه يعتقد بوجودها في الخزانة ثم أمر بطلبها فأجيب بأنها غير موجودة وهنا

(18) نفس المصدر السابق : ج 4 ق 1 ص 266 .

بادر الوزير علي بن عيسى باخراجها من كمه وقال للخليفة اذا كانت خزانه الجوهر لا تحفظ ، فما الذي يحفظ ؟ وأخبر الخليفة بأنه اشتراها فتألم. ويبدو ان العهود التالية لم تكن أحسن حالا في عهود القاهرة ، والراضي حيث لم يبق من جواهر الخلفاء المخزونة شيء (19) .

ومن القهرمانات من أنيطت اليهن النظر في المظالم كما حصل لمثل قهرمانة السيدة شغب أم الخليفة المقتدر وهذا ما لم يحصل من قبل في التاريخ الاسلامي ، حيث كان النظر في المظالم يعهد الى شخص يكون عادة من كبار رجال الدولة كي يستطيع أن يحكم في أي قضية تعرض على مجلس المظالم دون خوف ، خاصة اذا كانت القضية موضوع المرافعة تتعلق بكبار الموظفين كالولاة والقادة وبعض أفراد العائلة الحاكمة ولهذا تولى النظر في المظالم الخليفة المهدي ، والرشيد . ومن غرائب هذه الفترة ان تجلس القهرمانة ثمل بأمر السيدة شغب في سنة 306 هـ . في منطقة الرصافة لتنظر في رقاع الناس في كل جمعة فجلست وأحضرت معها القاضي أبا الحسن ابن الاشناني، وخرجت التوقيعات (الاقضية) من لدنها على السداد . ويبدو أنها كانت تحضر الفقهاء مجلسها لاستشارتهم (20) ولما كان لمثل هذا المركز في عصرها ذاك فكان لا بد ان يكون لها ضلع فيمايحال من مؤامرات وما يقع من شغب.

---

(19) ابن الجوزي 6 : 70 .

(20) ابن الجوزي : 138 .

وفعلا ورد عنها أنها ساهمت مع نصر الحاجب على تنحية الوزير ابن الفرات بعد وزارته الثالثة سنة 311 هـ ، والمجيء بابن القاسم عبد الله بن محمد بن عبد الله الخفقاني الى الوزارة . وفعلا نحي الوزير الاول وصودر وجيء بالثاني وكانت ثمل ونصر الحاجب قد اتفقا سرا مع القائد مؤنس الخادم (21) .

ومنهن القهرمانة اختيار التي كان لها دور في افشال المؤمرات على عهد الخليفة القاهر بالله وذلك سنة 321 هـ حيث اتفق الوزير القائم ابن مقلة مع القائد مؤنس الخادم على تنحية الخليفة القاهر وتولية ابي أحمد ابن المكتفي بالله . الا ان الخليفة كان يترأس مع قادة آخرين ويحرضهم ضد مؤنس ويمنيهم الاماني الكثيرة . حيث كان الجيش في هذه الفترة مقسما الى فرق اتسمت كل واحدة باسم قائدها أو اسم المهمة المنوطة بها كالحجرية والساجية ، وكان دور اختيار القهرمانة في هذه المؤامرات التي تحاك سرا أي تخرج من دار الخلافة وتمضي ليلا الى دار أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله (احد الوزراء) وتشاوره في أمور القاهر . ولما علم الخليفة بما بيته المتآمرون عليه ودبر أمره مع من اتفق معه سرا أمر بالقبض على مؤنس الخادم ومن تعاون معه الا ان الوزير ابن مقله هرب واستتر بعد ان وزر تسعة اشهر وثلاثة

---

(21) مجهول : العيون والحدائق : ج 4 ق 1 ص 314.

أيام . ووجه القاهر الى أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبد الله فاستحضره في مستهل شعبان وقلده الوزارة وخلع عليه في يوم الاثنين ثالث شعبان خلع الوزارة (22) .

الا أن اختيار لم تنج من عقاب المتآمرين حيث عادوا الكرة وراسلهم الوزير الهارب ابن مقلة الذي كان يتراسل مع الفرقتين العسكريتين الساجية والحجرية ويحرضهم ضد الخليفة القاهر ويغريهم بالمكاسب التي سينالونها وكان السفير بينه وبينهم الحسن بن هارون الذي كان يلقاهم بزي السؤال ليلا ، وفي يده زبيل حتى تم الاتفاق على المؤامرة . وكان الوزير الهائم انذاك الخصيبي ، وقد بلغه الخبر فأرسل طبيب الخليفة عيسى لينذره ويخبره بالحال ، فوجده نائما مخمورا ، واجتهد في انباهه فلم ينتبه لشدة سكره . وفي هذه الاثناء تقدم القائد سيما العساكر وحاصر دار الخلافة ، وأمرهم بالهجوم في وقت معين . وقد استطاع الوزير الخصيبي أن يفلت من هذا الطوق بأن يلبس زي امرأة . أما الخليفة فانه بعد ان افاق هرب الى سطح احد دور الخلافة . الا ان المتآمرين عرفوا مكانه وأنزلوه وحبسوه . ثم قبضوا على خادمه ، وطبيبه عيسى والقهرمانة اختيار . وجاء المتآمرون بأبي العباس محمد بن المقتدر بالله مع أمه من محبسه على العادة الجارية في هذه الفترة التي سادت فيها الفوضى وذهبت فيها هيبة

---

(22) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري : 77 .

الخلافة وتمكن بعض الوزراء بالاتفاق مع الجند الاتراك من العبث بالخلفاء ومؤامرة المنافسين فيعمدون الى سجن المرشح للخلافة من بني العباس حتى يصعب الاتصال به والتآمر على الخليفة القائم . وهكذا جيء بأبي العباس من محبسه وبويع بالخلافة ولقب بالخليفة الراضي بالله (23)

وبرزت قبل دخول البويهيين بغداد سنة 324 هـ القهرمانة علم وكان هؤلاء البويهيون قد جاءوا من بلاد الديلم ودخلوا فى سلك الجندية ثم كونوا لهم جيشا وسيطروا على بلاد المشرق الاسلامي بما فيه العراق بلد الخلافة الاسلامية . ويبدو انهم قد سمعوا بما آلت اليه أمور الخلافة فتقدم الامير أبو الحسن معز الدولة حتى وصل الى موضع قريب من بغداد ، وهنا هرب الامير ابن شيرزاد بعد ان دامت امارته ثلاثة أشهر وخمسة أيام . وكان الامير العسكري في هذه الفترة يقوم بمهام الدولة ، واستتر الخليفة المستكفي خوفا مما يحصل من فتن واضطرابات حتى اذا علم بخروج عساكر الاتراك عن بغداد الى الموصل هربا من البويهيين ظهر عندئذ . وفي هذه الاثناء اتصل به أبو محمد المهلبي (الذي صار وزيرا فيما بعد) وعرض عليه خدمته نيابة عن الامير البويهي معز الدولة . ثم وصل الامير البويهي الى شمال بغداد

(23) الهمذاني : تكملة تاريخ الطبري : 148 .

الى منطقة الشماسية فبعث اليه الخليفة بالهدايا . ثم جاء الامير البويهي الى الخليفة بعد ثلاثة أيام فخلع عليه الخليفة وألبسه طوقا ، وعقد له اللواء وقلده الامارة . وأخذت منه البيعة ، وحلف الامير البويهي بايمان البيعة للخليفة ، كما حلف أن يصون بعض حواشي الخليفةومنهن علم القهرمانة ، والقاضي أبي السائب وأبي العباس ابن خاقان الحاجب ثم سؤل في أمر الامير ابن شيرزاد فأمنه وحلف له ،،، فانصرف الى دار الامير السابق مؤنس الخادم ونزلها . فظهر عند ذلك الامير ابن شيرزاد ولقى الامير البويهي معز الدولة .

ويبدو أن علم القهرمانة أرادت أن تستوثق للخليفة من الجند الديلمي وتأخذ منهم البيعة للخليفة المستكفي، لتأمن شر الامير البويهي اذا بدل أو غير من رايه تجاه الخليفة حتى يكون له من هؤلاء الديلم أعوان ضد أميرهم معز الدولة . فبادرت علم بعمل دعوة عظيمة حضرها الديلم فبلغ الخبر الى معز الدولة ، ونبه الى ما تبغيه القهرمانة من وراء ذلك خاصة وانها كانت السبب في استخلاف المستكفي ، فدخل عند ذلك الامير البويهي دار الخلافة وجلس الامراء والقواد والحجاب حسب اماكنهم كما تقضي رسوم دار الخلافة . وكان مشهدا تمثيليا أعده

الامير البويهي ، فبعد أن اتخذ كل مكانه بين يدي الخليفة مظهرين الطاعة والاحترام له ، تقدم جنديان من الديلم الى الخليفة المستكفي فظن أنهما يريدان تقبيل يده ، فمدها اليهما فجذباه وطرحاه الى الارض وحملاه الى الدار التي فيها معز الدولة ماشيا . ثم ألقى الديالمة القبض على حواشي الخليفة بما فيهم القهرمانة علم ونهبت بعد ذلك دار الخلافة .

ولم يكن الامير البويهي قد نسي حلفه والمواثيق التي عقدها على نفسه فقط ، بل انه أراد ان يزيل خلافة بني العباس السنية نهائيا وان يبايع لعلوي ، فاختار لهذا المنصب أبا الحسن محمد بن يحيى الزيدي العلوي . ومعروف أن الديالمة كانوا شيعة على المذهب الزيدي ، فهم لا يعترفون بأحقية خلفاء بني العباس الشرعية في الخلافة ، ويعتبرونهم شأنهم شأن كل فرق شيعية مغتصبين لحق أبناء علي . الا أن بعض المقربين الى الامير البويهي منعوه من ذلك وخوفوه مغبة عمله لانه ان بايع العلوي اطاعه الديلم ، وقبلوا أمره في معز الدولة بلا تردد لانه سيكون الامام في نظرهم ورأيهم . ثم ان « بني العباس قوم منصورون تعتل دولتهم مرة وتصح مرارا ، وتمرض تارة وتستقل أطوارا ،،، » فعدل معز الدولة عن فكرته وجيء بأبي القائم الفضل بن المقتدر ولقب بالمطيع لله يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة

سنة 334 هـ (24) . أما الخليفة السابق المستكفي فقد أمر معز الدولة بأن تشمل عينه ، وان يشهد على نفسه بالخلع . وصودر بعض أتباع الخليفة المستكفي وكان منهم القهرمانة علم حيث أخذ منها (40،000) ألف دينار ثم قطع لسانها (25) .

ويبدو أن سيطرة البويهيين على مقاليد أمور الخلافة وممارستهم السياسة الفعلية في دولة الخلافة ، اضافة الى اتخاذهم عواصيم متعددة كشيراز والري الى جانب بغداد ، وعدم الاعتماد على وزراء الخليفة ، أو على جيشه مما فوت الفرص لتدخل الحريم في السياسة أو ادارة الدولة ، ثم تلى هؤلاء السلاجقة وهم أتراك على مذهب أهل السنة سيطروا على المشرق الاسلامي ـ باستثناء مصر ، وأصبحوا مهيمنين على دولة الخلافة العباسية في الفترة ما بين 447 هـ ـ 552 هـ / 1054 ـ 1107 م وقد شغلوا بحروبهم شرقا ضد شعوب ودول آسيا الوسطى ، وضد الدولة البيزنطية والصليبيين غربا . ولذلك لم يعرفوا ترف بني العباس وميعة خلفائهم في أواسط عهدهم ، ولهذا لم تظهر القهرمانات في هذه الفترة . ثم تنتعش دولة الخلافة

---

(24) الهمذاني : تكملة : 149 .

(25) ن. م : 150 وانظر العيون والحدائق : ج 4 ق 2 ص 182 .

بعض الانتعاش ما بين 552 هـ / 1107 م وسنة 656 هـ / 1258 م وهي السنة التي زالت فيها الخلافة على يد المغول . فيعود للخليفة مكانه وللوزير دوره في تمشيه ادارة الدولة ، لكن هذه الفترة من عهد دولة بني العباس لم تكن فترة قوة حقيقية كشأنها في مبدء أمرها ، لذا عاد دور الحريم يظهر في مجيء الخلفاء أو تنحيتهم ، وعاد اشتراكهن في المؤامرات الا أنه على نطاق ضيق . ومما وصل الينا من أخبار هذه الفترة ما جاء عن قهرمانة الخليفة المقتدي بالله التي قيل عنها أنها كانت تدير شؤون دار الخلافة كما يدير الوزير شؤون ديوان الخلافة . وحدث بينها وبين الوزير عداء فأصبح كل منهما يكيد للآخر . وفي هذه الاثناء يموت الخليفة فجأة بعد أن ناولته طبقا فيه طعام ، ثم تبادر الى ارسال غلام الى الوزير وتدخله حجرة من حجر دار الخلافة وتبلغه بأن الخليفة أمرها في تلك الساعة ان تتصالح مع الوزير ،وأنها بادرت الى ابلاغه امتثالا لامر الخليفة وأنها على استعداد للتصالح معه ونسيان ما كان بينهما من عداء ، فلما سمع الوزير ذلك بادر الى تقبيل يدها واعتذر اليها مما كان يبدو منه في حق أعوانها وأصحابها ، فقالت له بأنها لا تقتنع الا بأن يحلف لها على المصحف ، ثم جاءته بمصحف فحلف لها وحلفت له ، فلما توثقت من أمرها قالت له : » أحسن الله عزاءك في أمير المومنين « وأبلغته

انها زمت أمر دار الخلافة ، وأن على الوزير أن يزم البلد حتى لا تقع فتنة ، وهنا طلب منها أن تدخله على ولي العهد كي يستوثق لنفسه فأدخلته على الامير أبي العباس احمد الذي أصبح فيما بعد الخليفة المستظهر بالله ، فقرر معه ما أراد ومضى ثم جلس الخليفة الجديد ، وأشيع مـوت الخليفة المقتدي بعد يومين (26) وواضح من هذا الخبـر دور هذه القهرمانة التي دبـرت أمـر البيعـة للخليفـة المستظهر قبل ان يشيع الخبر في الناس فيحصـل هـرج ومرج أو تكثر الاشاعات وكانت هذه القهرمانة قد امتلكت الضياع فقد ورد عن حفيدها أبي الفرج ابن القهرمانة انه كان له أخ وكانا يعيشان من وقوف بنواحي دجيـل وطريق خراسان ، وان هذا الشيخ أبي الفرج هو الـذي حدث بحديث جدته .

وهكذا لعبت القهرمانات دورا سياسيـا خطيـرا في تاريخ بني العباس وهذا الدور يمثل جانبـا من جـوانب مساهمة المرأة في الحياة في العصر العباسي ، الا انه لـم يسلط عليه الضوء الكافيء قياسا على الجوانب الاخرى من مساهمات المرأة كالادب والعلم والتي خصصت لها كتب الادب والتراجم مكانا ظاهرا بين دفتيها .

فـاس **د . بدري محمد فهد**

---

(26) ابن الساعي : الجامع المختصر : 41 .

المراجع والمصادر

1 ـ الآلوسي ... بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب

2 ـ بدري محمد فهد ... العامة ببغداد فى القرن الخامس الهجري

3 ـ جرجي زيدان ... تاريخ التمدن الاسلامي

4 ـ الجواليقي ... المعرب

5 ـ ابن الجوزي ... المنتظم فى تاريخ الملوك والامم

6 ـ ابن خلدون ... المقدمة

7 ـ الزبيدي ... تاج العروس

8 ـ ابن الساعي ... الجامع المختصر

9 ـ مجهول ... العيون والحدائق

10 ـ مسكويه ... تجارب الامم

11 ـ الهمذاني ... تكملة تاريخ الطبري .

د: ب. م. ف

خُطّة الحِسبة في المغرب

محمد المنوني

انتظمت مراتب الولايات الاسلامية فى ست خطط رئيسية خاضعة لرقابة الامام الاعظم ، وهذه لمحة عنها مع مقابلتها — على وجه التقريب — بالموجود منها فى المغرب :

اولا : ولاية القضاء ، وأجلها قضاء الجماعة ، وكان على القاضي مدار الاحكام .

وثانيا : ولاية المصر ، وتقارب — فى اختصاصاتها — وظيفة العمالة بكسر العين

ثالثا : ولاية المظالم ، وكان نظر متوليها واسعا ، ثم تقلصت اختصاصاتها الى مهمة الباشا فى المدن ، والقائد فى الارياف .

رابعا : ولاية الشرطة ، وتنتظم فى جهاز الامن الذي ينضاف له كثير من الاختصاصات القديمة للحسبة .

خامسا : ولاية الرد ، وصاحبها يحكم فيما استرابه القضاة وردوه عن انفسهم ، ولم تشتهر هذه بالمغرب ، وكانت معروفة بالاندلس .

سادسا : الحسبة ، بكسر اولها ، وصاحبها هو المحتسب ، وقد تسمى — ايضا — بولاية السوق حسب واقع الاندلس .

*

وموضوع هذه الخطة يرجع الى الحفاظ على ركن رئيسى فى الاسلام : شعيرة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا وان كان مأمورا به كل مسلم ، فان المحتسب فرضه ذلك بحكم الولاية ، وفرضه على غيره مندرج فى فرض الكفايـــة .

ومن هنا يتبين أن مجال هذه الولاية فسيح بوفرة الخصال المأمور بفعلها ، متسع بكثرة المناكر المأمور بتركها ، غير أن نظر المحتسب فى هذه الاخيرة ، انما يتعلق بماظهرمنها ، وليس عليها أن يبحث أو يتجسس فيما خفى عله من المنكرات ، كما لا يسوغ له أن يحمل الناس على اختياراتـــه فى النوازل التى اختلفت مذاهبالعلماء فيها ، وانما يحملهم على المتفق عليـــه فعـــلا أو تركـــا .

ويندرج فى هذه الولاية — بالدرجة الاولى — رقابة متوليها علـــى مخالفات الاسواق : بيعا وشراء وصناعة وآدابا عامـــة .

ولمكانة الحسبة تولى امرها بعض الخلفاء بأنفسهم ، ثم صارت تتبع اختصاصات القاضى ، الى أن أفردت بولاية متميزة ، على أن تتوفر فـــى متقلدها الصفات التى يبرزها المصدر المعنى بالامر (1) هكذا :

يجب أن يكون من ولى النظر فى الحسبة فقيها فى الدين ، قائما مـــع الحق ، نزيه النفس ،عالىالهمة ، معلوم العدالة ، ذا أناة وحلـــم ، وتيقظ وفهم ، عارفا بجزئيات الامور ، وبسياسة الناس ، لا يستفـــزه طمع ، ولا تأخذه — فى اللهـ لومة لائم ، مع مهابة ازاء الذين الى نظره ، واستعمال اللينمنغير ضعف ، والشدة من غير عنف .

ويساعد المحتسب فى عمله مجموعة من الاعوان يقلون أو يكثـــرون حسب الحاجـــة .

---

(1) « شرح لامية الزقاق » لميارة — ط ف — ص 5 و 6 من الملزمة 4 ، مع الرجوع الى نسخة مخطوطـــة منـــه .

ويقدم على أهل الاسواق أمناء عارفين بمهماتهم ، مشهورين بالثقة والنصيحة .

وعليه أن يطبع المكاييل والموازين بميسم معلوم عنده .

ويأمر الخبازين أن يصنع كل واحد منهم طابعا ينقش فيه اسمه، ويطبع به على خبزه ، ليتميز خبز كل واحد على حدة .

ولضمان سير الخطة سيرا طبيعيا ، يتولى المحتسب ــ بنفسه ــ مراقبة الاسواق : بمفرده أو مع من يختاره من مساعديه ، مع مراعاة أن يكون هؤلاء لا يعلمون ــ أبدا ــ حقيقة المهمة التي يخرج من أجلها ، لتفقد المبيعات والصناعات .

وفيما اذا استناب أحدا من اعوانه لا يكلفه بعمل دائم ، وعليه أن يستبدله بغيره بين الحين والاخر ، تفاديا من وقوع مراكنة بين المفتش والمعنى بالامر من تاجر أو صانع .

واذا عثر على الغش من أحد الباعة أو الصناع ، يعاقب المجرم ــ أول مرة ــ بالتوبيخ والزجر ، وفي المرة الثانية بالسجن والانذار ، وفي الثالثة بالضرب والتشهير ، فان أصر على اجرامه تابعه بالتنكيل ، وجعل أهم أموره مراقبته ، حتى يرجع عن سوء فعله أو يرتحل عن سوق المسلمين.

*

والان يصل بنا المطاف الى عرض نماذج محدودة من اختصاصات المحتسب ، موزعة بين خمس قطاعات :

التجارة والصناعة :

يقاوم منكرات تطفيف المكيال والميزان ، والغش والتدليس في البياعات والصناعات ، وهذه اكبر نظر المحتسب .

يمنع الاحتكار اذا أضر بالناس ، وكانوا بحال ضيق وشدة .

يضرب على ايدي المماطلين والمسوفين من الصناع .
يأمر بتنظيف أواني الباعة والطباخين .

يسهر على تحديد أوقات الخدمة للعمال حسب العادةالجارية ، ويسعى لتمكين العامل من الوقت الكافى لاداء الصلاة التى تصادف وقت العمـــل ؛ مع ما تتطلبـــه مـــن طهـــــارة .

الاســـواق والطرقـــات :

يعمل على حظر المنكرات التاليـــة :
بيع المسكرات والمخدرات
- بيع الملاهـــى
- بيع الاوانى المتخذة من الذهب أو الفضـة
- طرح الازبال وما اليها بالطرقات
- القاء جيف الحيوانات بالطرقات
- ترك ماء المطر والاوحال والثلوج فى الطريق من غير كسحها .
- اقتطاع شىء من جادة الطريق ليزيدها المقتطع فى ملكه
- الاشتغال بالكهانة والسحر .

النســاء والمخنثــون :

يمنع النساء أن يبدين زينتهن للاجنبى
ومن غنائهن والرجال يستمعـــون
ومن غناء الرجال والنساء يستمعن
ومن النياحة واقامة المنادب
ويمنع المخنث أن يشتهر بلباس النساء أو بصفاتهن

الحمامـــات :

يأمر الكياسين بتنظيفها والتحفظ من بقاء مزالق بها
وأن يحضروا مناديل نقية ، واخرى للسترة
وبأن يبيتوا محاكهم فى الملح والماء كل ليلة
يلزم كل من دخل الحمام من بالغ أو مراهق ستر عورته

يمنع مباشرة الدلاك ما تحت السرة
يمنع الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك

الصـــلاة والاخـــلاق :

يأمر بالصلوات الخمس فى أوقاتها ، ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس

ويتعاهد الائمة والمؤذنين فى المحافظة على الاوقات ، وتنظيـــــف المساجـــد وحراستهـــــا .

يأمر بالصلوات الخمس فى أوقاتها، ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس. خطيـــب الجمعـــــة فى الخطبــــة .

وينبه المعلمين أن يأمروا صغارهم بالصلاة وخصوصا المراهقين .
ويأمر بصدق الحديث واداء الامانات
وينهى عن منكرات الكذب والخيانة . . . (2)

والى هنا تنتهى هذه النماذج المعدودة من اختصاصات المحتســـب ، على أن مشمولات هذه الخطة لا تكاد تنحصر ، وانما يتدخل متقلدها لازالة كل منكر ، واقرار كل معروف ، حتى ترقى مهمته الى أعلى المستويـــات ، يقول مؤلف نهاية الرتبة (3) عن المحتسب :

« ويتصد مجالس الامراء والولاة ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهـــم عن النكر ، ويعظهم ويذكرهم ، ويأمرهم بالشفقة على الرعية ، والاحسان اليهم ، ويذكرهم ما ورد فى ذلك من الاحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وليكن فى وعظه وقوله فى ردعهم عن الظلم لطيفا ظريفا ، لين القول

---

(2) المصادر الرئيسية فى هذه الاختصاصات هى :
- « الحسبة فى الاسلام » لابن تيمية ، مطبعة المؤيد بالقاهرة ، ص 9 — 10
- « تحفة الناظر » للعقبانى ، مخطوط خ ع ك 691 : الباب 7
- « شرح لامية الزقاق » لميارة ، ط. ف. ، ص 5 — 7 من الملزمة 4
- « الاقنوم » لابى زيد الفاسى ، مخطوط خاص .
- « التيسير فى أحكام التسعير » لاحمد بن سعيد المجيلدى : النص المطبوع . مع الرجوع الى المخطوط .

(3) النسخة المخطوطة منها : عند الفصل الثانى من الباب 40 ، ومؤلفها هو جلال الدين عبد الرحمان بن نصر التبريزى الشافعـــى

بشوشا ، غير جبار عبوس ،فان الله عز وجل ، قال لنبيه صلى اللـــه عليه وسلم : ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

*

وقد عرف الغرب الاسلامى هذه الخطة من وقت مبكر ، وكان الامام سحنون اول من أضافها لاختصاص القضاة ، بعد ما كانت — قبل ذلك — من عمل ولاة افريقية التونسية ، فنظر فيما يصلح من المعايش ، وما يغش من السلع ، وجعل الامناء على ذلك ، وأدب على الغش ، ونفى مــــن الاسواق من يستحق ذلك ، وامر الناس بتغيير المناكر ، وادبهم علـــى الايمان التى لا تجوز ، حتى لا يحلفوا بغير الله سبحانه ، وعلى ســـوء الحال فى اللباس ، وامرهم بحسن السيرة والقصد (4).

*

ومع مر الزمان انتظمت خطة الحسبة بالاندلس ، وهو ما يشرحـــه ابن سعيد (5) فى هذه الفقـــرة :

وأما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة فى اهل العلم والفطن ، وكان صاحبها قاض ، والعادة فيه أن يمشي بنفسه — راكبـــا — علـــى الاسواق ، وأعوانه معه ، وميزانه — الذي يزن به الخبز — في يد أحـــد الاعوان ، لان الخبز عندهم معلوم الاوزان : للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم ، وكذلك للثمن ، وفى ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبى الصغير او الجارية الرعناء ، فيستويان فيما يأتيانه به — من السوق — مع الحاذق فى معرفة الاوزان .

وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيـــع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب فى الورقة ، ولا يكاد تخفى خيانتـــه ، فان المحتسب يدس عليه صبيا او جارية يبتاع احدهما منه ، ثم يختبر الـــوزن المحتسب ، فان وجد نقصا قاس على ذلك حاله مع الناس ، فلا تسأل عما

(4) انظر « المدارك » للقاضى عياض ، نشر وزارة الاوقاف المغربية ، ج 4 ص 59 — 60 .
(5) « نفح الطيب » للمقرى ، نشر دار صادر فى بيروت ، ج 1 ص 218 — 219 .

يلقى ، وإن كثر ذلك منه ولم يتب — بعد الضرب والتجريس فى الاسواق — نفـــى مـــن البلـــد .

ولهم فى اوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس احكام الفقه ، لانها عندهم تدخل فى جميع المبتاعات ، وتتفرع الى ما يطول ذكـــره » .

❋

وعلى العموم فقد انتقل هذا النظام الاندلسى — مع مر الزمن — الى المغرب الاقصى ، غير أنه لا تعرف تفاصيل وافية عن سير الاحتساب بهذه المنطقة فى فترة الولاة وما بعدها ، بما فى ذلك أيام المرابطين والموحدين ، وبالنسبة للدولة الاخيرة ، تواجهنا اشارة لمراقبة حسبية يمارسها بعض الموحدين بأنفسهم ، وهو ما يفيدنا به عبد الواحد المراكشى (6) بمناسبة حديثه عن يعقوب المنصـــور :

« وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الاسواق وأشياخ الحضر فى كل شهر مرتين ، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم » .

ونستنتج من هذه الفقرة — أيضا — وجود أمناء الاسواق ضمـــن انظمة الموحدين بمراكش ، وبقى علينا أن نترجى معرفة بقية انظمـــة الحسبة فى هذا العصر ، وهو ما لم تسعف به المصادر الموضوعية المتداولة ، غير أن ابن عذارى (7) يحتفظ بنموذج آخر من مباشرة نفس العاهل لشؤون الحسبة حسب هذه الفقرة :

« . . . ثم أمر (يعقوب المنصور) بقطع لباس الغالى من الحريـــر ، والاجتزاء منه بالرسم الرقيق الصغير ، ومنع النساء من الطرز الحفيل ، وامر بالاكتفاء منه بالساذج القليل ، وأمر باخراج ما كان فى المخازن مـــن ضروب ثيا ب الحرير والديباج المذهب ، فبيعت منه ذخائر لا تحصـــى ،

---

(6) « المعجب » ، مطبعة السعادة بمصر ، ص 189 .
(7) « البيان المغرب » : القسم الموحدى ، ط . تطوان ، ج 3 ، ص 145 .

بأثمان لم توف ولم تستقص ، ثم أمر أصحاب الشرطة بقطع الملهين ، والقبض على من شهد من المغنين ، فثقف من وجد منهم بكل مكان ، فغيروا هيئاتهم وتفرقوا على الاوطان ، وبارت سوق القيان ، وزهد كل الزهد في هذا الشأن » .

هذه فقرة البيان المغرب ، حيث ينبغي أن نقف — قليلا — عند قولتها : « ثم أمر أصحاب الشرطة » ، لنتساءل هل كانت هذه الشؤون موكولة الى أصحاب الشرطة دون المحتسب ؟

*

وننتقل — الآن — الى عصر بني مرين ، حيث بدأت المصادر تتحدث عن هذه الولاية بشيء من الوضوح ، وأول ذلك أن تطالعنا بأحداث منصب أعلى للنظر في أمور الحسبة ببلاد المغرب ، وقد أسند الى :

1 — عبد العزيز الملزوزي المكناسى ، المتوفى عام 697 هـ (8) / 1298 م .

هذا الى أن النصوص حافظت على أربعة أسماء ممن تقلدوا هذه الخطة بثلاث مدن مغربية خلال الفترة نفسها .

2 — ففي فاس غالب بن علي بن محمد الشقوري ثم الغرناطي نزيل فاس ، المتوفى عام 741 هـ (9) / 1340 م .

3 — ثم علي بن أحمد الحسيني السبتي الشهير بالكغاد ، كان يجمع الى الحسبة النظر في أحباس فاس عام 839 هـ (10) / 1436 م .

---

(8) البقتى في « مختصر الاحاطة » لابن الخطيب ، خ ع د 1582 : النصف الثاني المصور عن مخطوطة الاسكوريال

(9) « جذوة الاقتباس » لابن القاضي ، نشر دار المنصور بالرباط ، ع 579 .

(10) محمد المنوني : « نظم الدولة المرينية » ، مجلة « البحث العلمي » : العدد الرابع والخامس مزدوج ، السنة الثانية ، ص 248

4 ــ وفى أسفى : أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمى الجزيري . محتسب هذه المدينة والناظر فى مارستانها ، حيث لقيه بها ابن الخطيب عام 761 هـ (11) / 1360 م .

5 وفى سبتة : أبو عبد الله بن الجيار (12) .

ونتبين من هذه اللائحة أن الحسبة فى العصر المرينى لم تتميز ــ دائما ــ بولاية على حدة ، واختلطت مرتين : مع نظارة الاحباس ، أو نظارة المارستان

على أن بعض القضاة اضطلعوا بشىء من اختصاصات هذه الولاية ، ومنهم أبو الحسن الصغير : على بن عبد الحق الزرويلى ثم الفاسى ، المتوفى عام 719 هـ / 19 ــ 1320 م ، وكان أيام قضائه بفاس يقاوم المنكرات بشدة متناهية (13) : فاتخذ شما ما يستنشق على الناس ريح الخمر (14) ، وأقام الحد على سفير أندلسى ثبت عليه شربها (15) ، وشدد على النساء حتى انتهين عن الخروج للشوارع (16)

ومن جهة أخرى : فان شؤون اقامة الصلاة كانت من أشغال القضاة، ثم أفردها أبو عنان بولاية على حدة (17) .

6 ــ ويذكر عن منديل بن زنبق الفاسى : انه كان يحرض الناس على الصلاة فى أوقاتها ، ويضربهم عليها بالسياط والمقارع بأمر السلطان أبى عنان (18) ، فيكون هذا هو صاحب الصلاة بفاس أو أحد أعوانه حينئذ .

---

(11) «نفاضة الجراب» لابن الخطيب ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ، ص 72 ــ 73 .

(12) « بلغة الامنية ومقصد اللبيب » لمؤلف مجهول الاسم ، مجلة « تطوان » : العدد التاسع ، ص 187 .

(13) « العبر » لابن خلدون ، دار الطباعة بالقاهرة ، ج 7 ص 240 .

(14) « الديباج »لابن فرحون ، مطبعة المعاهد بالقاهرة ، ص 212 .

(15) « العبر » ج 7 ص 240 ــ 241 .

(16) « المعيار » للونشريسى ، ط ، ف ، ج 2 ، ص 391 .

(17) « فيض العباب » للنميرى ، مخطوط الخزانة الملكية رقم 3267 ، ص 23 .

(18) « بيوتات فاس الكبرى » ، نشر دار المنصور بالرباط : البيت رقم 59 .

والى هذا يبدو ان المنكرات الاخرى ميزت — فى الفترة ذاتها — بولاية خاصة ، ورشح لها فى فاس :

7 — محمد بن موسى الحلفاوي الاشبيلى نزيل فاس ، والمتوفى عام 758 هـ / 56 — 1357 م ، وورد فى ترجمته انه كان له اذن فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر (19) .

ويبدو من هذا النموذج وسابقيه ، ان الحسبة فى العصر الذي نعرضه، قصرت على النظر فى الاسواق خاصة ، بينما توزعت مهماتها الاخرى بين جهات منوعة .

ونختم موضوع الحسبة المرينية ، بالاشارة الى انه فى اواخر هذا العهد ، كان يعيش عمر بن عثمان الجرسيفى مؤلف رسالة الحسبة (20) ، مع اثارة الانتباه الى ان لقب الجرسيفى قد يدل على ان المعنى بالامر مغربى .

*

ونلتقى — بعد هذا — بالفترة الوطاسية ، حيث تمدنا بوصف جولة المحتسب التفتيشية بفاس ، وهو ما يفيدنا به الحسن الوزان الفاسى : « ليو الافريقى » :

« وللمحتسب اثنا عشر شرطيا ، يرافقونه عند طوافه بالمدينة لاختبار موازين القصابين وامتحان مبيعهم ، وتفتيشه أمر الخبازين ، فاذا وجد الخبز غير مستوف لوزنه اللازم كسره قطعا ، وامر بصفع الخباز صفعا يكاد يذهب بحياته ، واذا وجده قد افرط له فى الماء ، أمر أن يطاف به فى أزقة المدينة ، وان يجلد أثناء ذلك » .

---

(19) « جذوة الاقتباس » رقم 312 .
(20) انظر عن الجرسيفى ورسالته : مجلة « هسبريس » سنة 1960 م : العدد 1 ، ص 5 — 9 .

غير أن الوزان يضيف لهذه الفترة الملاحظة التالية : « ووظيفة المحتسب ينعم بها السلطان — الآن — على كل من طلبها كيفما كان حاله ، وقبل اليوم كانت تعطى لرجل عالم من أصل رفيع ، فاليوم يصل اليها الاسافل بأسهل مما يصل اليها غيرهم ممن يستحقها » (21) .

*

وفي العصر السعدي نعثر — لاول مرة — على ذكر محتسب بالبادية :

8 — أحمد بن سعيد التونسى ، الذي كان بقيد الحياة عام 999 هـ / 90 — 1591 م ، ويخططه ابن القاضى (22) بمحتسب درعة

ولا شك انه سيكون فى موازاة هذا محتسبون فى بقية الارياف المغربية ، فضلا عن محتسبى الحواضر .

9 — والغالب أن من محتسبى فاس فى بدايات هذا العهد : احمد بن احمد بن محمد بن عيسى الماواسى الفاسى ، ويصفه محمد بن الطيب العلمى (23) بأنه جليل القدر، ذكي القلب، مصيب فى حكمه، مطاع فى أمره ونهيه ، ثم يحليه بالشيخ الفقيه الاجل ، العدل الارضى .

ومن ملامح انتظام هذه الولاية فى المغرب السعدي ، ما يسجله محمد ميارة (24) فى ارتسامة ذكية : « وقد شاهدت — فى صغري — كتبا عدة فى مرافع فى دكان المحتسب الكائن بالقشاشين (بفاس) ، فسألت عنها ، فقيل لى : انها فى أحكام الحسبة وما يتعلق بها ، وهى محبسة على أن تكون هنالك ، ليطالعها وينظر فيها من يتولى خطة الحسبة » .

على أن هذا المصدر يعقب بالتعليق التالى : « فما زال الامر يتناقص ويقل حتى صار يتولاها من لا يميز الالف من الباء . . . » .

---

(21) « حياة الوزان الفاسى وآثاره » لمحمد المهدى الحجوى ، المطبعة الاقتصادية بالرباط ، ص 85 .
(22) « درة الحجال » دار التراث بالقاهرة ، رقم 210 .
(23) « الانيس المطرب » ط . ف . ص 251 — 253
(24) شرح لامية الزقاق ط . ف ، ص 5 من الملزمة 4 .

وتكشف هذه الملاحظة عن التدهور الذي انحدرت اليه ولاية الحسبة اواخر أيام السعديين ، بعد ما انتعشت فى فترة ازدهار الدولة ، وقد كتب ميارة هذا التعقيب فى شرحه على لامية الزقاق ، وكان يشتغل بتأليفه اواسط المائة الهجرية الحادية عشرة .

*

ولحسن الحظ بدأت من نحو هذا التاريخ ، محاولات لتلافى تدهور الحسبة المغربية ، بيد أن ذلك كان على نطاق محدود : فى مدينة فاس أيام الفترة التى أعقبت نهاية السعديين فى شمال المغرب .

10 — وهكذا — فى عام 1048 هـ / 38 — 1639 م — قلدت جماعة الاندلسيين فى فاس ، ولاية هذه الوظيفة لمن يسمى بالحاج صالح ، المتوفى عام 1059 هـ / 1649 م .

وجاء فى ترجمته أنه جرى — فى الخطة — على القانون الشرعي ، وحكم بالعدل ، وبالغ فى اتقان أمر الاسواق ، كما قضى على عدة مناكر ، فمنع تناول التبغ بالتدخين أو النشوق ، وقطع آلات اللهو ، وانحراف النساء ، وألزم الناس الصلاة فى وقتها ، والتستر فى الحمامات (25) .

فهذا السلوك فى مقاومة المناكر ، يكشف عن بدء انتظام جديد لخطة الحسبة خلال الفترة المشار اليها ، كما يدل على أن هذا المحتسب اضاف الى شؤون الاسواق تغيير المنكرات .

وأمر آخر يلوح لجدية المحاولة ذاتها ، وهو ظهور مبادرات مكتوبة فى موضوع الحسبة أثناء هذه الحقبة وبعدها .

---

(25) « صفوة من انتشر » للافرانى ، ط . ف . ص 82 — 83 ، مع « نشر المثانى الكبير » للقادرى ، مخطوط الخزانة الملكية رقم 906 ، عند عام 1048 هـ ، ووقع فى « صفوة من انتشر » أن تولية المحتسب المنوه به كانت عام 1078 هـ ، وهو غلط مطبعى واضح من تاريخ 1048 هـ الوارد فى « نشر المثانى » ، سيما والافرانى يؤرخ وفاة الحاج صالح بعام 1059 هـ .

فيكتب محمد بن أحمد ميارة الفاسي فصلا مطولا فى هذا الاتجـاه ويثبته فى مبادىء شرحه على المنظومة الزقاقية (26) .

وينظم عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي الفهري ارجوزته المطولة فى الحسبة ثم يدرجها ضمن منظومة « الاقنوم فى مبادىء العلوم » (27) .

ثم فى عام 1081 هـ / 1670 م ، يؤلف أحمد بن سعيد المجيلدي ، رسالة موضوعية باسم « التيسير فىأحكام التسعير » (28) كتبهـــا استجابة لالحاح بعض المحتسبين (29) .

ولما قامت الدولة العلوية ، ساند السلطان الرشيد بن الشريف ، هذه المبادرة التى نجلى ملامحها ، ووكل اختيار محتسب فاس وبقيـة ولاتها ، الى كبير علماء هذه المدينة ابى زيد عبد الرحمان بن أبى القاسم ابـــن القاضـــى .

11 ــ فرشح لهذه الوظيفة عبد العزيز بن عبد الرحمان المركنـى الفيلالى (30)، المتوفى عام 1096 هـ / 84 ــ 1685 .

وكان موصوفا بالفقه والديانة ، صارما فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وظهرت له فراسات فى الكشف عن غش أهل الاسواق ، مما جعل الناس يلهجون به ــ بعد وفاته ــ زمنا (31) .

وقد وقف موقفا حاسما ضد والى فاس عبد الله الروسى ، حيث قرر وضع المكس على الاسواق والابواب فى هذه المدينة ، ولما لم يستمع لاعتراض المحتسب ، لجأ هذا الى الشيخ الصوفى المرموق : أبى العباس احمد بن عبد

---

(26) تبينا من تعاليق سابقة انه منشور بالمطبعة الحجرية بفاس ، وانظر عن ترجمـة مؤلفه « سلوة الانفاس » للكتانى ، ط. ف ، ج 1 ، ص 165 ــ 167

(27) لا يزال مخطوطا فى نسخ معدودة ، بالخزانتين : الملكية والعامة ، ومن اجودهـا مخطوطة خ . ع . ك 15 ، وانظر عن ترجمة ناظمه : سلوة الانفاس ج 1 ص 314 ــ 316 .

(28) نشرت هذه الرسالة من طرف الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ، تقديـم وتحقيق الدكتور موسى لقبـال .

(29) من القريب ــ جدا ــ أن يكون هذا البعض هو عبد العزيز المركنى آنر الذكر وشيكا .

(30) « بغية الناظر والسامع » للزيانى ، مخطوطة الخزانة الملكية رقم 678 ، ص 156 .

(31) صفوة من انتشر ص 199 .

الله معن ، الذي ضغط على الوالى حتى رجع عن قراره ، فكان الغاء هذه الضريبة نتيجة لتصلب المحتسب ، ولتدخل الشخصية المحترمة التي لجأ اليها (32) .

*

والى هنا نتبين من هذا العرض ، جدية المحاولة المبذولة — من عدة أوساط — لاعادة الحسبة الى وضعها ، ويؤخذ من سيرة المركنى الآنف الذكر ، أنه كان يجمع الى رقابة الاسواق ، تغيير المنكرات ، وهى خطة سار عليها — فى الجملة — المحتسبون بعده، وقد توسع ابن زيدان(33) فى عرض نشاط الحسبة فى العصر العلوي ، ونقتطف من ذلك ما يلى :

« . . . وله النظر المطلق فى اختبار الموضوع على الصياغين وتعبيره ، وتفتيش ما تحوكه الحاكة ، ويصوغه الصياغون ، وينسجه الناسجون ، ويخيطه الخياطون ، ويصنعه الحدادون ، وينقشه النقاشون .

ولا يرخص لمن رام تعاطى مهنة من هذه المهن وما ضاهاها ، الا لمن ثبتت لديه أمانته وعرف صدقه ، وحصلت للناس الثقة به ، لانهم ربما أكلوا أموال الناس بالباطل وهربوا . . .

وله التدخل فى كل الشؤون جليلها وحقيرها ، حتى البناءات وما يخشى ضرره منها ، والطرقات وتوسعتها ، ومنع الناس من الجلوس بها ان كان يؤذي المارة او غيرهم .

واليه المرجع فى غش الصناع على اختلاف أنواعهم ، وتباين حرفهم ومصنوعاتهم ، واليه ترفع دعاوي أصحاب الحرف فيما بينهم وبين غيرهم ، مما يرجع لحرفهم أو له تعلق بصنائعهم ، وله الحكم فى ذلك استقلالا : ضربا وسجنا وعقوبة بالمال . . .

---

(32) « المقصد الاحمد » لعبد السلام القادرى ، ط . ف ، الملزمة 19 ص 5 مع « التقاط الدرر » لمحمد بن الطيب القادرى ، عام 1096 هـ ، مخطوط خاص .
(33) « العز والصولة » المطبعة الملكية ، ج 2 ، ص 64 — 67 و 69 .

ومن شأنه ان يخرج كل يوم سوق تباع فيه الماشية من ماكول اللحم، ليكون على بصيرة تامة من الثمن والصوائر وما يربحه الجزارون ، ليكون السعر بما لا ضرر فيه ولا ضرار ، وعندما يقع التنازع او يتطرق شك ، توخذ شاة من أعلى ما فى السوق ، واخرى من الوسط ، واخرى من الادنى ، ويذبح الجميع بمحضر المحتسب ، ويسلخ ويوزن وتباع أسقاطه ، ثم بعد ذلك يسعر ، وكذلك يفعل فى كل ما يذبح لتموين البلد ، وكذلك يفعل فى فى الزرع عند راس السنة (34) . . .

وعليه ان يقوم فى كل اسبوع بجولة استطلاعية او جولات ، بحسبما يقتضيه الحال وتقتضى به الظروف ، يجوب فيها — علانية — سائر اسواق المدينة بأعوانه ، ومعه العيار والامداد والارطال واجزاؤها والمقاييس المقررة . . . ويختبر على كل بائع من الباعة ما تروج يده فى بيعه : كما وكيفا وجنسا ، ويبحث فى الاثمان والموازين والمقاييس والامداد على اختلاف مقاديرها (35) . . . وربما وجه — فى بعض الاحيان — صغار الاطفال يشترون من الباعة ويأتونه بما اشتروه ، للكشف عن امانة الباعة وخيانتهم .

ومن وقف له على غش او خيانة اوجعه ضربا على رجليه . . . ويطاف به بأسواق المدينة ، جاعلا له على راسه وظهره او عنقه الشىء الذي غش فيه او خان ، ثم يتصدق به اثر ذلك ، او يعدمه برميه فى واد او خلطه بتراب ...

ويدخل للحمامات لمراقبة المآزر وحرارة الماء ، وما يلزم من النظافة ، وربما خصص له يوما على حدته .

ولا يترك صاحب عمل او صنعة يدوية الا ويختبر ما عنده .

وله تعزيز البغايا ومنعهن من البغاء . . .

ومن المقرر عندهم أن يعين واحدا من كل حرفة ، ويجعل امينا عليها ورقيبا على اعمالها من قبل المحتسب ، يكون يفاوضه فيما يرجع للشؤون

---

(34) اثبت المؤلف هنا لائحة بالمواد التى تسعر والتى لا تسعر .

(35) ذكر المؤلف هنا انواع المعايير القديمة ، ومقاديرها بالاكرام واللتر والمتر .

الخاصة بأرباب تلك الحرفة .. وربما أسند اليه النظر فى فصل بعض الجزئيات ... »

وبالاضافة الى هذه الاختصاصات الحسبية المقتبسة من « العز والصولة » ، نشير الى أنه فى عصر السلطان الحسن الاول ، صار بعض المحتسبين تضاف لوظيفتهم أشغال خاصة .

فمحتسب مكناس له النظر فى شؤون البارود وما اليه بدائرته : صناعة وصناعا وبيعا (36) .

ومحتسب مراكش يشرف على بناء معمل انتاج القرطوس بنفس المدينة (37) .

ومحتسب الرباط : توزيع مجموعة من الاماء المملكيات على بعض أعيان هذه المدينة ، لتعليمهن الطبخ ونحوه (38) .

وفى عهد السلطان العزيز أسند الى محتسب فاس ، مراقبة مهنة الطباعة الحجرية الفاسية (39) .

*

ومن الجدير بالذكر أن بعض سلاطين الدولة العلوية ، اضطلعوا — بأنفسهم — بتقديم توجيهات من صميم الحسبة :

فالسلطان محمد بن عبد الله دعا — ضمن التنظيمات التى أمر بها — الى اصلاح بعض العادات الاجتماعية ، وندب الى ترك المغالات فى الاصدقة ، والى الاعتدال فى تكاليف الشورة والوليمة (40) .

---

(36) هو الحاج محمد بن العربى اجانا ، وظهير تكليفه بهذه المهمة فى « العز والصولة » ج 2 ، ص 69 — 70 .

(37) هو مولاى عبد الله بن ابراهيم البوكيلى ، ورسائل تكليفه بهذه المهمة فى « مظاهر يقظة المغرب الحديث » لمحمد المنونى ، مطبعة الامنية بالرباط ، ج 1 ، ص 66 — 71

(38) هو الحاج عبد الخالق بن الحاج محمد بن العربى فرج ، ووثيقة ذلك فى كتاب « وثائق ونصوص » لمحمد المنونى ، المطبعة الملكية ، ص 125 — 126 .

(39) هو محمد بن محمد بن الحفيد الشامى الخزرجى ، ووثيقة هذه المهمة فى « مظاهر يقظة المغرب الحديث » ، ج 1 ، ص 247 .

(40) « اتحاف اعلام الناس » لابن زيدان ، ج 3 ، ص 200 — 201 مع ص 208 — 210

وسلك فى مقاومة انتشار الخمر مسلكا ذكيا ، فصار يحض على تناول الشاي ، حتى انتشر شربه ، وتناسى المدمنون — نسبيا — معاقرة أم الخبائث (41) .

ومن جهة أخرى : اذاع نفس العاهل وصيته التى نبه فيها الى الاهتمام بأركان الدين ، وحذر من المنكرات ، وورد فيها بالخصوص :

« . . . فيجب على من ولاه الله أمرا أن ينصح لنفسه ولرعيته جهد الاستطاعة ، ويحملها على اتباع السنة والجماعة ، ويزجر من قصر فى دين الله وخالف أمره وارتكب ما نهى عنه : بقدر معصيته، ويقوم بأمر الله فيهم وطاعته ، ويبدأ بنفسه فيحملها على منهاج الحق والشريعة ، فان الرعية على دين رئيسها ، فحينئذ ينفع تعليمه ويقبل ما يقول .

ويلزم كل دوار وجماعة مشارطة طالب علم يرجعون اليه فى أمر دينهم ، وتعليم صبيانهم وجهالهم ، ويقوم بالآذان والصلوات الخمس فى أوقاتها ، والجماعة التى لم تفعل ذلك يزجرهم ويعاقبهم ، ويختار الاشياخ أهل الدين الذين يقومون بذلك ، ويستعين عليه بالقضاة أهل العلم والعمل ، الذن يتقون الله ويتحرون فى أحكامهم » (42) .

وقريب من موضوع هذه النصيحة وصايا متعددة صدرت عن السلطان ابى زيد بن هشام (43) .

وجاء فى وصية السلطان محمد الرابع : « . . . وقد بلغنا أن بعض العمال يسيئون السيرة فى الرعية ، ويسلكون السبل الغير المرعية ، ويجورون عليهم فى الاحكام ، ويحملونهم ما لا يطيقونه دون خوف ولا احتشام، فظهر لنا أن نجعل هذا الكتاب مقدمة اعذار وانذار ، وطليعة موعظة وتذكار ، ليقف من أراد الله به خيرا عند حده ، وتحل العقوبة بمن لم

---

(41) هكذا سمعته من القاضى المرحوم محمد بن عبد السلام السائح ، وهو فى مجلس درسه الليلى — فى الحديث — بجامع القرويين ، وكان مستنده ما فى « تذكرة المحسنين » لابى محمد عبد الكبير الفاسى الفهرى ، خ . ع . ك 270 ضمن مجموع ، وقد جاء فيها — عند عام 1204 هـ — ان الشاى ظهر بالمغرب ايام السلطان محمد 3 وهو من خصائصه وآثاره ، بعدما عمت البلوى بمصيبة شرب الخمور

(42) « اتحاف اعلام الناس » ج 3 ص 223 .

(43) انظر « المصدر الاخير » ج 5 ص 93 — 99 مع ص 101 — 106 .

ينتبه عن فعله الشنيع فيكون عبرة لضده ، فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيى عن بينة ، فان الله رفيق يحب الرفق بعباده ، والظلم ظلمات يوم القيامـــــة » (44) .

وبعد هذا كانت الوصية القرنية التى استقبـــل بها السلطان الحسن الاول مفتتح المائة الهجرية الرابعة عشرة ، وقد ذكر فيها بحقيقة الاسلام : قواعد ومعاملات ، وحقوقا وواجبات ، وآدابا وأخلاقا ، وحذر من المخالفات والمنكـــــرات (45) .



وهذه لوائح بأسماء بعض المحتسبين فى خمس مدن ، من أيام أبى الربيع المولى سليمان حتى عهد السلطان عبد الحفيظ ، وسيتبع عرضهـــم ترتيـ م المحتسبـــين السابقين :

12 — فى فاس : محمد بن أحمد بن محمد الشرفى الاندلسى الاشبيلى المتوفى عام 1269 هـ (46) / 1853 م .

13 — ابنه أبو زيد عبد الرحمان ، المتوفى عام 1304 هـ / 1887 م ، تقلدها يوم الاثنين 24 جمادى الاولى عام 1272 هـ ، واستمر فيها الـــى عصر الخميس 27 شوال عام 1274 هـ (47) ، وفى اليوم نفسه أسندت الى:

14 — محمد ابن القاضى المتوفى عاه 1275 هـ (48) / 1858 م ، فخلفه فيها :

---

(44) ورد نص هذه الوصية فى مجموعة وصايا دينية من ملوك الدولة العلوية ، نشر المرحوم عبد العزيز القباج بالمطبعة الوطنية بالرباط عام 1353 هـ / 1934 م ، ص 23 — 26
(45) ثبت نصها فى اتحاف اعلام الناس ج 2 ص 218 — 234 .
(46) يصفه الفضيلى بانه احسن السيرة ، وصان الخطة من الحيف والطمع والمداهنـــة ، حسب الدرر البهية ط . ف ، ج 2 ، ص 357 .
(47) كناشة الطائع بن التهامى ابن رحمون ، فى حوزة البعض بفاس
(48) نفس الكناشة ، ويقول عنه فى الدرر البهية ج 2 ص 254 : « تولى خطة الحسبة بفاس ثلاث مرات ، ومات عليها ، وكان قائما مع الحق ، يباشر أمور المسلمين اتم مباشرة ، وقام بوظيف الحسبة أتم قيام ، وما ثبتت عنه — مدة توليته — ريبة رحمه الله ، وكان يتعاطى خطة الشهادة كلما فرغ من أمور وظيفه ، الى أن توفى — على الحالتين — رحمه الله » .

15 ــ الحاج المهدي بن الحاج محمد بن المهدي بنانى ، المتوفى عــام 1305 هـ (49) / 1888 م ، فخلفــه :

16 ــ محمد بن محمد بن الحفيد الشامى الخزرجى ، الى أن أعفــى منها أواخر عام 1319 هـ ، ثم كانت وفاته عام 1330 هـ / 1912 م .

وفى مكناس : تسلسلت هذه الولاية فى اسرة « بادو » ــ مع غيرهم ــ على الترتيب التالــى :

17 ــ الحاج الطاهر بن العربى بادو : أيام السلطان ابى الربيع (50).

18 ــ ابنه الحاج محمد : فى العصر السليمانى وصدر دولة ابى زيد ابن هشــــام (51) .

19 ــ أحمد اللب الاندلسى الغرناطى : أيام المولى عبد الرحمان بن هشام (52) .

20 ــ احمد بن الحاج الطاهر بادو : أيام السلطان محمد الرابع (53)

21 ــ ابنه ادريس . أيام نفس العاهل (54) .

22 ــ الحاج الطيب بن عبد الرحيم غريط الاندلسى : أواخر أيــام العاهل نفسه ثم صدر الدولة الحسنية ، الى أن خلفه :

23 ــ المختار بن أحمد بن الحاج الطاهر بادو (55) : أيام السلطان الحسن الاول الى عام 1298 هـ / 1880 م ، فخلفه :

---

(49) فى كناشة العباس بن محمد بن عبد الرحمان السجلماسى : توفى محتسب فـــاس التاجر الحاج المهدى بن التاجر الحاج محمد بن الناظر المهدى بنانى ــ عن 92 عاما ــ ليلة الاحد سابع عشر شعبان ، عام خمسة وثلاثمائة والف ، بقى محتسبا نحــو الثلاثيـــن سنــــة .

(50) ورد ذكره فى « تاريخ الضعيف » عام 1212 هـ ، بمناسبة ترشيحه لرئاسة ركــب الحجيج من طرف السلطان ابى الربيع ، خ . ع. د 1706 ص 275

(51) كان ضمن الحاضرين فى بيعة مكناس للسلطان المولى عبد الرحمان بن هشام ، حيث ذكر بوصفــه محتسبـــا .

(52) « اتحاف اعلام الناس » ج 5 ص 229 .

(53) « المصدر » ج 3 ص 571 ، وله ترجمة مقتضبة بالمصدر ذاته ج 1 ص 369

(54) « المصدر » ج 3 ص 571 .

(55) « العز والصولة » ج 2 ص 67 ــ 68 ، مع « اتحاف اعلام الناس » ج 2 ص 155

24 ـــ الحاج محمد بن العربي اجانا (56) ، الى ان توفى ــ على خطته فى عهد نفس السلطان ــ عام 1306 هـ / 1889 ، فعين بعده على التوالى :

25 ـــ ابن زينة البخاري ، ثم

26 ـــ الحاج محمد ــ بفتح اوله ــ بن احمد بنانى ، المتوفى عـــام 1327 هـ ثـــم

27 ـــ الطالب بنانى .

28 ـــ وفى مراكش : مولاي عبد الله بن ابراهيم البوكيلى دعـــــى السوارت : تقلدها من سادس رمضان عام 1389 هـ الى أن توفى عام 1313 هـ ، فخلفه ابنـــه :

29 ـــ مولاي ابراهيم المتوفى عام 1330 هـ ، بعد ما نقل من الحسبة الى وظيفة اخرى (57) عام 1319 هـ ، حيث خلفه :

30 ـــ محمد بن عبد الهادي زنيبر السلاوي (58) .

31 ـــ وفى سلا : عبد الهادي قبطين أيام محمد الرابع (59) .

32 ـــ وفى الرباط : الحاج عبد الخالق بن الحاج محمد بن العربى فرج ، المتوفى عام 1332 هـ (60) / 1914 م

***

وبعد هذا المحتسب ونظرائه بالمدن الاخرى منى المغرب بسياســـة الحماية ، فتقلصت اختصاصات هذه الوظيفة ، وتوزعتها مصالح مقاومـــة

---

(56) « اتحاف أعلام الناس » ج 2 ص 197 .

(57) كناشة محمد الكبير بن البشير ابن عطية العمرى المراكشي : فى حوزة البعـــض بمراكش ، مع مقال ــ بعنوان تهنئة الوداد والصداقة ــ منشور بجريدة السعـــادة فى حلقتين : ثانيتهما بالعدد 4500 ــ السنة 34 ــ بتاريخ الخميس 26 شوال 1356 / 30 دجنبر 1937

(58) تقايير لبعض المعتنين .

(59) اتحاف أعد م الناس ج 3 ص 571 .

(60) اورده محمد دنية فى « مجالس الانبساط . بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط » الخزانة الملكية رقم 779 ، ج 2 ص 195 .

الغش. والبلديات. والصحة. والامن ، ولم يبق للمحتسب شأن يذكر ، ولذلك نقف بالموضوع عند هذا الحد ، على أن نذيل بعرض ست ملحقات تكميلية .

الاول : نموذج ظهير — من عصر السعديين — صادر عن عبد الله الغالب لتعيين محتسب :

عن أمر عبد الله أمير المؤمنين ، الغالب بالله ، المتوكل عليه ، الشريف الحسنى ، أيد الله أوامره العلية ، ونصر الويته العلوية ، بمنه .

كتاب كريم ، مقتضاه تولية وتقديم ، وبر عميم ، واعتناء وتعظيم ، يستقر بيد الفقيه الاجل : ابى فلان فلان بن فلان الفلانى ، ليتولى به النظر فى الاحتساب بمدينة كذا ، لما علم من انتهاضه واكتفائه ، وركوبه المهيع الاقوم واقتفائه .

فعليه ببذل مجهوده فى الاحتساب فيما يجب الاحتساب فيه من صنوف الاشياء وضروب التباعات ، نظراً للعامة وتفقدا فى أحوالها ، ومراعات لامورها ، وتنبيها من اغفالها ، حتى يجري أمرها على قوام ، وترجع اسبابها الى نظام .

وحددنا له أن يجمل السيرة فيمن يقدم عليه، ويحسن النظر — بنفسه — فيمن جعل أمره اليه ، وأن يراعى أمور الباعة ويشرف عليها ، ويعيير المكايل والموازين التى بين ايديها ، ، فان عثر على من يبخس أو يطفف ، بالغ فى ادبه ، وانزل العقوبة به ، فان ذلك صلاح المفسدين ، ورفق بالضعفاء منهم والمساكين .

فليقم الحق على أركانه ، وليضع العدل فى ميزانه ، ، وليساو بين خصومه ، ولياخذ من الظالم لمظلومه ، ولا يقبل غير المرضيين فى شهادته، ولا تتعرف سوى الاستقامة من عادته ، وليعلم أن الله مطلع على خيانته ، وسائله يوم ملاقاته .

وان يسلك فى جميع ما يورد ويصدر ، ويقدم ويؤخر ، سنن السلف الصالح ، ويعتمد على ايثار البر واعمال المصالح ، وان يسير بالسيرة المثلى ، ويسلك سنن الحق الاوضح الاجلى ، جاريا فيما تقلده على مقتضى الشرع وموجبه ، ومستنجدا بالله فى جميع أموره ومعتضدا به .

ونحن — ان شاء الله — نلتزم عضده وتاييده ، وانجاده وتسديده ، والمنع منه والدفع عنه ، ليلا تمتد اليه يد ، أو يتسلط عليه أحد .

فمن قرأ كتابنا هذا او قرىء عليه ، فليعمل به ، ولا يحد عن كريم مذهبه ولابد ، والسلام ، وبتاريخ كذا . (61) .

الثانى : ظهير حسنى بتقليد خطة الحسبة ، ونصه بعد الافتتاح :

« يعلم من هذا الخطاب الجسيم ، والامر المحتم الصميم : انا ولينا خديمنا الانجد ، الطالب الارشد : الحاج محمد بن العربى اجانا ، خطة الحسبة بهذه الحضرة المكناسية صانها الله ، لما راينا من أهليته لها ، وتوسمنا فيه من القيام بحقها .

وجعلنا له النظر فى الباعة واهل الحرف والاسواق ، وكل ما شملته الخطة على العموم والاطلاق ، وبسطنا له يد التصرف على الجميع .

ونامره بمراعاة حق الضعفاء والمساكين ، فى الاسعار والمكائل والموازين ، وحسم مادة الغش والتدليس والتطفيف ، وعقوبة من ارتكب شيئا منها بما يراه من سجن أو ضرب أو تطويف ، واقصاء من لم ينته عن فعله السخيف ، وعليه بتقوى الله ومراقبته ، فى سره وعلانيته .
ونأمر الباشا أن يشد عضده فيما يتعلق بخطته ، ونطلب الله له التوفيق والتسديد ، والسلام .

فى 5 ربيع الثانى ، عام 1298 » .

---

(61) ورد هذا النموذج فى « كتاب اللائق . لمعلم الوثائق » تاليف أبى العباس أحمد بن الحسن ابن عرضون — المطبعة الحجرية الفاسية عام 1291 هـ ، ص 2 من الملزمة 42

الملحق الثالث : رسالة حسنية فيها مبلغ ومصدر مرتب المحتسب ؛ نصها بعد الافتتاح :

- خديمنا الارضى ، المحتسب : الحاج محمد بن العربى اجانا ، وفقك الله ، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وبعد ، فقد وصل كتابك ، أخبرت فيه بأنك لم تقبض راتب الحسبة منذ توليت ، وقدره أربعون مثقالا فى الشهر ، وطلبت أمرنا الشريف للناظر يمكنك منه مدة توليتك ، ويدفع لك الريال بحساب خمسين أوقية .

فها نحن كتبنا للناظر فى ذلك ، وعلى الريال بما يروج فى الوقت ، والسلام .

فى 8 جمادى الاخيرة ، عام 1299 » . (62) .

الملحق الرابع : اختصاصات المحتسب فى « كتاب الولايات » لاحمد ابن يحيى الونشريسى :

« ... فللمحتسب أن يأمر بالجمعات ويؤدب عليها ، وبصلاة العبد ، وبالاذان ، والجماعات .

ويأمرهم ببنيان سورهم ، واصلاح سبولهم ، وعمارة مساجدهم ، ومراعاة بنى السبيل من ذوي المكانة : اذا لم يقم بيت المال بهذه المصالح.

وله الامر بالحقوق الخاصة كالمطل بالدين مع المكنة .

ويأمر الاولياء بنكاح الايامى من اكفائهن اذا طلبن ، والتزام النساء أحكام العدد .

ويلزم السادة حقوق العبيد والاماء ، وحقوق البهائم : من العلف وحمل الطاقة .

---

(62) هذه الوثيقة وسابقتها محفوظتان — فى اصليهما — لدى اسرة المحتسب المنوه به فى مكناس

ويقدم من الاطباء والصناع من يرى أصلح للناس ، وله اختيار من يكتال للناس ويزن ، واختيار القسام والذراع للقضاة لاجل أموال الايتام .

كما ان اختيار الحراسين فى المخافات والقبائل والاسواق الى الامراء

ويلزم اهل الذمة بلبس الغيار والمجاهرة بدينهم .

وينهى من أخر الصلاة عن وقتها ، ومن تعرض لعلم الشرائع من مقيه وواعظ خشى اغترار الناس به فى سوء تأويل أو تحريف جواب : انكر عليه واظهر أمره للناس .

ويؤدب الذمي على اظهار الخمر ، ويكسر آلات اللهو حتى تصير خشبا، وينكر العقود والمعاملات المجمع على فسادها ، دون المختلف فيها الى ما كان الخلاف فيها ضعيفا وهو ذريعة للمتفق عليه ، وكذلك عقود الانكحة المتفق عليها ، دون المختلف فيها الا أن يضعف الخلاف ويكون ذريعة للزنى كالمتعة .

ولينكر على الحاكم اذا احتجب عن الاحكام أو وقفت المصالح .

ويمنع أرباب السفن من حمل ما لا تسعه ويخاف عليها منه ، ومن السفر عند اشتداد الريح ، واذا حمل فيها الرجال والنساء حجز بينهم بحائل .

واذا اختص بعض الاسواق بمعاملة النساء اعتبر السيرة والامانة .

ويزيل من الاجنحة والرواشن ومقاعد الاسواق ما يضر بالناس .
ويمنع التكسب بالكهانة .

ومن قوي (على) العمل منعه من أخذ الصدقة » (63) .

**

(63) « كتاب الولايات » لاحمد بن يحيى الونشريسي — المطبعة الجديدة بالرباط — عام 1356 هـ / 1937 م . ص 6 — 7 ، مع مقابلة النص المطبوع بنسخة خطية

الملحق الخامس : نص أصيل عن مسؤولية الحكومة الاسلامية ، مقتطف من « الاحكام السلطانية » للماوردي (64) ، وهو يقول عن الامام :

« ... والذي يلزمه من الامور العامة عشرة أشياء : أحدها : حفظ الذين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الامة ، فان نجم مبتدع، أو زاغ ذو شبهة عنه ، أوضح له الحجة ، وبين له الصواب ، واخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، ليكون الدين محروسا من خلل ، والامة ممنوعة من زلل .

الثانى تنفيذ الاحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بين المتنازعين ، حتى تعم النصفة ، فلا يتعدى ظالم ، ولا يضعف مظلوم .

الثالث : حماية البيضة ، والذب عن الحريم ، ليتصرف الناس فى المعايش ، وينتشروا فى الاسفار ، آمنين من تغرير بنفس أو مال .

الخاس : تحصين الثغور بالعدة المانعة ، والقوة الدافعة ، حتى لا تظفر الاعداء بغرة ينتهكون فيها محرما ، أو يسفكون فيها — لمسلم أو معاهد — دما .

السادس : جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة ، حتى يسلم أو يدخل فى الذمة ، ليقام بحق الله — تعالى — فى اظهاره على الدين كله .

السابع : جباية الفىء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا، من غير خوف ولا عسف .

الثامن : تقدير العطايا وما يستحق فى بيت المال ، من غير سرف ولا تقتير ، ودفعه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

التاسع : استكفاء الامناء وتقليد النصحاء ، فيما يفوضه اليهم من الاعمال ، ويكله اليهم من الاموال ، لتكون الاعمال — بالكفاءة — مضبوطة ، والاموال — بالامناء — محفوظة .

---

(64) مطبعة السعادة بمصر عام 1327 هـ / 1909 م . ص 12 — 13

العاشر : ان يباشر بنفسه مشارفة الامور وتصفح الاحوال ، ليهض بسياسة الامة ، وحراسة الملة ، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة ، فقد يخون الامين ، ويغش الناصح » .

*****

الملحق السادس : يشتمل على اشارة الى :

ا ــ مجموعة من الظهائر فى 323 نصا أصليا : من السلطان الحسن الاول الى محتسب مراكش : مولاي عبد الله بن ابراهيم البوكيلى سابق الذكر عند رقم 28 ، وهى فى مجلد ضمن مخطوطات خ ، ع : 3410 د .

ب ــ ترجمة فرنسية (65) لنصوص سبعة ظهائر حسبية صادرة عن :

ــ السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام : ظهير واحد .

ــ السلطان محمد الرابع : ظهير واحد .

ــ السلطان الحسن الاول : ثلاثة ظهائر .

ــ السلطان عبد العزيز : ظهير واحد .

ــ السلطان عبد الحفيظ : ظهير واحد .

الرباط **محمد المنوني**

---

(65) GEORGES SURDON : LA FRANCE EN AFRIQUE DU NORD ouvrage honoré d'une souscription du gouverneur général d'Alger — p 221-228

منظار السنين ..!

عمر بهاء الدين الأميري

ومــن عجــب ..!
عشـــر .. سنون...
تناثرت من العمر ...
عجلـى
كالسحـــاب اذا مــرا ...
وكانت لياليها طــوالا ...
ثقيلة خطاهــا ...
يخـــال الحــر
ساعتهـــا دهرا ...!!

اراهـــا ...
وفى عينى ضعف عن المدى

 بباصرة الاحلام
فى يقظـــة حرى

كـــأنـــى
فى بون الرؤى
شـــارد « الأنـــا »
أقلب « منظارا »
وأرنـــو الى ذكرى

فأقصـــى ...
حـــيـــاة
ما أزال أعيشهـــا ...!

وأحيا ...
زمانا قد مضـــى ...
مـــرة أخـــرى ...!!

الربـــاط **عمر بهاء الدين الاميري**

في ذكرى مرور ستة قرون على اتمام ابن خلدون للجزء الأول من تاريخه.

الإغريق عند ابن خلدون

من بداية أيامهم الى موت الإسكندر الأكبر

تحقيق وتعليق
د. فوزي مكاوي

عندما نتحدث عن ابن خلدون (*) ، فأول ما يثب الى الذهن عنه أنه منشىء علم الاجتماع الانساني ، ولكن لا يغيب عن اذهاننا كونه مؤرخ كبير وضع سفرا فى تاريخ الامم والشعوب كان فريدا فى عصره ، وما يزال حتى الآن مرجعا أصيلا لتاريخ كثير من الدول والعصور .

وابن خلدون لا يقارن به أحد ممن عاصروه أو سبقوه ، فهو مؤرخ تنطبق عليه صفات الباحث فى ميدان علم التاريخ كما نراها فى العصر الحديث ، ويكفى أن نرى ما كتبه هو نفسه عن صفات المؤرخ اذ يقول : ان المؤرخ «... يحتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق وتكبان به عن المزلات والمغالط...»(1)

«... (و) يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والاعصار (العصور) فى السير والاخلاق

(*) ولد ابن خلدون بتونس سنة 1333 م ومات بالقاهرة 1406 م .
انظرالتعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا منشورات دار الكتاب اللبنانى .

(1) ابن خلدون ، مقدمة العلامة ابن خلدون ، روجعت وقوبلت على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة د . ت . ، ص 9

والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق او بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منهما والمختلف والقيام على اصول الدول والملل والمباديء وظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها واحوال القائمين بها واخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل خبرة وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والاصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا والا زيفه (اي بحكم زيفه) واستغنى عنه ... » (2) .

وهذه القواعد هي ما نتطلبه في العصر الحديث في الباحث في ميدان علم التاريخ (3) .

الف ابن خلدون كتابه في التاريخ لان عصره (يحتاج) ... من يدون احوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لاهلها ويقفو مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلا يقتدى به من يأتي من المؤرخين من بعده ...» (4)

والسؤال الآن ... هل نجح ابن خلدون في مسعاه ؟... او هل صحيح أن مستوى التاليف التاريخي عند ابن خلدون كان دون مستواه في تأليفه للمقدمة ؟ وللاجابة على هذا السؤال نشير الى أن ابن خلدون كتب كتابه مرتكزا على أخبار المغرب ثم تحدث او بحث في أخبار من عاصر دولهم من الحضارات العالمية .. ولذلك كان تاليفه في دائرة اهتمامه الأولى عالي المستوى جديرا بالنسبة الى ابن خلدون ، وكلما ابتعدنا عن مركز هذه الدائرة تسرب التشويش وازداد اختلاط الحقيقة بالخيال واقترب من مستوى مصادره بل وفي احيان كثيرة اكتفى بالنقل عنها او وقع في أخطاء

---

(2) ابن خلدون ، نفس المرجع ، ص 28

(3) راجع حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، ط 3 ، القاهرة ، 1970 ، المقدمة وفيها بحث في صفات المؤرخ ، والفصل الاول عن العلوم المساعدة ، والفصول من الرابع الى الثامن في نقد المادة العلمية ، والفصل الثاني عشر في الاجتهاد ويمكن مقارنة ذلك بما جاء في مقدمة ابن خلدون ، الطبعة المذكورة ، من ص 3 الى ص 33 .

(4) ابن خلدون ، نفس المرجع ص 33 .

اخذها هو على المؤرخين السابقين ولامهم عليها . وقد اعتذر عن ذلك عندما كتب «... اناذاكر فى كتابى هذا ما امكننى منه (... من احوال الخليقة ...الخ) فى هذا القطر المغربى اما صريحا او مندرجا فى اخباره وتلويحا لاختصاص قصدي فى التأليف بالمغرب واحوال اجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار ، لعدم اطلاعي على احوال الشرق وامعه وان الاخبار المتناقلة لا تفى ما اريده منه ...» (5)

وهكذا نجد تاريخ الاغريق بعيدا بعض الشيء عن مركز دائرة اهتمام ابن خلدون ومن ثم نجد كتابته فيه لا تخضع لكل القواعد التي وضعها ابن خلدون فى مقدمته وطبقها فى اجزاء كثيرة من عمله .

ورغم ان الاطار العام لتاريخ هذه البلاد صحيح الا ان تفاصيل احداث هذا التاريخ بها خلط واخطاء لا مبرر لها فى بعض الاحيان . ولست فى مجال الدفاع عن عمل ابن خلدون ولا فى مجال البحث عن أسباب لاخطائه ولكن هذا لا يمنع ان نشير الى ان كبر حجم عمله وابتعاد تاريخ الاغريق عن مركز دائرة اهتمامه وقصور مصادره عن هذا التاريخ كانت فيما يبدو أسبابا لما اورده من اخطاء . ومع ذلك يبقى عمل ابن خلدون عن الاغريق او غيرهم شيئا جديدا اذا قورن بما ساد قبله او عاصره من النقل دون تمحيص وخلط الاخبار بالاساطير دون تدخل من المؤرخ برأي او برفض لشيء غير منطقى (6) .

ذكر ابن خلدون اسمى هروشيوش وابن سعيد كمصدرين لمعلوماته عن الفترة التى نحن بصددها ، ويبدو أنه كان يحس ما فى حديثهما من الخلط وعدم الدقة فكتب هو فى بداية الفصل مجملا لما صدقه من أخبارهما ثم أعقبه بأقوال كل منهما ، ويعتبر هذا المجمل هو أصح ما ذكر فى هذا الجزء .

---

(5) ابن خلدون ، نفس المرجع ص 33

(6) للمقارنة بين منهجية ابن خلدون ومن سبقوه او عاصروه من الكتاب المسلمين انظر : حسن الساعاتى ، علم الاجتماع الخلدونى ، بيروت 1972 . وقد اورد مقارنة بين منهج كل من الطبرى والمسعودى والمقريزى وابن خلدون .

يقول ابن خلدون فى موجزه عن (دولة يونان والاسكندر منهم وما كان لهم من الملك والسلطان الى انقراض أمرهم) ان بلادهم تقع فى الناحية الشمالية من المعمور فى المنطقة المحصورة بين الاندلس غربا وبلاد الترك شرقا وتقع بلاد الاغريق الى الغرب من بلاد اللاتين ويفصل بينهما خليج . واشار ابن خلدون الى أن تاريخ الاغريق سابق على تاريخ اللاتين . واشار الى نجاح الفرس فى الاستيلاء على مدن اغريقية كثيرة خضعت له ودفعت الجزية للخزانة الفارسية .

ثم تحدث عن نجاح اثينا فى فرض سيطرتها على بلاد الاغريق بعد هزيمتها للشعب اللاكيدايمونى (الاسبرطى) ، وكيف كانت اثينا مكانا لاجتماع الحكماء والمفكرين الاغريق . ولكن أيام اثينا ولت وقامت دولة مقدونية — استطاع ملكها فيليب أن يهزم كل الاغريق ويضم بلادهم لمملكته، ثم فكر فى السير لحرب الفرس الذين كانوا ما يزالون أصحاب سيطرة على بعض المدن الاغريقية (مدن ايونيا) ولكنه قتل قبل القيام بهذه الحرب، فخلفه ابنه الاسكندر الاكبر الذي نجح فى الابقاء على سيطرة مقدونيا على بلاد الاغريق والذي دوخ دارا ملك الفرس وصارعه حتى مقتله وقضى على دولته ونجح فى ضم الاناضول والشام ومصر وبابل وفارس وولاياتها حتى البنجاب ، وحارب فى الاخير ، الملك بورس Porus وهزمه . ثم عاد الى بابل حيث مات هناك ولم ينس ابن خلدون ان يشير الى بناء الاسكندر لاكثر من مدينة باسم الاسكندرية ، كما أشار الى تتلمذ هذا على أيدي ارسطو اكبر حكماء الخليقة (7) .

والجدير بالملاحظة أن هذه الاخبار التى ذكرها ابن خلدون كلها صحيحة سواء التحديد الجغرافــى لمكان بلاد الاغريق او تطور الاحداث التاريخية . ولكن ابن خلدون لم يكتب ذلك فقط بل ذكر تفاصيل معارك وأحداث ، واسماء رجال ومدن ، وقدم فى بعض الاحيان ارقاما عن أعداد

---

(7) ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيا م العرب والعجم والبربر ومــن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ، القسم الاول ، المجلد الثانى ، بيروت 1956 ، ص 378 — 383

الجيوش او السنوات عندئذ تسلل الخطأ الى عمله ووضح التشويش والخلط فيما كتبه نقلا عن مصادره .

ومع ذلك لا يجب ان نقسو فى نقد ابن خلدون فانه يبقى من اكثر المؤرخين دقة اذا قورن بغيره من المؤرخين الذين عاصروه او سبقوه حتى بأعظم مؤرخى الاغريق والرومان خلال فترات ازدهار حضارتهم .

توقفت عند هذا الحد فى هذا المقال على ان نكمل عرض وتحقيق ما ذكره ابن خلدون عن اخبار الاغريق فى المقال الثانى باذن الله .

وقبل أن انهى هذا التمهيد تجدر الاشارة الى الجهد الممتاز الذي بذله ابن خلدون فى محاولة كتابة الأسماء اقرب ما يكون الى اصلها وهو امر يعلى من شأن عمله اذا قيس بما كان يفعله معاصروه .

الخبر عن دولة يونان والاسكندر منهم وما كان لهم من الملك والسلطان الى انقراض امرهم

هؤلاء اليونانيون المتشعبون الى الغريقيين (8) واللطينيين (9) كما قلناه ، اختصوا بسكنى الناحية الشمالية من المعمور مع اخوانهم من سائر

(*) ذكر ابن خلدون فصلا عن تاريخ الاغريق حتى سقوط آخر الدول الهلينستية فى يد روما خلال القرن الاول ق . م وهذا البحث يتعرض بالبحث للجزء الاول من هذا الفصل وهو الذى يشمل تاريخ بلاد الاغريق حتى موت الاسكندر الاكبر .

(8) ذكر ابن خلدون نسب الاغريق واللاتين حسبما جاء عند النسابين وما جاء فى التوراة وليس هذا جديد ، ولكن ما يهمنا هنا هو ان ابن خلدون عرف كلمتى الاغريق واليونان ، والاولى اسم اطلقه الرومان على الـ Graidi وهم جماعة من سكان بيوتيا فى بلاد اليونان ، وكانوا قد اشتركوا مع اهل خالكيس فى بناء مستوطنة كوماى فى غرب ايطاليا Cumae ، ثم اتسع هذا الاسم بالزمن لكى يشمل جميع سكان بلاد اليونان . اما الكلمة الثانية (اليونان) فهى تحريف عربى للفظ (ايونيون Iones) الذين كانوا اول من احتك من سكان بلاد اليونان ببلاد الشرق القديم ، وان كان يلاحظ ان ابن خلدون اعتقد بان الاغريق فرع من اليونانيين استأثروا بالاسم دونهم . والجدير بالذكر ان كلا الاسمين يعبران فى الوقت الحاضر عن مضمون واحد .

عبد اللطيف احمد على ، التاريخ اليونانى ، ج 1 ، بيروت 1973 ، ص 8 .

(9) اللطينيون هم سكان سهل لاتيوم وهم من مجموعة الشعوب الايطالية التى تضم

بنى يافث كلهم كالصقالبة والترك والفرنجة من ورائهم وغيرهم من شعوب يافث (10) ولهم منها الوسط مابين جزيرة الاندلس الى بلاد الترك بالمشرق طولا ، وما بين البحر المحيط والبحر الرومى عرضا فمواطن اللطينيين منهم فى الجانب الغربى ومواطن الغريقيين منهم فى الجانب الشرقى والبحر بينهما خليج القسطنطينية (11).

بالاضافة اليهم الــ UMBRI والسابيليون SABEILI كان اللاتين انشط المجموعات الثلاثة وقد استطاعت احدى مدنهم (روما) أن تتصدر كل المدن الاخرى فى ايطاليا وأن تفرض سيطرتها على شبه الجزيرة خلال القــرن الثالث ق . م ثم على منطقة البحر المتوسط كله خلال القرن الثانى . والطريف هنا أن ابن خلدون كتب اسم هذا الشعب مستخدما حرف (ط) فكتب اللطينيون كما يفعل أهل المغرب حتى اليوم وقد تكرر استخدام ابن خلدون لحرف (ط) فيما ينطـق فى المشرق (ت) فكتب انطيوخس وكليوباطره وطيطوس . . الخ ، وهذا يعطى دليلا هاما على أن استخدام المغاربة المحدثين لهذا النطق ليست تاثيرا فرنسيا كما يبدو للبعــض ولكنــه اصيــل فى المنطقة من قبل الاستعمار الفرنسى بعدة قرون للقراءة عن اللاتــين ، انظــر :

ديورانت ، ول ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ج 1 القاهرة 1973
والجدير بالذكر هنا ان ابن خلدون قد اكد على نسبة الاغريق واللاتين الى اصــل واحد ، وهذا فى الواقع غير مؤكد تاريخيا وان كان يتفق مع ما ذهب اليه المؤرخون الرومان من ربط تاريخهم بتاريخ الاغريق الاعلى ثقافة .
ومن المؤكد أن أشهر الأساطير الرومانية تقول ان اينــاس Aenas أحـــد أبطال طروادة جال فى البحر بعد سقوط مدينته حيث أرسى فى قرطاج وقد هامت به ديدو مؤسسة قرطاج ولكنه هجرها الى ساحل ايطاليا حيث نزل بسهل لاتيوم وأسس مدينة Lavinium ثم اسس ابنه Ascanius مدينة البالونجا وقد اسس أحد احفاد الاخير مدينة روما بعد بضعة اجيال . والواضح آن ابن خلدون قد تاثر فى هذا الرأى بما قراه عند مصادره غير العربية وبخاصة هروشيوش .
عن الاسطورة اقرأ :
عبد اللطيف أحمد على ، روما ، القاهرة 1958 ، ص 22 — 23

(10) هذه التقسيمات تتفق مع ما ذهب اليه النسابون من رفع نسب الشعوب فى العالــم كله الى نوح عليه السلام ، وقد ظلت هذه النظرية سائدة لدى المؤرخين حتى بداية العصور الحديثة ، ولكن ما تزال تاثيرات هذه النظرية واضحة فى تسمية بعــض المجموعات اللغوية كالسامية والحامية الخ . .

(11) المعروف أن الاغريق سكنوا بلاد اليونان وجزر بحر ايجه والسواحل الغربية لآسيا الصغرى بالاضافة الى مستعمراتهم على الشواطىء المختلفة ، أما اللاتين فقد سكنوا منطقة سهل لاتيوم فى وسط غرب ايطاليا وان امتد نفوذ مدينة روما اللاتينية بعد ذلك على كل ايطاليا . ومن هنا نلاحظ أن التحديد العام للموقع الجغرافى لبلاد اليونــان وايطاليا صحيح مع ملاحظة أن عرض هذه البلاد بانه ما بين البحر المحيط (المحيــط الاطلنطى) والبحر الرومى (البحر المتوسط) متاثر بالخرائط الجغرافية التى كانــت معروفة فى زمن ابن خلدون والتى كانت تصور البحر المحيط ممتدا شمال اليابس فى القارة الاوربية . ولكن وقع ابن خلدون فى خطا عندما اعتقد أن خليج القسطنطينيــة

وكان لكل واحد من شعبى الغريقيين واللطينيين منهم دولة عظيمة مشهورة فى العالم ، اختص الغريقيون باسم اليونانيين وكان منهم الاسكندر المشهور الذكر احد ملوك العالم (12) . وكانت ديارهم كما تلناه بالناحية الشرقية من خليج القسطنطينية (13) بين بلاد الترك ودروب الشام (14) ، ثم استولى على ما وراء ذلك من بلاد الترك والعراق والهند ثم جال أرمينية وما وراءها من بلاد الشام وبلاد مقدونية ومصر والاسكندرية (15) وكان ملوكهم يعرفون بملوك مقدونية (16) .

هو الذى يفصل بين الارضين . واذا بدأنا بتحديد مكان خليج القسطنطينية فاننى ارجح أن يكون ابن خلدون قد قصدبه بحر ايجه الذى قامت بالقرب من طرفه الشمالى مدينة القسطنطينية ولكن المعروف أن بحر الادرياتيك هو الذي يفصل بلاد اليونان عن ايطاليا وليس بحر ايجه . واخيرا اعتقد ان ابن خلدون قصد ببلاد الترك شبه جزيرة الاناضول حيث كان الاتراك العثمانيين قد بدأوا الاستقرار فيها

(12) يقصد الاسكندر الاكبر (356 — 323 ق . م)

(13) انظر الحاشية رقم 11 .

(14) اشارة النص هنا الى وقوع بلاد الاغريق بين بلاد الاتراك ودروب الشام خطا جغرافى لا يتفق مع فقرة سابقة وردت فى النص حددت وقوع تلك البلاد ما بين جزيرة الاندلس (غربا) الى بلاد الترك (شرقا) والمرجح أن هذا خطا فى النسخ فمن المستبعد أن يناقض ابن خلدون نفسه فى صفحة واحدة .

(15) من الواضح أن ابن خلدون لا يذكر البلاد التى خضعت للاسكندر الاكبر حسب تواريخ خضوعها ولكنه استطاع أن يحصى اغلب الاقطار التى خضعت للاسكندر دون ترتيب اذا ما استثنينا ارمينية التى ربما اعلنت خضوعها دون أن يسير اليها — ومع ذلك يلاحظ أن ابن خلدون لم يذكر خضوع بلاد فارس نفسها وان كان هذا مفهوما بداهة ، خاصة انه ذكره على لسان هرشيوش بعد ذلك (راجع الحاشية رقم 61)

تبقى ملاحظة هامة وهي ان ابن خلدون أشار الى ان الاسكندر (.. جال فى ... مصر والاسكندرية . .)

ورغم أن هذا الاسم يتفق مع ما عرفت به مصر خلال العصر الهلنيستى اذ كان ينظر الى الاسكندرية كجزء منفصل عن مصر وكان يقال (الاسكندرية القريبة من مصر Alexandria Ad Ægyptum) الا ان الصواب جانب ابن خلدون فى ذكره للاسكندرية حيث يفهم من هذا الخبر — خطا — ان الاسكندرية كانت قائمة وقت قدوم الاسكندر الى مصر . ولكن الثابت تاريخيا ان الاسكندرية كانت قائمة الاسكندرية وقد اشار ابن خلدون الى ذلك فى نفس النص فى مكان آخر (راجع الحاشية رقم 75)

ديورانت ، ول ، المرجع السابق ، ص 257 .

(16) من المعروف تاريخيا أن بلاد الاغريق خضعت لسيطرة مقدونيا منذ عهد فيليب الثانى والد الاسكندر ، وهذه الحقيقة التاريخية تتفق تماما مع ما ذكره ابن خلدون فى هذه الفقرة من أن ملوكهم (أى ملوك الاغريق) كانوا يعرفون بملوك مقدونية . وقد اكد ابن خلدون ذلك فى فقرة اخرى تالية نسبها لابن سعيد اشار فيها صراحة الى ان فيليب المقدونى قد هدم مدينة اغريقية واقام مدينة مقدونية (انظر الحاشية رقم 39)

وذكر هرشيوش (17) مؤرخ الروم من شعوب هؤلاء الغريقيين

---

(17) هرشيوش اهم مصدر غير عربى لابن خلدون فيما ذكره عن الاغريق واللاتين ومصدره الوحيد فيما ذكره عن القوط . وقد ورد اسم هذا المؤرخ لدى ابن خلدون — او ناسخى عمله — فى عدة صور منها : (اهروشيوس — هيروشيوس — هروشيوس — هرشيوش) .
واذا كان من السهل علينا ان نتعرف على مصادر ابن خلدون العربية من امثال المسعودى والطبرى والبيهقى وابن سعيد وابن العميد وغيرهم فان التعرف على هرشيوش هذا امر صعب فى ظل المعلومات القليلة التى اوردها ابن خلدون عنه .
وقد شاع بين الباحثين الربط بين هرشيوش هذا وباولوس أوروزيوس Paulus Orosus مؤرخ اسبانيا الذى ولد فى Tarragona فى عام 390 م والتحق بالكنيسة كاهنا وشارك بحماس فى صراعات عصره حول حقيقة الايمان . واتصل بالقديس اوغسطين فى افريقيا ونال تقديره والف كتابا فى تاريخ العالم بعنوان Historiarum Libri VII contra Paganos
الا أن هذا الربط فيه نظر من واقع ما ذكره ابن خلدون نفسه عن هرشيوش الذى اعتمد عليه . فبينما اختفى اوروزيوس من الحياة العامة حوالى عام 418 م ولم يعد أحد يذكره نجد أن هرشيوش قد ذكر احداثا عن القرن السابع الميلادى نقلها ابن خلدون مثل قوله عند ذكره لتاريخ الهجرة المحمدية « . . وقال هرشيوش ان ملك هرقل كانت الهجرة فى تاسعته وسماه هرقل ابن هرقل ابن انطونيوس لستمائة واحدى عشرة من تاريخ المسيح ، ولالف ومائة من بناء رومه . . » ص 459 ج 2 ،
كما نقل ابن خلدون معلوماته عن القوط من كلام هرشيوش اذ يقول « . . هذه سياقة الخبر عن هؤلاء القوط نقلته من كلام هرشيوش وهو اصح ما رأيناه فى ذلك . . » ص 493 ج 2 ، وتابع ابن خلدون ما ذكره عن القوط معتمدا على هرشيوش حتى عهد زدريق « . . وهو الذى دخل عليه المسلمون وغلبوه على ملك القوط ، وملكوا الاندلس . ولذلك العهد كان الوليد بن عبد الملك حسبما نذكره عند فتح الاندلس . . » ص 493 ج 2
وهكذا نرى أن المفروض — فى ضوء المعلومات التى يقدمها ابن خلدون — أن يكون هرشيوش مؤرخا عاصر فترة الصراع الاولى بين دولة الاسلام والدولة البيزنطية ، بينما اختفى أوروزيوس منذ الربع الاول للقرن الخامس الميلادى .
ومع ذلك فهناك احتمال بان يكون المقصود هنا هو اوروزيوس نفسه ولكن اضيفت الى اعماله اجزاء جديدة ليست من تاليفه وتم ذلك فى وقت لاحق . وهذا الاحتمال لا يمكن استبعاده اذ ان ابن خلدون يشير الى ان « . . خبر هرشيوش مقدم لان واضعيه مسلمان كان يترجمان لخلفاء الاسلام بقرطبة وهما معروفان ووضعا الكتاب . . » ص 452 ج 2 ، رغم ان ابن خلدون لم يوضح صراحة اذا كان المقصود بالوضع فى هذه الفقرة هو مجرد الترجمة ام الاضافة .
على كل حال فايا كانت حقيقة شخص هرشيوش فالواضح انه مؤرخ جيد يقترب من الصواب فى كثير مما يذكره ، ولكن هذا لا يمنع تسلل الاساطير واختلاطها بالاحداث التاريخية عنده فى بعض الاحيان حيث كان ذلك هو طبيعة الكتابة التاريخية فى ذلك العصر .
والحديث عن هرشيوش يجعلنا نتساءل كيف وصل عمله أو أعماله الى ابن خلدون وفى أى اللغات قراها ؟ ومرة اخرى نعود لما ذكره ابن خلدون من شذرات فنجد أنه

بنو لجدمون (18) وبنو انتناش قال : واليهم ينسب الحكماء الأنتاشيون وهم ينسبون لمدينتهم اجدة انتاش (19) قال ومن شعوبهم أيضا بنو طمان ولجدمون كلهم بنو شمالا بن ايشاي وقال في موضوع آخر لجدمون أخو شمـــالا (20) .

وكانت شعوب هذه الامة قبل الفرس والقبط وبنى اسرائيل متفرقة بافتراق شعوبها (21) وكان بينهم وبين اخوانهم اللطينيين فتن وحروب (22)

اشار صراحة الى أن عمل (أو أعمال) هرشيوش قد ترجم الى اللغة العربيـــة ثلاث مرات ، مرة للحكم المستنصر من بنى أمية (ت أول أكتوبر سنة 976 م) وترجمه له قاضى النصارى وترجمانهم في قرطبة ، مرة ثانية ترجم للمامون حينما بحث عن علوم الاغريق التى ذهبت الا ما بقى بايدى حكمائهم في كتب خزائنهم ، وهناك ترجمة ثالثة — وربما الحقت بها اضافات — وهى التى اطلع عليها ابن خلدون — أتمها رجلان مسلمان كانا يعملان في بلاط ملوك الاسلام في قرطبة .

عن باولوس اوروزيوس راجع :

ا — حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، 1959 ، ص 30 — 31

ب — Larousse XXème siècle

ج — راجع ايضا ابن خلدون ، المرجع السابق ، المجلد الثانى ص 169 ، 388 ، 402.

(18) من الواضح أن لجدمون تحريف لكيدايمون Lacedaimon وهو سهل في شبه جزيرة ابيلوبونيز ، خضع لسيطرة الدوريين في القرن الحادي عشر ق. م. حيث انشاوا فيه مدينة اسبرطة التى صارت اسطورة عسكرية بما خطته لنفسها من نظـــام صارم في الحياة . وقد عرف مواطنو هذه المدينة بالاسبرطيين ولكنهم كانوا يعرفـــون ايضا باللاكيدامونيـــين .

(19) ان ربط بنو لجدمون بسكان سهل لكيدايمون يدفعنا الى الربط دون مجازفة بـــين انتناش التى ذكرت في المتن وأثينا حيث كانت الاخيرة هى المنافس التقليدى لاسبرطة . ويرجح هذا الربط حديث ابن خلدون عن الحكماء الانتاشيون والمعروف أن أثينا كانت جامعة بلاد الاغريق وملتقى مفكريها ومشرعيها . ومع ذلك يلاحظ ان ابن خلدون ذكر أثينا بعدة قراءات فذكر اثينا مثلا في ص 382 ج 2 وذكرها باسم اثينوس في ص 418 ج 2 كما ذكرها انتناش في النص الذى نحن بصدده ، وارجح أن يكون ذلك بسبـــب اختلاف مصادره وناسخيــه .

(20) لم استطع تحقيق الاسماء المذكورة باستثناء لجدمون وانتناش ، ولكن المؤكد ان هذه الاسماء لها أصل حرفت عنه ، وهو ما نلمسه في كل ما كتبه ابن خلدون .

(21) من المعروف أن التاريخ الاغريقى يتسم بعدم تحقيق اى وحدة سياسية بين أجزاء تلك البلاد حتى عهد فيليب الثانى (357 ق . م) . ولذلك فان كل تاريخ هذه الامـــة السابق على ذلك التاريخ هو تاريخ استقلال المدن الاغريقية ، وبالطبع يدخل في ذلـــك التاريخ المبكر لتلك البلاد الذى عاصر مصر القديمة او قيام دولة بنى اسرائيل أو وقت المد الفارسى . وعلى ذلك يمكن ان نؤكد صحة ما ذكره ابن خلدون عن افتراق شعوب الاغريـــــق

(22) وقع ابن خلدون في الخطا عندما اشار الى وجود مثل هذه الفتن والحروب بين الاغريق واللاتين ، والمعروف أن أول اتصال للاغريق بايطاليا كان خلال القرن الثامن ق.م عندما

ولما استضحل ملك فارس لعهد الكينية ازادوهم على الطاعة لهم فامتنعوا وغزيهم فارس الفرس (23) فاستصرخوا عليهم القبط فسالموهـــم الى

بداوا فى انشاء مستعمراتهم على الشاطىء الايطالى فى الغرب والجنوب ، وقد حدثت مواجهات بين الاغريق فى ايطاليا واللاتين ولكن كان ذلك فى القرن الثالث ق. م. كما تعرضت بلاد الاغريق نفسها للتدخل الرومانى بل وسقطت بلاد الاغريق فى أيـــدى الرومان خلال القرن الثانى ق .م .

ومع ذلك فالمعروف أن أهل فوكايا Phocaea فى آسيا الصغرى قد اضطروا الى الهجرة جميعا الى مساليا (مرسليليا) عندما سقطت مدينتهم فى ايدى الفـرس عام 544 ق . م . وكانت مساليا مستوطنة أنشاها بعض ابناء فوكايا فى أوائل القرن السادس ق . م ولكن هذا التوسع لم يعجب الحلف الاتروری القرطاجی فتحـرش بالاسطول الفوكاى وهزمه فى معركة الاليا Alalia فى عام 535 ق . م وبذلك قضى على أى أمل للاغريق فى توسيع نطاق سيطرتهم فى الغرب .

Hatzfeld, J — Histoire de la Grèce ancienne, Paris, 1975, p. 118

ولا استطيع أن اؤكد أن ابن خلدون كان يشير الى ذلك الصراع الإغريقى الاتروری وانه اشار خطأ الى صراع بينهم وبين اللاتين .

(23) قال ابن خلدون أن الكينية هى دولة الفرس التى غزت الاغريق ، والمعروف أن هذه الدولة كانت تسمى بالاخمينية (أو الاكمينية) ولا أدرى اذا كانت الكينية تحريـــف مقبول لهذا الاسم أم لا . على كل حال فان ابن خلدون يعلل تسميته تلك الدولـــة بالكينية بان كل ملك من ملوكها كان يضاف الى اسمه (كى) والمضاف عند العجم متاخر عن المضـــاف اليـــه .

والمعروف أن الدولة الاخمينية قامت على انقاض دولة الميديين ، وقد استطاع قورش الثانى القضاء على استقلال ليديا تماما وهدم عاصمتها فى عام 546 ق . م ثم ثنـى ببابل التى كانت تعانى من سوء الادارة وانتشار المجاعة فهزم ملكها بال شار اوصر وانتهى دور بابل كدولة مستقلة فى عام 539 ق . م ، وقد استولى الملك الفارسى قمبيز الثانى على مصر فى عام 525 ق . م وقد اصطدمت المصالح الفارسية بمصالـح اغريق بلاد اليونان عندما حرضت أثينا — الجمهورية الفتية — اغريق آسيا الصغرى على الثورة ضد الفرس . صمم دارا على غزو بـلاد الاغريـق ، وسيـر لهـم جيشا واسطولا . وقد لاقى الفرس مقاومة شديدة خاصة فى معركة مارثون عام 490 ق . م التى انتصر فيها الاثينيون . وقد دفعت تلك المعركة الفرس الى الانسحاب مؤقتا دون أن يفقدوا مراكز ارتكازهم على الشاطىء الاسيوى ثم عادوا الى حرب اثينا فى عـــام 486 ق . م بتحالف مع اسبرطة ، ولكنهم هزموا فى معركة سلاميس عام 480 ق . م مما أدى الى انسحابهم تماما من حلبة الصراع تاركين الفرصة لاثينا لبناء امبراطوريتها . ولكن يعود الفرس الى التدخل فى شؤون بلاد الاغريق خلال النصف الثانى من الحروب البيلوبونيزية (413 — 404 ق . م) ولا تتوقف دولة الفرس عن التدخل فى الشؤون الاغريقية الا حينما يغزوها الاسكندر الاكبر فى عام 334 ق. م. وما تلاه . والمرجـــع ان اشارة ابن خلدون فى المتن الى غزو الفرس لبلاد الاغريق مقصود به هنا غزو مملكة ليديا فى عهد قورش الثانى فى عام 546 ق . م ، وذلك لاشارته الى استغاثتهم بمصر وكانت ما تزال دولة مستقلة خلال الاسرة 26 ، ولكنها خلال الصراعات التالية كانت قد اصبحت ولاية فارسيـــة .

محاربة الغريقيين (24) حتى اذلوهم وأخذوا الجزى منهم وولوا عليهم(25)

هامرتن ، جون ، تاريخ العالم ، ترجمة ادارة الترجمة بوزارة المعارف ، ج 2 ، القاهرة ، د . ت ، ص 392 — 416 .

(24) المقصود هنا بالقبط المصريين ، ورغم أن هذه الكلمة تشير فى الوقت الحالى الى المسيحيين المصريين ، الا أن الواضح أن ابن خلدون يستخدمها فى هذه الفقرة لتدل على المصريين قبل المسيحية .
وهذا الاسم تحريف للاسم الاغريقى لمصر Ægyptus الذى كان تحريفا فيما يبدو لاسم مدينة قفط Coptos فى مصر العليا .
والعلاقة بين مصر وبلاد الاغريق فى العصور الفرعونية كانت علاقات صداقة ومودة خاصة فى العصر المتأخر من تاريخ مصر الفرعونية .
وقد شهدت العلاقات الاغريقية المصرية عدة تطورات ودية سابقة على الامتداد الفارسى فى غرب آسيا من ذلك استعانة بسماتيك الاول (655 ق . م) وخلفائه بالمرتزقة الاغريق (كالكاريين والايونيين) للعمل فى جيشه . كما أقام الاغريق مستوطنة نقراطيس بالقرب من العاصمة المصرية (سايس) لتكون مركزا للوجود الاغريقى فى مصر ، هذا بالاضافة الى معاهدة التحالف التى عقدت بين جيجس ملك ليديا وبسماتيك الاول تعهد فيها كل طرف بتقديم المساعدة للطرف الاخر فور احتياجه لها ، وتذكر المصادر ان مصر اعدت العدة لمساعدة الملك (جيجس) فى صد الغزو الاشورى الا ان سقوط هذا الملك سريعا حال دون اتمام هذه المساعدة .
وعندما قامت الدولة الفارسية الاخمينية وظهرت تطلعاتها الى التوسع ودب الخوف فى قلوب حكام العالم القديم سعى احمس الثانى (568 — 526 ق . م) الى التحالف مع كرويسوس (قارون) ملك ليديا وبوليكراتيس طاغية ساموس وقيل ان اسبرطة وبابل شاركتا فى هذا الحلف ورغم أن هناك قصة تشير الى مشاركة مصر بعشرة الاف جندى فى معارك حليفها الا أن ذلك مجرد احتمال ينفيه سقوط كرويسوس السريع ويبدو أن مصر شأنها فى ذلك شأن بابل وساموس نفضت يديها من حلف صديقها كرويسوس خوفا من الفرس . ومن غير المعروف اذا كانت مصر قد صنعت ذلك بنصيحة فارسية كما يشير ابن خلدون أم انها اتخذت هذا الموقف دون تدخل احد الاطراف . ولكن هذا الموقف لم يعف مصر من أن تصبح هى نفسها فريسة للغزو الفارسى فى عهد قمبيز عام 525 ق . م
وبدراسة الفقرة التى أوردها ابن خلدون تبرز حقيقة اتفاقها مع الواقع التاريخى من حيث تعرض الاغريق للغزو الفارسى ثم استنجاد هؤلاء بالمصريين وموقف المصريين من الغزو الفارسى لليديا . ولكن تجدر الاشارة الى ان ابن خلدون ذكر هنا بداية الصراع الفارسى الاغريقى ، مع اغريق الشرق ولكنه لم يتابع تطورات هذا الصراع (انظر الهامش 23) . هامرتن ، جون ، أ ، المرجع السابق ، ص 395 .
راجع عبد العزيز صالح ، الشرق الادنى القديم ، ج 1 ، مصر والعراق ، القاهرة 1976 ، ص 282 — 283 وقد نقل رواية هيرودوت واشار الى
Herodotus, I, 77, II, 69-70, III, 39

(25) المعروف ان جزءا من العالم الاغريقى صار خاضعا للامبراطورية الفارسية ، فجميع المدن الاغريقية وآسيا الصغرى سواء كان اهلها دوريين أو آيوليين او ايونيين كانت جزءا من مملكة ليديا — فيما عدا ميليتوس Miletus — ولما سقطت ليديا فى

ويقال أن أفريدون ولى عليهم ابنه وان جدة الاسكندر لابيه من اعقابه (26) ويقال أن بختنصر لما ملك مصر والمغرب انفوه بالطاعة (27)

ايدى الفرس عام 546 ق . م حاولت تلك المدن الاستقلال ولكن فشلت محاولهـا واستطاع هارباجوس Harpagus نائب الملك الفارسى قورش الثانى أن يخمد ثورتهم بينما أعلنت ميليتوس ولاءها للفرس دون قتال . وهكذا دفعت تلك المدن الجزية العسكرية للفرس مع احتفاظها بطابعها الاغريقى . وقد ضمت اغلب هذه المدن الولايات الفارسية فى ليديا وساريس وفريجيا وداسكيليوم .
وهكذا نلاحظ ان اشارة ابن خلدون الى خضوع الاغريق لحكام من الفرس ودفعهم للجزية ينطبق على ما حدث لاغريق آسيا الصغرى ولكن المؤكد ايضا أن الفرس لم يستطيعوا فرض سلطانهم على بلاد الاغريق الاصلية ، رغم أن الفرس حاولوا احتلال بلاد الاغريق الاصلية منذ عهد دارا فى 514 ق . م بل وقاموا بحملتين على تلك البلاد : الاولى فى عام 490 ق . م وقد هزمت فى مارثون كما انسحب الاسطول الفارسى دون أن يخوض المعركة بعد أن نجا من خدعة حاكها الاثينيون للايقاع بـه . اما الحملة الثانية فقد عبرت مضيق البسفور فى 480 ق . م وقد تصدى لهذه الحملة حلف الاغريق بقيادة اسبرطة، ورغم الدفاع البطولى للاغريق فقد سقطت اغلب بلاد الاغريق فى ايدى الفرس حتى أنهم دخلوا أثينا ودمروها . الا ان نجاح الاسطول الاثينى فى الايقاع بالاسطول الفارسى فى معركة سلاميس 480 ق . م غير الوضع تماما فاحيط بالفرس واندفع الاغريق يحررون بلادهم حتى استطاعوا مطاردة الفرس فى آسيا الصغرى وهزموهم فى معركة موكالى بالقرب من ميليتوس بآسيا الصغرى عام 478 ق.م ولكن الواضح أن ابن خلدون يشير الى اغريق آسيا الصغرى ويتضح ذلك فى اشارته الى الاستعانة بالمصريين والى دفع الجزية للفرس ، وهما أمران ينطبقان على ما حدث فى آسيا الصغرى دون بلاد الاغريق الاصلية .
انظر الحاشية رقم 23 .
احمد فخرى ، دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، ط 2 ، القاهرة 1963 ، ص 216 ـ 229 .
فوزى مكاوى ، تاريخ الاغريق وحضارتهم ، فاس 1978 .

(26) المفروض أن افريدون هو نوح عليه السلام عند الفرس كما قال ابن خلدون فى ص 314 ج 2 ، وهو بذلك سابق على عهد الاستعمار الفارسى لاسيا الصغرى فى عهد قورش 546 ق . م ، ويعتبر ذكره هنا اقحاما له فى الخبر فى غير موضعه . والمفهوم من سياق الخبر أن أفريدون كان احد أسلاف الاسكندر الاكبر ، وبالبحث بين هـؤلاء الاسلاف نصادف (فيدون) ملك آرجوس الذى أسس الدولة المقدونية فى عـام 803 ق . م ، والمرجح أن أفريدون هو تحريف لفيدون ، وعلى ذلك فالصياغة الصحيحة للخبر تكون أن (فيدونولى عليهم ابنه) ، وهنا يكون الخبر غير متعلق بالتدخـل الفارسى فى شؤون الاغريق ولكنه حديث عن اخبار مقدونية ، ومن ثم يعتبر هذا الخبر نقلة فى رواية ابن خلدون من حديث عن اخبار منطقة الى ذكر اخبار منطقة اخرى من بلاد الاغريق . وكثيرا ما يلاحظ مثل هذ هالنقلات عند ابن خلدون نظرا لانه لا يفـرق بين مناطق الاغريق ولا يعزل أخبار كل منها عن الاخرى .

(27) بختنصر هو نبوخذ نصر 604 ـ 562 ق .م الملك البابلى الذى ارتبط اسمه بتسبى العبريين الى بابل . وقد دخل فى عدة حروب ضد الوجود المصرى فى غرب آسيا كـان

وكانوا يحملون خراجهم الى ملك فارس عددا من كرات الذهب أمثال البيض ضريبة معلومة عليهم فى كل سنة (28) .

ولما فرغوا من شأن اهل فارس وانفوا ملكهم بالجزي والطاعة صرفوا وجوههم الى حرب اللطينيين (29) ثم استفحل أمر الايشائيين من القريتيين ولم يكن قوامهم الا الجرمونيون فغلبوهم (30) وغلبوا بعدهم

أولها فى عام 605 ق . م عندما كان وليا للعهد وقد هزم الجيش المصرى فى قرقميش ثم تقدم نحو العريش ، وهناك علم بموت أبيه فعاد سريعا الى بابل حيث تقلد زمام السلطة ثم سار فى اتجاه الشام حيث أخضع مدنه مثل دمشق وصور وصيدا واورشليم ودمر عسقلان ، كما دخل معركة فى عام 601 ق . م ضد مصر التى كانت تشجع المتمردين على حكمه . ولكننا لا نعرف نتيجة هذه المعركة .
كما تذكر المصادر حملة أخرى له فى اتجاه مصر فى عام 571 ق . م ولكننا لا نعرف الى أى مدى نجحت هذه الحملة ايضا وان كان هيرودوت يذكر أن الملك المصرى نخاو عقد معاهدة صداقة مع نبوخذ نصر وأنه اتبعها بنسب تزوج بمقتضاه الملك البابلى بأميرة مصرية صارت ملكة على بابل .

وحديث ابن خلدون عن هذه الفترة جدير بالمناقشة اذ انه يذكر نجاح نبوخذ نصر فى الاستيلاء على مصر — وهذاامر لم يتأكد تاريخيا — ولكن المؤكد أنه استطاع أن يحيد مصر ويخرجها من حلبة الصراع فى غرب آسيا سواء بهزيمتها أو بالاتفاق معها . ومن ثم فليس هناك ما يمنعمن الوجهة المنطقية أن تخضع له ليديا — التى سبقت أن خضعت للاشوريين قبل نصف قرن وأن تدفع له الضرائب . واشارة ابن خلدون الى المغرب مقترنا بمصر ليس فيها تجاوز كبير ، اذ كانت برقة تدور فى فلك النفوذ المصرى ، خلال حكم ابريس وأحمس الثانى (588 — 526 ق . م)
طه باقر ، مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، 1973 ، ص 546 — 549 .
عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص 281 .

(28) الجزية التى دفعتها ولايات آسيا الصغرى لدولة الاخمينيين الفارسية بلغت 1760 تالنت من الفضة سنويا ، والتالنت وزنة تساوى 60 منا والاخير ونه قريب جدا من الرطل الانجليزى أى ما يقربمننصف كيلوجرام . وليست هناك ما يدل على أن هذه الكمية من الفضة كانت دفع على شكل كرات أم لا .
احمد فخرى ، المرجع السابق ص 227 .

(29) ربما كانت الاشارة هنا تعنى الصدام الاغريقى مع الاتروريين وليس اللاتين (انظر الحاشية رقم 21) .

(30) اذا صح الربط بين انتناش واثينا (انظر الحاشية رقم 17) فالواضح أن اشارة النص الى (الجرمونيون) خطأ املائى وأن المقصود بها الـ (لجدمونيـون) أو (بنو لجدمون) الذين سبقت الاشارة اليهم وهم اللكيدايمونيون أى أهل اسبرطة .
والنص هنا يشير الى احداث بلاد الاغريق الاصلية مما يعتبر نقلة جديدة مفاجئة من آسيا الصغرى الى بلاد الاغريق .
والنص يشير الى التنافس الذى شهدته بلاد الاغريق بين كل من اثينا واسبرطة فى أعقاب نجاح الاغريق فى طرد الفرس من بلادهم .

اللطينيين والفرناسيين والاركاديين (31) واجتمع اليهم سائر شعـــوب الغريقيين واعتز سلطانهم وصار لهم الملك والدولة . (32)

وقال ابن سعيد : ان الملك استقر بعد يونان فى ابنه اغريقش فى الجانب الشرقى من خليج قسطنطينية وتوالى الملك فى ولده (33) ، وقهروا اللطينيين والروم (34) ودال ملكهم فى ارمينية وكان من اعظمهم هرقل الجبار ابن ملكان بن سلقوس بن اغريقش ويقال انه ضرب الاتاوة على الاقاليـم السبعة وملك بعده ابنه يلاق واليه تنسب الامة اليلاقية ، وهى الان باقية على بحر سودان . واتصل الملك فى عقب يلاق الى ان ظهر اخوانهم الروم

فقد تفاخرت اثينا بتضحياتها من أجل حرية الاغريق مما أدى الى حنق اسبرطة عليها . وقد دفع هذا الحنق علىاثينا ملك اسبرطه المتحالف مع الاثينيين الى محاولة خيانتهم بالاتفاق مع الفرس عام 478 ق . م ، ولكن الاثينيين فضحوا أمره واضطـــروا الاسبرطيين الى محاكمته وبذلك خرجت اسبرطه من حلبة التفاخر بالامجاد تاركـة لاثينا الفرصة لكى تصبح زعيمة لبلاد الاغريق . . وقد دفع هذا الموقف الجديد الاثينيين الى السعى للجمع بين الدفاععن حرية الاغريق والمصلحة الخاصة باثينا . وهكـــذا نشأت امبراطورية اثينا الاولى . ولكن هذه السياسة الاستعمارية التى اتبعتها أثينا ادت الى وقوع واحدة من أكبر الحروب التى شملت العالم الاغريقى كله واستمـرت لمدة سبعة وعشرين عاما (431 — 404 ق . م) اقصد بها حروب البيلوبونيز .
ديورانت ، والمرجع السابق ، ج 7 ، ص 6 وما بعدها .
واذا عدنا لنص ابن خلدون نجده يقرر واقع ما حدث حيث استفحل أمر الاثينيين الذين لم يكن منافسا لهم فى القوة سوى الاسبرطيين . وعندما نجح الاولون فى اخـــراج الاسبرطيين من حلبة الصراع انفتح أمامهم باب السيطرة على بقية اجزاء بـــــلاد الاغريـــــــق .
(راجع هذه الحاشية من اولهـــا) .

(31) هنا نصل الى أسماء الشعوب التى ذكرها ابن خلدون : اللطينيون وهم لم يدخلوا هذا الصراع أصلا (انظر ايضا الحاشية رقم 22) ثم الفرناسيين ولم استطع تحقيقهم وربما كانوا الفرساليين اى اهل فرسالوس Pharsalus فى تساليا ومن المحتمل جدا وقوعهم تحت نفوذ الاثينيين ، واخيرا الاركاديين وهم آهل اركاديـــا فى وسط شبه جزيرة البيلوبونيز ومن المؤكد انهم وقعوا تحت النفوذ الاثينى .

(32) السيد احمد الناصرى ، المرجع السابق ، ص 203 وما بعدها .

(33) ما ذكر ابن خلدون عن اصل الاغريق على لسان ابن سعيد هنا يتفق مع ما يتـردد عند النسابين ، ويتفق كذلك مع ما اخذ به ابن خلدون فى موجزه الذى ذكره فى البداية.

(34) الحديث عن قهر اللاتينيين والروم يوضح شيئين : الشىء الاول ان ابن خلدون ذكر قهر الاغريق اللاتين فى ملخصه متاثرا بما ذكره ابن سعيد . اما الشىء الآخر فهو أن ابن خلدون قد استبعد حدوث الصراع مع الروم ولعله ادرك أن الروم الذين عرفهـــم المسلمون قد خلفوا الاغريق ولم يعاصروهم . والمعروف أن (الروم) هو الاســم الذى اطلقه المسلمون على الدولةالرومانية الشرقية (البيزنطية) .

واستبدوا بالملك وكان أولهم هردوس ابن منطرون بن رومى ابن يونان فملك الامم الثلاثة ، وصار اسمه لقبا لكل من ملك بعده . وسمت به يهود الشام كل من قام بأمرها منهم (35) .

ثم ملك بعده ابنه هرمس : فكانت له حروب مع الفرس الى أن قهروه وضربوا عليه الاتاوة ، فاضطرب حينئذ أمر اليونانيين وصاروا دولا وممالك وانفرد الاغريقيون برئيس لهم ، وصنع مثل ذلك اللطينيون ، الا أن اللقب بملك الملوك كان لملك الروم . ثم ملك بعده ابنه مطريوش فحمل الاتـــاوة لملك الفرس (36) لاشتغاله بحرب اللطيفيين والاغريقيين . وملك بعده ابنه فيلفوش (37) ، وكانت أمه من ولد سرم من ولد أفريدون الذي ملكه ابوه على اليونان فظهر (38) وهدم مدينة اغريقية وبنى مدينة مقدونية (39) فى

---

(35) الفقرة السابقة تشير الى علو شان ابن خلدون مقارنا بمصادره ، فبينما نجد ابـــن سعيد يخلط الامور ويتحدث عن اشياء خرافية كخضوع كل العالم المعمور للاغريق ، والحديث عن الدولة الميلاقية ، ثم أسماء الملوك الذين لا يمكن التحقق من صحتهـــم نجد ابن خلدون يقدم للموضوع بموجز من عنده يذكر فيه الملامح الرئيسية لتاريـــخ الاغريق دون أن يبتعد كثيرا عن الحقيقة التاريخية المعروفة فى الوقت الحاضر

(36) ما ذكره ابن خلدون فى هذه الفقرة على لسان ابن سعيد اسطورى فى اغلبه ومـــن الصعب التحقق مـــن صحتـــــه .

(37) تبدأ كتابات ابن سعيد تقترب من الواقع التاريخى من حديثه عن اعتلاء فيلفـــوش للعرش . وفيلفوش هذا هو دون شك فيليب الثانى والد الاسكندر الاكبر الذى اعتلى عرش مقدونيا بعد فترة اضطربت فيها الامور فى تلك البلاد . وقد تولى الحكم فى عام 359 ق . م بعد أن أزاح ابن أخيه الطفل امونتاس الثالث . ذكر ابن خلدون اسمه فى ثلاثة قراءات هى : فيلفوس (ص 227 ج 2) نقلا عن وهب بن منبه ،وفيلبس على لسان هشام بن محمد الذى ذكره الطبرى (ص 327 ج 2) ، وأخيرا ذكره فيلفوش على لسان ابن سعيد وهروشيوش . ولا أدرى لماذا لم يربط ابن خلدون بين الاسماء الثلاثة ويحاول معرفة اصح الاسماء بينها ، وليس هناك تفسير لذلك ، الا أنه لـــم يربط أحداث تاريخ الشعوب المختلفة ، ولعله راى كلا منها منفصلا عن الاخر .

(38) انظر الحاشية رقم 26 .

(39) هذه الفقرة التى ذكرها ابن خلدون نقلا عن ابن سعيد تشير الى الحقيقة التاريخية التى سادت بلاد الاغريق فى ذلك الوقت ، فالمعروف ان فيليب الذى اعتلى عرش مقدونيا وهى دولة مفككة الاوصال ، استطاع خلال حكمه الذى استمر من عام 359 الى 336 ق . م ان يجعل منها سيدة بلاد الاغريق وقائدة لحلفهم بعد انتصارات مشهورة استولى على امفيبولس عام 357 ق . م وبدنا وبوتيدنا عام 356 ق . م وفى عـــام 355 ق. م. استولى على ميتونى ، وفى عـــام 347 ق. م. استولـى على اولنثس ، وبذا اتم سيطرته على الشاطىء الاوروبى لبحر ايجه الشمالى . واستولى على فوكيا فى عام 346 ق . م ، واصبح زعيما للحلف الامفكتيونى فى دلفى وراس الالعـــــاب البيثية ، وانتصر على اثينا فى عام 338 ق . م ، واصبح زعيما لبلاد الاغريق كلها

وسط الممالك بالجنب الغربي من الخليج (40) وكان محبا للحكمة ، فلذلك كثر الحكماء فى دولته . (41)

ثم ملك من بعده ابنه الاسكندر وكان معلمه من الحكماء أرسطو (42).

وقال هرؤشيؤش أن أباه فيلفوش انما ملك بعد الاسكندر بن تراؤش احد ملؤكهم العظماء (43) وكان فيلفوش صهرا له على أخته لينبادة بنـت

عن جهود فيليب لبناء مقدونية راجع :
السيد احمد الناصرى ، المرجع السابق ، ص ص 469 وما بعدها .

(40) اشارة ابن سعيد هنا الى أن مقدونيا تقع وسط الممالك فى الجانب الغربى من الخليج تثير مسألة أى خليج يقصد الكاتب ؟ لقد رأينا ابن خلدون من قبل يشير الى أن الاغريق يقيمون على الشاطىء الشرقى من خليج القسطنطينية بينما راى أن اللاتين يقيمون على الجانب الغربى ومن ثم رجحنا أن يكون القصد بحر الادرياتيك وليس بحر ايجه (انظر الحاشية رقم 11) وكيف لم يلاحظ ابن خلدون أن اشارة ابن سعيد الى الجانـب الغربى من الخليج كمكان لملكة مقدونيا يحمل تناقضا لما قال هو به ؟
ولكن الواقع ان اشارة ابن سعيد هنا صحيحة تماما ولعله كان يدرك أن الاغريـق اقاموا على جانبى خليج القسطنطينية (بحر ايجه) .

(41) لم يعرف عن فيليب الثانى حبه للحكمة فقد غرق فى صراعات لا تنتهى من أجل تحقيق سيادة مقدونيا على بلاد الاغريق ولكن يذكر أنه استدعى عظيم عصره ارسطو لكى يقوم بتهذيب ابنه الاسكندر . وقد قا مارسطو بهذا العمل خلال الفترة من 343 ق .م الى عام 340 ق . م ، ولكن صلة الفيلسوف والاسكندر لم تنقطع حتى قرب وفاة الاخير ديورانت ، ول ، المرجع السابق ص 493 . ويبدو ان مصدر ابن خلدون ربط بين استمانة فيليب بارسطو وحبه للحكمـــة .

(42) هذه الفقرة تتفق مع الحقيقة التاريخية المعروفة تماما . والمعروف أن ارسطو ولد فى استيجيرا عام 384 ق . م وانتقل الى اثينا فى عام 368 ق . م حيث تتلمذ علـــى افلاطون وظل ملازما له حتى وفاته فى عام 348 ق . م هاجر أرسطو من اثينا الى اســوس Assos فى آسيا الصغرى وتزوج ابنة حاكمها ، ولكن اغتيـال هذا الحاكم فى 344 ق . م ادى الى رحيله عن تلك البلدة .
وقد تلقى دعوة من فيليب الثانى فى عام 343 ق . م كى ياتى الى بيلا عاصمــــة مقدونيا . وهناك أشرف على تربية الاسكندر . ويبدو أن الفيلسوف حظى باحتـرام الاب كما حظى باحترام الابن ، فاستجاب الى طلبه باعادة بناء مدينة استيجيرا ، وكانت قد خربت أثناء حرب فيليب مع اولينثوس Olynthus . وكلفه فيليب بالاشراف على اعادة بنائها وطلب اليه أن يعد دستورها .
وفى عام 334 ق . م عاد ارسطو الى اثينا حيث افتتح مدرسة لتعليم البلاغـــة والفلسفة وبقى هناك حتى عام 322 ق . م حيث اضطر ان يغادرها بعد وفــاة الاسكندر اذ اتهمه الاثينيون بالزندقة . وهاجر ارسطو الى خالكيس حيث مات بعد مرض دام ثلاثة اشهر ،وقيل انه انتحر لانه لم يعرف سر المد والجزر .
اغسطنيس برباره البوليسى ، المرجع السابق ، ص ص 1 — 50 .

(43) كان سلف فيليب المباشر يدعى برديكاس الثالث ، وهو أبو الطفل امونتاس الـــذى

تراوش (44) وكان له منها الاسكندر الاعظم .

قال وكان الاسكندر بن تراوش لعهد أربعة آلاف وثمانمائة من عهد الخليقة ولعهد أربعمائة أو نحوها من بناء رومة . وهلك وهو محاصر لرومة قتله اللطينيون عليها لسبع سنين من دولته . (45)

ازاحه فيليب عن العرش ، ولكن المعروف أن عددا من ملوك مقدونيا حملوا اسم الاسكندر من بينهم اثنان سبقا فيليب على العرش . الاسكندر الاول وقد حكم فى عام 496 ق . م واستطاع أن يتلقى اعتراف الاغريق به وبشعبه كاغريق وليسوا برابرة ، وذلك بعد ان اثبت لهم بأن نسبه يمتد الى هرقل اول من وضع فكرة الالعاب الاولمبية ، ومن ثم سمحوا له بالاشتراك فى هذه الالعاب .
اما الاسكندر الثانى فقد تولى العرش فى عام 369 ق . م بعد اغتيال ابيه امونتاس الثانى فى ظروف غامضة ، ولكنه هو الاخر سرعان ما تعرض للاغتيال على يد عشيق أمه .
ولعل حديث هروشيوش عن الاسكندر آحد ملوكهم العظام يشير الى الاسكندر الاول لا الثانى رغم بعد الزمن بينه وبين فيليب ، فالكثير من الاعمال تنسب الى الاسكندر الاول منها على سبيل المثال انتزاعه اعتراف الاغريق بانتساب المقدونيين للاسرة الاغريقية ، واجادته للغة الاغريقية باللهجة الاتيكية واخيرا نجاحه فى احراز النصر فى ساحة الالعاب الاولمبية . كل ذلك ساعد على وصفه بالعظمة حتى أن الشاعر الاغريقى الشهير بندار تغنى بانتصاره فى الالعاب الاولمبية . أما الاسكندر الثانى فقد بقى فترة قصيرة على العرش لم تسمح بابراز مواهبه . ولكن ليس لدى ما انكره عن (تراوش) الذى ذكر هروشيوش انه اباه .
السيد أحمد الناصرى ، المرجع السابق ، ص ص 453 — 457 .

(44) المعروف تاريخيا أن زوجة فيليب الثانى وأم الاسكندر تدعى اوليمبياس Olympias وكانت اميره من أبيروس Ipirus وقد تزوجها فى عام 358 ق. م وقد اشتهرت هذه السيدة بايمانها بعبادات وعقائد ذات طقوس سحرية تتميز بالصخب والمجون . وقد وصل الهوس بهذه السيدة ان اعلنت انها تحمل جنينا ابوه زيوس ، والمعروف أن الاسكندر الاكبر كان متعلقا بامه اكثر من تعلقه بابيه حتى نسب اليه بعض المؤلفين اصابته بعقدة اوديب . وتتضح عمق الرابطة بين الابن والام من حرص الاسكندر على أن يخبر امه باسرار زيارته لمعبد آمون سيوه ، بل اعلن فى الرسالة انه عرف اسرارا هامة سيفضى بها اليها عندما يعود الى مقدونيا ولا استطيع الربط بين أم الاسكندر المعروفة تاريخيا وبين الاسم الذى ذكره ابن خلدون على لسان هروشيوش وهو لينبادة .
Henri Van Effenterre, l'Age grec, Histoire Universelle Larousse, Paris, 1968, pp. 349-353.

(45) حكم الاسكندر الاول — كما سبقت الاشارة — حوالى عام 496 ق . م وحكم الاسكندر الثانى فى عام 369 ق . م والمعروف أن روما انشئت حوالى عام 753 ق . م وتحديد حكم الاسكندر بنتراوش لعهد اربعمائة (عام) او نحوها من بناء روما يعنى انه حكم حوالى 353 ق . م ، وهذا يحصر الاشارة فى الاسكندر الثانى ، كما أن الاشارة الى ان مقتلهبعد سبع سنين من اعتلائه العرش يتفق مع قصر مدة حكم ذلك الملك . ولكن

فولى أمر الغريقيين والروم (46) من بعده صهره على أخته لينبـــادة فيلفوش ابن آمنته هركلش (47) .

واختلفوا عليه فافترق امرهم وحاربهم الى أن انقادوا اليه وغلبهم على سائر أوطانهم (48) وأراد بناء القسطنطينية فمنعه الجرمانيون بمـا

سبقت الاشارة فى النص — على لسان هرشيوش نفسه — بان الاسكندر بن تراوش هذا كان أحد ملوكهم العظام وهو ما يتفق مع مكانة الاسكندر الاول لا الثانى .
اما الحديث عن مقتل الاسكندر بن تراوش — سواء صح الاول أو كان الثانى — أثناء حصاره لروما فهو غير صحيح من الناحية التاريخية ، ولعل أول ملوك الاغريق الذى سعى لمهاجمة الرومان فى ديارهم كان بيرهوس ملك ابيرس الذى جاء الى هناك عام 280 ق . م واضطر الى مغادرة ايطاليا بعد هزيمته فى Beneventum فى عام 275 دون أن يحقق هدفه . راجع :
عبد اللطيف أحمد على ، روما ، القاهرة د . ت ص 48 — 51

(46) من الواضح أن هناك خلط فى النص الموقع الجغرافى والتتابع التاريخى . فالحضـارة الاغريقية قامت فى نفس الموقع الجغرافى الذى خلفتها فيه الامبراطورية الرومانيـة الشرقية (البيزنطية) وهى التى اعتاد العرب أن يسموها بالروم ، ورغم أن هـذه المعلومة منسوبة لهروشيوش (مؤرخ الروم) فانى اعتقد بانها اضافة من ابن خلدون او مترجمى هروشيوش حيث لم يكن اسم (الروم) شائعا بين مؤرخى المغرب .

(47) فيلفوش بن أمنته بن هركلش : ذكر هروشيوش نسب فيليب المقدونى صحيحا تماما ، اذ كان فيليب ابنا للملك امونتاس الثانى Amyntas II الذى اعتلى عرش مقدونيا بعد مصرع الملك ارخيلاوس فى عام 399 ق . م وظل على العرش حتـى مصرعه فى عام 369 ق . م وقد رزق هذا الملك بثلاثة أبناء اعتلوا العرش جميعا وهم الاسكندر الثانى ثم برديكاس الثانى الذى خلفه ابنه الطفل امونتاس الثالث تحـت وصاية عمه فيليب . وما لبث الاخير أن أزاح الطفل وأعلن نفسه ملكا على مقدونيا .
اما اشارة هروشيوش الى هركلش فهى كتابة محرفة لهركليس (هرقل) . وهـذا النسب يتفق مع ما سبقت الاشارة اليه من ادعاء الاسكندر الاول للشعـوب الاغريقية بانه ينتسب الى هرقل اول من فكر فى اقامة الالعاب الاولمبية ، وقد قبل الاغريق هذا الادعاء وسمحوا له بالاشتراك فيها ، كما رفعوا عنه لقب بربرى بناء على ذلك (راجع الحاشية رقم 43) .

(48) عندما اعتلى فيليب عرش مقدونيا فى عام 357 ق . م بذل جهده لتحقيق هدفين : الاول هو القضاء على الفتن فى بلاده مقدونيا واقامة دولة متحدة قوية فيها وقد نجح فى ذلـك نجاحا باهرا . اما الهدف الثانى فهو تحقيق سيطرته على بلاد الاغريق وقد سلك لتحقيق هذا الهدف مسالك مختلفة منها التقرب على كهنة ابولو فى دلفى (وقد ساعده هـذا الاسلوب على احتلال مقعد فوكس فى الحلف الامفكتونى) ، ومنهـا رشوة رجـالات السياسة والحرب فى المدن الاغريقية كلما استطاع ذلك ، وأخيرا كان يلجأ الى القتال اذا عجز عن بلوغ أهدافه باستخدام الوسيلتين السابقتين . وقد استطاع فى عـام 338 ق . م ان ينتصر على الحلف الاغريقى المضاد له بقيادة أثينا ، ثم استطاع فـى نفس العام أن يعقد حلفا فى كورنثا اعترف فيه الاغريق — باستثناء اسبرطة — بقيادته لقوات هذا الحلف . ثم عقد اجتماعا لاعضاء حلف كورنثا فى العام التالى 337 ق . م

كانت لهم فقاتلهم حتى استلحمهم (49) ، واجتمع اليه سائر الروم والفريتيين من بنى يونان . وملك ما بين المانية وجبال أرمينية (50) .

قرر فيه القيام بحملة ضد الفرس ، عدو الاغريق المشترك ، وحصل على موافقة اعضاء الحلف على هذا القرار . ولكن القدر لم يسمح له للقيام بتلك الغزوة فاغتيل فى عام 336 ق . م ، وقد تحقق هدفه بضرب الفرس فى عهد ابنه اسكندر الاكبر

Hatzfeld, Jean, Histoire de la Grèce ancienne, Paris, 1975, p. 24.

(49) المعروف ان مدينة القسطنطينية لم تعرف بهذا الاسم الا بعد عام 323 م عندما اختارها قسطنطين الاكبر مقرا لحكمه . ولكن كانت المدينة نفسها قائمة قبل هذا التاريخ بقرون وكانت تسمى بيزنطة . قامت هذه المدينة منذ أواسط القرن السابع قبل الميلاد كمستوطنة لاهالى ميجارا . وقد ساهمت تلك المستوطنة بدورها فى احداث المنطقة فايدت الفرس اثناء حملتهم ضد بلاد الاغريق ، ولكنها عادت عن ذلك بعد قليل ، مما ادى الى احتلال الفرس لها وضمها الى الاملاك الفارسية . ونجحت فى طرد الفرس بمساعدة اسبرطة عام 487 ق . م ، ومنذ ذلك التاريخ تقلبت بين المعسكرين الاغريقيين تارة مع اسبرطة والاخرى مع اثينا . وعندما أراد فيليب المقدونى الاستيلاء عليها اضطر الى القتال العنيف ضد مقاومتها المستميتة بمعونة اثينا ، والمعروف انه لجا الى عزلها بالاستيلاء على السهول الوسطى من بلاد اليونان مما دفعها الى الاكتفاء على الذات وانكماش دورها السياسى .

والنص الذى ذكره ابن خلدون على لسان هروشيوش هنا يشير الى هذه الاحداث ولكن ينسب بناء المدينة لفيليب وهذا أمر غير صحيح تاريخيا والصحيح (الاستيلاء وليس البناء) . ويشير النص الى أن فيليب واجه مقاومة من (الجرمانيون) ولعل المقصود (لجدمانيون) وهم بنو لجدمون الذين سبقت اشارة ابن خلدون اليهم (انظر الحاشية رقم 18) أى (الاسبرطيون) . ورغم صلة الاسبرطيين باهل بيزنطة وسيطرتهم عليها فترات طويلة الا ان الثابت تاريخيا أن أثينا لا اسبرطة هى التى ساعدت بيزنطة اثناء تعرضها للغزو المقدونى ، أما الفقرة الثانية فهى صحيحة تاريخيا اذ تقول « ... فقاتلهم (فيليب) حتى استلحمهم ... » وهذه حقيقة تشير الى عنف مقاومة اهل بيزنطة فى دفاعهم عن مدينتهم كما انها اشارة دقيقة لم تحدد المنتصر وهى بذلك تتفق مع حقيقة فشل فيليب فى الاستيلاء عليها .

السيد احمد الناصرى ، المرجع السابق ، ص 167 — 170 .

(50) استخدم ابن خلدون — على لسان هروشيوش — لفظى الروم والفريقيين والمعروف انهما اسمين المدلول واحد مع اختلاف العصر التاريخي لكل منهما وقد تكرر هذا الخطا أكثر من مرة فى النص — كما استخدم ايضا كلمة المانية للاشارة الى الحدود الغربية لاملاك فيليب رغم انها لم يكن لها وجود فى ذلك التاريخ ، والمرجح انها تحريف لاسم منطقة اغريقية لم اوفق فى تحديدها . وحديث النص هنا يشير الى املاك فيليب وفى الواقع ان هذا التحديد غير دقيق اذ المعروف تاريخيا ان فيليب نجح خلال فترة حكمه التى امتدت حوالى عشرين عاما من فرض سيطرة مقدونيا على أغلب بلاد الاغريق القارية من خلال حلف كورنثا ولكن المؤكد ايضا ان قوات فيليب كانت على وشك العبور الى آسيا الصغرى عندما قتل وهو ما يؤكد بان سيطرة فيليب لم تصل أبدا الى ارمينيا

Hatzfeld, Jean, op. cit, pp. 248-261.

وكان الفرس لذلك العهد قد استولوا على الشام (51) ومصر ، فاعتزم فيلفوش على غزو الشام ، فاغتاله فى طريقه بعـض اللطيبين وقتله بثار كان له عنده (52) .

وولى من بعده ابنه الاسكندر ، فاستمر على مـطـالبة بـلاد الشام (53) ، وبعث اليه ملوك فارس الخراج على الرسم الذي كان لعهد أبيه فيلفوش فبعث اليه الاسكندر أنى قد ذبحت تلك الدجاجة التى كانت تبيض الذهب وأكلتها (54) .

---

(51) الاشارة الى استيلاء الفرس على الشام ومصر اشارة صحيحة تاريخيا (راجع أيضا الحاشية رقم 22) .

(52) لم يعرف على وجه اليقين ان فيليب قد خطط لغزو الشام ام لا ، ولكن المعروف أنه كان قد خطط لمحاربة الفرس فى اجتماعات حلف كورنثا عام 337 ق . م وأنه سير جيشين لهذا الفرض أحدهما بقيادة انتيباتر Antipater والثانى بقيادة اتاللوس . وعندما قتل فيليب كان الجيش الثانى قد عبر مضيق الدردنيل بالفعل . على كل حال فان اشارة النص الى عزم فيليب على محاربة الفرس حقيقة تاريخية ، كما أن الاشارة الى عدم قيام هذه الحرب بسبب مقتله أمر صحيح أيضا .
والاشارة الى اغتيال فيليب معلومة صحيحة تبين الطريقة التى انتهت بها حياته ، ولو رفعت كلمة (اللطينيون) من النص لاصبح محتمل الصحة من الناحية التاريخية ، وذلك لان اللطينيين اقحموا على النص فلم يكونوا طرفا فى أى صراع سياسى مـع الاغريق فى ذلك الوقت . والمعروف أن اغتيال فيليب تم على يد أحد الضبـاط المقدونيين ، ويدعى بوزانياس أثناء احتفال فيليب بزفاف ابنته كليوباترة .
Briant, Pierre, Alexandre le Grand, Presses Universitaires de France 1974. pp. 8-9.

(53) الثابت تاريخيا أن الاسكندر لم يحد مطلقا عن هدف ابيه فى ضرب الامبراطوريـة الفارسية واذا كانت بداية الزحف تاجلت من عام 336 ق . م الى عام 334 ق . م فان ذلك كان بسبب الظروف التى نشأت عن الموت المفاجىء لفيليب المقدونى وما تلى ذلك من اضطرابات عمت بلاد اليونان . وقد اجل الاسكندر القيام بتلك الحملة حتى قضى نهائيا على كل دواعى التمرد على سيطرة مقدونيا . وهكذا نلاحظ أن اشـارة ابن خلدون على لسان هرشيوش صحيحة Hatzfeld, Jean, op. cit pp.263 - 265

(54) ليس هناك ادلة على أن مقدونيا كانت تدفع أية ضرائب للفرس على عهد فيليب او الاسكندر ، ويبدو ان هذه الرواية الواردة فى النص ما هى الا محاولة للبحث عـن اسباب الصدام الجديد بين الفرس والاغريق . وقد حاول كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين أن يصلوا الى السبب الحقيقى الذى حدا بفيليب ومن بعده الاسكندر الى البدء بحرب الفرس . ويرى بوليبيوس أن الاسباب التى دعت فيليب للتفكير فى حرب الفرس كانت الرغبة فى الحصول على الغنائم ، وقد ساعدت المعلومات التى كانـت متاحة أمام فيليب على اتخاذه لقرار الحرب . وذلك لان اكسنفون وجنوده الذين انسحبوا عبر آسيا الصغرى وهى بلاد معادية لم يتعرضوا لاى محاولة من جانب البرابـرة للهجوم عليهم أو اعاقتهم وكانت أمامهمـا تجربـة Agesilaus أجزيلاوس ملـك

ثم زحف الى بلاد الشام واستولى عليها ، وفتح بيت المقدس وقرب فيه القربان وذلك لعهد مائتين وخمسين من فتح بختنصر اياها (55) وامتعض أهل فارس لانتزاعه اياها من ملكتهم (56) فزحف اليه دارا في ستين الفا من الفرس ، ولقيه الاسكندر في ستمائة ألف من قومه (57) ، فغلبهم وفتح كثيرا من مدن الشام ، ورجع الى طرسوس فزحف اليه دارا ولقيه عليها فهزمه الاسكندر وافتتح طرسوس (58) ومضى ، وبنى الاسكندرية (59) ثم تزاحف مع دارا وهزمه وقتله ، وتخطى الى فارس

اسبرطة الذى لم تواجهه أى عوائق في تحقيق اهدافه في آسيا الصغرى ولكنه اضطر للعودة بسبب الاضطرابات في بلاد الاغريق نفسها ، وبالاضافة الى هذا وذاك فان فيليب كان يحس بكفاءة جنوده العسكرية اذا قورنوا بجبن وعدم كفاءة الفرس ، لكل هذه الاسباب أعلن فيليب للاغريق انه قرر حرب الفرس وأعلن لهم أن ذلك يتم انتقاما لسوء معاملتهم للاغريق ، وقد خلفه الاسكندر في تحقيق هذا الهدف .
Polybius, The Histories, London, 1975. B.K. III, G 12-14.

(55) اشارة ابن خلدون عن مسؤولية الاسكندر عن بدء القتال اشارة صحيحة تاريخيا .
والاشارة هنا الى فتح بيت المقدس صحيحة ولكنها لا تاتى في ترتيبها التاريخى المعروف (انظر الحاشية رقم 60) . والمعروف أن بيت المقدس خضعت للاسكندر اثناء عودته من مصر في عام 331 ق . م وهو تقدير قريب جدا مما قال به ابن خلدون (انظرالحاشية رقم 36) .

(56) اشارة ابن خلدون الى سخط الملك دارا على الاسكندر بسبب سقوط القدس امر مبالغ فيه ، فالحرب كانت دائرة بين القوتين منذ عام 334 ق . م قبل سقوط القدس بثلاث سنوات . وافتراض تحرك الفرس بسبب سقوط القدس قائم على اساس خاطىء بقدسية تلك المدينة لدى الفرس المجوسيين . والمرجح ان هذا التصور هو انطباع هرشيوش — المسيحى — (انظر الحاشية رقم 17) عن الموضوع

(57) من الواضح أن أرقام الجنود مبالغ فيها ، والمعروف ان قوات الاسكندر لم تزد عن 40 الف جندى مشاة وفرسان يعززهم أسطول يضم 160 سفينة ، بينما يقال أن دارا كان قادرا على تجنيد 100 الف جندى، والاشارة هنا منسوبة الى هرشيوش ايضا . لقد قال ابن خلدون رأيه مرتين : الاولى في المقدمة عندما شجب ذلك الاسلوب الذى يلجا اليه بعض المؤرخين لاجتذاب اهتمام القارىء على حسا بالحقيقة ، والمرة الثانية في اجماله الذى ذكره في بداية الفصل وهو لم يشر مطلقا الى مثل هذه الاعداد مما يوحي بعدم اقتناعه بها .

(58) المعروف تاريخيا أن فتح الاسكندر لطرسوس كان سابقا على معركة ايسوس ، ولم يعد الاسكندر لطرسوس بعد فتحه لبيت المقدس (انظر خط سير الاسكندر الحاشية رقم 61) .

(59) الاشارة هنا الى بناء الاسكندرية تثير قضية تاسيس الاسكندر لعدة عشرات من الاسكندريات على طول خط سيره ولكن لم تبق منها سوى الاسكندرونة شمال الساحل الفينيقى والاسكندرية في مصر . والمرجح أن الاشارة هنا الى بناء الاسكندرونة نظرا لانها اقرب الاسكندريات الى طرسوس .

فملك بلادها ، وهدم مدينة الملك بها وسبى أهلها (60) .

واشار عليه معلمه ارسطو بأن يجعل الملك فى أسافلهم لتتفرق كلمتهم ، ويخلص اليه أمرهم . فكاتب الاسكندر ملوك كل ناحية من الفرس والقبط والعرب بوملك على كل ناحية وتوجه ، فصاروا طوائف فى ملكهم . واستبد كل واحد منهم بجهة كان ملكها لعقبه (61) .

---

(60) ما ذكره ابن خلدون هنا يختلف بعض الشيء عن المعروف عن خط سير الاسكندر فى الشرق الادنى القديم . لقد سيطر الاسكندر على اغلب آسيا الصغرى بعد انتصاره فى ايسوس Isos فى نوفمبر 333 ق .م وكانت خطوته التالية هى السيطرة على مدن الساحل الفينيقى فاستسلمت له ارادوس وبيبلوس وتريبولس وصيدا Arados — Byblos — Tripolis — Sida دون مقاومة تذكر ولكن صور لم تسلم له قيادها الا فى اغسطس 332 ق . م بعد حصار دام سبعة شهور . تقدم الاسكندر بعد ذلك نحو الجنوب على الطريق الساحلى حيث نجح فى الاستيلاء على غزة فى نوفمبر 332 ق . م بعد مقاومة عنيفة . واخيرا وصل الى الحدود المصرية التى وجدها مفتوحة أمام جنوده ، اذ استقبله المصريون كمحرر لبلادهم من براثن الفرس ، قضى الاسكندر فى مصر شتاء عام 331 ق . م ، فى خلال تلك المدة قام بالعديد من الاعمال

ثم غادر مصر متوجها الى صور التى وصلها فى صيف 331 ق. م وفى الطريق استولى على بيت المقدس التى استسلمت له دون مقاومة ثم اتجه الى دمشق واستولى عليها ، ثم عبر الفرات ودجلة ، وأخيرا التقى بعدوه دارا فى معركة جاوجميلا وهزمه هزيمة ساحقة ، هرب دارا بعد المعركة من مكان الى مكان الى أن قتله أحد جنوده فى باكتريا .

أما الاسكندر فقد اندفع بجنوده فى اتجاه مدينة بابل التى فتحت أبوابها لاستقباله ، فبقى فيها بعض الوقت حتى استراح جنوده ، ثم اتجه بهم نحو الجنوب الشرقى فى اتجاه سوسا المقر الصيفى لملك الفرس واستولى عليها ، ثم اتجه نحو العاصمة برسيبولس Persipolis ونجح فى الاستيلاء عليها ، وقد نسب الى الاسكندر حرقه قصر اكسركسيس وهو ثمل .

الا أن هذا الخبر مشكوك فيه و فى صحته ، فالثابت تاريخيا انه احسن معاملة كل من استسلم له او اعترف بسيادته بل انه ثبت عددا كبيرا من حكام الاقاليم الفارسية فى اعمالهم وان اشرك معهم مقدونيين ، كما شجع جنوده المقدونيين على اتخاذ زوجات فارسيات ويقال انه احتفل بزواج عشرة آلاف من جنوده على فتيات فارسيات فى يوم واحد كما انه تزوج روكسان ابنة حاكم باكتريا وهى التى ولدت له ابنه الاسكندر بعد وفاته .

واذا عدنا الى النص الذى ذكره ابن خلدون فاننا نلاحظ اختلافا لخط سير الاسكندر عما هو ثابت تاريخيا فاستيلائه على طرسوس سابق على دخوله الى ارض الشام وسقوط بيت المقدس فى يديه كان اثناء عودته من مصر ، والاشارة الى قتل الاسكندر لدارا غير ثابت تاريخيا والمعروف انه قتل بيد احد ضباطه .

Paul Petit, Précis D'Histoire Ancienne, Paris, 1965. pp. 155-158.

(61) اتبع الاسكندر سياسة ادارية ارتكزت على اقرار اغلب الحكام المحليين فى وظائفهم

ومعلمه ارسطو هذا من اليونانيين ، وكان مسكنه اثينا ، وكان كبير حكماء الخليقة غير منازع . أخذ الحكمة عن افلاطون اليوناني . كان يعلم الحكمة وهو ماش تحت الرواق المظلل له من حر الشمس ، فسمي تلاميذه المشائيين (62) .

وأخذ افلاطون (63) عن سقراط ، ويعرف بسقراط الدن بسكناه

على ان يقصر مسؤولياتهم على النواحي الادارية فقط ، اما قائد الحامية العسكرية فكان في كل الحالات مقدونيا ، ويشارك الاثنان موظف مكلف بالشؤون المالية وجباية الضرائب. وقد هدف الاسكندر من هذا التقسيم أن يأمن خطر انفراد شخص واحد بالسلطة مما قد يغريه بالتمرد عليه . واشارة ابن خلدون هنا عن تاثير ارسطو على فكر الاسكندر امر غير منكور. ولكن التساؤل هنا عما اذا كان ارسطو قد اقنعه بجعل الحكم في اسافلهم ؟ وهو امر غير مؤكد تاريخيا .

(62) المعلومة التي أوردها هنا ابن خلدون عن أرسطو صحيحة تاريخيا . ورغم أن أرسطو لم يكن اثينيا بالمولد الا أنه عاش هناك فترات هامة من حياته خاصة فترة تتلمذه على افلاطون من عام 368 ق . م الى موت استاذه عام 348 ق . م ، كما عاد للحياة في اثينا في عام 335 ق . م حيث بقي يعلم فيها الى وفاة تلميذه الاسكندر الاكبر . عند ذلك رأى أعداء الاسكندر الاكبر في اثينا الفرصة سانحة للانتقام من أستاذه ، فحرضوا عليه كبير كهنة ديميتر لكي يرفع ضده الدعوى ضده أمام القضاء متهما اياه بالزندقة فاضطر لمغادرة اثينا في عام 322 ق. م. دون أمل في العودة اليها ثانية . وقد انشأ ارسطو مدرسته الفلسفية الشهيرة اثناء اقامته في اثينا في منطقة كانت تعرف باسم لكين . وقد اشتهرت مدرسة أرسطو بهذا الاسم نسبة الى المكان الذى قامت فيه كما عرفت باسم المشائيين للسبب الذى ذكره ابن خلدون . وأهم مؤلفات ارسطو التى وصلت الينا هى كتب ما وراء الطبيعة والاخلاقيات والسياسة ودستور اثينا من بين تصنيف كتاب الدساتير ، أما ما لم يصل الينا فهو كثير (راجع الحاشية 42) وأيضا
أوغسطينس بربارة البوليسي ، السياسات ، لارسطو ، مقدمة المترجم بيروت ، 1957 ، ص 1 — 50 .

(63) ولد افلاطون في اثينا عام 427 ق . م وتتلمذ على سقراط حتى وفاة الاخير في عام 399 ق. م. ثم سافر فى رحلات مختلفة الى خارج بلده فزار قورينه Cyrène ومصر ومناطق الاستيطان الاغريقي في غرب البحر المتوسط . وقد زار سيراكوز ، ولكن اراؤه اغضبت عليه ديونوسيوس طاغية المدينة عليه ، ومن ثم ألقى القبض عليه وعرضه للبيع في سوق الرقيق حتى افتداه أحد أصدقائه وعاد به الى اثينا حوالى عام 387 ق . م ، وفى اثينا افتتح الفيلسوف مدرسة على صخرة مقدسة تعرف باسم بطل يدعى أكاديموس ، ومن هنا عرفت بالاكاديميا .
وعاد افلاطون لزيارة صقلية مرتين في عام 367 و 361 ق . م ، وقد استطاع أن ينال ثقة ديونيسيوس الاصغر الذى سمح له بان يحاول تطبيق نظريته عن المدينة الفاضلة هناك ، ولكن فشل افلاطون ، فاضطر لمغادرة سيراكوز عائدا الى اثينا التي اقام بها حتى مات فى عام 347 ق. م. وأشهر آثار افلاطون العلمية هي المحاورات التى عرضت آراء سقراط وآراءه شخصيا في الميتافيزيقيا . هذا فضلا عن

فى دن من الخزف اتخذه لرهبانيته وقتله قومه أهل يونان مسموما لما نهاهم عن عبادة الاوثان (64) .

وكان هو اخذ الحكمة عن فيثاغورس (65) منهم .

كتاب الجمهورية التى كان يرى أن بتحقيقها يتحقق الخير الاسمى للبشر . والف أيضا كتاب القوانين لكى يتلافى مثالب فشل تطبيق نظريته عن المدينة الفاضلة فى سيراكوز .

(64) ولد سقراط فى أثينا فى عام 469 ق . م ، وقد عاش فقيرا وضبط نفسه امام اغراء الماديات . اشترك فى حروب البيلوبونيز ، وقد اشتغل بقطع الاحجار ونحت التماثيل ، تزوج اثنين فى حياته ، وهو يعتبر نقطة تحول فى الفكر اليونانى الذى اهتم فيما سبق بالبحث العلمى التجريدى فقط وذلك لانه بنى أبحاثه على اساس التأمل الواقعى الاخلاقى للناس . ولم يترك سقراط وراءه مؤلفات تشرح فلسفته ، ولكن تلاميذه — خاصة افلاطون — سجلوا هذه الافكار . وقد وجه الاثينيون الاتهام لسقراط — لانه لا يؤمن بالدين وانه يساعد على افساد الشباب . وجاء فى نص الاتهام « أن سقراط مذنب عام لانه لا يعترف بالالهة التى تعترف بها الدولة ، بل يدخل فيها كائنات شيطانية ، وانه مذنب كذلك لانه افسد الشباب » وجرت المحاكمة أمام مجلس الخمسمائة ، ورغم دفاع سقراط عن نفسه فقد صدر الحكم بقتله . وقيل أن سقراط كان فى وسعه أن يهرب من السجن بعد رشوة اصدقائه للحراس ولكنه رفض وأخيرا شرب السم ومات فى عام 399 ق . م .
واشارة ابن خلدون على لسان مصدره — بادانه سقراط بسبب دعوته لعدم عبادة الاوثان — تتفق مع ما جاء فى مسرحية السحب لارسطوفان والتى اتهم فيها سقراط بعدم الاعتراف بآلهة الاغريق كما تتفق مع ما جاء فى قرار الاتهام الصادر فى حق سقراط من أنه لا يعترف بالهة بلاد الاغريق ، ولكن الاشارة فى المتن تدفع على الظن بانه دعى الى دين سماوي ولكن المؤكد انه مارس الطقوس الدينية الاغريقية ولم تكن له اية صلة باى دين سماوى فهو لم يعتنق اليهودية كما انه كان سابقا على المسيحية باربعة قرون ويؤكد ذلك ما ذكره افلاطون على لسانه من انه قال (. . تقولون أول انى لا أومن بلالهة ثم تقولون بعدئذ انى أومن بأنصاف الآلهة ... أن مثلكم فى هذا كمثل من يؤكد وجود البغال ثم ينكر وجود الخيل والحمير » .
ولعل ابن خلدون خلط بين خبر سقراط وما عرف تاريخيا عن ديوجين الكلبى من سكنه فى دن (قدر) فى ساحة معبد سيبيل بأثينا، خاصة وأن افلاطون قد أطلق عليه سقراط الهائم راجع : بنيامين جوبت ، محاورات افلاطون ، ترجمة زكي نجيب محمود ، القاهرة ، 1966 ، ص 16 وما بعدها . وايضا : Larousse XXème siècle

(65) فيثاغورس ، بن منيسارخوس ، ولد فى ساموس حوالى عام 566 ق . م واشتهر أمره خلال حكم بوليكراتيس بها (مات عام 522 ق . م) رحل عن ساموس مثل الكثيرين من سكان المنطقة تحت ضغط الفرس لغرب آسيا الصغرى وزار خلال السنوات التالية ملطية Miletus حيث تعرف بتاليس وربما تتلمذ عليه ، ثم زار فينيقيا وعاش فى مصر مدة طويلة تعلم خلالها من علم المصريين وخبرتهم ، ترك مصر الى بابل حوالى عام 525 ق . م حيث درس الحساب والموسيقى . عاد الى ساموس وهو فى الخامسة والستين من عمره ، ولكنه لم يلبث أن رحل الى ديلوس وكريت وبلاد الاغريق نفسها وأخيرا استقر فى كرتون Corotone

ويقال ان فيثاغورس أخذ عن تاليس حكيم ملطية (66) ، واخذ تاليس عن لقمان (67) . ومن حكماء اليونانيين ديميقراطيس (68) وانكستثياغورس

في ايطاليا حيث أسس مدرسة هناك وبقي هناك حتى اضطر الى الرحيل الى بونتيوم القريبة من كروتون وبقى فيها السنوات الاخيرة من حياته الى موته عام 497 ق . م .
نجح فيثاغورس فى اكتشاف عدة نظريات هندسية هامة ونادى بكروية الارض وأعتقد بخلود الروح واختلاف أقدار الارواح حسب سلوك صاحبها فى الحياة وأن أرواح الاشرار تحل فى أجساد الحيوانات وقد أدى به ذلك الاعتقاد الى تحريمه أكل اللحم على تلاميذه كما كانمنهج الدراسةفى مدرسته يضم دراسات فى الموسيقى .
واشارة النص عند ابن خلدون الى تتلمذ سقراط عليه أمر صعب التصديق الا اذا كان المقصود قراءة سقراط لاعماله دون التتلمذ عليه شخصيا فقد مات فيثاغورس فى عام 497 ق . م بينمالم يولد سقراط الا فى عام 469 ق . م ، على انالاقرب الى الصواب ان يكون هنا تحريف فى الاسم الذى ذكره ابن خلدون ولعله قصد بروثاغوراس وليس فيثاغورس والاول هو أشهر الفلاسفة السفسطائيين وكان معاصرا لعصر سقراط ، وكان سقراط نفسه كان معجبا فى شبابه بالسوفسطائين ، كما ان افلاطون كتب محاورة دارت بين سقراط وبروثاغوراس .
أحمد أمين وزكى نجيب محمود ، قصة الفلسفة اليونانية ، ط 6 ، القاهرة 1966 ، ص 19 — 25 .

(66) تاليس ، ولد حوالى 624 ق . م قيل أنه كان من أصل فينيقى ومات حوالى عام 545 ق . م ، درس الفلك والرياضيات فى مصر التى كانت ما تزال مخزنا للثقافة القديمة . وكان أحد أشهر سبع حكماء يمثلون الحكمة القديمة ونسب اليه أنه صاحب القول المأثور (اعرف نفسك) .
ترجع شهرة تاليس الى تنبؤه بحدوث كسوف للشمس يوم 28 مايو سنة 585 ق . م وقت المعركة بين الليديين والفرس ويقال أنه ادخل العلوم الرياضية والفلكية الى بلاد الاغريق . وقد اشار هيرودوت الى صلة تاليس وكرويسوس (قارون) ملك ليديا .
والنص الذي ذكره ابن خلدون دقيق فقد ذكر أن تاليس كان من حكماء ملطية وهو لقب يتفق تماما مع حقيقته فقد كان من ملطية Miletus ولقبه مواطنوه بالحكيم
سارتون ، جورج ، نفس المرجع ، ص 359 — 366 .

(67) عرفت أنساب الخليقة عددا من الرجال كان اسم كل منهم لقمان . واشهرهم لقمان الحكيم الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم (سورة لقمان) ويقول ابن جوزى الكلبى فى كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ، القاهرة ، 1355 هـ ، ج 3 ص 126 :
« ---- ان لقمان رجل ينطق بالحكمة واختلفهل هو نبي أم لا وفىالحديثلم يكن لقماننبيا ولكن كان عبدا حسن اليقين احب الله فاحبه فمن عليه بالحكمة ، روى انه كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته . . »
والفقرة السابقة تشير الى ارتباط لقمان بايوب الذى عاش بعد ابراهيم وقبل موسى عليهما السلام . وهذا التحديد الزمنى يبعده تماما عن أن يكون استاذا لتاليس الذى عاش فى القرن السابع ق . م
ومن ثم نعيد البحث فيمن يكون لقمان الذى تتلمذ عليه تاليس حكيم ملطية ونصادف

(69) ، كان مع حكمته مبرزاً فى علم الطب ، وبعث فيه بهمن ملك الفرس الى يونان ، فامتنع من ايفاده عليه ضنانة به .

وكان من تلامذته جالينوس لعهد عيسى عليه السلام ، ومات بصقلية ودفن بها (70) .

اثنين من الاغريق صلتهما بتاليس ليست باقرب من صلة لقمان الحكيم به . الاول هو الكمان Alcamanos وكان شاعرا من ليديا ولد فى سارديس فى القرن السابع وسكن اسبرطة قبل تحولها الى قوة عسكرية فتغنى بها وبجمال بناتها وتوفى هناك . وهو الوحيد الذى يذكر من اهل الادب بتلك المدينة التى اعترفت بفضله فدفنته مع ابطالها المجديـن .
وهذا الرجل رغم تعاصره مع تاليس الا أن اختلاف اهتماماتهما تجعل من المستبعد الربط بينهما علميا . واما الثانى فهو :
الكيمايون Alcmean وكان طبيبا وفيلسوفا اغريقيا تتلمذ فى مدرسة فيثاغورس ولد فى القرن السادس ق . م فى مدينة كروتونا فى ايطاليا : ولكننا لا نملك الا أن نستبعد احتمال اخذ تاليس عنه لانه كان تاليا لتاليس فى الزمن . وليس لدينا تفسير الا ان يكون قد حدث خلط فاخذ التلميذ فى نص ابن خلدون مكان الاستاذ والعكس بالعكس .

(68) « ديمقراطيس » ولد فى اقليم تراكيا بشمالي بلاد الاغريق ، كان مادي التفكير.وقال بان المادة تتكون من ذرات صغيرة لا ترى وهي دائمة الدوران حول نفسها ، ودعا الناس الى نبذ الاساطير الدينية القديمة ، مات فى عام 380 ق. م. تقريبا .

(69) اناكساجوراس Anaxagoras عاش بين سنتى 500 ق م و 428 ق . م قدم الى اثينا فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان من تلاميذه بركليس ابو الديمقراطية الاثينية . وتوصل الى أن المادة تتكون من ذرات صغيرة من صنع العقل الاكبر
ذكر اناكساجوراس ان الشمس جرم سماوى كبير من المعادن الملتهبة وانها مصدر الطاقة والقوة . نفى فى عام 450 ق . م بسبب آرائه وصداقته لبركليس .
أحمد امين ، زكى نجيب محمود ، قصة الفلسفة اليونانية ص 54 — 61
اما شهرته فى الطب فهى غير معروفة ولعل ابن خلدون (أو مصدره) خلط بين اناكساجوراس وهيبوقراطيس Hippocrates اشهر اطباء عصره والذى عرف بالعربية باسم ابقراط فهو الذى كان اردشير ملك الفرس وبرديكاس ملك مقدونيا من مرضاه ، كما كان جالينوس اشهر اطباء الرومان من تلاميذه .

(70) كان جالينوس من برجاموم اهتم اول الامر بدراسة الفلسفة ثم اتجه بعد ذلك الى الطب . تعلم فى قليقية وفينيقيا وفلسطين وقبرص وكريت وبلاد اليونان والاسكندرية . عمل طبيبا فى مدرسة المجالدين فى روما (168 — 164 ق . م) حتى تركها هاربا تحت ضغط أعدائه ولكنه عاد بعد قليل للعناية بكمودوس بن ماركوس اوريليوس .

ولما استولى الاسكندر على بلاد فارس تخطاها الى بــلاد السند فملكها وبنى بها مدينة سماها الاسكندرية (71) ثم زحف الى بلاد الهند فغلب على أكثرها وحاربه فور ملك الهند فانهزم ، واخذه الاسكندر اسيرا بعد حروب طويلة (72) وغلب على جميع طوائف الهنود ، وملك بلاد الصين والسند (73) ، وذللت اليه الملوك وحملت اليه الهدايا والخراج من كل ناحية . وراسله ملوك الارض من افريقية والمغرب ، والافرنجة

وقد حاول اوريليوس ان يصحبه في احدى حملاته لكنه استطاع ان يعود مسرعا الى روما ، ومن ذلك الوقت لا نعرف عنه غير مؤلفاته ولذلك فما ذكر في النص عن دفنه بصقلية يعتبر معلومة جديدة عنه ان صحت .

الف حوالى 500 عملا بقي منها 118 تضم نحو عشرين الف صفحة . آمن بما قــال ابقراط عن الاخلاط الاربعة التي تحكم الجسم (الدم والبلغم والسائل الصفراوى الاسود والاصفر) ، وظلت افكاره سائدة بين أطباء العصور التالية وتتمتع بتقدير المسيحيين والمسلمين لايمانه بالوحدانية في الدين .

(71) راجع الحاشية رقم 59 .

(72) اتجه الاسكندر الى اراضى شبه القارة الهندية بعد أن نجح في السيطرة علــى الامبراطورية الفارسية وبعد أن امن ظهر قواته بانشاء العديد من المدن في المناطــق الاستراتيجية وضمان ولاء كثير من أمراء الفرس ، وبعد أن تخلص أيضا من القــادة المعارضين لسياستــه .

وبدأ الاسكندر زحفه على نهر السند بعد أن قسم جيشه الى ثلاث وحدات : الاولى قادها بنفسه ، وقاد الثانية هيفستون Hephaeston ، وكانت الثالثة تحــت قيادة برديكاس Perdicas . كانت مهمة كل وحدة هي احتلال جزء من أجزاء وادى نهر كوفن Cophen احد روافد الاندوس .

حققت قواته المهمة المنوطة بها بعد الكثير من الصعوبات والمتاعب . واخيرا تجمعت قوات جيش الاسكندر من جديد في شمال غرب الهند في ربيع 325 ق . م

وهناك قرب نهر الهيداسب Hydaspe تقابل في يوليو سنة 325 ق.م مع الملك بورس Porus ملك البنجاب وهو الذى يشير اليه ابن خلدون باسم فور . وصحيح أن الاسكندر هزم ذلك الملك كما جاء في النص . ولكن الصحيــح أيضا أن هذا لم يتم الا بعد ان تكبد الجنود المقدونيين الكثير من الخسائر خصوصــا وهم يقابلون فيل القتال لاول مرة في جيش بورس . والمعروف تاريخيا أن بورس عقد صلحا مع الاسكندر وصار حليفا له بعد ذلك .

Henri Van Effenterre, op. cit. P. 357

ولمزيد من المعلومات عن فيل القتال واثر هذه المعركة في ادخال فيل القتال في جيوش العالــم القديــم .

(73) المعروف ان الاسكندر غلب على اغلب العالم القديم وانه كان يرغب في الزحف شــرق نهر Hyphasus احد روافد نهر الهندوس ولكنه صادف تمردا مــن جنوده أدى به الى طرح هذه الفكرة نهائيا وبدأ التفكير والاعداد للعودة الى بابــل ومن ثم يعتبر حديث ابن خلدون عن فتحه للصين غير دقيق .

والصقالبة والسودان ثم ملك بلاد خرسان والترك ، واختط مدينـــة الاسكندرية عند مصب النيل فى البحر الرومى (74) ، واستولى علـــى الملوك ـــ يقال على خمسة وثلاثين ملكا (75) ، وعاد الى بابل فمات بها يقال مسموما سمه عامله على مقدونيا لان أمه شكته الى الاسكندر ، فتوعده فأهدى اليه سما وتناوله ، فمات لاثنين واربعين سنة من عمره، بعد أن ملك اثنتى عشرة سنة سبعا منها قبل مقتل دارا وخمسا بعده .

خــــاتـــمــــة

يساهم هذا البحث فى لفت انظار الدارسين الى ما كتب ابـــن خلدون غير المقدمة وتاريخ البربر ، فابن خلدون يعتبر ظاهرة فريـــدة بين المؤرخين المسلمين ، قرأ ودرس ، قارن ونقد ، وافق ورفض ، واستطاع فى النهاية أن يقدم عملا جيـــدا ، ويكفى أن نقول أن ما ذكره ابن خلدون فى تاريخ الاغريق لا يقل فى مستواه عما كتبه المؤرخون الاغريق

---

(74) بناء الاسكندر للاسكندرية على مصب احد الروافد الغربية للنيل على البحر الرومى (البحر المتوسط) حقيقة تاريخية سبق أن اشرت اليها (راجع الحاشية رقم 15) ولكن ذكرها فى هذا المكان من النص ليس صحيحا فقد سبق بناؤها الحملة على بلاد الفـــرس والهنـــــد .

(75) تحديد عدد الملوك الذين خضعوا للاسكندر بخمسة وثلاثين ملكا أمر غير ثابت تاريخيا ولكنه غير مستبعد ، فقد سيطر الاسكندر على الامبراطورية الفارسية التى كانـــت تضم 21 اقليما (مرزبية) بالاضافة الى المناطق الشرقية التى كانت خارجة عن نطاق ذلك الامبراطورية . وحديث ابن خلدون عن تهافت ملوك العالم على استرضاء الاسكندر والكتابة اليه من افريقيا والمغرب والفرنجة والصقالبة والسودان أمر غير مستبعد تاريخيا ، فقد أرسل الاسكندر كليستنيس حفيد ارسطو الى النيل الاعلى فى سنـــة 331 ق . م كماارسل نيارخ وارشياس واندروستنيس وهيرون الى سواحل الخليـــج الفارســـى سنة 323 ق . م وارسل جورجوس للتعرف على الموارد المعدنية لمملكة سوبيتيس بالهند . ولذلك بقى الاسكندر علامة هامة فى تراث كثير من الشعـــــوب التى لم تطأها قدميه مثل بلاد العرب الجنوبية واثيوبيا وغيرهما .

(76) مات الاسكندر الاكبر فى بابل يوم 13 يونيه سنة 323 ق . م بسبب اصابتـــه بحمـــى المستنقعات ، وليست هناك ادلة قوية على موته مسموما . ولكن اشارة ابن خلدون تعتمد على ما أثير عند بعض المؤرخين . كان عمر الاسكندر الاكبر يوم وفاته اثنتـــين وثلاثين سنة تولىالحكممنهاثلاثة عشرة عاما قضى منها احدى عشرة سنة خـــارج بلاده . وقد قتل دارا فى عام 330 ق . م بعد اربع سنوات من بداية حملــــــة الاسكندر على الشرق .
قارن معلومات ابن خلدون وهى قريبة للمعروف تاريخيا .

او اللاتين انفسهم ، واذا كان قد تسلل الى عمله بعض الخلط والاساطير، فقد تسلل الى اعمالهم . ولا يعتبر هذا عيبا فى كتابة ابن خلدون اذ كان ذلك طبيعة مصادرة ومع ذلك نجح ابن خلدون فى كثير من الاحيان ان يقلل من تسلل مثل هذه الاساطير الى عمله .

وبدراستنا للمعلومات الواردة عند ابن خلدون عن الاغريق يتضح لنا انه نجح الى حد كبير فى الالمام بأهم ايامهم والتعرف على اشهر احداثهم ، دون ان يذكر شيئا مثيرا او مجهولا من قبل الباحثين المحدثين اللهم الا اذا صدق ما قاله عن موت فيثاغورس فى صقلية وهو خبر كان مجهولا من قبل .

واخيرا يعتبر ما ذكره ابن خلدون عن الاغريق نموذجا للمعلومات التى اتيحت لقراء القرن الرابع عشر الميلادي وهى معلومات جيدة تستطيع ان تقدم صورة واضحة عن واحدة من أهم الحضارات القديمة .

فاس   د. فوزي مكاوي

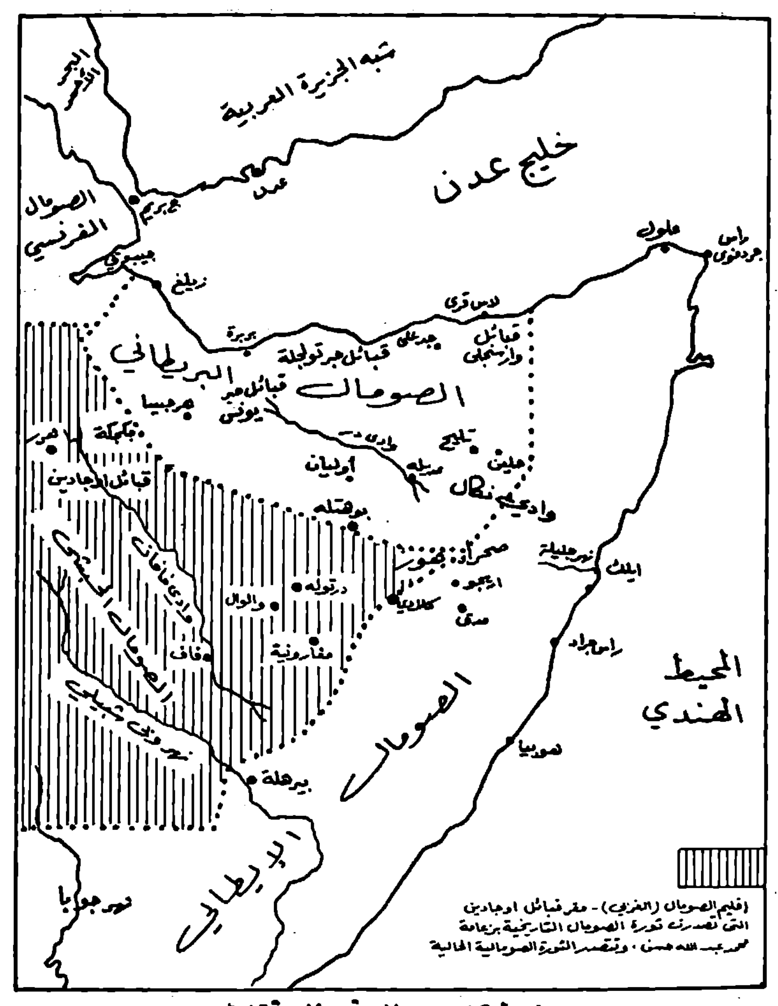
أوجادين

صفحة من تاريخ الثورة الصومالية

د. ابراهيم شحاتة حسن

فى اول يوليو عام 1960 ، قامت جمهورية الصومال بعد اعلان استقلال واتحاد محمية الصومال البريطانية واقليم صوماليا (الايطالى) . واعتقد الصوماليون فى ان جمهوريتهم الناشئة ستكون بداية للنهاية التى تطلعوا اليها طويلا عبر تاريخهم المعاصر من اجل استعادة سيادتهم على أراضيهم الممزقة والموزعة بين جيرانها .

وبين هذه الاراضى الصومالية الممزقة اقليما اوجادين وهود فى جنوب شرق اثيوبيا ـ وهما الاقليمان اللذان تخلت عنهما الدول الاوربية لامبراطورية الحبشة الناشئة فى اوائل القرن الحالى ، ولم يدخلا بالتالى فى خريطة التقسيم الاوربى الاستعماري آنذاك . وتوزعت خريطة الصومال بمقتضى هذا التقسيم بين الصومال الفرنسى (جيبوتى) فى الشمال والصومال البريطانى فى الشمال الشرقى والصومال الايطالى فى الجنوب الشرقى والصومال الحبشى فى الغرب . ويكاد هذا الصومال الحبشى فى موقعه الجغرافى يتوسط الاقاليم الصومالية الثلاثة الاخرى ، فهى تحده شمالا وشرقا وجنوبا ، بينما تحده أثيوبيا وكينيا من الغرب



خريطة للصومال قبل الاستقلال

والجنوب الغربي . وتسود قبائل اوجادين المسلمة اراضي الاقليم فى شمال صحراء الهود . وشكلت هذه القبائل مع قبائل حبر يونس ودولباهانتا المجموعة الرئيسية من قبائل الصومال التى استوطنت الاراضى الرعوية بين وادي نكال ووادي در ووادي فافان — وهى القبائل التى وقعت بين رحى التهديد الاوربي الزاحف من الساحل الشرقى والتهديد الاثيوبى القادم من المرتفعات الغربية .

ولم تستسلم قبائل هذا الصومال الداخلى للتهديد الاثيوبي — الاوربي ، وانخرطت فى تنظيم جهادي قوي قام عليه ثائر الصومال وبطلها التاريخى حاجى محمد عبد الله حسن وشاركه فى الكفاح رجال على راسهم حاجى سادي وابراهيم بوغول . وفى مواجهة هذه الثورة ، استبدلت القوى المعادية — اثيوبية واوربية — تنافسها وعداءها بتحالف وثيق ضد صوماليي اوجادين ودولباهانتا . ولم تسلم القوى الاستعمارية من هجمات قبائل الثورة الصومالية الى وفاة محمد عبد الله حسن فى يناير من عام 1921 م ، ولم تسلم الاراضى الصومالية بدورها من مصير التمزيق الاوربى والاثيوبي منذ ان وقعت ثورتها تحت وابل القنابل الفتاكة الحديثة .

وبينما واجهت قبائل دولباهانتا خطر الابادة على مدار احداث الثورة بالتركيز عليها عسكريا واللعب على وتر التنافس بين فروعها ، انتهت قبائل اوجادين بعد سنوات طويلة من الصمود ضد الزحف الاثيوبي والاوربى الى السقوط تحت الحكم الحبشي بملامحه العتيقة : العنصرية والطائفية والاقطاعية والانعزالية . ويعمق من هذه الصفحة المأساوية فى تاريخ الثورة الصومالية حروب الاحباش دفاعا عن اراضي امبراطوريتهم ضد التوسع الايطالى الموسوليني (1935—1941) والتفافهم لفترة طويلة حول عرش هيلاسلاسي (1930—1976) تجسيدا لهدف الحفاظ على وحدة بلادهم السياسية .

وبالامس القريب ، عندما حصلت الاقاليم الصومالية الساحلية على استقلالها من الدول الاوربية — الاستعمارية القديمة — وتطلعت الاقاليم الداخلية لامل اللحاق بامتداداتها الساحلية ، لم يكن بالامر اليسير

ان يستجيب العرش الاثيوبي لهذا الامل وقد بذل (العرش) الكثير في سبيل ضم تلك الاراضي والاحتفاظ بها . ولحق الاحباش بالثورة في اوجادين بسلسلة الانقلابات العسكرية التي شهدتها مؤخرا عاصمتهم . واتفق رجال الانقلابات على هدف الوحدة السياسية للبلاد وتشدقوا بشعاره ، وان اختلفوا بشدة على نظام الحكم سياسيا واجتماعيا . وتلغم الطريق من جديد أمام الثورة الصومالية بنذر الاستقطاب الدولي والانقسام الايديولوجي للمعسكرين العالميين ، فيما تشهده اليوم احداث الحكم في اثيوبيا والموقف الدولي من الثورة في اوجادين . وتتجسم المأساة حين تبدو الثورة الصومالية في الاخير نشاذا في منظور حركة التحرر العالمي .

نشأة الحماية الاوربية :

يعرف الدارس ان صوماليي القرن الافريقي الى مجيء الاوربيين وزحف الاثيوبيين في أخريات القرن التاسع عشر ، قد عاشوا حياة اجدادهم الرعوية التي توارثوها بعد تدهور الحضارة العربية في شرق افريقيا منذ القرن الخامس عشر. وحول حقوق الرعي ومصادر المياه ، اشتدت المنازعات القبلية ، وشكل الصوماليون الشماليون اطار هجرتهم السنوية جنوبا نحو اقليم هود Haud شبه الصحراوي حيث تنبت المراعي الجيدة مع بدء موسم الامطار . وانجذب الى مراعي الـ « هود » صوماليو الجنوب (داروود الاوجادين) وحول آبار واحات : مدق ، كلادي ، كرلوكوبي ، والوال ، تعددت المنازعات القبلية بين صماليي الشمال والجنوب ، وشملت معاركها جنوبا وشرقا الى حدود نهري جوبا وويبي شبيلي (1) .

وفي الطرف الشمالي الشرقي لشبه جزيرة الصومال ، عرفت قبائل هذا القطاع وجها آخر لحياتها الاقتصادية . فقد انتقلت التجارة العربية من مدن الساحل الصومالي (زيلع، بربره ، لاس قرى) الى الامتدادات الخلفية بالداخل ، وانتظم طريق للقوافل التجارية بين هرر واوجادين والمدن الساحلية . وفي هذا القطاع الداخلي ، قامت سلطنة

(1 Lewis, I.M. The Modern History of somalilard (London, 1965) P.P. 22-24

مجرتينيا ، واحتكر سلطانها لعدة أجيال النشاط التجاري مع الساحل ، واشتغل بتجارة الرق ونظم عمليات مد السفن بحاجتها من الرقيق على ساحل جاردفوي Guardafui وفى نحو عام 1807 ، تمرد يوسف على (احد اقرباء السلطان عثمان محمود) وخرج على طاعة السلطنة عندما احتفظ لنفسه باسلاب السفينة الفرنسية Mekong بعد حطامها على الساحل الصومالى ، واستمر النزاع بين الشيخين عدة سنوات الى ان تقررت تسويته بتعيين يوسف على حاكما على علوله Allula وزواج عثمان محمود من عائشة بنت يوسف . ولكن التسوية لم تعمر طويلا ، وسرعان ما اشترك يوسف على مع عدد آخر من شيوخ القبائل فى تمرد اكبر على عثمان محمود فى عام 1878 ، واسسوا سلطنة اخرى فى الجنوب اتخذت من هوبيا مقرا لها . ورغم اعتراف عثمان محمود بسلطنة يوسف على (2) فى تسوية عام 1884 ، فقد استمر التنافس بين السلطنتين ، وفى سياقه زحف النفوذ الاوربى فيما عقدته ايطاليا وبريطانيا من اتفاقات للحماية مع السلطنتين .

قامت المستعمرة الايطالية فى شرق افريقيا فى زمن متأخر من تاريخ الحركة الاوربية الاستعمارية . والى القرن التاسع عشر ، لم تتأكد ايطاليا من موقفها على طريق الامبريالية وترددت بين المضى فى هذا الطريق او الاحجام عنه . ولم تجسر السياسة الايطالية على تنفيذ برنامج استعماري قبل ان يتكدس الفكر الايطالى بكتابات الجمعيات الجغرافية الايطالية عن نشاط بعثاتها الافريقية خاصة فى شمال شرق افريقيا وظهور ذلك الطوفان من الكتب والكتيبات الايطالية التى بشرت بالتوسع على اثر التحدي الذي أحس به المفكرون الايطاليون فى مؤتمر برلين عام 1885 . والى طرح فكرة الاشتراك مع انجلترا فى عمل حربى ضد الثورة العرابية فى مصر عام 1882 ، ابتعد النشاط الدبلوماسى الايطالى بالتنافس الاستعماري الايطالى عن طريق البحر الاحمر وشرق افريقيا . والى عام 1884 لم يستطع باسكال مانسينى — وزير خارجية ايطاليا — ان ينتقل بالنشاط الايطالى من شمال افريقيا (فى تونس ثم طرابلس) الى البحر الاحمر ومنطقة القرن الذهبى فى شرق افريقيا ، رغم النشاط الاقتصادي الذي قام به

---

(2) تلقب يوسف على بلقب (كينديد سلطان هيبه ومدق)

الايطاليون فى المنطقة ، فالى عام 1869 ترجع شركة روباتينو للبواخر فى ميناء عيذاب الذي انتقلت ملكيته اليها بعد ذلك بعشر سنوات (3) .

غير ان الاستراتيجية الدفاعية والاقتصادية التى حكمت سياسة ايطاليا الاستعمارية الى 1884 ، قد اصطبغت بالصبغة السياسية ابتداء من هذا التاريخ . وأحست ايطاليا — حكومة وبرلمانا — بأن الموقف المتغير فى افريقيا يدعوها الى القيام باجراء عنيف للدفاع عن مركز ايطاليا الدولى، بعد ظهور الالمان فى توجو والكامرون وتانجانيقا ومضاعفة الفرنسيين نشاطهم فى شرق افريقيا وسحب مصر حامياتها من هرر وزيلع وبربره وبيلول ومصوع تحت ضغط الثورة المهدية فى السودان والسياسة البريطانية ازاءها وما كانت تلاقيه بوجه عام هذه السياسة من صعوبات فى مناطق نفوذها الآسيوية والافريقية .

وكانت الاستراتيجية البريطانية فى شرق افريقيا بوجه عام فى القرن التاسع عشر والى قيام الاحتلال البريطانى لمصر ، قد التزمت بحماية مصالحها عبر ما يمكن ان يسمى بامبراطوريتها غير الرسمية القائمة على النفوذ الديبلوماسى فى املاك خديوية مصر وملحقاتها فى السودان واملاك سلطنة زنجبار فى شرق افريقيا . واتجهت فى مرحلة الثورة المهدية الى اخراج السودان من خريطة الفراغ السياسى فى افريقيا ، وابتعد النفوذ الاوربى المنافس عن الحدود السودانية بفضل ديبلوماسيتها المستندة الى حقوق الخديوية وحصر النشاط (الجهادي) لانصار المهدية فى الدفاع عن « بقاعهم » المهدوية (4) .

وفى املاك سلطنة زنجبار فى شرق افريقيا ، انحسرت سلطة هذه السلطنة ولم يبق لها غير ظلال السيادة الاسمية على موانىء اقليم بنادر الساحلى : قسمايو ، براغا ، مرقه ، مقديشو ، وارشيخ . ولم تكن اراضى الصومال محل اهتمام المؤتمرين فى برلين عام 1885 بالمقارنة ببقية بلدان

---

(3) انظر : السيد رجب حراز ، افريقيا الشرقية والاستعمار الاوربى « القاهرة ، 1968 » .

(4) استخدمت الادارة المهدية فى السودان تعبير (البقعة) اشارة الى الموقع الذى كان ينتقل اليه محمد احمد المهدى مع امتداد سيطرته على السودان منذ تحركه من جزيرة (ابا) فى اغسطس 1881 . راجع للمؤلف كتاب مصر والسودان (الاسكندرية 1971) .

افريقيا . ونظروا الى المناطق الداخلية كأرض خلاء سياسي تسكنها مجموعة القبائل الرحل الصومالية المنشغلة بصراعها المعيشــي حــول المراعــي والآبــار (5) .

وفى عام 1885 ، قبلت سلطنة زنجبار الحماية الالمانية على عدد من المدن الصومالية (6) . وفى 4 ديسمبر عام 1886 ، وقع سيد برغش ــ سلطان زنجبار ــ مع بريطانيا والمانيا على اتفاق الدولتين (اتفاق اكتوبر 1885) الخاص بحصر ممتلكات السلطنة فى مجموعة جزر زنجبار والشريط الساحلي المشتمل على مدن : بمبا ماغيا ، لامو (من نهر مننجانــى الى كيبينى) باتساع عشرة أميال الى الداخل . وتنحصر ممتلكاته الشمالية فى شريط ساحلى يتسع ايضا لعشرة اميال فى الاراضى الخلفية لموانىء : قسمايو ، برافا ، مرقه مقديشيو ، ولخمسة أميال فحسب فى منطقة ميناء وارشيخ (7) .

وفى متابعة القنصل الايطالى (فلوناردي) فى زنجبار لملامح التغيير فى العلاقات بين السلطنة وكل من انجلترا والمانيا ، واتجاه السلطان الى محاولة تقليب سكان الساحل الصومالى ضد الالمان ، أحس القنصل بحاجة السلطان الى حليف اوربى آخر يمكن استخدامه ضد الحليفين الكريهين الآخرين . ولكن ايطاليا ، لم تكن الدولة الاوربية التى يمكن أن تلعــب هذا الدور ، وسلمت بأن مستقبل مستعمرتها فى شرق افريقيا يرتبط بالتعاون مع احدى الدول الكبرى . وكانت انجلترا بحكم استراتيجيتها ومصالحها فى المنطقة القوة الاوربية المرشحة لمثل هذا الدور أمام المنافسة الالمانيــة النشطة وتخاذل النشاط الفرنسى فى شرق افريقيا . وقد جوهرت هــذا التعاون اتفاقيات الامتيازات فى اريتريا وكسلا والحبشة فيما يعــرف ببروتوكولات 24 مارس ، 15 ابريل 1891 ، 5 مايو 1894 والاتفاقــات التاليــة المعدلــة لهــا .

(5
Hess, R.L. "The Poor Man of God - Mohammed Abdulla Hassan", Leadership in Eastern Africa (Boston UniversityPress, 1968) p. 65.

6) هولنجز وورث ، زنجبار (1820 ــ 1913) ترجمة حسن حبشى (القاهرة ، 1968) ، ص 22—23 .

7) نفس المصدر ، ص 23 ــ 24 .

وفى الصومال ، بدأ التعاون البريطانى ـ الايطالى مـــع اتجـــاه ماكينون (رئيس شركة افريقيا البريطانية) الى التطلع الى عون ايطاليـــا فى تنفيذ امتياز الشركة (امتياز 9 اكتوبر 1888) فى ادارة املاك زنجبار بالساحل الصومالى (8) وذلك بانشاء شركة مساهمة حملت اسم IBEA (شركة افرقيا الشرقية الايطالية ـ البريطانية) تساهم ايطـــاليـــا فى راسمالها ، فيمكن بها الحد من السيطرة الالمانية فى شرق افريقيا وتنشيط النفوذ البريطانـــى الذي عجز عن توفير راسمال الشركة (50 مليون جنيه) (9) . وجاءت الدفعة الثانية للتعاون البريطانـــى ـ الايطالى فى الصومال من سلطة الحماية التى بسطتها ايطاليا على شمال شرق الصومال ، بعد ان طلب سلطان اقليم هوبية (يوسف على) فى ديسمبـــر 1888 الحمايـــة الايطالية تأييدا لنزاعه مع سلطان زنجبار حول احدى قرى الحدود فى منطقة ميناء وارشيخ .

وقامت اول محمية ايطالية فى الصومال الشمالى فى 8 فبراير 1889، وسرعان ما مدت ايطاليا حمايتها لتشمل سلطنة المجارتيين بعد الاتفاق مع سلطانها (عثمان محمود) فى 7 ابريل . وفى 3 اغسطس 1889 ، وقع سلطان زنجبار مع انجلترا وايطليا اتفاق منح موانىء اقليم البنادر Benadir الساحلى لشركة IBEA وميناء قسمايو Kismayu للمحميـــة الايطالية . وفى 15 نوفمبر ، تمكن فرانشيسكو كريسبى F. Crispi رئيس وزراء ايطاليا ـ بنشاطه الديبلوماسى مع المانيا وفرنسا وانجلترا ، أن ينتقل نظريا بالحماية الايطالية على الساحل الصومالى من قسمايو فى الشمال لتشمل بقية موانىء البنادر حتى خط عرض 30،2 شمالا أي لتضم ذلك الشريط الساحلى الوارد فى تقسيم عام 1886 ضمن ممتلكات زنجبار . ولم يبق غير الاعداد لنقل امتياز شركة IBEA الى المحمية الايطالية ، وفى يوليو 1893 نجحت المفاوضات الخاصة بهذا الانتقال بعد تسويـــة الخلافات الاوربية حول حدود مناطق نفوذ دولها فى شرق افريقيا : الاتفاق الانجلو ـ المانـــى فى اول يوليو 1890 ، الاتفاق الانجلو ـ فرنسى بشأن

---

(8) راجع تاريخ تاريخ الامتياز منذ وضع ماكينون مسودته الاولى فى عام 1877 (انظر حراز ، مصدر سابق)

(9) Hess, R.L. Op. Cit. PP. 20-4.

الاعتراف بالمحمية البريطانية فى زنجبار (4 نوفمبر 1890) والاعتراف بالمحمية الفرنسية فى مدغشقر ، الاتفاق الانجلو ــ ايطالــى (بروتوكول 24 مارس وبروتوكول 15 ابريل 1891) بشأن خط الحدود بين منطقتى النفــوذ البريطانى والايطالى فى شرق افريقيا .

وبمقتضى بروتوكول 24 مارس 1891 الذي وقعه رودينى ولورد دفرين ، يتبع خط الحدود بين منطقتى نفوذ الدولتين منتصف مجرى نهــر جوبا من المحيط الهندي الى خط عرض 6 شمالا ، ثم يستمر على مسار هذا الخط الى خط طول 35 شرقا ومنه يتجه شمالا فى خط منعرج الــى النيل الازرق . واستثنى ميناء قسمايو ليتبع محمية بريــطــانيا فى جوبا . وبمقتضى اتفاق سبتمبر 1893 ، انتقل امتياز شركة IBEA الى ملكيــة شركة افريقيا الشرقية الايطالية الملكية (شركة فيلو ناردي ثم شركة البنادر) وتحول امتياز الشركة الى ملكية كاملة لموانــىء البنادر ومــنــشئــات الشركة فى قسمايو من جانب الحكومة الايطالية فى 13 يناير 1905 (10) .

والواضح ان محمية ايطاليا فى الساحل الصومالى (البنادر) قــد حكمتها أساسا المعاهدات الاوربية مع سلطنة زنجبار ــ صاحبة السيادة الاسمية على سواحل شرق افريقيا . ولكن فى المناطق الخلفية والداخلية للشريط الصومالى الساحلى ، كان للحماية النظرية أن تتأثر بقوى محلية لها بأسها فى شمال الصومال والحبشة وشرق السودان .

امبراطورية مينلك الحبشية

رفض الاحباش الزحف الايطالــى على السهل الساحلى . وعارضوا احتلال الايطاليين لمصوع الذي سمحت به بريطانيا تحت التهديد المهدوي . وتتطلع يوحنا امبراطور الحبشة الى ملكية الميناء او على الاقل الحصول على امتياز بالتجارة الحرة فى الميناء . وأمام الرفض الحبشــى تعــرض الايطاليون لخسائر فادحة فى الارواح فى معركة او مذبحة Dogali التــى قام بها راس الولا ــ حاكم اقليم تيجر ــ عام 1887 . ولكن مينلك حاكم شوا Shoa فى اعلان نفسه امبراطورا للحبشة بعد موت يوحنا فى عام 1889 ، تطلع الى بناء اثيوبيا فى وحدة سياسية تقوض الحكم المحلــى

(10 Ibid PP. 32-38

وانتماءاته الاقطاعية ، واستند فى ضرب امراء الاقطاع على الدعم الايطالى الذي مده من وقت مبكر وقبل وصوله الى العرش الامبراطورى بحاجته من السلاح والذخيـــرة (11) .

وفى نفس عام 1889 ، سارع الايطاليون الى عقد معاهدة اوتشياللى Uccialli (2 مايو) التى سلم فيها مينلك بالاحتلال الايطالى لمصوع ، وحق ايطاليا فى التوسع فى اراضـــى المرتفعات الخلفية بما فيها مدينـــة أسمرة . ولكن الاختلاف حول تفسير المادة 17 من المعاهدة ، قد عاد بالعلاقات الحبشية ـــ الايطالية الى سابق عهدها العدائى ، عندما أقـــدم رئيس الوزراء فرنشيسكو كريسبـــى F. Crispy بناء على تفسير المادة فى نصها الايطالـــى ـــ على اعلان اثيوبيا محمية ايطالية . بينما قام مفهوم مينلك لنفس المادة فى نصها الحبشـــى على ان الامر لا يتعدى أن يقوم الامبراطور بتصريف شؤون بلاده الخارجية عبر الوساطة الايطالية ؛ ما دام فى عقده لهذه المعاهدة لا يدفعه الى مثل هذه التنازلات غير علاقات الصداقة القديمة وحاجته الى استمرار هذه الصداقة فى مواجهة عـــداء احد رؤوس الشمال الاثيوبـــى الاقوياء (12) .

وفى فبراير 1893 ، بعد فشل محاولات الاحتجـــاج الدبلوماسى الحبشـــى على التفسير الايطالى ، اعلن مينلك الغاء معاهدة اوتشياللى ، ووحد الاحباش حوله فى حرب قومية مقدسة تطهيرا لاراضيهم ومنـــهـــا أكسيوم ـــ المركز الروحي للحضارة الاثيوبية . ويلقى الايطاليون مذبحـــة أخرى أكبر فى عدوه العاصمة القديمة لاقليم تيجر) فى اول مارس 1896 ، بلغت فيها خسائر الايطاليين نحو ستة آلاف قتيل و 2.000 اسير . فكانـــت المعركة اكبر هزيمة حربية تعرضت لها دولة اوربية على أيدي شـــعـــب افريقـــى طوال القرن التاسع عشر (13) .

(11 George W. Baer, Comming of the Italian-Ethiopian War (Cambridge, 1967), PP. 1-2

(12 Ullendorff, E. The Ethopians (London, 1960), P. 92

(13 Baer, G.W. Op. Cit. PP. 3-4

وفى التسوية الناجمة عن معركة عدوه ، حلت معاهدة اديس أبابا محل معاهدة اوتشياللى ، وفيها اعترف رودينـــى ، خليفة كريسبى بأثيوبيا دولة مستقلة ذات سيادة ، وتساهل مينلك مع الايطاليين بتأكيد ملكيتهم لاريتريا وهضبتها العليا الخلفية الى خط ماريب Mareb الذي كان يمثل خط حدود نفوذهم قبل المعركة (14) . ورغم عودة التعاون الوثيق بين ايطاليا واثيوبيا ، لم تخل المسالة الاثيوبية من مشاكل فى مقدمتها النفوذ الاوربـــى بها وعلاقات الحدود بينها وبين الصومال الشمالى ـــ وهى مشاكل لعبت فيها بريطانيا ايضا دورا بارزا .

وقد رأينا الدور البريطانى فى قيام محمية البنادر الايطالية ، الـــى حد ان فاقت النوايا الطيبة فى اعمال البريطانيين فى الساحل الصومالى ما ورد فى كلمات رؤسائهم عن الموقف البريطانى من النفوذ الايطالى . وعلق الوكيل الاداري عن شركة IBEA فى قسمايو على هذا الوضع قائلا : ان ذلك « لا يوحى بأكثر من أن احد رعايا دولة ما يـــقـــوم بعقـــد اتفاقيات الحماية لصالح دولة أخرى » (15).

وسلمت بريطانيا لايطاليا بما تدعيه فى الحبشة من مركز ســـام ، ووافقت فى اتفاق عام 1891 على اعتبار جميع اراضى اثيوبيا بما فيهـــا بحيرة تانا والمرتفعات الغربية ـــ منطقة نفوذ لايطاليا (16) . وفى مرحلة معركة عدوه استجابت بريطانيا للنداء الايطالى ، وخرجت عن تحفظها فى الموقف من العودة بالسلطة المصرية الى السودان ، ودفعت بالجيش المصري عبر الحدود لجذب أنصار المهدية من شرق السودان الى الشمال تخفيفا عن مركز الايطاليين بعد هزيمتهم الفادحة . فتبدأ حملة دنقله فى عام 1896 مرحلة انهاء حكم المهدية فى السودان ووضع اسس حلـــقة جـــديـــدة فى السياسة البريطانية ازاء السودان واعالى النيل .

غير ان بريطانيا ، مع ادراكها لاهمية المرتفعات الاثيوبية التـــى

(14 Ibid. P. 5

(15 Hess, R.L. Op. Cit. pp. 37-8.

(16 Hertslet, E. The Map of Africa by treaty (London, 1909) III PP. 948-50

ينبع منها النيل الازرق ، قد شاركتها فرنسا فى المنافسة الاوربية مع ايطاليا فى الحبشة . وتعلق اهتمام الفرنسيين بالخط الحديدي بين أديس ابـــابــا وجيبوتـــى الذي حصلوا على عقد امتيازه من منيلك . هذا فى الوقت الـــذي استمر الايطاليون يعلقون الآمال على مستقبلهم الامبريالـــى فى الحبشــــة كامتداد خلفـــى لاريتريا والبنادر . وقد اتفقت الدول الاوربية على تحديد مستقبل مصالحها فى الحبشة فى حالة تفكك امبراطورية مينلك بعد موته ، وتم هذا الاتفاق فى عام 1906 ــ وهو الاتفاق الدولى الذي تضمن فى بنوده اتفاقا محليا تردد ذكره فى أحداث العلاقات مع القبائل الصومالية ويعرف باتفاق بستالوزا الذي عقدته السلطات المحلية البريطانية والايطالية فى الصومال الشمالى .

ويعود النفوذ البريطانى فى الصومال الشمالى الى اكتوبر 1884 . ففى هذا التاريخ ، تعهد الادارة فى بربره ــ بعد انسحاب القوات المصرية ــ ضابط بريطانـــى بقوة بوليسية صغيرة . وفى اوائل عام 1885 ، عقدت بريطانيا معاهدات حماية مع القبائل الصومالية ، وقبلت هذه القبائل تباعا الحماية البريطانية باستثناء قبيلة دولباهانتا فى الداخل .

وتبعت الادارة البريطانية فى الصومال فى البداية حكومة الهند ، شأنها فى ذلك شأن مستعمرة عدن . ولكن للارتباط الكبير بينها وبين الحبشة واحداثها ، انفصلت ادارة الصومال عن حكومة بومباي فى اول اكتوبر 1898 لتتبع فى ادارتها مباشرة وزارة الخارجية البريطانية . واتسع الامل فى امكان تنمية موارد الصومال الداخلية بعد ان اثبتت الصومال مقدرة على التمويل الذاتى فى ادارتها بعكس الحال فى غيرها من بلدان الامبراطورية البريطانية فى شرق افريقيا . ولكن فى العام التالى مباشرة ، تتبخر الآمال جميعهـــا تحت ضربات الثورة التى أشعلها حاجى محمد عبد الله حسن فى المناطق الداخلية على الحدود بين الصومـــال البريطاني والصومـــال الايطالـــي والحبشة ، حيث تنتشر قبائل دولباهانتا واوجادين بين وادي نكال ووادي در ووادي فافان .

دولة حاجـــى محمد الـــ (مولله)

كانت ثورة محمد عبد الله حسن المعروف بـــ الـــ « مولله » وعلى

حد قول I. M. Lewis (17) « الحدث الرئيســـى فى تاريـــخ الصومال الحديث » الى قيام جمهورية الصومال المستقلة عام 1960 . ويعتبره الصومالى المعاصر « اب القومية الصومالية » ، وما زالت اشعاره العربية تتردد فى اغانـــى الفولكلور الصومالى . ويـــرى روبـــرت هــس R.L. Hess استاذ التاريخ المشارك فى ندوة جامعة شيكاغو (1960) فى الـــ « موللـه » وطنيا فريد الطراز فى عصره ، وشاعرا عظيما، وزعيما لشعبه فى اطار التطور السياســـى والدينى الذي عرفه الصومالى فى الازمنة الحديثة (18) . فأمام قوى كبرى ثلاث (بريطانيا، ايطاليا ، الحبشة) واجهت محمد عبد الله حسن بعدائها السافر ، وبقدر ضئيل من الاسلحـــة الاوربية ، مع ضعف الاتصال بالمدن الساحلية ، ولفترة تزيد على عقديـــن من الزمان ، لم يتمكن فحسب من مضايقة البريطانيين والايطاليين والاحباش بل احرز ضدهم وبانتظام انتصارات حربية وسياسية وأيضا دبلوماسية (19)

ونعت الانجليز الزعيم الصومالـــى بلقب الـــ « موللـــه المجنون » وانحرف تفكيرهم فى الحكم عليه وعلى ثورته وربطوا فى افضل الاحوال بين حركته وحركة « مهدي السودان » . غير ان محمد عبد الله حســـن لم يتلقب بلقب المهدي ولم يتقمص شخصية « المهدي المنتظر » وتلقب فى فجر دعوته الاصلاحية بلقب « حاجى » الى جانب لقب « شـــيـــخ » . وحملت مراسلاته فى مرحلة ثورته لقب « سيد » ولقب « الفقير الى الله » .

وان لقب الـــ « موللـه » الذي اشتهر به ، ويعنـــى الشيخ ، هو من الالقا بالدينية التقليدية التى تلقب بها مسلمو شرق افريقيا . وينـــطـــق اللسان الصومالى اللقب طبقا للتركيب الحرفى (موللـه) MULLA مقتربا بذلك من لقب (مولى الله) او (ولى الله) الذي تلقب به الزاهدون والصوفيون من رجال الدين الاسلامى ، وشغلوا فى قلوب عامة المسلمين قدسية اولياء الله الصالحين .

لذلك ، فان صورة محمد عبد الله حسن الحقيقية هى تلك التـــى عاشها بين انصاره من شعب أبيه بين قبائل اوجادين فى الغرب وشعب أمه

(17 Lewies, I.M. Pastoral Democracy, P. 23

(18 Hess, R.L. Op. Cit. P. 65

(19 Ibid. P. 108.

بين قبائل دولباهانتا فى الشمـــال الشرقى وبين جموع الصوماليين عموما. والوجه العام لهذه الصورة قد استمد خطوطه مـــن صورة الـــ (وداد) فى قلوب الصوماليين . فالـــ « وداد » ـــ رجل الدين ـــ الصومالى قد حظـــى بمكانة ليس بين اتباعه فحسب ، انما كانت له قدسيته التي تحفظه مـــن اخطار كبيرة الغارات والمنازعات القبلية . والمفترض نظريا ألا يخوض الـــ « وداد » معارك زمنية . واذا ما اظهر الـــ « وداد » مقدرة على معرفة اللغة العربية ، عهدت اليه الولاية أو الامامة الكبرى ، وتلقب عموما بلقب « مولّله » ومارس نفوذا وسلطانا كبيرين على اتباعه .

وذاع صيت مشايخ الدين الصوماليـــين فى معارضة عنصريـــن اساسيين من عناصر الحياة الصومالية التقليدية : العصبية القبلية ومال الدم . وفى ايمانه المخلص بعقيدته الاسلامية ، دعا الـــ « وداد » الى ممارسة الاخوة فى الدين وأدان مال الدم . ويمثل هذا الجانب المثالي فى رسالة الـــ « وداد » نقطة الضعف فى ولاء الصومالى القبلى لتعاليم شيخه الدينـــى . ومع ذلك ، كان هذا الولاء يمثل الرباط القوي فى علاقات الصومالـــيـــين بز عمائهم بعد حالة الضعف التى آلت اليها السلطة القبلية لشيوخ القبائل فى شمال الصومال .

وان بصمات الـــ « وداد » قد وضحت معالمها بالذات بين قبائل اوجادين ، قبائل الشمال الغربى التى ينتمى اليها محمد عبد الله حسن من جهة أبيه . و فىعام 1893 ، ادرك دونالد سون سميث هذه الحقيقة ، حين ذكر ان « معظم الرجال يفهمون العربية ، ويندر أن ترى صبيا من غير سبورته المسطحة الصغيرة التى دون عليها بعض الآيات القرآنية » (20). وعرف صوماليو اوجادين من علمائهم المسلمين أحداث السودان فى منتصف عام 1880 حين بدأت ثورة محمد احمد المهدي ودولته (1880ـــ1898) . ونبين لجماعة جيمس الاستكشافية ، فى محاولتها ارتياد اقليم أوجادين فى عام 1884 ، ان القبائل الصومالية تقف منهم موقفا عدائيا لدوافع دينية :

(20

Donaldson Smith A. Through unknown Africa or An Exploration of Expedition From Somaliland to Lake Lamu, (London, 1897) P. 20

« فقد وصلت رسائل الى الشيوخ فى اوجادين تذكر ان الكلمة ارسلت من مكة تحث الناس على وقفنا حيث أن الانجليز قد قاموا مؤخرا بقتل العديد من المسلمين » (السودانيين) (21) . ووجد جيمس ان القبائل الاخرى فى مناطق الصومال حتى فاف ووادي وبى شبيلى جنوبا قد شاركت فى هـذا الشعور الدينى العدائى الذي واجه الكثيرين من الاوربيين فى الصومال .

وتعود الزعامة الدينية القوية التى شغلها الـ « وداد » بين أفراد شعبه الى حركة الاحياء او التجديد الدينى للاسلام التى شهدتهـا بلاد الصومال فى القرن التاسع عشر . وتعددت فى الصومال المجتمعات الدينية المتصلة بحركة الاحياء الاسلامى ، بدأت بمركز أو « جامعة » بارديره الذي تأسس فى عام 1819 على يد شيخ من مقديشيو . وذاع صيت خليفة هذا الشيخ (ابراهيم) الذي قاد حملة للجهاد فى عام 1840 ضد مسلمى برافـا المتراخين بالالتزام بتعاليم الاسلام . وتعددت « الجامـعـات » الاسلامية بانتشار الطرق الصوفية وأشهرها فى الصومال : القادرية التى تبعتـهـا قبائل كده بورسه وعيسى ومعظم اسحق واوجادين ، الاحمدية التى جاءت الى الصومال عبر فرعيها الصالحية والدندراوية .

وكانت الدندراوية أصغر فرعى الطريقة الاحمدية فى الصومال ، اسسها فى منتصف عام 1880 سيد محمد الدندراوي ، وتبعتها قبائل حبر عوال وعدن عيسى ومحمود عيسى وبعض حبر يونس . واسس الصالحية محمد صالح فى مكة فى نهاية عام 1880 ، وتبعتها فى الصـومـال قبائـل وارسانجلى ودولباهانتا وحبر تلكاله وبعض حبر يونس . وفى نهاية القرن التاسع عشر ، اشتهر للاحمدية مركز هرقيسه Hargeisa (هـرر الصغيرة) فى شمال الصومال ، وتتطلع مؤسسة — شيخ مضر — الى جعل المركز مدينة ذات شهرة تعليمية مثل هرر . وفى اوجادين ، برز للطريقـة مركز آخر ، فى وادي فافان ، شمل بنفوذه مسلمى ادون (الزنـوج) فى اقليم كارانل فى اقصى الجنوب . هذا فضلا عن مراكز الطريقة فى : شيخ ، هاه ، فاف . ورغم ما تختص به الاحمدية من تشدد فى تعاليمها بخـلاف

(21)
James, F.L. The Unknown Horn of Africa, (London, 1888) P. 129.

القادرية ، فان مقياس التنافس بين الطريقتين لم يكن حول المفهوم الدينى بقدر المقدرة التى يظهرها مشايخ الطريقتين فى الحصول على تأييد القوى الروحية أي التأييد الالهى (22) .

وفى اواخر القرن التاسع عشر ، وجدت هذه المجتمعات الدينية ان وجودها يتهدده الاثيوبيون فى توسعاتهم من هرر الى الاراضى الصومالية . وتعمد الاحباش فى زحفهم على اوجادين تدمير مراكز الطرق الدينية — الامر الذي يفسر تحول الكثير من الصوماليين الاوجاديين من الدندراوية الى الصالحية على نفس الطريقة الاحمدية . ونجح شيخ الطريقة الصالحية حاجى محمد عبدالله حسن فى استثمار خشية الصوماليين من الاحباش ، وانضم الى صفوف انصاره الكثير من الاتباع الذين شملوا الصوماليين وغيرهم من مسلمى زنوج ادون الذين وفدوا من اقليم كارانل فى وييى شبيلى بالجنوب على نفس الطريق الذي سلكه الجيش الاثيوبى الغازي من الشمال (23) .

وفى مرحلة المواجهة تلك بين صوماليى الطريقة الصالحية بزعامة حاجى محمد عبد الله حسن والاحباش ، كتب القنصل البريطانى فى 12 ابريل 1899 ، اي فى اعقاب سقوط دولة المهدية بالسودان ، تقريرا عدائيا ضد الـ (مو لله) أعقبه توتر العلاقات مع السلطات البريطانية وتلبية هذه السلطات طلب منيلك بمساندة التوسع الاثيوبى فى الصومال الغربى .

وهناك حقيقة تاريخية ترتبط بهذه المرحلة ، وهى ان محمية الصومال البريطانية لم يكن بها الى كتابة التقرير البريطانى المذكور غير عشرة موظفين بريطانيين و 130 جنديا من الهنود . وقبل ذلك بقليل فى عام 1895 ، رأى جاردن Gardin (24) ان الامر « لم يكن فيه ما يدعو الى الاعتقاد بان الـ « مو لله » يتجه الى تزعم حركة سياسية تستهدف طرد الكفار البريطانيين من بلاده . وعلى العكس ، كان يبدو مجرد باحث عن الحق

(22 Hess, R.L. Op. Cit. PPP. 69-73

(23 Ibid P. 75

(24 Jardin, D. The Mad Mullah of Somaliland (London, 1923) PP. 39-40

ومؤمن مخلص بتعاليم القرآن كما تلقاها على أيدى سادته فى مكة . وامتلك مقدرة خاصة فى استيعاب المذاهب الاسلامية ، وتشوق الى دفع أبناء بلده الى الاعتقاد فى الزهد والايمان بتعاليم محمد صالح . وبين سكان بربره المخادعين ، لم يلب دعوته غير قليل من الاتباع ، وخاب أمله فى النجاح هناك ، فاتجه الى داخل البلاد حيث اتخذ من موقع قرب كنيت – محل مولده وموطن شعب أمه – مقرا لاقامته . ووسط قبائل دولباهانتا وبعض قبائل حبر تلكالا فى الطرف الاقصى من جنوب شرقى محميتنا ، استحوذ على نفوذ كبير . وفى البداية ، بدا هذا النفوذ وكأنه يستهدف الخير من ممارسته . فقد سوى الخلافات القبلية فى محيط اقامته ، وحض على نبذ العدوان بين بعضها البعض ، ونظرت اليه الحكومة المحلية نظرة من يقف الى جانب القانون والنظام . وبين الحين والحين ، كان يراسل نائب القنصل فى بربره فى الشؤون القبلية ، وفى بعض الاحيان كان يبعث الى محكمة نائب القنصل بالصوماليين المتهمين فى جرائم بالداخل » .

وفى عام 1899 ، وبسبب حادث تافه بسيط يتمثل فى سرقة أحد الصوماليين بندقية فر بها الى موطن الدولباهانتا ومطالبة السلطات البريطانية حاجى محمد عبد الله بالقبض على السارق ورد البندقية ، بينما التقاليد القبلية الصومالية تتعارض مع هذا المطلب (25) ، تغيرت الصورة عن الـ « موللة » ومجتمعه الدينى – القبلى فى تقرير القنصل العام كولونيل هيس – سادلر Hayes - Sadler الى ماركيز سالزبري فى 22 ابريل 1899 المشار اليه عاليا .

بينما فى اول سبتمبر (26 شوال 1317) وصلت الى القنصلية البريطانية رسالة من حاجى محمد عبد الله اتخذها القنصل سند ادانة ضد الـ « موللة » واتهامه ببدء حركة ثورية ضد البريطانيين فى الصومال . وقد اورد جاردن ترجمة هذه الرسالة التى لم ينعت فيها الـ « موللة » البريطانيين بأي نعت عدائى من قبيل منظور التكفير الذي تتعدد صفاته فى الحركات الجهادية المماثلة . واتهمت الرسالة فحسب اتباع السلطات البريطانية بالكذب والخداع ، وان كان الـ « موللة » قد هاجم فيهما

(25 Hess, R. Op. Cit. P. 77.

شخص القنصل متشككا فى سلطته المطلقة وحقه فى اخماد نور (عقيدته) ، وانهى رسالته بانذار تقليدي — قبلى — يعلنه بقبول الحرب اذا ما رغبها القنصل (26) .

ومن قبل مجيء القنصل البريطانى سادلر ، سبق للسلطات البريطانية ان سلمت بمنطق حاجى محمد عبد الله . ففى بربره ، وجد الـ (مو لله) فى نشاط الارسالية الرومانية الفرنسية ما جذبه الى بث دعوته الدينية بين صوماليي المدن الساحلية منذ عام 1895 . وفى دعوته هاجم نشاط مدرسة الارسالية فى بربره واتهمها بالخروج عن رسالتها المدرسية التعليمية والعمل على جذب اليتامى والمشردين من الاطفال الصوماليين وتحويلهم الى الايمان بالمسيحية . وبلغ تأييد صوماليى بربره لدعوة محمد عبد الله الذروة فى عام 1897 بالثورة على الارسالية على اثر اطلاق أحد الرهبان الرصاص على مؤذن المسجد المجاور . واستجابت السلطة البريطانية لمطلب الاهالى بمغادرة اعضاء الارسالية الصومال ومنع تشييد الكنائس واغلاق محلات بيع الخمور والمخدرات (27) . فاستكان سكان بربره والساحل الصومالى بوجه عام الى السياسة البريطانية .

وبانتقال الـ « مو لله » الى داخل الصومال ، تمسك بهذا السند المادي فى الحث على دعوته ، وكتب فى نفس المعنى فى تاريخ قريب من خبر حادث سرقة البندقية والمراسلات الخاصة به . ففى يوليو 1899 (1317 هـ) كتب الى قبيلة عيد كله Aidegaila يسأل افرادها : « الم تروا كيف ان الكفار قد دمروا ديننا وجعلوا من اطفالنا اطفالا لهم ؟ » (28) ، ومع ذلك ، خلت رسالته الى القنصل سادلر من هذا النعت . وفى رسالة اخرى بتاريخ 8 سبتمبر (4 جمادى الاولى) ، يتضح ميل حاجى محمد الى الاتفاق مع القنصل سادلر معلنا ان « البنادق (29) ، قد سلمت ، واما المصالحة

---

26) Jardin, D. Op. Cit. P. 43.

27) عبد الصبور مرزوق ، ثائر من الصومال (الدار القومية للطباعة والنشر) — القاهرة ص 30—31 .

28) Jardin D. Op. Cit.

29) عرض عبد الصبور مرزوق القصة فى صورة عمل جماعى اتخذته احدى القبائل الموالية لمحمد عبد الله حسن ضد دورية بريطانية من خمسة عشر جنديا صادرت القبيلة سلاحهم وارسلته هدية الى حاجى محمد . أنظر : عبد الصبور مرزوق ، مصدر سابق ، ص 31 .

فنحن نحبها ولكن على ألا تكون على حساب بلادنا ودينا وشرفنا ، ونحن ننتظر منكم اما حربا معلنة واما صلحا لا خداع فيه ولا خيانة » (30) . وسلم جاردن بأن حاجى محمد عبد الله قد مارس نشاطه الى عام 1899 على نفس النهج المشروع الذي سلكه منذ عام 1895 (31) .

وجاء العمل الحربي الجهادي الاول فى حركة الـ « مولله » بعد نحو عام من تقرير القنصل البريطانى الى حكومته ، وذلك عندما شن انصار محمد عبد الله هجوما جريئا على قلعة جكجكة ، الحبشية القوية فى مارس 1900 (32) فخشى مينلك من مستقبل حركة الـ « مو لله » على آماله التوسعية فى غرب الصومال ، واقترح القيام بعمل حربى مشترك بين الاثيوبيين والبريطانيين ضد محمد عبد الله حسن (33) ، وهو العمل الذي نتج عنه تجريد حملات بريطانية اربعة كبرى ضد انصار الـ «مولله» على مدى خمس سنوات (1900 — 1905) . وتتلخص معارك هذه الحملات فى :

1 — الحملة الاولى فى نوفمبر 1900 بقيادة لفتنانت كولونيل سواين Swayne واشترك الاحباش مع الحملة الانجليزية بحملة من 15 ألف مقاتل مارسوا الضغط على الـ « مولله » باحتلال الطرف الغربى من صحراء هود . وقد انتهت الحملة بانسحاب البريطانيين فى نهاية يوليو 1901 بعد فشلهم فى اللحاق بمحمد عبد الله رغم اجتيازهم الحدود الايطالية وراءه بعد أن حال وجود الاحباش فى غرب الهود بين الـ « مو لله » والتحرك غربا (34) .

2 — الحملة الثانية فى مايو 1902 بقيادة سواين أيضا ، وغطت تحركات الحملة مساحة تقرب من 1500 ميل وزادت مسيرة طوابيرها مسافة اكبر بكثير . ورغم المواجهة المباشرة التى وقعت فى 6 اكتوبر 1902 وعرفت بمعركة ايركويه Erigo التى تكبد فيها انصار حاجى محمد

---

(30) نفس المصدر .
(31) Jardin D. Op. Cit
(32) Hess, R.L. Op. Cit. P. 78
(33) Jardin D. Op. Cit. P. 47
(34) Ibid. PP. 38-72

خسائر كبيرة ، فقد انتهت الحملة دون ان تحقق هدفها فى القضاء على قوة محمد عبد الله ــ رغم الانتكاسة الكبيرة التى احس بها فى لقاء اريجو الحربى ، والتى على اثرها عبر من جديد الحدود الايطالية وفضل الركون فيها الى السكينة قبل أن يضطر الى التحرك مرة اخرى أمام الحملة البريطانية الثالثة التى تضامن فيها مع البريطانيين الايطاليون والاحباش (35) .

3 ــ الحملة الثالثة فى ديسمبر 1902 بقيادة جنرالماننج W.H. Manning وفيها تحدد الاسهام الايطالى فى تلك التسهيلات التى منحها الايطاليون للقوات البريطانية للزحف على قوات حاجى محمد من اقليم هوبيا . وشكل جناح هوبيا القوة الرئيسية فى هذه الحملة ، فقد تالف من الفى مقاتل (من جنوب افريقيا والسودان والهند) ، يقابله جناح آخر تالف من الف مقاتل (انجليزي ، هندي ، صومالى ، بويري) بدأ تحرك قواته من بربره. بينما تشكلت القوة الاثيوبية من خمسة آلاف مقاتل تحت قيادة ضابط اثيوبى وآخر بريطانى . وفى مواجهة حاجى محمد للمرة الثالثة ، قامت استراتيجية الحملة على أساس تعاون الطوابير الثلاثة لتحقيق هدفين رئيسيين :

أ ــ احتلال واحة مدق Mudug التى اتخذ منها حاجى محمد مركزا رئيسيا خرجت منه غزواته الاخيرة على المحمية البريطانية .

ب ــ الوقوف أمام تقهقر حاجى محمد جنوبا ، نحو وادي وبى شبيلى لما فيه من خطر شديد على المحمية الايطالية واقليم جوبا فى مستعمرة شرق افريقيا البريطانية .

ولم تنجح الحملة فى الوصول الى مواجهة شاملة بين طوابيرها الثلاثة وقوات محمد عبد الله ، والتقى كل طابور على حدة مع جانب من قواته ففى 17 ابريل 1903 وقعت معركة عغاروينه أو قمبره Gumbura التى تصيد فيها الصوماليون طابورين لقوة هوبيا قرر بعدها جنرال ماننج العودة بقواته الى كلادي Galadi وفى 22 ابريل تلاقى الجناح الثانى للحملة (قوة بربره) مع انصار محمد عبد الله فى درتولله Daratolleh

(35) Ibid. PP. 75-86

حيث وقعت معركة لم تنته بكارثة مماثلة لكارثة عغارويته ولكن فى اثنائها وصلت الى جوغ Gough قائد قوة بربره — الانباء عن مقتل وهلاك Plunkett وجميع ضباطه فى قمبره وان قوة هوبيا ما زالت فى كلادي فقرر جوغ العودة بقواته الى بوهودله Bohotleh وكان الجناح الثالث للحملة (القوة الحبشية) قد حقق بعض النجاح بانتصاره على قوات حاجى محمد فى بيرهلله Burhilli على نهر ويبى شبيلى . ولكن الجفاف حال بين استمرار القوة الحبشية فى تقدمها لتعود بعد المعركة الى هرر انتظارا للتعليمات التى لم تصل الا بعد وقوع كارثة عغاروينه بستة اسابيع. وبذلك انتهت الحملة الثالثة فى اوائل يوليو 1903 دون ان تتمكن من توحيد جهودها لتوجيه ضربة شاملة يمكن بها القضاء على حاجى محمد وقوة انصاره . ولم يحدث أن تقهقر محمد عبد الله جنوبا الى وادي شبيلى كما توقعت الحملة ، وانما عبر بجميع انصاره خطوط المواصلات البريطانية الى وادي نكال Nogal (36) .

4 — الحملة الرابعة : فى ديسمبر 1903 ، بقيادة ماجور — جنرال اجرتون K.G.B. Egerton وقد استهدفت الحملة الاسراع الى مواجهة حاجى محمد فى نكال دون تأخير يستفيد منه فى تنظيم انصاره أو تنسيق علاقاته بالقبائل الموالية ، وان يتحقق هذا الهدف بثلاث طوابير حربية : الاول ، وتكون مهمته اقامة سلسلة من المراكز الحربية فى وادي نكال يتخذ من اوليسان Ulesan (امام حلين Halin) قاعدة رئيسية . وتكون مهمة الطابور الثانى الزحف من اوليسان شرقا فى اتجاه قرووه Gerrowei ويقوم الاحباش على الطابور الثالث ليحولوا بين وصول حاجى محمد الى بلاد اوجادين فى الغرب والجنوب الغربى . وبهذا التحول يمكن دفع الـ « موالله » اولا الى الشمال واجباره على القتال فى مواجهة حاسمة فيسهل بعد المواجهة القبض عليه على يد قوات المراكز الحربية فى نكال لا سيما بعد ان يقطع عليه الاحباش الطريق غربا .

وفى 19 ديسمبر ، حدثت المواجهة مع انصار محمد عبد الله فى جدباله Jidbali وانسحب بعدها من حلين Halin الى الشمال

---

(36) Ibid. PP. 89-123.

حيث قاسى انصاره الكثير فى عبور صحراء هود عبر القطاع الخالى من الماء والفاصل بين حلين وجد على Jidali ، وقامت مطاردة له لمسافة 18 ميلا تكبد فيها خسائر كبيرة ومزقت من جيشه الذي تراوح تعداده فى موقع جدباله ما بين 6 ، 8 آلاف مقاتل .

وفى الطور الثانى لمعارك الحملة ، اشترك الايطاليون بدور تمثل فى موافقتهم فى 31 مارس 1904 على انزال قوة بريطانية فى ميناء ايلك Illig للاستيلاء على حرن (37) Haroon محمد عبد الله هناك بعد ان اجمعت التقارير على توجه محمد عبد الله اليها ، وتم الاستيلاء على الموقع فى 21 ابريل حيث ارتفع العلمان البريطانى والايطالى على جدار الحرن . ومع ذلك ، لم يتحقق الهدف النهائى للحملة بالقبض على حاجى محمد او قتله . ويرى صاحب كتاب The Mad Mullah (38) ان هذا الـــهـــدف كان فى امكان الحملة الرابعة ان تحققه اذا ما امكن الحصول على عون قــبـــائل مجارتينيا والحكومة الايطالية فى اللحظة الحاسمة ، ولولا الدور الذي لعبه عثمان محمود ، سلطان مجارتينيا فى تسهيل فرار الـــ « موللە » .

وفى ايلك ، وبعد شهور قليلة من انتهاء الحملة الرابعة ، انعقـــد اجتماع (الموللە ـــ بستالوزا) فى 16 و 17 اكتوبر 1904 . وامكن للقنصل الايطالـــى بستالوزا G. Pestaloza ان يمهد بهذا الاجتماع الى عقد اتفاق 5 مارس 1905 المعروف باتفاق بستالوزا او اتفاق ايلك دلدله ـــ نسبة الى موقعه ايلك دلدله فى ابريل 1905 (39) .

ووافقت علـــى بنود الاتفاق من ناحية السلطات البريطانية ومـــن ناحية اخرى السلطة القبلية المحلية للهوبيين والمجارتينيين ، فضلا عـــن موافقة حاجـــى محمد عبد الله حسن . وبمقتضى هذا الاتفاق ، حصل حاجى محمد على اقليم نكال (بين قبائل هوبيا ومجارتينيا) واعترفت القوى المذكورة بـــ « الموللە) سيدا وحاكما شرعيا لمحمية ايطالية ثالثة فى الصـــومـــال

37) يعنـــى الحرن الموقع الذى كان يتخذ منه محمد عبد الله حسن مقرا لاقامته ، وهو ما يقابل « بقعة » مهدى السودان كما سبق الذكر .

38) Ibid. PP. 124-53.

39) جامع عمر عيسى (الصومالى) ، المصدر السابق ، ص 35 . راجع ايضا جدول المعارك (36 معركـــة) الوارد فى الكتاب ، ص 71 .

الشمالي على الحدود بين الصومالين البريطاني والايطالـــى (40) .

ومن دراسة النص الايطالي لاتفاق ايلك دلدله ، يبدو محمد عبد الله وقد تلقب بالسيد في مراسلات السلطات البريطانية والايطالية ـــ مجرد شيخ او سلطان محلى لاحدى المجموعات القبلية الصومالية ، ارتبط بالحكومـــة الايطالية بمقتضى بنود هذا الاتفاق الذي أحاط نفوذه في منطقة اقامته باقليمى نكال وهود بعدد من القيود التى رتبت علاقاته بالبريطانيين والاحبـــاش والقبائل المحلية المختلفة . ولم يقرر الاتفاق للـــ « سيد » غير حقوق السيادة القبلية علـــى اتباعه ، وهي حقوق تقليدية لم يكن في وسع الايطاليين تقريرها بينما اضاف الـــ « سيد » الى روابطها الوراثية الرباط الدينـــى فى ثورته . ولعل ما حصل عليه حاجى محمد حقيقة من اتفاقه مع بستالوزا هو اعتراف القوى السياسية الثلاث (بريطانيا ، ايطاليا ، الحبشة) بمنطقة اقامته فى نكال وهود واقرار الايطاليين له حاكما للمنطقة وسيدا عليها نيابة عنهـــم ولو مرحليا .

ولكن ، نقرا فى النص الصومالى للمعاهدة فى بند (2) لفظ (التنازل) من جانب (ايطاليا وسلطانيها للسيد محمـــد حاجى عن جميع السواحل التى تقع بين كرعد وكبع لكى يتخذها بلدانا ترسو فيها سفنه التجارية . وايطاليا تراقب تلك البلدان من جهة البحر حيث ان مياهها لم تزل فى حمايتها ولها أن تجعل فى تلك البلدان وكيلها اذا احتاجت الى ذلك ويمكنه اتخاذ عساكر له للحرس وعلى السيد محمد ان يؤمن هذا الوكيل ويساعده . ولها أن تأخذ العشور من واردات وصادرات تلك البلدان اذا شاءت . ان حكم تلك البلدان وحكم برورها يكون دائما للسيد محمد والسيد هو الوكيل المتصرف عن ايطاليا حتى ترسل وكيلها وعلى السيد محمد تأمين تلك البلدان وطرقها وأن يحكم رعايا الدول الثلاث التى فى تلك البلدان بالعدل والانصاف) . وفى بند (4) ردد النص لفظ التنازل أيضا من جانب الانـــجـــليز عن « الاراضـــى المعروفة والمعترف بها للدراويش نكال وهود وكذا الساحل الذي ذكرناه ، وهو الواقع بين كرعد وكبع وكذلك اراضى اخـــرى ستـــضم الـــى حدود الدراويش من جهة سلطانـــى مجرتينيا وهبيه » .

---

(40) Hertslet, E. Op. Cit. PP. 1120-22

وبصرف النظر عن الخلاف فى مضمون السيادة بين النصين الايطالى والصومالى ، فان مذكرات الـــ « سيد » محمد عبد الله تذكر انه وانصاره اغمضوا عيونهم عمدا عن ثغرات الاتفاق « فهم لا يثقون فى المعاهدات التى تبرم مع المستعمرين حتى ولو كانت فى منتهى الوضوح والدقة » (41) . وفى تقدير الـــ « سيد » محمد لبنود الاتفاق وما تضمنته من حقوق وقيود ، يتجه الدارس الى الاعتقاد بأن هذا التقدير قد حكمته حقائق الواقع الذي تمثله العناصر الثلاثة التالية :

ـــ العلاقات القبلية فى الاراضـــى الخلفية ـــ حقيقة السلـــطـــة الايطالية فى المحميت الداخلية ـــ مصير العلاقات بين الـــ « مـــولله » والمحمية البريطانية .

وتعليقا على العنصرين الاولين ، نكتفـــى بالقول بأن الايطاليين قد استهدفوا اساسا من اقامة حاجى محمد وانصاره فى اقليم نكال ـــ كمحمية ايطالية ثالثة ـــ ان تخدم هدفا سياسيا كدويلة حاجزة بين هوبيا ومجرتينيا بعد ان اصاب الاضطراب الشديد رباطهم الهش بشيوخ وسلطانى الاقليمين فى احداث السنوات الخمس الماضية . وفى هذه المرحلـــة ، تشككـــت السياسية الايطالية فى نوايا الانجليز والاحباش قدر الخشية مـــن انصار الـــ « مولله » قبل وبعد فشل التجربة الحربية البريطانية فى مواجهته . فكان ان اقدمت على محاولة عقد اتفاقها مع حاجـــى محمد ، تحقيقا لهذا الهدف السياسى وما يترتب على علاقات التنافس بين المحميات القبليـــة الثلاث من نتائج سلبية قد تتحكم فيها السياسة الايطالية بما يخدم مصالحها فى محميتها الساحلية (42) . ولم يكن هناك ما يضمن تحقيق الاهـــــداف الايطالية من وراء « محمية نكال » . بينما كان للعنصرين القبلى والدينـــى فى تنظيم الـــ « سيد » محمد ان يتركا بصماتهما بشكل آخر على تطور المحمية بما يدفع الى الازدهار من جديد اهداف حاجى محمد السياسية والدينية .

وبالنسبة للنقطة الثالثة الخاصة بمصير العلاقة بين الـــ « مولله » والمحمية البريطانية ، فقد انتهى هذا المصير فى عام 1910 الى تقريـــــر سياسة اخلاء الداخل من كل وجود عسكري واداري لبريطانيا والاكتفاء

---

41) عبد الصبور مرزوق ، المصدر السابق ، ص 92 .

42) Hess, R. Op. Cit. PP. 132-4

بالتمركز فى القواعد الساحلية (43) مع التعلق بأمل استغلال العنصر القبلى فى تقويض وحدة العمل السياسى فى تنظيم حاجى محمد .

وبين العامل القبلى والعامل الدينى ، كان لحركة محمد عبد الله حسن ان تشق طريق تطورها الاخير . وفى تقييم هذين العاملين وأثرهما العميق على مسيرة الاحداث فى الصومال ، نقرر حقيقة لا جدال فيها هى أن علاقات المجموعات القبلية فى الصومال قد بدأت طريقها نحو التضارب منذ ظهور الحماية الاوربية — ايطالية وبريطانية .

ومن دراسة السياسة البريطانية فى الصومال فى مواجهة الـ «موللـه» يبدو واضحا ما بذلته السلطات البريطانية من جهد كبير فى تحريض قبائل دولباهانتا وحبر تلكالا وحبر يونس على الخروج عن طاعة حاجى محمد . فاتجه محمد عبد الله الى شعب أبيه بين قبائل اوجادين لتوحيد جهودها ضد القبائل المتمردة على طاعته والموالية لبريطانيا . وفى تحركات حاجى محمد بين قبائل دولباهانتا وقبائل اوجادين ، بدأ صدامه ايضا بالقبائل الموالية للطريقة القادرية . وطال بحث السياسة البريطانية فى محاولة ايجاد النظام الاداري القبلى القوي فى بلاد دولباهانتا تعميقا لدور العنصر القبلى فى مواجهة العنصر الدينى فى حركة الـ « موللـه » (44).

والى عام 1908 ، أظهر الـ « سيد » محمد للاطراف الموقعة على اتفاق ايلك حرصه على علاقات السلام . ولكن من ناحية أخرى ، ترك الـ « سيد) للعنصر القبلى والهدف السياسى ان يسودا فى سياسته وتنظيمه . فلم يقف أمام لاجىء يطلب المأوى بصرف النظر عن طبيعة الجرم الذي اقترفه ودفعه الى الفرار . وشجع البيماليين فى ثورتهم العنصرية (1904 — 1908) ضد اوامر السلطة الايطالية بالغاء نظام الرق ولم يرفض دعوتهم اليه بمدهم بالسلاح . وترك لقبائله حرية التنازع على

---

43) راجع تقرير ريجنالد الدونجت — حاكم عام السودان عن مهمته فى الصومال عام 1909، وهى المهمة التى تبعها صدور تنفيذ سياسة التمركز الساحلى فى نوفمبر من نفس العام. للمؤلف ، ريجنالد ونجت فى الصومال (القاهرة — الخرطوم 1973) ص 41—46

44) بلغ التفكير البريطانى ، فى الربط بين حركة حاجى محمد والولاء القبلى للدولباهنتا ، حد ربط العمليات الحربية للحملة البريطانية الثالثة بهدف استراتيجى يتمثل فى القضاء على قبائل دولباهانتا نهائيا على أساس أن استمرار وجودها مع فشل زعامتها القبلية فى الوقوف أمام زعامة حاجى الدينية القبلية يمثل تهديدا من جانبه ، بينما بدونهم يتجرد من جوهر قوته .

الابار والمراعى ضد القبائل الاخرى . ولم يتحرك ضد الاحباش مستثاراً بحميته الدينية الجهادية ضد غزواتهم فى أراضى الصومال الايطالـى الى حد التهديد باقتطاع أجزاء غنية من مناطق البنادر الخلفية . وطغى بالعامل السياسى على العنصر الدينى فى تنظيمه فى مقاومة الـردة الدينيـة بين اتباعه على اثر خلافه الشخصى الحاد مع اخلص مساعديه وصديقـه القديـم عبد الله شحـري .

وفى اطار هذه المعالم الجديدة التى عرفها تنظيم الـ « سيـد » محمد عبد الله حسن فى نكال وهود ، صار الـ « سيد » رمزا للثورة فى عيون الصوماليين عامة ، وامتد نفوذه السياسى خارج دائرة عصبيته القبلية ـ الدينية لتشمل الصوماليين من غـيـر دارود الدولباهانـتـا والاوجادين ، وكان فى تقدير الجميع التتويج الحى لآمالهم فى التحرر من كل نفوذ اجنبـى (45) .

وبعد تقريـر سياسة التمركز الساحلى للوجـود البريطانـى فى مارس عام 1910 ، وجدت القبائل الموالية للسلطات البريطانية نفسها، بعد فترة طويلة من الالتزام ببنود اتفاقيات الحماية ورفض دعوة حاجى محمد مكلفة من السلطات البريطانية بحمل السلاح أمام توسع نفوذ الـ «سيد» محمد من غير دعم حربى منظم من جانب سلطات الساحل . وفى اطـار الصدام المسلح المنتظر بين قبائل الـ « سيد » وقبائل سلطات الحماية ، كان من المتوقع أن تنمو حركة الـ « سيد » مستعينة بالعنصر القبلى وغيره من المعالم التى زحفت على تنظيمه فى نكال بعد عام 1905 ، وكاد باعترافه ان يفلت الزمام فى تنظيم جموع انصـاره تحت ضغـط هـذه المعالم (46) . وطبيعى فى مثل هذا التنظيم أن تتراوح قوة الـ « سيد » محمد بين المد والجزر تبعا لانتصاراته وهزائمه ، وهذا هو ما عاشتـه بالفعل حركته فى بقية سنواتها عرفت فى جانب منها صورا من الانتعـاش ابرزها ما حدث فى السنوات الاولى للحرب العالمية الاولى حين هـددت

(45 Hess, R.L. Op. Cit. PP. 84-87

46) فى خطاب بعث به الـ « سيد » محمد فى ديسمبر 1912 الى المعتمد البريطانـى فى بربره ، اورد ان معظم الانصار قد ابتعدوا عن متناول سلطته ، وانهم دائما ما يغيرون على الاهالـى بدون اوامره . راجع ترجمة الخطاب فى :
Jardin, D. Op. Cit. P. 209.

بخلق وحدة اسلامية قوية فىشرق افريقيا تسندها تركيا والمانيا ويمكن ان تدخل فيها اثيوبيا بفضل دور امبراطورها الشاب اياسو الذي مـال الى اعتناق الاسلام .

واذا كان لنا من تعليق اخير على احداث الصومـال فى نحو ربـع قرن ينتهى بوفاة محمد عبد الله حسن فى عام 1921 ، فاننـا نقول أن النجاح الذي حققه حاجى محمد ضد قوى طاغية كأداء ـ خارجيـة وداخلية ، سياسية وقبلية ودينية ـ يعنـى أن مجتمع الصومال لم يشأ أن تنتهى قرون التخلف الحضاري والتفرق الاقليمى والقبلى التى عاشها منذ القرن الخامس عشر بتمزق أعمق تقوم به قوى أجنبية ـ اوربيـة واثيوبية ، فمحمد عبد الله حسن فى سنوات ما قبل عام 1900 ، عندما كان الوجود الاوربى لا يعدو فى قوته اكثر من رمز محدود ولم تتورط بعد القبائل الصومالية فى علاقات سياسية وطيدة مع سلطات ذلك الوجـود الاجنبى ، كان اتجاه حاجى محمد الى بث روح الاخوة الدينية بين القبائل الصومالية ووقف العداء التقليدي القديم بين اقسام قبائل دولباهانتـا الشمالية والجنوبية مع توجيه النزعة القبلية فى القتال ضد تهديد الاحباش والخطر المسيحى بوجه عام . ولم يتطرف حاجى محمـد فى اسـتغـلال العنصر الدينى فى دعوته كى يدعى المهدية ويتقمص شخـصيـة المهدي المنتظر حسبما حدث فى السودان . ومثل هذا النهج كان يمكن ان يتطور بالصومال الى وحدة سياسية ذات صبغة دينية ما تتجرد أو تتخفف الـى حد كبير من الانقسامات القبلية فى مجتمعها .

وكان البديل الذي نشأ عن المحاولات الاوربية فى ضرب حركـة حاجى محمد هو الحفاظ على التقسيمات السياسية باسم الحماية الاوربية وتعميق الانقسامات القبلية بدعوى الحـفـاظ على تـوازن القوى بين المجموعات القبلية . وقد ينظر الدارس الى ثورة قبائل البيماليين (1904ـ 1908) ضد سياسة الغاء نظام الرق فى الصومال ، والتى ناصرها محمد عبد الله حسن ، كعنصر مبكر فى تحريك العوامل الاجتماعية فى المجتمع الصومالى ، ومع ذلك ، لم يكن المجتمع الصومالى قد تهيأ بعد سياسيا وحضاريا لمثل هذا التحرك الاجتماعـى ، وكان واقع العصر فى شـرق افريقيا يتفق وتلك المؤشرات التى كان يمكن أن تتمخض عـن حركـة محمد عبد الله حسن .

اوجـــادين فى مفتـــرق الطـــرق

بانتهاء الحرب العالمية الاولى ، برز من جديد الضغط البريطانى ــ الايطالى ــ الحبشـــى على تنظيم حاجى محمد . وفى اكتوبـــر 1919 ، وافقت الحكومة البريطانية على استئناف العمليات الحربية بخطة تلعب فيها القوات الجوية دورا حاسما ، فتسقط عاصمة الـــ « سيد » ــ تليح Taleh فى 12 فبراير 1920 ، وتتلوها عمليات المطاردة الى وفاته فى اواخر عام 1920 او بداية عام 1921 تحت وطأة الاصابـــة بحمـــى الانفلونزا او الملاريا وفى سن السادسة والخمسين ، مخلفا وراءه تراثا من المخطوطات العربية والصومالية عن نظام حكمه وفلسفـــتـــه الثوريـــة وملكته الادبية والسياسية ما زالت فى أمس الحاجة الى دراسة الباحثين .

وفى عام 1925 ، اعادت بريطانيا الى ايطاليا والحبشة ما استولت عليه من اراضـــى الصومال خارج حدود الصومال البريطانـــى . وانضم الى الحبشة من اراضى غربى الصومال شرق وادي فافان الى حـــدود صحراء الهود ، مما ادخل تحت حكمها جميع قبائل اوجادين المسلمـــة التى تشكل مع مسلمى اريتريا 35 % من تعداد سكان الحبشة . والى عام 1960 ، عاشت أقاليم الصومال الممزقة احداثها المحلية ــ كل فى اطار نظام حكم الدولة التى خضعت لسلطاتها . وشهدت الاقاليم الصوماليـــة ، فى سنوات ما بين عامى 1935 ، 1941 نمطا متعـــجـــلا من الوحـــدة السياسية الاستعمارية فى اطار امبراطورية شرق افريقيا الايطاليـــة . وعندما انهارت الامبراطورية الايطالية ، عادت اراضى وأجادين وهود الى اثيوبيا ، بينما عاد الصومال الايطالى الى ارتباطـــه بالصـــومـــال البريطانـــى قبل أن تسلمه بريطانيا من جديد الى ايطاليا فى ديسمبر عام 1950 ولكن طبقا لنظام الوصاية الذي سرعان ما ينتهى باعلان استقلال جمهورية الصومال بعد عشر سنوات . وكان للاقاليم الصومالية الاخرى أن ترنو بنظرها الى يوم مماثل ليوم اعلان جمهوريـــة الصومال ، بينمـــا تطلعت الجمهورية الناشئة الى نفس اليوم كى يلتئم شـــمـــل الاعضاء الممزقـــة .

وفى العلاقات بين جمهورية الصومال وجمهورية كينيا ، وقعت الدولتان اتفاقا فى ديسمبر 1967 أثبتا به عقم المنازعات الـــقبـــلية على

حدودهما . ومن شهور معدودة (سبتمبر 1977) استقلت جيبوتي (الصومال الفرنسي) في جمهورية مستقلة اعترفت بها جمهورية الصومال مسلمة بان الارتباط التاريخي بين الاقليمين قد ضعف منذ انعزال فرنسا بحكم هذا الاقليم عن الاقليمين الصوماليين الآخرين (البريطاني والايطالي) سياسيا واداريا وثقافيا . بينما العمل الوحدوي المتاح للجمهوريتين يكمن في اطار الجامعة العربية وعلاقات الجوار الاخوية .

ومع استقلال جمهورية جيبوتي ، فان المتوقع لثورة اريتريا بحكم الانفصال الجغرافي والابتعاد السياسي ان تسلك طريقا خاصا بها أيضا نحو الاستقلال او الاتحاد مع جمهورية جيبوتي .

ويبقى لجمهورية الصومال الاقليم الغربي (الحبشي) الذي جدد بثورته منذ عام 1970 أمل تحقيق الوحدة الصومالية التاريخية مع هذا الاقليم وكان حظ هذا الاقليم ان خرج من دائرة التقسيم الاوربي وانتهى الى السيطرة الاثيوبية في أحداث تصفية حركة محمد عبد الله حسن في عام 1921 وانهيار امبراطورية شرق افريقيا الايطالية (1935 — 1941) . والفارق كبير بين نتائج الحكم الاستعماري الاوربي والحكم العنصري الطائفي الاقطاعي الاثيوبي . فبينما ترك الحكم الاستعماري بصماته الانفصالية السياسية والثقافية على اقاليم التقسيم الاوربي ، فان ما أحدثه الحكم الاثيوبي بملامحه المذكورة يجسده فعليا تجدد ثورة قبائل اوجادين رفضا لهذا الحكم حتى بعد تقويض عرش هيلاسلاسي ونظامه المتخلف .

ولا انكار بان الحبشة كانت الدولة الوحيدة في افريقيا التي نجحت في الحفاظ على استقلالها بالقوة المسلحة في عصر التقسيم الاستعماري لبلدان العالم غير الاوربي . ولا جدال في أن الاعباء الخارجية الناجمة عن الزحف الامبريالي الاوربي والتوسع الامبراطوري الحبشي قد ضغطت بأثقالها على الاقتصاد الاثيوبي وعاقت كثيرا من تطوره ، ولكن ما يتعلق بالضغوط المحلية تظل عوامل جوهرية بارزة حافظت على المعالم العتيقة في المجتمع الاثيوبي ، وتحت تأثير هذه العوامل ، عاشت اثيوبيا نظاما اقطاعيا تقليديا بل عبوديا وقبليا والى سنوات قريبة من تاريخها المعاصر ، وعاش الفلاح تحت هذا النظام صورا مختلفة من العلاقات الاقطاعية ، حين أجبر على العمل ما بين 90 و 120 يوما من السنة في

ارض السيد الاقطاعى أو أرض الكنيسة . وفرض عليه تسليم جانب كبير من المحصول فى الارض الزراعية أو راس من الماشية فى الارض الرعوية، فضلا عن القيام بفروض اقطاعية اخرى منها ما يتعلق بفريضة اطعام النبلاء وموظفى الحكومة وجنودها اثناء سفرهم (47) .

وساد نظام (الجبر) فى الاراضى المحتلة مؤخرا فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ويعني الاصطلاح فى مدلوله العام الضريبة، وكثيرا ما صارت مرادفا للفروض الاقطاعية القديمة ، وشاع لقب الجبار بين القاب الاقطاعى عموما ، وان نظام الجبر فى الاصل نظام اداري عسكري ارتبط بالحاميات الحربية وهيئاتها الادارية فى الاقاليم الجديدة ، عندما تقيد الرعايا المحليون على رؤساء اقسام قوة الحامية وادارتها ، وبلغ عدد المجبورين المقيدين على الحكام وكبار الضباط عدة آلاف احيانا ، وصارت كل اسرة مجبورة على اعاشة كل جندي (48)

اما عن الرق ونظامه ، فقد ظل سائدا بين ربوع اثيوبيا وكان من من الحجج القوية التى برر بها الايطاليون زحفهم الاستعماري على اثيوبيا فى عام 1935 ، رغم انحسار المعالم الاقطاعية للنظام الى حد كبير عن الارض وغلبتها على الاعمال المنزلية وغيرها من الخدمات التى تبذل للسيد الاقطاعى .

ولم يخل الامر من قواعد تقليدية متوازنة حكمت علاقات الاقطاع والرق فى المجتمع الاثيوبى وخففت بالتالى من وطأة سلبياته على كاهل الزراع والرعاة والمجبورين والرقيق . ولكن كان لهذه القواعد أن تضطرب وتتلاشى فى فترات الحروب لاسيما الداخلية منها بين القواد والسادة الاقطاعيين ـ وهو ما شهدته البلاد بشكل حاد فى أعقاب انقلاب البلاط الامبراطوري فى عام 1916 على الامبراطو اياسو (حفيد مينلك الثانى) والذي مال الى اعتناق الاسلام كما سبق ، واستمرت الحروب الاهلية على مدار السنوات الخمسة عشر التالية ولم تبدا البلاد طريق العودة الى الاستقرار والوحدة ، ولو الى حين، قبل تدخل البطريركية بالاسكندرية وعقد اتفاق بين الكنيسة المصرية

(47
Right, M.V. "Ethiopia", A History of Africa (Moscow, 1968) PP. PP. 324-339

Ibid (48

والكنيسة الحبشية فى عام 1929 سوى مشكلة اختيار رئيس أساقفة اثيوبيا بتعيينه بقرار من بطريك مصر ، وقبل عودة الاتفاق بين القواد المتحاربين فى عام 1930 على قبول تفاري ماكونين Tafari Makonnen امبراطورا للحبشة باسم هيلا سلاسى الاول بعد موت منافسهZaudito

وسرعان ما تشهد اثيوبيا سنوات أخرى من الاضطراب مع بداية المناوشات العسكرية الايطالية فى عا م1934 التى أعقبها احداث الغزو الفاشى ومقاومته الى عام 1941 ، والذي ذهب ضحيته نحو 700 الف قتيل ، فضلا عن 35 الف اسيرهلكوافى معسكرات الاسر المركزي . ولم تمكن المقاومة الاثيوبية مشروعات التنمية الايطالية من الظهور الى حيز التنفيذ ، وكاد الحكم الايطالى ينحصر فى المدن الكبرى المحدودة وعلى امتداد الخط الحديدي بين أديس أبابا وجيبوتى . فكان على اثيوبيا أن تظل على تخلفها فى صورتها التقليدية العتيقة بغض النظر عن المحاولات المتفرقة المحدودة للاصلاح سواء فى السنوات الاربع الاولى من عهد هيلا سلاسى أو سنوات الاحتلال الفاشى او السنوات الاخيرة من حكم العرش الاثيوبى الى موت هيلاسلاسى ، الى حد أن عام 1950 يتخذ سندا على الغاء نظام الرق فى الحبشة بينما ظل عدد من الرقيق السابق فى خدمة اسيادهم الاقطاعيين بعد هذا التاريخ بالرغم من عتقهم رسميا .

واليوم عندما يرفض صوماليو اوجادين استمرار الخضوع للحكم الاثيوبى ، انما يتطلعون فى الاخير الى يوم يستقلون فيه عن اثيوبيا فى جمهورية تلحق بجمهوريتى جيبوتى والصومال على طريق التحرر فضلا عن رباط الوحدة مع جمهورية الصومال بحكم الصلات التاريخية والحضارية الممتدة وبحكم البحث عن منفذ ساحلي لاراضيها وبحكم التضامن الذي تظهره الجمهورية الصومالية لشعب أوجادين وثورة الصومال الغربى .

فهل ستشرق أحداث الثورة عن هذا اليوم ؟ أو أن اليوم المرتقب مازال بعيداً ، بينما على صومالى اوجادين أن يظلوا فى مفترق الطرق تتكرر فى مستقبلهم مأساة تاريخهم .

فاس **د . ابراهيم شحاته حسن**

في تحليل مصادر تاريخنا :

I قضية الحلل الموشية

عبد القادر زمامة

هناك فى دراسة الموضوعات التاريخية والحضارية منهاج يسير عليه الباحثون والدارسون لقضايا التاريخ والحضارة . كما يسير عليه الباحثون والدارسون لقضايا انسانية أخرى تعتمد ــ فيما تعتمد عليه ــ الاسانيد ، والروايات ، والاخبار ، والمشاهدات .

وهذا المنهاج يقتضى اولا وبالذات المعرفة الصحيحة والخبرة الواسعة بتلك الاسانيد والروايات ، والوزن الدقيق ، والتحري الممكن عند استعمال تلك الاخبار ، والاعتماد على تلك المشاهدات .

فالسند ، والرواية ، والخبر ، والمشاهدة ، وسائل مشروعة للمعرفة البشرية ، وتنمية هذه المعرفة واستمراريتها عبر الاجيال والقرون ، وضمان الحاقها بسلسلة التجارب التى عاذها الانسان فى حركاته الدائبة ، لتكوين التاريخ والحضارة والتراث . . .

والبحث فى قضايا التاريخ المغربى وقضايا حضارته عبر القــــرون والموجات البشرية التى استقرت به . . يعتمد على هذه الوسائل المشروعة للمعرفة،واذ ذاك تطرح قضية المصادر بشكلها المعـــروف ، وأهميتهــا

المعهودة ، ويصبح الباحث الدارس أمام مناهج وأمام اختيارات من جهة كما يصبح أمام مشكلات واختبارات من جهة أخرى . . !

فهناك الشكوى المعهودة التى الف ترديدها المتقدمون والمتأخرون ، المجتهدون والمقلدون ، حول قلة المصادر وضعفها وتفاهة الموجود منـــــها واهمية المحجوب أو المفقود .. ! وهناك الشكوى الاخرى التي يرفع رجالها عقيرتهم منددين بهذه الكتب التاريخية ، التى تهتم بنوع خاص من الناس ، وتؤرخ لطائفة خاصة من المجتمع ، وتعرض قضايا خاصة من تجـــــارب الانســـــــان . . . !

كل هذا واكثر منه يجده كل منا امامه فى مسيرته عبر آفاق الدراسات التاريخية المغربية المتنوعة الاشكال ، والاهداف ، ولا سيما اذا كانت له فكرة معينة عن عصر من العصور . . أو رؤية جديدة يراها فى مصدر من المصادر . . التى يستعملها ويعتمد عليها الباحثون والدارسون عندمـــــــا يكتبون عن تاريخ المغرب .

فى هذا الاطار نتناول قضية « الحلل الموشية فى ذكر الاخبـــــــار المراكشية » برؤية جديدة تعتمد على المنهاج الذي أشرنا اليه آنفا ، ليكون هذا المصدر معروفا مدروسا من حيث الموضوع والهدف والاطار السياسى الذي يسبح مؤلفه فيه ، والظرف الزمانى الذي كتب فيه . .

وينبغى هنا أن نشير الى أن دراسة « قضية الحلل الموشية » لا تعنى دراسة « أهمية » هذا الكتاب ، ولا تعنى « تقديمه » بصورة من الصور ، أو « عرضه » فى معرض الكتب المخطوطة أو المطبوعة . . . وانما تعنى ربط هذا المصدر التاريخى بظروفه التى كتب فيها ، وربطه أساسيا بالشخصيات السياسية التي أوحت بتأليفه ، ليمهد السبيل أمام تحقيق أهدافها التي تعمل للوصول اليها فى هذه البلاد المغربية زمن التأليف . .

بعد هذا التوضيح المنهجى الذي كان لابد منه نستطيع أن نتحـــدث مطمئنين عن قضية محددة ومطروحة فى اطار معين . . .

*

ان قضية كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية مرتبطة سياسيا ، وتاريخيا ، بقضية ملك غرناطة : محمد الغنى بالله ، وهو محمد الخامس بن يوسف الاول ، فى سلسلة ملوك بنى الاحمر ، الذي جلس على عرش غرناطة فى فترتين :

— الاولى من سنة 755 هـ الى سنة 760 هـ = 1345 م — 1358 م

— والثانية منسنة 763 هـ الى سنة 793 هـ = 1361 م — 1390 م

وبين الفترتين الاولى والثانية فترة ثلاث سنوات (760 — 763) قضاها مبعداً عن عرشه ملتجئا الى بنى مرين يعيش تحت واسع مبرتهم ، فى عاصمة فاس . . ! مع حاشية من أعلام غرناطة على رأسهم وزيره لسان الدين ابن الخطيب . . .

والكتاب الف فى الفترة الثانية ، بعد رجوع الغنى بالله الى غرناطة ، وقبضه على زمام الحكم بها من جديد . . وبعد هذا الرجوع بنحو العشرين سنة . . وبعد المكيدة التى دبرها الغنى بالله لوزيره لسان الدين ابن الخطيب بنحو سبع سنوات . . !

وهذه المعلومات المستند على هذه التوقيتات ليست من وحى الخيال التاريخى ولكنها مستندة الى الكتاب نفسه وما ورد فيه من معلومات ستقع الاشارة الى صفحاتها منه فيما بعد .

وقضية الغنىبالله مع المغرب ومع ملوك بنى مرين فى فاس قضية معقدة اشد التعقيد ، ولها فصول متعددة ، مثل بعضها فى فاس ، وبعضها فى مراكش ، وبعضها فىاقاليمأخرى من شمال المغرب وجنوبه . وقد دامت الفترة الثانية من حكم الغنى بالله فى غرناطة ما يقرب من ثلاثين سنة . . !

واساس القضية وعمقها السياسى يرجع الى ثلاثة عوامل :

1 — الصراعات القائمة على عرش بنى مرين .

2 — استبداد الحجاب والوزراء والقواد .

3 — الامراء المرينيون المبعدون عن المغرب .

والغنى بالله — عند اقامته بفاس ثلاث سنوات — اتصل اتصالا مباشرا بالحاكمين والمحكومين ، ووزن الاشياء بميزانه الخاص ، وعرف عناصر الضعف والقوة ، وظروف الدولة ، وطبيعة مشكلاتها الداخلية ، ومصاعبها الخارجية ، ولا سيما مع بني عبد الواد فى تلمسان . كما أنه شاهد اتساع المرافق والامكانات والثروة البشرية والحيوانية ، وتعدد المدن والقرى والموانىء وعناصر السكان ، وما خلفه عصر الامبراطورية الموحدية فى البلاد من معالم وتنظيمات فى الشمال والجنوب، فبهره ذلك وقدره اكبر تقدير . .

ولا ريب أن هذه المعلومات حصل عليها بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة ، ولا سيما وقد كان معه عدد من الاعوان فيهم من تجول فعلا فى طول البلاد وعرضها واتصل بعدد من رجال العلم والفكر والحرب والسياسة ، مثل وزيره لسان الدين ابن الخطيب . .

وحدث فى آخر أيام ابعاد الغنى بالله عن عرشه ، ذلك الحدث المؤلم ، الذي ذهب ضحيته الملك المرينى أبو سالم ابراهيم المستعين بالله ابن أبي الحسن أواخر سنة 762 هـ ، الذي قدم للغني بالله ولافراد حاشيته كل أنواع المبرات والمساعدات المادية والمعنوية . . .

فماذا فعل الغنى بالله بعد أن عاد الى غرناطة . . ؟

انه شاهد الصراعات التى أحدثها قتل ابى سالم المرينى . . كما شاهد من قبل الصراعات التي أحدثها موت أخيه ابى عنان فى ظروف غامضة . وادرك ان بامكانه أن يستفيد من هذا الوضع سياسيا وعسكريا . . ففى الميدان السياسى يستعمل « الامراء المرنيين المبعدين فى غرناطة » ، وفى الميدان العسكري يضم المراكز المرنية التى كانت لهم فى الاندلس يستعملونها لتدريب الجيوش وخزن الاسلحة والميرة ، واهم هذه المراكز المرينية هو ثغر جبل طارق الذي كان الاسبان يحسبون لبقائه فى يد دولة بنى مرين الف حساب . . . !

وسواء أدرك الغني بالله أو لم يدرك فان ابعاد المغرب عن استعمال جبل طارق فى الاعمال الحربية : البرية والبحرية ، يعنى اكثر من دليل ،

على سوء الفهم ، وفساد النية ، وضيق الافق السياسى ، واتاحة الفرص لاعداء الدولتين المغربية والاندلسية ليملوا ارادتهم القوية على دولتـــين ضعيفتين متخاذلتين . . . !

وسار الغنى بالله فى هذا الخط السياسى الملتوي . . ولعله كـان بسيره فى هذا الخط ليتجاذب حبل المصالح السرية والعلنية مع جيرانه فى عواصم الممالك المحيطة بحدود دولته . .

واستعمال الغنى بالله لجماعة من الامراء المبعدين فى غرناطـــة وامدادهم ، ليوقدوا نيران الصراعات حول عرش المرينيين ، كلمــا خمدت . . . أمر واضح ، تنبه له فى ابانه مؤرخ يعيش فى فاس اذ ذاك وينتمى لاسرة بنى الاحمر ، وهو المؤرخ الاديب ابو الوليد اسماعيل بن الاحمر ، فقد صرح بذلك فى كتابه « نثر الجمان فى شعر من نظمنى واياه الزمان » فى الباب الثانى ، عندكلامه على الامير : منصور بن ابى على عمر بن ابى سعد ، واخيه السلطان : عبد الحليم . وكانت العملية التي قام بها هــذان الاميران سنة 763 هـ ، اي فى نفس السنة التى عاد فيها الغنى باللــه الى غرناطـــــة . . !

وابو الوليد ابن الاحمر شاهد اثبات يعرف الاطراف المتصارعـــــة ويدون ما رأى وما سمع . وقد ألف كتابه المذكور فى حياة الغنى بالله ، وكان فى وضع يمكنه من الاطلاع على الاخبار والاسرار . . .

وزادت التمزقات والصراعات استفحالا . . .

وزاد الغنى بالله تدخلا واستغلالا . . .

وفى اثناء ذلك حدث شيء جديد فى افق سياسة الغنى بالله . وذلك أن وزيره ومدبر دولته الاولى والثانية ، لسان الدين ابن الخطيب ، تملص من منصبه فى غرناطة والتجأ الى بنى مرين . فالتحق اولا بأبى فارس فى تلمسان سنة 773 هـ ومكث بها معه مدة الى ان توفى ، فالتجأ الى فـــاس وسكنها منقطعا الى التأليف والتدوين ، منصرفا عن حياة المناصـــب والمسؤوليــــات . . .

لكن الغنى بالله لم يشأ أن يترك وزيره السابق يعيش فى فاس هادىء السرب ، منعم العيش ،محفوظ الكرامة ، فألصق به عددا من التهم ، وسمح لاعدائه أن يكتبوا العرائض والمحاضر والفتاوي ، يطعنون فى دينه ومعتقداته وسلوكه واخلاقه ، وارسل فى شأنه السفراء الى عاصمة فاس طالبا تسليمه لمحاكمته ، والانتقام منه ، جزاء ما قدمت يداه . . لكن المسؤولين أبوا أن يخفروا ذمتهم وأن يسلموا هذا الرجل الى أعدائه ، ليفتكوا به ، وليذهب ضحية دفائن الاحقاد وخفايا الاغراض . . .

من اجل ذلك اصبح الغنى بالله فى المقيم المقعد من أمره ، لا يهدأ له بال قبل تحقيق هدفيه :

— الفتك بابن الخطيب ،

— والانتقام من حماته فى فاس .

فاستعمل كل ما يملك من وسائل مادية ومعنوية فى اطار سياسته المعهودة ، التى سار على خطها منذ رجوعه من فاس الى عرشه بغرناطة سنة 763 هـ . وفوق سهام كيده للانتقام من حماة ابن الخطيب باسقاط النظام القائم فى عاصمة فاس . واستعمل أميرا من الامراء المبعدين فى غرناطة ، وهو الامير عبد الرحمان بن على بن عمر بن السلطان أبى سعيد. وكان هذا الامير يشغل فى غرناطة منصبا عسكريا هو منصب « شيخ الغزاة » ، وقد شغل هذا المنصب بترشيح ابن الخطيب وتزكيته . . ثم ساءت العلاقة بينهما فيما بعد ذلك ، الشىء الذي أدى الى الزج به فى غياهب السجن. وكان حاقدا على الوضع السياسى فى المغرب (1)، ويشعر أنه مبعد عن بلاده بسبب ما كان له ولاخوانه واعمامه من مطامح فى المنطقة التى كان يحكمها جدهم فىسجلماسة والجنوب المغربى . .

وامد الغنى بالله عبد الرحمان هذا بما استطاع أن يمده به من رجال وعتاد وسفن تنقل الجميع الى شواطىء المغرب وتقذف بهم هناك ، ليوقدوا نار التمرد والثورة على النظام المرينى المركزي فى فاس . . . ويقول

(1) الحلل الموشية ، ص 151 ، ط. الرباط ، 1936 — الاحاطة ، ج 2 ، ص 39 — الاستقصاء ، ج 4 ، ص 61 و 65 .

ابن خلدون : انهم نزلوا فعلا فى سواحل الريف ببلاد قبيلة بطيوة فى شمال المغـــــرب . . . (2)

وفى الوقت نفسه اعان الغنى بالله على اقامة أمير مرينى آخر كان محتجزا فى مدينة طنجة ، وهو أبو العباس أحمد بن السلطان ابى سليم (3).

وبذلك أصبحت البلاد غارقة فى حرب داخلية دامية ، تفتك بأبنائهـــا وتنزل بالمدن والقرى ما تنزله الحروب الداخلية من خراب ودمار .. كل ذلك ليتمكن الغنى بالله من تحقيق أهدافه المعروفة .

واختلف الاميران الثائران . ثم اتفقا على خطة موحدة لمحاصـــــرة عاصمة بنى مرين . . . وكان اللقاء بين جيشيهما على « وادي النجاة » القريب من فاس . . . وتم حصار المدينة ثم الدخول اليها وتنحية كل مـــن وقف دون تنفيذ رغبات الغنى بالله . . .

واسفرت العملية عن نتائج هـــى :

1 ـــ تمكن الغنى بالله من ضم ثغر جبل طارق الى مملكته

2 ـــ مبايعة أبى العباس بن أبى سالم فى فاس .

3 ـــ تسليم لسان الدين لاعوان الغنى بالله ليفتكوا به

4 ـــ منح عبد الرحمان حكم جنوب المغرب وتنصيبه أميرا علـــــى مراكـــش .

وهكذا تلاحقت هذه النتائج فى الظرف الزمانى . لان سياسة الكيـــد والتمزيق كانت تسير بخطواتها السرية والعلنية للوصول اليها بأسرع مـــا يمكـــــــن . . .

وأهم هذه النتائج وأخطرها هو محاولة تمزيق وحدة المغرب ارضاء لانانية رعناء . حتى أننا نجد المؤرخين لهذه الحقبة من تاريخ المغرب يتحدثون عن « تقسيم واقعى » للنفوذ . . وحدود واقعية . . وصراعات عنيفة . . بين النظامين القائمين فى مراكش وفاس . . !

---

(2) كتاب العبر ، ج 7 ص 702 ، ط. بيروت

(3) الاستقصاء ، ج 4 ص 61 .

ومن المهازل السياسية التى مثل مسرحيتها الغنى بالله فى المغرب اثناء هذه الحقبة ، وهذه الوضعية المصطنعة هو ما نجده عند ابن خلدون ، اذ يقـــــــــول :

« بعث (الغنى بالله) خاصته الوزير ابا القاسم ابن الحكيم الرندي ليعقد الصلح بينهمـــا . . . ! » (4) .

لكن مسرحية « الصلح » لم يطل عمرها ، وما لبثت الاحوال أن ساءت وتفاقم الوضع . . . ونضج الفكر الوطنى الذي يعلو سطح الاحداث كلمـــا راى الفرصة مناسبة ، لتصحيح الاوضاع ، وتعرية خبايا المكر والـــدس والتمزيق فى البلاد المغربيـــة .

وقبل أن نصل الى نقطة الارتكاز من قضية تاليف كتاب الحلل الموشية يجدر بنا أن نعطى بعض التوقيتات التاريخية لسلسلة الاحداث التى أدت الى الوضع القائم اذ ذاك فى المغرب . .



وحقق الغنى بالله النتائج الاربع السالفة خلال سنة 776 هـ . وقـــد كان ابن خلدون فى مدينة فاس ، وشاهد الاحداث كلها عن كثب ، وكـــان هواه السياسى مع الامير عبدالرحمان الذي حكم الجنوب المغربى واستولى على مراكش . . . حيث أننا نجده يقول فى سيرته التى كتبها لنفسـه :

« وكان الامير عبد الرحمان يميل الى ويستدعينى اكثر اوقاته يشاورنى فى أحواله . فغص بذلك الوزير محمد بن عثمان ، وأغرى سلطانه . فقبض على . وسمع الامير عبد الرحمان بذلك . وعلم انى انما اوتيت من جراه . فحلف ليقوضن خيامه . . وبعث وزيره مسعود بن ماساى لذلك ، فأطلقنى من الغد . . . وسار الامير عبد الرحمان الى مراكش . وكنت انا يومئـــذ مستوحشا ، فصحبت الامير عبد الرحمان ، معتزما على الاجازة الـــى الاندلس من ساحل آسفى . . . » (5)

(4) العبر ، ج 7 ص 719
(5) رحلة ابن خلدون ، ص 225

واذا كانت الاحداث قد حالت بين ابن خلدون وبين تحقيق أمنيته فى مصاحبة الامير عبد الرحمان الى مراكش .. فان المقام لم يطب له فى فاس ، فجاز البحر الى غرناطة حيث نزل ضيفا على الغنى بالله .. !

ورغم أن ابن خلدون قطع حبل اقامته فى المغرب بالمقام بغرناطة ثم بتونس ثم بالمشرق ، فان مسايرته لشريط الاحداث فى تاريخه ما زال الى الان ، هو مستندنا الوحيد فىتفسير المواقف التى ذكرها صاحب الحلل الموشية . فهو الذي أمدنا بتفاصيل الصراعات والحروب التى دارت رحاها بين الاميرين : ابى العباس بن ابى سالم وعبد الرحمان بن على ، طيلة سبع سنوات بتقريب ، أي من سنة 776 هـ الى سنة 784 هـ التى تم فيها حصار عبد الرحمان فى مراكش حصاراً طويلا أدى فى النهاية الى طىصفحته واعادة الوحدة الى سالف عهدها . . .



هذا الحصار الطويل الذي قام به ابو العباس بن ابى سالم لعبد الرحمان فى مراكش والذي دام تسعة اشهر ، هو الذي دفع بسياسة الغنى بالله الى أن يكتب بعض رجالها هذا الكتاب المسمى بالحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية . . . ويقول فى مقدمته :

« أما بعد فانه لما حدث لهذا العهد بحضرة مراكش ما وقع من الحصار والتناوش والهياج والتهاوش . وتحدث الناس بالايام وحوادثها ، واشفقوا مما يتوقع من خطوبها وكوارثها . اذ الملة الحمد لله واحدة ، والنفوس لثقة الايمان غير جاحدة . فالمسلمون حيثما كانوا أخوة . . لا سيما من بهذه الجزيرة وبتلك العدوة . فالقلوب بتوفيق الله غير متنافرة . . وعزائمهم بحول الله تعالى متعاضدة ومتضافرة . . ووجوههم مصروفة الى جهاد الامم الكافرة .. ! والله تعالى يطيل الاسلام ببقاء مولانا الامام . . » (6) .

ونجده يقول عند ذكر الامير عبد الرحمان :

(6) الحلل ، ص 2 ، ط. الرباط ، 1936 م.

« استقر بحاضرة مراكش فى شهر محرم عام 776 هـ وهو بها الى هذا العهد الذي الفت فيه هذا المجموع وهو يوم الخميس الثانى عشر لشهـــر ربيع الاول من عام 783 هـ . . . فيجب لذلك من المدة سبعة اعـــوام وشهران . . والله تعالى يجبر حاله ويسنى فى صلاح المسلمين مبتغـــاه وأملـــه . . . » (7)

فالكتاب الف أيام الحصار .. واهدافه الواضحة هي شد أزر هـــذا الامير المحاصر ، وتقوية عزيمته ، ليستمر فى الدفاع والمقاومة عن هـــذه المدينة التاريخية ، التى كانت عاصمة المرابطين والموحدين ، وقد تعرضت الى عدة حصارات فى التاريخ ، ومع ذلك لم يفل ذلك من عزيمة المدافعين عنهـــا . . .

فالمؤلف يجمل تاريخ مراكش ، ويذكر الامير عبد الرحمان ضمن ملوك هذه المدينة ليحثه على التمسك بموقفه ، والدفاع عن حوزته . . وفى خاتمة الكتاب يقدم هذا الامير وكأنه تحت رعاية وحماية الغنى بالله . . (8) وعلى تشبثه بموقفه ينبنى نجاح الغنى بالله فى خطته السياسية لتمزيق وحـــدة المغـــرب . . . !

والكتاب بهذه الرؤية الجديدة التى وضعته فى اطاره السياسى من مسرح الاحداث التاريخية فى المغرب والاندلس ، يبدو محبوك الخطـــة ، متقن التصميم ، لا يتناول من التاريخ المغربى والاندلسى الا ما يتناولـــه المؤلف السياسى الماهر الذي يلقى حبالته التاريخية لغرض اعلامى ، مظهرا الوحدة والتعاون بين المغرب والاندلس فى حين أن الخط السياسى الذي كان الغنى بالله يسير عليه لا يمت الى ذلك بصلة . . !

---

(7) المصدر السابق ، ص 151

(8) انظر ص 157 من الحلل .

اما اختفاء اسم المؤلف فهو راجع الى اخفاق سياسة الغنى باللـــه ، وفشله فى تمزيق وحدة المغرب على يد من اختارهم من الامراء المبعدين فى غرناطة ومنهم عبد الرحمان أمير مراكش ..

فالكتاب كتب خلال سنة 783 ه لامير قتل خلال سنة 784 ه ، لهذا ادخل المؤلف نفسه أو أدخله الناس فى ضباب الغموض والنسيان . . . !

اما قيمة الكتاب واهمية المعلومات والمادة التاريخية التى جمعها المؤلف، فتلك قضيـــة اخـــرى . . .

فـــاس | عبد القادر زمامة

نظرة في أدب

أسمى طوني

وحيد الدين بهاء الدين

ما استهوانى فى مضمار الثقافة والفكر ، عبر رحلة العمر ، شىء كالنبضات الوجدانية والمفاهيم الانسانية والقيم الوطنية ، لارتباطها العضوي بكينونة الفرد وذاتيته ثم بطبيعة المجتمع ومسيرته .

فان للافراد ، مهما كانوا — وهم اساس الوحدة الجماعية — من الحياة والزمن من جهة ، ومن الكون والخلق من جهة اخرى ، موقف وهدف . . .

فالانسان يحس بنفسه اول وهلة ، بعد انحداره من جوف العدم ، ثم يعى بالذي يتبدى له ، ويحدق به ، ويسعى اليه ، ويتواتر عليه ، حتى يدرك على مدى طور او اطوار ، أنه ما دام بادئا بنفسه لابد له من أن ينتهي الى غيره .. تلك طبيعة الاشياء ..

بمعنى أنه استهل وجوده ذاتيا وجدانيا لينتهى مجتمعيا انسانيا . وقد لا يكون كذلك . فى ذلك تفسير أو اكثر منه ، وعليه ينطوي سر ابداع

الانسان ولا سيما الفنان فى حياته ، ثم سر خلوده اذا ما اتيح له ، بعد مماته ،على قدر ما ادى فأوفى . .

طالعت الى درجة الاستغراق لكثير من اديباتنا وشاعراتنا ، انتاجا منوع الانماط ، مختلف الالوان ، تتعاوره طوابع شتى : عقلية ونقلية . . ذاتية وانسانية . . واقعية ورومانسية . . نفسية وجنسية . غير ان ثمة من الهمتنى افكارها فى ما ترسلت ، وراعنى اسلوبها فى ما سردت ، واشجتنى نبرتها فى ما رامت . .

من هنا كانت هذه التى اضاءت اشموع فى طريقى ، واعطتنى مـــا كنت افتقده ، وزادتنى وعيا بحقيقة الاشياء من حوالى ، ادعى الـــى اكتراثى لها وحرصى على استجلاء جذورها الثقافية وظروفها الموضوعية، ونوازعها الحياتية والحضاريـــة . .

من هؤلاء اسمى طوبى : الكاتبة . . الشاعرة الفلسطينية .

*

قرات لاسمى طوبى — اول ما قرات — كتابها « احاديث من القلب » فى منتصف الخمسينات . لا اغلو انه شاقنى واستمالنى اليه ، بيـــد سحرية غير منظـــورة . .

كان ذاك فى عهد من العمر ، اصطبغ بالمراهقة الذهنية والهـــزات النفسيـــة . .

فى هذه الايام ، وبعد عشرين عاما ، حين عدت الى « احاديث مـــن القلب » مرة اخرى ، انتابتنى نفس الافكار والمشاعر الى حد التداعى . وهل وراء هذا سر ما ؟ بالرغم من البعد الزمنى الذي يفصلنى عن مـــا كان ، والتطور الذي اشتملنى على مداه عقلا وقلبا . .

لكن لعل الصدق والاصالة — وهما من عناصر الخلود الادبـــى — اللذين دبج بهما هذا الكتاب ، واللذين ينبغى أن يسودا انتاجنا دواما ،

وفى كل زمان ومكان ، جعلانى اتخذ موقفا واحدا فى كلتا الحالتين وأنا به راض ، واليه مطمئن . .

اقر انني توصلت الى ان اسمى طوبى عرفت وتعرف بما وهبت وتمكنت منه ، كيف تسكب عصارة عواطفها فى نفوس الاخرين ، ليعيشوا افراح الحياة ويمتصوا اتراحها وهم قادرون لا ساهون ، وكيف تضىء لهم دروبهم باحراق نور عينيها على القرطاس ، ليلتمسوا الخلاص من الشرور والاوجاع وهم راغبون لا راغمون ، وكيف تنبت فى اغوارهم بذور المحبة والتضحية ليشدوا أزر اخوتهم ويدرأوا عنهم ما لحقهم ويلحقهم من مظالم ومطاعن وهم مقتنعون بأن القدر لابد أن يستجيب لهم وبأن الحرية لابد من انتصارها على العبودية وبأن الانسان لابد من اثبات وجوده بارادته ، وصنع مستقبله بيديه ، وبناء حضارته بتضامنه مع الطيبين . .

*

بسبب من كتاب « احاديث من القلب » شرعت أتتبع ما تنتجه أسمى طوبى من آثار ومؤلفات ، واتطلع فى الوقت عينه الى المزيد منها . مـا دامت هى واثقة من قيامها بنضالها الادبى والاجتماعى — والسياسى من خلالهما — فى تحرير الانسان العربى من اسار الجمود والتخلف ، وشحذ قدراته الكامنة غير المستثمرة ، لمتابعة سيره وتغذية اهتماماته ، فى سوح الثقافة والحضارة . .

هنا كانت لي وقفات تأملية ايجابية عند عدد من كتب أسمى طوبى ، عدا ما نوهت به ، كـ « عبير ومجد ، وحبى الكبير ، ونفحات عطر » ، علاوة على بعض من ابحاثها وخواطرها المبثوثة فى الصحف والمجلات ، بينا تركت جانبا مترجماتها من اللغة الانكليزية ككتابى « الدنيا حكايات » و « فى الطريق معه » ، كذلك مسرحياتها ذات المغازي الاجتماعية والسياسية ، التى مثلت مرارا كـ « اصل شجرة الميلاد » و « صبر وفرج » و « نساء واسرار » و « شهيدة الاخلاص » و « واحدة بواحدة » و « القمار » .

اقتضاني البحث أن القي نظرة عجلى على أدب اسمى طوبى ، هـــذه المرأة التى دابت منذ حملت القلم ، ان تكون موضوعية وواقعية .

انما احسب أن الطابع الوجدانى والانسانى والوطنى عندها ، هو ما ينبغى التصدي له والقاء الضوء عليه ، لامتيازه واهميته وتأثيره . .

الوجدانية والانسانية والوطنية لدى اسمى طوبى ، ممتزجـــــــة . . منصهرة فى بوتقة واحدة . معناه : ان كلا منها متغلغل فى الآخر . . متحد معه . . ومتأثر به،حتى كان وحدة قائمة براسها . .

هكذا تبدو لكل قارىء ، بادىء بدء ، الى ان تأخذ قرارها فى نفســـه وفى فكـــــره . .

هذا كله تسوقه اسمى طوبى فى اطار من أقصوصة او سانحة او مقالة ، كما لو كانت لوحة ذات كثافة فنية من حرارة التعبير والتصوير . . حيث لا ينكشف ما تتوخاه اسمى طوبى الا بعد ان تكون قد امسكـــت بالموضوع ــ المادة الخام ــ من أطرافه ، توطئة للولوج الى المنطقـــة المنشــــودة . .

تبدأ بحادثة : معروفة او مجهولة . . فكرة : شاردة أو ملتقطـــة . . مقولة : منسولة او مثيرة ، وهى تحاول أن تجد بين بدايتها ونهايتها خيطا رفيعا لا يتيه فى زحمة السرد والتركيز ، وقد تستطرد تلوينا للاسلوب ، وقد تحاور تعميقا للقصد ، ثم تتدرج بالموضوع على رسلها ، لتخضـــع لارادتها كل ما تضمره فى ذاتها من هــــدف .

لنتل استهلال مقالها « بدون قلب » (1) هي أقصوصة صغيـــرة لست ادري كيف تكونت فى الذاكرة . اهى من وحى الخيال ؟ أم من ادب الاغريق ؟ أم هى مزيج من كليهما ؟ وهذه هى : كانت متعبدة شديدة التقوى حبت الالهة كلها وقدمت قرابينها لها كلـــها فأحبتها الالهـــة بدورهـــا .

---

1 ــ ص 81 « أحاديث من القلب »

ولكنها أخطأت . . تعرض فى طريقها فأحبته . . ومناها بالامال المعسولة وبالقصور الفخمة وبما لم تقع عليه عين ولم تسمع به أذن فصدقت . وطغى الحب فاذا بالقصة قديمة اياها . . الوعود اولا . . ثم الغدر والخيانة . . » .

وتسرد اسمى طوبى جانبا من الحكاية هذه الواقعية الرومانسية ، حتى تبلغ نقطة الثقل فتقول : « واخيرا وفى منزل عارها ولدت طفلتها . . وجففت دموعها ونظرت الى الكنز الذي على صدرها فتبسمت . . كانت فقيرة ولكنها شعرت كأن ثروة العالم قد تجمعت فى غرفتها الصغيرة . كانت خاطئة فى نظر العالم ، ولكنها شعرت بأن الالهة قد غفرت لها وانصفتها بشريعة اسمى من شرائع البشر . كانت جراحها تنزف من قسوة القدر ولكنها بان كل هذه الجراح قد التأمت بغتة . وكأن الالهة قد عطفن على المراة الطيبة ورثين لدموعها فأحطن بها مهنئات . قالت الواحدة: سنعوض الطفلة ما حرمته أمها المسكينة من سعادة . وسأبتدىء فأهبها الثروة ساجعلها غنية يترامى العالم على قدميها . قالت الثانية : أما أنا فسأهبها اثمن ما تتمناه المراة ، وما تفخر به فأجعلها اجمل نساء العالم طرا . وقالت الثالثة : سأجعلها لامعة فاتنة . سأهبها الذكاء فتكون اذكى نساء عصرها . . وقالت الاخيرة : سأهبها قلبا رقيقا يقطر حنانا . . » .

حتى اذا استشرفت اسمى طوبى خاتمة المطاف ، جعلت تستنطق الحدث الدرامى مستنبطة و « ومستدرجة » : « ولكن الام الشابة صاحت تقول : رحماك أيتها الالهة دعيها بدون قلب ، فقد كانت مصيبة أمها من قلبها » !

ثم موضوع آخر « عيد : من صميم الحياة » (2) . تنقله اسمى طوبى كصورة فوتوغرافية : « اليوم عيد . وفى الغرفة المجاورة لمنزلى تسكن عائلة مكونة من ستة اشخاص تمثل أجيالا ثلاثة . الزوجان الهرمان . والزوجان الشابان . وطفلان : بنية فى الثامنة من عمرها وصبى فى الرابعة » .

---

2 — ص 20 نفس المرجع

الى هنا كل شيء هادىء ولكنه ــ كما يبدو ــ ذو بال ..

وتخطو أسمى طوبى فى سياقها القصصي خطوات عساها أن تفضح عن سر المعنى الذي تريد تسليط النور عليه : « ثلاثة أجيال تعيش فـــى غرفة صغيرة مظلمة لا تكاد الشمس تدخلها . ايجارها ثلاثون ليـــرة فى الشهر . وما أسرع ما يركض الشهر . والقرش يوضع على نصف القرش . لئلا تطرح الاسرة ، بشيخها وطفليها فى العراء فلا يظل سقف فوقها . . ثلاثة أجيال من ستة أشخاص يعيلها ويجب أن يعيلها رجل واحد . . زوج وفى واب حنون وابن بار . يجب أن يعيلها ولكن من أين ؟ » .

لكن العقدة لا تنجلى الا بعد استيفاء كل شيء حظه . . بعد استشراف نهاية الحكاية وهى ذات دلالة بليغة دون افتعال . . مؤثرة من غير زيـــف . « عيد ؟ الا أن يكون للبؤس عيد . . والا أن يكون للناس قد ابتكروا اسما جديدا للعيد فأسموه . . عيد التعاسة ، أو عيد الامل الضائع . . » .

ثم مــــــاذا ؟

ثم لنر معا كيف تتناول اسمى طوبى حادثة اعتيادية وتنتهى منها الـــى غرض فلسفي وانساني معا : « نقطة المطر رافقتنا أمس منذ حملت بهـــا السماء حتى ولدتها بركة للارض وخيرا » .

ما ان تستطرد اسمى طوبى بعض الشيء حتى تؤوب الى مجراها الفكري وتيارها الشعوري : « ومضت القطرات تصب فى ميـــاه النهــــر الكبير فيزداد هديرا ويركض الى هنا وهناك كأنه يود أن يكتشـــف . . ويروى . . وينتصـــر . » .

هنا ما فى سطورها الاخيرة : « وسمعتنى الاديبة الراحلة مى زيادة على شاطىء النهر الكبير وتسأل : من أين والى اين أيتها الميــــــاه ؟ وسمعتنى أجيبها : كل الانهار تجري الى البحر والبحر ليس بملآن » (3)

---

3 ــ ص 77 « نفحات عطر » اسمى طوبى

تلك هى طريقة اسمى طوبى فى الاداء . . فى الاداة ، تحقيقا لمـــا تتعمد وتبغى . . انها تدع القارىء طوال قراءات تأملية ان يستخلــص بنفسه الطابع الوجدانى والانسانى والوطنى الساري فى خلال السطــور وان يستجلى بنفسه ايضا حقيقة الاشياء والوعى بوجودها ، والتــى يترجمها الواقـــع .

فالوقوف على الحقيقة الثابتة والمتغيرة والاحساس بالطبيعـــة : انطلاقا وانكماشا ، وتمييز الخصائص الحياتية والحضارية أمــام ركــام هائل من القضايا والافكار ، لا يتم ولا يمكن أن يتم دفعة واحدة بل بعــد رحلة عــذاب من قراءة وتأمــل . .

انها لطريقة تشوق القارىء وتستدرجه لما يراد تلقائيا ، ولما يــراد قصـــــدا .



اسمى طوبى كاتبة وجدانية أكثر منها عقلانية . .

تستمد رسومها من واقعنا المتغير الموبوء بالتناقضات والصراعات. لا غرابة فى ذلك ما دامت هى تشهد ببصرها وبصيرتها كل ما يجول هنــا وهناك ، فتتولى نقله بأمانة ، ليبقى صورة ناطقة شاهدة على الايــام ، يتملاها الخاصة والعامة من النــاس . .

ولعلنا نلمس هذا الطابع ونحن نقرأ ما تقوله اسمى طوبى فـــى حديثها « حب » (4) : « الحب يهرب من الفقر . ولكن اي الحبيبين ؟ أنه ليس حب الرجل طبعا . فالرجل الذي يصيبه الفقر يتزايد عطفه على المرأة التى لم يعد لديه ما يقدمه لها سوى قلبه . انها تصبح فى نظره مخلوقــة يقاسى الحرمان فهو يستحق الحنان . . فالمقصود اذن هو حب المرأة . . قد يكون هذا . ولكنهما حبان . حب يرى الفقر مقبلا من الباب فيتجــه

4 — ص 72 « احاديث من القلب »

نحو النافذة وهو يتمتم كلهن يسعدن . فما ذنبى لاشتقى . لست أستطيع . كلا لست استطيع . . وحب يرى الفقر مقبلا فيلاقيه على الباب وهو يقول : تعال . لقد تعبت النهار بطوله . رأيت بعينى خيالى عرق الشقاء يسيـــل من جبهتك ولكنك ستنسى شقاءك هنا . هذا رغيف واحد لكلينا . وهـــذه وسادة واحدة نسند راسينا عليها . . هو كوخ يا حبيبى . ولكن فيـــه سعادة الصداقة وطمأنينة الاخلاص ولذة الحب المليء بالوفاء فاسترح . ؟ ان الغد مقبل . . والغد لنا فلا تيأس . . » .

ثم هذا حوار وجدانى تديره أسمى طوبى بعمق وببعد نظر ، بين ثري عابث لا تعنيه الاشهواته ، وفتاة شريفة لا يهمها الا الحفـــاظ على مثلها (5) : « أوه ! كلا . يا صاحبى ، لقد خيل الى هؤلاء الناس أنهم يصعدون سلم النجاح بسرعة . ولو أنهم التفتوا الى الوراء لراعهم مـــا يتجلى فى أنظار المشيعين من اشفاق وازدراء . ليس المال كل شىء فى الدنيا . وليس هو مقياس النجاح اذا ما جمع بأي وسيلة كانت . . .

ان هنالك قلوبا تحترم وقلوبا تعجب ، وان ثروة الدنيا بأسرهـــا لا تساوي فقدان هذه القلـــوب . . .

وكان مطرقا . . . وعادت تقـــول :

اتذكر وصية ذلك الشيخ لاولاده : « بنى اجمعوا المال بشرف . واذا لم تستطيعوا فاجمعوه بكل الطرق » لقد فعلوا وجمعوا المال بكل الطرق فحصلوا على ثروة الدنيا وعلى كره الدنيـــا .

وصمتت وصمت . . وطال صمتهما ثم رفع راسه . وقال : لو فكرت كل فتاة تفكيرك هذا لتغير مجرى الحياة . . وأردف مبتسما : ولحســــب الرجال حساب هذه الساعة ولما تم زواج .

قالت : انك لتبالغ يا صاحبى فالدنيا بخير ، وفيها والحمد لله الى جانب مكر الثعالب الكثير من النبل » .

---

5 — ص 70 نفس المرجع

والطابع الوجدانى بعد هذا كله ، تمازجه حينا ، مظاهر الطبيعة ، ليزداد جمالا فى الصورة الفنية ، وعمقا فى المضمون المراد ، وخصوبة فى المعاناة الشعوريـــة . .

ربما كانت دعوة اسمى طوبى ــ وهى المتاثرة بنظرات فلاسفـــة فرنسا كجان جاك روسو وفولتير ومونتسكيو ــ الى الرجوع أو السكون الى الطبيعة ، خلاصا لما نقاسيه فى واقعنا الرهيب من تمزقـــــات وتناقضات ، وتطهيرا للذات من ادران هذا الواقع : « بلى . ان للامسيات سحرها . فدعى الانوار الساطعة تغمض اجفانها ليغمرك ذلك السحـــر وتعالى . تعالى نسمع حفيف الاغصان وقد تحول الى همس عميـــق المعانى فنفهمه . . انها تهمس . . كلانا غريبان هنا . كلانا من الارض والى الارض . اما الخلود فهناك . تعالى نرى ظلالها متعانقة أبدا تظلل الغريب والقريب . . وتمثل الصداقة والوفاء . تعالى الى الامواج المتدافعة الى الشاطىء ، تعزف الحانها الخالدة . . صاخبة كصخب الدنيا . . هادئـــة كهدوء السماء . . تعالى نحيا مع الطبيعة . . همسة من همساتها . . ظلا من ظلالها . . لحنا من الحانها . . فما تساوي الدنيا ؟ ساعة هادئـــــة من أمسية هادئة . . »



والوجدانية فى حالات وبحكم طبيعتها واصالتها ، لتدعو المرء ، أن يكون على قسط كثير او قليل من الانسانية ، لما بينهما من صلة مشتركة يغذيها مصدر واحد . .

فالطابع الانسانى فى أدب اسمى طوبى يعبر عن نفسه شفافا . . صادقا عبر موضوعات ، متخذا افقه وبعده . . وقد تجلى ذلك فى مقالات وقصائد نشرتها اسمى طوبى على تطاول الاعوام . .

هذا مقالها « فراشة » (6) وبه تقول : « قال الصديق : مررت بها فى يوم حار من تلك الايام التى غمر لهيبها البلاد . وكانت تلتصـــق

6 ــ ص 61 نفس المرجع

بزجاج النافذة . براقة الجناحين ولكنها متعبة . ودفعتها فسقطت أرضـــا فمررت بها وعدت بعد ساعة فما راعنى الا أن أرى سربا من النمـــل احاط بالمسكينة وراح يفترسها . . وانتصب الضمير يقاضينى . ذلـك الشيء الطيب العادل فينا الذي يأخذ دائما جانب الضعيف . لا يحابى ولا يعرف لينا أو هوادة . ذلك الرفيق الذي يلازمك ــ ليحاسبك على كــل شيء . . تحاول أن تتوارى من طريقه فلا تستطيع . وتحاول أن تخرسه فيصمت . . ولكن الى عودة وعودة . . ووخزت الكلمة فآلمته . وقلت : « ولكني لم افعل سوى انني دفعتها عن زجاج .. النافذة .. » .

قال : ولكنها سقطت وقد رايت انت ذلك .. ؟

قلت : كان عليها أن تطير ثانية ؟

قال : كانت ضعيفة متعبة . وقد قلبتها الصدمة رأسا على عقب فلم تعد تستطيع حراكا . ولو انك مددت اليها يدا لانقذتهــا . .

قلت : لم اكن اعلم ان هذا سيكون مصيرها .

قال باصرار : هذا لا ينفى انك كنت السبب المباشر للجريمـــة ؟ جريمة سببها الاهمال وعدم المبالاة . كان هناك مخلوق ضعيف يرتمـــى أمامك . ؟ وكان بامكانك انقاذه فلم تفعل . . »

اي عمق هذا الذي يكشفه المضمون ! واي شكل حركى هذا قائـــم على الحوار . .

وقد يكون من الاهمية أن نتطرق الى مأساة « شهيدة حيفا » (7) ، حيث قتلها الصهاينة برصاص الغدر ، ودفنها الانكليز بشماتة ، وكيــف عاشت اختها بالذات هذه التجربة القاسية الاليمة بفؤاد دام ونفـــس جزعة ، محاولة انجاد الشهيدة العذراء بما ملكت وهى تخوض المخاطر . تقول أسمى طوبى : « وسمعت وقع خطوات مسرعة ورائى فالتفت .

7 ــ ص 322 « عبير ومجد » اسمى طوبى

كانت أختى تركض وحقيبتها بيدها دون أن تقول هى الاخرى لامنـــا كلمة . كانت هنالك جريحة وصوت مواطنة يستنجد بنا وهذا كلما وعيناه. وامام الباب ابتدأنا نزحف بحذر متدارين بجدار الملعب المحاذ لمنزلنـــا والرصاص يتطاير من فوق رؤوسنا ؟ ثم قفزنا من فوق سور الملعـــب الواطىء فاصبحنا فى داخله هدفا مكشوفا ولكـــن ما حيلتنـــا وصراخ الاستنجاد جاء من هنا . . ورحنا نتلفت حولنا نبحث عن صوت المـرأة الذي استنجد ثم ماذا ؟ أفى لحظة حدث ذلك ؟ أفى دقائق ؟ لســـت ادري . . كان الرصاص يئز . وبغتة صرخت شقيقتى بجانبى وارتمـت ارضا . . وانحنيت عليها وانا أصرخ هلعا . كانت الرصاصة فى معدتهـا وقد ازرق كل اديم جدار المعدة ولم ينزف الدم بكثرة . لقد استعمـــل الانذال رصاص دمدم كما قرر الاطباء بعد ذلك .

وحاولت أن التقط كلمة من فمها . قلت : انا بجانبك يا أختى . فهمست : ولكننى لا أراك . .

وابتدأت بدوري اصيح . . الى . . الى . . أو لعل أحدا ما لـــم يسمعنى . وبعد قليل اقبلت امـــى !

هل اصفَ أمى الوالهة ؟ تلك لحظات لن أستطيع وصفها . وحملناها . أمى وأنا ولا احد غيرنا الى المنزل ورحنا نحاول اسعافها . . ولم تصـــل سيارة الاسعاف التى طلبتها . وعلمنا بعدئذ أن سائقها قد قتل . لم تكن هنالك حرمة للصليب أو الهلال الاحمر فاطلقوا النار على سيـــــارة الاسعاف . كانت فرصة العمر عند السفاحين أن يقتلوا ويقتلوا بـــلا حســــــاب . .

ومسحت شقيقة الشهيدة دموعها . . وهمست بين دموعى : ثم ماذا؟

قالت : وماتت شقيقتى ولم يستطع قريب او صديق الوصول الينا . ولم يكن لدينا كفن ولا صندوق ، فرحنا ــ أمى وانا ــ نلفها بالشراشف البيضاء كروحها الطاهرة .

سألت : واين دفنـــت ؟

أجابت : لست أدري . لقد حملها الجيش البريطانى الذي كان يدفن القتلى فى ذلك اليوم . الجيش الرحوم الذي وقف يتفرج علينا ونحن نخوض المعركة عزلا . وعدونا مسلح بالمدافع ورصاص دمدم . حملها الجيـــش من داخل المنزل . . ولا ندري أين دفنها . . » .

هكذا تكتب اسمى طوبى غامسة يراعها فى دم القلب ودمع العين وزيت الثورة ومـــداد الكآبـــة :

ولئن مننت بأن غفـــرت
فهل أعود غدا وانسى ؟
واقول . . عفوك واسع ،
والى ضلالاتى أؤوب . . ؟



أنا ضائع ان أنت لم
ترصـــد خطـــاي
لم تهدنى سبل الصـــلاح
لادفن النغضـــاء فى
وأزرع الحب الكبير ،
يلف دنيـــاي الشقيـــة ،
كالوشـــــاح . . .

ثم الا يشجيك هذا الصوت بنغمته الانسانية وضراعته المثيـــرة وادائه الجنائـــزي :

فى صبـــاح العيـــد صلينـــا لتمحـــي السيئـــــات . .
مـــن سجـل العمـــر مزقنـــا الخطـــايـــا السالفـــات

اترانـــى فـــى غـــد نخطـــــىء ننســـى مــــن جديـــــد
صوتـــه الهامـــس فى الفجـــر . . . . . الـــســـعـــيـــد
ان . . احبوا . . ؟
يـــا أبـــا الـــرحـــمـــة انـــا نشتهـــى دنيـــا عطايـــا . . .
ان فـــــى أعمـــاقنـــــا من روحـــك العليا بقايـــا . . .
نشتهـــى سلمـــا يعـــم الكـــون قدســـى النوايـــا . . .
نـــشـــتـــهـــيـــه مـــوطـــنـــا للخـــيـــر للبـــذل نعلمنـــا وردد
ان . . احبـــوا . . !

*

أما الطابع الوطنى فى أدب أسمى طوبى فحدث عنه ولا حرج .

وقد يكون طاغيـــا على غيره . .

اذا كانت الانسانية هى حصيلة الوجدانية ، فان الوطنية لا تقيـــم وجودها ولا تديم هذا الوجود الا على أساس من هذه الوجدانية . .

فالنبع هـــو النبـــع . .

ولكن المختلفين اليه ، والمترددين عليه مختلفون . ولا ضير فى اختلاف اذا كانت الغاية واحدة لا تتجزأ .

وطنية أسمى طوبى تبدأ بآيات الحب . وهل فى الدنيا أروع مـــن الحب ؟ لذا تقول اسمى طوبى فى مقدمة كتابها « عبير ومجد » وقـــد وضعته اعزازا لوطنها واعلاء لشأن ابنائه : « من أحب شيئا هان فـــى سبيله كل شىء . . ونحن نحب . . ومن وحى الحب امتلأت الدنيا فنـــا وأدبا وشعرا واغنية وصورة . . » .

انما حب الوطن هو اثمن شيء لدى اسمي طوبي والصق بها كيانا واحساسا . لانه فوق كل شيء .

أما قــــال الرصافـــي :

ولي وطن افنيت عمري بحبـــــه وشنت شملي فى هـــواه مبـــددا

وأما قال الرامعـــــى :

بلادي هواها فى لسانى وفى دمى يمجدها قلبى ويدعو لهـــا فمـــى

بل أما قالت اسمى طوبى عينها : « ولكن حب اوطاننا هو الـــــذي يرافقنا من المهد الى اللحد » (8) .

وتقول فى ديوانها الشعري « حبى الكبير » :

وقالوا تحب . . ؟
فقلت غرا مالرياض بماء نميـــر
تموت ويفنى شذاهــــا
اذا ما تلظى السعيـــر
وتبقى بـــــلادي
الهى بعد الهى
وتبقى بـــلادي
على الدهـــر أغنيتـــى
وحبى الكبير

*

احبـــك . . ؟
يبيض راسى بثلـــج الكبـــر
واحنى بثقل السنـــين
وتبقين فى كـــل حـــين
صلاة على شفتـــى
صلاة المحـــب الامـــين . .

8 ــ ص 7 مقدمة « عبير ومجد »

وتقول كذلك فى كتابها « احاديث من القلب » : «علمتنى مآسى الحياة أن اوطان الناس هى قطع من اكبادهم وهم لا يعلمون . . فاذا ما اصيبت عاشوا مفتتي الاكباد ، فعلموا . . » (9) .

وترى اسمى طوبى أن المهاجر عن وطنه الى الدنيا الجديدة مثلا ، طوعا واختيارا ، مهما تمادت به الغربة واتيحت له اسباب الطمانينة فى رحابها ، فان هذا الوطن يبقى يناديه من بعيد : ان عد « فاذا به يعاف المدينة بكل ملذاتها ومتعها ويعود ليقضى باقى حياته فى ظلال الكوخ والتنة . . يودع مباهج العالم الجديد ولسان حاله ينشد :

تلك المنازل لا نرضى بها بدلا لا الدار دارا ولا الجيران جيرانا

ذلك شأن المهاجر الذي يترك موطنه مختارا . . ويتركه فى دعة . . ويطمئن الى انه يستطيع العودة اليه كل ساعة . . » (10) .

هذا راي لا بد أن تكون عليه علامة استفهام ؟

فالحنين والشوق وان دفعا الانسان ، وهو على أرض غريبة الى وطنه ، فان ذلك لا يتحقق دائما ، ولدينا اكثر من دليل ، مستقى من الظروف الموضوعية والتجارب الواقعية . .

غير أن الحب الكبير لاسمى طوبى هو فلسطين : مسقطها وموطنها . .

أي ايمان أعمق من هذا الايمان ؟ واي حب اكرم من هذا الحب ؟

احبك . . ؟
أحيا بدونك فى غربتى
مهيض الجناح
يمزق أذنى همس مدين .

---

9 — ص 51 « احاديث من القلب »
10 — ص 51 نفس المرجع

ويقتلني كالردى أصبــع
يشير بانـــــى
غريـــب

*

وأصغى لاشجارنا من بعيد
تنادي . . تعالوا
منازلنا من بعيد تنادي
معابدنا من بعيد تنادي
طغى الشوق يا رفقة العمـــر
هـــــــلا . .
شجاكم حنـــين الينــا
تعالوا نعيد الليالى الخوالـــى
تعالوا الينــــا

فلسطين هذه الارض الطاهرة : مهد عيسى ومسرى محمـــــــــد ، اغتصبها شذاذ الافاق ، كيف لا يمزق النفس مرآ ها، وكيف لا يفجر الشعر واقعها ، وكيف لا يفتق الذهن ما صارت اليه حال أهلها من اضطهــــاد وتشريد وجور لا نظير له :

انا من هناك . .
من ضفة اليرموك يا جيش العرب
وعجيج خالد ما يزال بمسمعى
حمما . . لهب
انا من قبابك بيت لحم
شماء عانقت الفضــاء
قرعت نواقيس السلام
فى مهد من خلق الفــداء
مــات الفـــداء
وتحطمت قيــم الســلام

فالوطنية تسري في طبيعة اسمى طوبى سريان الدم في عروق الانسان..

لا تفتأ تذكر الوطن هذا المدنس ، بذكريا تشاجية ، وتعيش مأساته التي انطبعت على صفحات التاريخ ، وتحث الشعب العربي كلــــه وقادته على تطهيره ، ولو تناثرت في سبيله الأشلاء ، وعلى استرداده ولو تداعت من أجله الجماجم . . أمر واحد لا ثاني له : الحياة أو الممات ؟

تقول أسمى طوبى : « ولا تقل لي بعد ذلك وما نفع الذكريـــات ؟ ان الشعوب التي تنسى هي الشعوب التي تثب عندما يحيـــن الوقـــت لتسترد حقها المسلوب . . والشعوب التى يظل الامل في صدرها جياشـــا هى الشعوب التى تظل معنوياتها قوية عالية » (11) ؟

واسمى طوبى كامرأة تتعاطى الفكر والشعر ، وهى في مستـــوى المعركة والاحداث تقول عنها سلوى عكاري : « فهذه السيدة التى تعيش المأساة بكل وجدانها تعلمنا كيف يكون الحديث عن فلسطين وجهـــاد فلسطين وشهداء فلسطين » ، ثم تستطرد : « وترشدنا السيدة التـــى تعيش في دارتها بين الكتب والمخطوطات وآخر ما افرزته مطابـــــع الصهيونية ، ترشدنا الى أن طريق النصر لن يكون الا بمزيد من الحرية والمزيد من المعرفة . وان نناقش انفسنا ونراجعها » .

وتؤمن أسمى طوبى برسالة الادب وفاعلية القلم في حرب التحريـــر والمصير . ولكنها تؤكد على أدب القوة بالذات . فبه يتحقق النصر وتتجسد التضحية ويقام هيكل الحرية ، وتأبى الى جانب ذلك ، ادب النـــواح والجراح . . هذا الذي لا مكان له في عصر متحرك معقد ، يفتح فيـــه القوي فاه كما لو كان غولا محاولا افتراس الضعيف . حيث تقول ومـــا اصدقها : « خطبة من انطونيوس جعلت الشعب الثائـــر على القيصـــر القتيل شعبا ثائرا له » (12) .

---

11 — ص 41 نفس المرجع
* — صحيفة « الجديد » اللبنانية في 29 — 9 — 1972
12 — ص 25 « احاديث من القلب »

ثم أن التحسر على الماضى واليأس من الغد ، ونحن نواجه العتاة البغاة ، ونتحدى الاقدار واقفين بصلابة فى وجه الامبريالية والاستعمارية بكل ما لنا من امكانات مادية ومعنوية — ان التحسر مرفوض أولا وأخيرا، لا لشيء الا لانه يشيع الخدر والانهزامية فى النفوس التواقة ، فيشلها ويقعدها عن متابعة النضال والاضطلاع بمسؤوليتها الملقاة على عاتقها ، « ولان الشعب الخائر — كما تريد أسمى طوبى — القوى ، الفاتر المعنويات قد يبيع المدفع والجندي الفاقد العزيمة يهب بندقيته لاول مهاجم » (13) .

ثم أن الحرية هى النشيد الازلى الذي يردده الانسان منذ يولد على الارض . بلوغها قد يكلفه وجوده ووجود الشعب الذي ينتمى اليه . . لذا كانت الارواح والنفوس تذهب فداء وتضحية فى سبيل هذه الحرية والتمتع بها . فلا خير فى شعب لا يذوق طعم الحرية ، ولا يستظل بظلال السيادة الوطنية ، ولا يصنع كيانه ومستقبله بيديه . .

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلابد ان يستجيب القدر

وشعب فلسطين الذي نال ما نال طوال أجيال من تحطيم وتمزيق على أيدي الانكليز والصهاينة والامريكان ، جدير بأن يعود الى وطنه المنكوب غدرا ، ويعاد اليه حقه المغصوب قهرا . ان ميثاق حقوق الانسان الذي اقرته هيئة الامم المتحدة ، ينص على ذلك نصا صريحا ويصر عليه اصرارا قاطعا .

فلماذا هذا الظلم الانسانى الكبير ؟

بغداد **وحيد الدين بهاء الدين**

---

13 — ص 29 نفس المرجع

كتاب الإحاطة

لابن الخطيب

(3)

نشر: محمد عبد الله عنان
تعليق: محمد ابن تاويت

وفي الصفحة 248 تصحف « تقسيم » بنفسه ، من قوله « يشرع في تقسيم الفرض » في السطر الثاني وسقط في الرابع « أخذ » بين على واجرة ، من قوله « وقد نص ابن القاسم على اخذ اجرة القسام » وتصحف في الثامن « أعقل » مبنيا للمجهول ، بأغفل ، كذلك . وتصحف في الذي يليه « لتوسعنا في المجال شرحا » بعبارة « لأستغلن المجلس شرحا » . وسقط أول الثاني عشر « بالفوز عنده » . وفي الرابع عشر جعل بين حاصرتين (ويصل) وقال في التعليق « اضفنا هذه الكلمة تستقيم المعنى » ... وأراها « ويقرن » أولى بمحلها .

وفي 251 جاء بيت هكذا :

اعلل هذا بخضرة شارب واحكي بهذا في تورده الخدا

ولا يستقيم مصراعه الاول الا بنحو : اعلل في هذا ... أو هذاك (بالحمل للوزن) .. ثم ورد بيتان هكذا :

وليل أدرناها سلافا كأنها على كف ساقيها تضرم نارا
غنينا عن المصباح في جنح ليلها بخد مدير لا بكأس عقار

فالقافية كما نرى مختلفة ، فلعل أولاها كانت :

« على كف ساقيها تضرم بالنار » وفيها قلق وغموض .
(ورفع « ليل » والصواب الجر وضم غين « غنينا » والصواب الفتح)
وكـــذا البيتـــان :

يومنا يـوم سـرور فلتقـــم تصدع الهم بكاسـات الـــدام

انما الدنيـا منـام فلتكـــن مغرما فيها بأحلـى المنـــام

فلعلها : « بكأس من مدام » « بحلم من منام »

وفى 252 جاء : وبي منك ما لو كان بالشرب ماصحا (بالتنويـــن ، والصواب عدمه ، لكونه فعلا ماضيا ، وعومل اسم الجمع كالمفـــرد :
فان شئت أن تهجر وان شئت فلتقبل فاني لما حملتني اليوم حامل
ففيه فعل « تهجر » مجزوما ، وحقه النصب ، وربما ارتكب فيه النادر فى الجزم بأن ، ويبقى « فلتقبل » غيـر مقبـول ، فلعلـه « تقبـل » .
ثم جاء مصراع هكذا : « اذا رام أن يحكى قوامـا كالقنـا »
وصوابـه « اذ رام »
وآخـــر : « على الرغم منا وان ذا لغريب » (والصواب اسقاط الواو)
وفى هذه الصفحة تفاضينا عن الشكل الذي تكرر فى خطأه ، وكذلـك فعلنا فى الصفحة 254 وما بعدها من الصفحات .

وفى الصفحة 255 جاء بيت هكذا :

ما حلت عن وده ساعـــة ولا اعتضت منه سواه بديـــلا

وعلق على « ما » بأنها وردت فى الخطوطين (لما) وحكمـة التصويـب واضحة ... مع أن « لما » واجبة كما نرى ، والا فالوزن يختـل بذلـك التصويب وفيها ورد بيت فى منتهى الكسر والغموض ، هكذا :

احسب وحده يوم راسك ربما تعطي السلامة فى الصراع سلما

فهذا بيت تعجز عن اصلاحه الافهام .

وفى 258 جاء مصراع هكذا ومرمى لعمري فى الرجـا سحيـق
(والصواب : فى الرجـاء ...)

وآخـــر : ولكني خدعت قلبي تعلة (ولا يستقيم وزنه الا بنحو : ولكن خدعت القلب فيها تعلـــة .

وفى نهاية الصفحة بيت :

نثرت عقود الدمع ثم نظمتها قريضا فذا در وذاك عقيـق

وعلق على المصراع الاخير بانه فى الزيتونة قريضا فصار لون ذاك عقيق (وهذا اقرب ، فكان اثباته أحق من غيره) .

وفى 259 وردت أبيـــات هكـــذا :

ايا عين كفي الدمع ما بقي الكرى اذا منعوك النـوم سوف تـــذوق

(ولعلها : فان منعوك .. ويبقى : « سوف تذوق » غير واضح تماما)

نقضت عهودي ظالما بعد عقدهـا الا ان عهدي كيف كنت وثيـــق

(بكسر همزة الا والصواب الفتـــح)

ومورد الوجنات معسول اللمـــى فتاك بلحظ العيـن في عشاقـــه

(وصوابه : فتاك لحظ العين ..)

ينادي غصن البـان فى اثوابـــه ويلوح بدر التـم فى أطواقـــــه

والصواب : ينآد غصن البان ..)

من للهلاك بثغـــره أو خـــــده هب انه يحكيه فى اشراقـــــه

(والصواب : للهلال ... ويحكيه بفتح الحاء)

ولقد تشبهت الظبـا بشبهـــــة من خلقه وعجزن عن اخلاقـــــه

(والصواب : ولقد تشبهت الظباء بشبهة)

وفى 260 وردت الابيـــات هكذا :

ياليت شعري لو كانت لذلك حيلة أو كان يعطي المرء باستحقاقـــه

(والصواب اسقاط « كانت » للوزن)

ذهبت حشاشة قلبي الصـــدوع   بين السلام ووقفة التوديـــــع

(والصـــواب : ... المصدوع)

ايه وبين الصدر مني والحشـــا   شجن طويت على شجاه ضلـــوع

(ببناء طويت للمجهول ، وصوابه للمتكلم)

عندي شجون فى التي جنت النوى   اشكو الفداة وهن فى توديــــع

(وصوابه : من اي أشجاني التي جنت النوى اشكو الفذاب وهن فى تنويع)

من وصلي الموقوف أو من سهدي   الموصول او من نومي المقطـــوع

(وفى النفح « أو من هجري الموصول » وهو الصواب فلا يتكر بما بعده)

ليت الذي بيني وبين صبابتـــي   بعد الذي بيني وبيـــن هجوعـــي

(جعل « بعد » ظرفا ، وصوابه ، بضم الاول والاخير فيستقيم معناه) والتعبير قرءاني « يا ليت بيني وبينك بعد المشرفين » .

وفى 261 ورد : ابعد ما غودرت فى أشراكه (وصوابه « من بعد ما»..)

عجبا لذاك الشعر زاد بفرقه (بضم الفاء والصواب فتحها)

خبرا صحيحا ليس بالمصنوع (والصواب : ليس بالموضوع)

وفى 262 وردت ابيـــات هكـــذا :

الم يعلموا أن اغترابي حرامـــــة   وأن ارتحالي عن دارهم هو البخت

صوابه : عن ديارهم البخت وضبط « حرامة » بالضم ولا يبدو له معنى)

نعم لست ارضى عن زماني او أرى   تهادي السفن المواخر والبخـــت

(والصواب : تهادى بي السفن برفعه ورفع توابعه ، لا بكسرها ...)

لقد سميت نفسي المقام ببلدة بهـــ   ـــا العيشة النكراء والمكسب السحت

(والصواب : انتهاء الصراع الاول عند بلدة) ثم ابدال كلمة النكـــراء بالنكداء ، وهو ما فى نسخة الزيتونة ، التي نص عليها ، فهذا أولى بالاثبات

وفى 263 ورد بيت هكذا :

لا تعد صيفك ان ذهبت لصاحب تعتده لكن تخير وانتق

(بضم عين تعد ، والصواب تسكينها وضم دالها ثم « صنفك » ، بـــدل صيفك ، فلا معنى لهذا . وبعده مصـــراع الـــذي يليـــه هكـــذا :

ان خولفت أصنافها لم تغلق (والصواب : « تعلق » بالعين) .

وفى الصفحة 264 وردت اخطاء شكلية ، اغضينا عنها كسابقاتهـــا الكثيـــــرة .

وفى 265 سقطت تاء الخطاب فى « قالوا تعبدت فقلـــت نعـــم » وتحرف « فانج » فى الشطرة : « ياقلب فانج لا اخالـــك ناجيـــا » ورد « فانج » واحسن من ذلك وزنا ما فى النفح .. « وما اخالك ناجيـــا » ، وقبل ذلك شطر هكذا : قال من يستطع رد القضاء (وصوابه : يستطيع رد القضـــــاء) .

وفى 266 جاء فى السطر الاول من « تكفله » والصواب تكلفه ، كما فى النفح . وفى الحادي عشر « أشرف مجيد » وصوابه : شريف مجيد.

وفى 268 ورد بيت هكذا :

صفراء كالعسجد المسبوك ان شربت تبدي احمرارا على الخدين مؤتلفا
(والمصراع الاول ينتهي بشربت)

وفى 77 زيدت « فى » قبل البيت المشهور :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبت بماء فعادت بعد أبوالا

وفى 278 شكلت كلمة « حبر » بالفتح والسكون ، وهي بالكســـر فالفتـــح بالبيـــت :

« جلا من بنات الفكر بكرا وزفها الى ناظري تختال فى حبر الحبر

وفى 279 أول رسالة « وقد من سيدي » بتشديد النون ، والصواب « وفد من سيدي » الجواب ...

وفى 283 ورد بيت هكذا :

اذا أتانا سماجة يتلألا ردى الشمس من تجليله تبوح

(وصوابه المصراع الاول : اذ ... يتلألا والمصراع بعده لا يتضح)

وفى 284 جاءت ابيات هكذا :

يا خليلي عرج على قبري تجد من أكلة الترب بين جنبي ضريح
خافت الصوت ان نصقت ولكن أى نطق ان اعتبرت فصيح
أبصرت عيني العجائب لكن لما فرق الموت بين جسمي وروح

والصواب فى الاول حذف « قبري » وانهاء المصراع بعد « من » وفى الثاني نصب خافت وتصحيح « نطقت » ، وفى الثالث ، حذف « لما» واضافة « روح » الى ضير المتكلم ،

وفى 265 يكتب البيان كالآتي :

أشكو الزمان الى الزمان ومن شكا صرف الزمان الى الزمان فشاكي
يابن السماك المستظل برمحه والعزل ترهب ذا السلاح الشاكي

(بالضم والسكون فى العزل)

وفى 290 جاء بيت ابن هاني الاندلسي هكذا :

أليلتنا اذ راسلت واردا وجفا وباتت لنا الجوزاء فى أذنها شنفا

بضم الليلة وهي بالنصب للنداء ، وصواب « وجف » المكسور الجيم وحفا بالحاء الساكنة ، ثم وباتت بالنون وشنفا بسكونه لا فتحه .
واحسن منه رواية : « وبتنا نرى الجوزاء فى اذنها شنفا »

وفى 291 بقية القصيدة ، أول بيت فيها :

وبات لنا ساق يقوم على الدجى بشمعة صبح لا تقط ولا تطفا

والصواب فيه « ساق » بحذف يائه للتنوين ، وليس بالضم المنون ، وبدل (صبح) نجم وبه يستقيم المعنى الجميل .

وفى نهاية البيت الذي يليه ، تشكل الوطفا بضم الواو لا بفتحه ، ثم جاء مصراع هكذا : «يقولون حقف فوق خيزرانة » وصوابه «فوقه خيزرانة»

أما البيت الوارد منها هكذا : « وقد فكت الظلماء بعض قيددنـــا » فالصواب « وقد ولت الظلماء تقفو نجومها »

ثم جاء مصراع آخر هكذا : « بمرزمها اليعسوب تجنبه طرفـــا » (والصواب « اليعبوب » وتسكين الجيم وضم النون من « تجنبه »)

وبعده جاء بيتان هكذا :

وقد قبلتها اختها من ورائهــــا لتخرق من ثنيا مجرتها سجفــا

كأن معلا قطبها فــارس لــــه لواء ان مر كوزان قد كرها الزحفا

وصواب الاول « وقد بادرتها » ولا يستقيم « قبلتها من ورائها » لان القبلة ، من القبل ، فهو ضد الوراء ، وصواب ثنيا « ثنيي » بكسر الثـاء وسكون النون ، وليس بضمها وفتح النون وتشديد الياء بعدها كما فعل بها ، أما معلا ، فصوابه « معلى » .

وفى 292 نجد فى باقي الابيات هكذا : «على لبتيه ضامنان له الحتفا» والصواب « لبدتيه » بدل لبتيه

« فذا رامح يهوى اليه سنانه » ينصب سنانه ، لا الضم

« قصصن فلم تسم الخوافي لها ضعفا » بفتح تاء تسم وسكـون سينها ، لا بضم التاء

كأن بني نعش ونعش مطافل بوجرة قد اضللن فى مهمه قشفا

وصوابه « ونعشا » ثم فتح ميم مطافل ، وضبط مهمه بفتح فسكون ففتح، لا بضم الاول وتشديد الثالث مكسورا ، وبعده « خشفا » بسكون الشين .

وقد جاشت الظلماء بيضا صوارما ومركوزة سمرا وفضفاضة زغفا

وصوابه « الدأماء بيضا ... ومارنة سمرا ، وفضفاة ، بالفتح لا الكسر ، وزغفا بالغين لا العين .

وفى 295 ورد المصراع : لولا النوى لم يبت حيران مكتئبا
(صوابه « حران مكتئبا »)

وفى 296 جاء بيت هكذا :

ياهل ترى تجمع الايام فرقتنا كعهدنا أو يرد القلب ساكبه

وصوابه : الفتنا سالبه

يرمون عرض الفلا بالسير عن غرض (صوابه « عن عرض » بالعين المضمومة والراء كذلك)

لم انس لا انس أياما بظلهما (صوابه « ان انس »)

وفى 297 حصلت أخطاء شكلية ، يطول الكلام بتتبعها ، وكذلك الصفحة بعدها ، والصفحة 300 والصفحة 305 فيما بعد ذلك .

وفى 299 ورد فى نهاية الصفحة البيتان :

واضحى من السلوان فى حرز معقل بعيد على الايام أن يتضعضعها

يرد الجفان النجل عن شرفاته وان لحظت عن كل أجيد أتلعا

والصواب ، فى الاول « بعيد عن الايام » وفى الثاني « يرد الجفون » ومن أخطاء الاملاء قبلها « تضفوا ملابسها » بالالف بعد الواو والصواب اسقاطه .

وفى 300 ورد بيت هذا :

لعمري لقد انضيت عزمي تطلبا وقضيت عمري رقية وتطلعا

وصوابه « أمضيت » كما فى بعض النسخ التي أشار اليها المحقق ، فوجب اثبات هذا ، ورقبة بالراء المكسورة والباء ، لا الضمة والياء .

وفى 303 جاء في السطر 9 « لم يخل فيه من افادة » والصواب « استفـــــادة » .

وفى 304 جاء « وقلب بنيران الشوق يتضرم » ولا يتـــزن ، وفى الهامش انه فى بعض النسخ « التشوق » وهو الصواب وكذلك يصحــــح « يتضرم » « بيضرم » وهذا هو الصواب لا غيره . ثم جاء مصراع هكذا : « وتشفي دموع الصب ما هو يكتم » والصواب «وتفشي» بالفاء قبل الشين

« فمن ذا الذي يحني علي ويرحم » والصواب « يحنو » كما هو فى بعض النســـــخ .

« يغض الحي طرفي كأني مجرم » ولا وزن له ولا معنى ، وصوابه كما فى اخرى « فما بال ذاك الباب دوني مبهم »

وفى 305 ورد أولها الشطر « لأنت من قلبي ونزهة خاطري » وصوابه « لأنت مني قلبي . . . ولا يستقيم لغيره وزن ولا معنى .

وقبل البيت الاخير فى الصفحة ورد بيتان هكذا :

وذي أشر عذب الثنايا مخصـــر يسقي به ماء النعيم الاقاحيـــا

احوم عليه ما دجى الليل ساهـرا ,واصبح دون لورد ظمآن ضاريـــا

(شكل«يسقي»بفتح فسكون وهو بضم ففتح فتشديد القاف بكسر)وفى الثاني (سقط الالف من الورد)

وفى 306 ورد بيت هكذا :

اناشدكم والحر أوفى بعهـــــده ولن يعدم الخير والاحسان جازيا

(صوابه : الاحسان والخير)

وفى 307 ورد بيت هكذا :

حنت الى نجد وليســت دارهــــا وصبت الى هندية والنـــــــار

(صوابه : الى هنديه والغار)

وفى 308 جاء بيتان هكذا :

اذا قلت لا يبـدو اشال لسانـه وان قلت لا يخبو الصبابة اذ لفـا
الى أن افاق الصبح من غمرة الدجى واهدى نسيم الروض من طيبة عرفا

فى الاول شكل « همزة اذلفا » ، بالكسر ، على نحو « اذ » مفصولة عما بعدها وشددت فاؤه ، فان لم يكن هذا من الطباعة ، فلا ندري كيف فهم « لفا » ، وقد علق على المصراع بانه فى النفح : « وان قلت لا يخفى الضياء به كفا » وهذا أوضح وأحسن ، وفى الثاني تحرف «طيبه» بطيبة..

وفى 309 شكلت كلمة « الحذر » فى الشطرة « فقلت لجلاسي خذوا الحذر انما » بفتحتين ، والصواب الكسر فالسكون ، والتعبير قرآني وورد بالائمي فى الجود والجود شيمتي (وصوابه كما فى النفح « الائمة » اذ البيت من الطويل ولا يتزن بغير هذا ، فوجب ثباته لا غيره .

وفى 310 سقطت أول السطر « وقد » بعد كلمة الشفا ، هكذا : وفى مدح كتاب الشفا ، وقد طلبه الفقيه ...

فى 311 جـاء بيتـان هكذا :

ياشقة النـفس مـن هـوان لجـج فى أبحـر الهـوان
لـم يثـن عن هـواك ثـان يا بغية القلـوب قـد كفـان

ففى الاول شكل « لجج » بضم ففتح ، والصواب بفتح فتشديد به ، وفى الثاني صوابه « يثنه » .. ثم « القلب » بدل القلوب اذ لا يتزن بها .

وفى 317 كتب بيت هكذا :

« اما هذه نجد اما ذلك الحمى فهل عميت عيناه أم صمت أذناه »

وحق الشطر الاول أن ينتهي عند الحمى ، وصواب « صمت » اسقاط تاء التانيث منها وهو كذلك فى الاسكوريال بالتعليق .

وفى 318 جاء بيت هكذا :

ويا صاحبي عج بي على الخيف من منى   وما التعني لي من بأني القاك

(شكل مني بالضم والصواب الكسر . والمصراع الثاني لا يتضح . وفيها ورد البيـــــت :

رماني فاصابني باول نظرة   فيا عجبا من علم الرشا الرميا

(صوابه : فاصماني بأول نظرة)

وقبل الاخير ورد بيتـــان :

وهم بأن يرقى الى الحور جسمه   فثقلته كتبا وحملتـــه حليـــــنا

اذا ما انثنى او لاح أو جاح أو رنا   سبا القضب والاقمار والمسك والضيا

ففى الاول جاء « كتبا » بضمتين ولا يستقيم بذلك وزنا ولا معنى ، وصوابه « كثبا » بالثاء المسكنة ، وفى الثاني « فاح » بدل جاح وتسكين القضب بدل ضمها .

وصواب « سقني » أول البيت الخامس « سقى »

وفى 319 ورد بيتان هكـــذا :

« ان لي عند كل نفحة بستـــان »   من الورد أو مـــن الياسينـــــا

نظـــرة والتفـــاتـــة اتمنـــــى   أن تكون حللـــت فيمـــا تلينـــا

وصوابـــــه :

ان لي عند كل نفحـــة بستــــا   ن من الورد أو من الياسينــــا

(زيدت الف الاطلاق للمناسبة)

وشكلت فى الثاني « نظرة » بالضم ، والصواب الفتح . و « تلينا » بالاطلاق كذلك .

وفى أول سطر من هذه الصحيفة ، تصحفت أسماء بأسماه ، ولم نذكر التصحيف بالشكل ، كما وقع فى الصفحة السابقة .

وفى الصفحة 320 ورد بيتان هكذا :

فما على الحبيب من اعتراض وللطبيب تصرف فى المراض

قد يرحل المرء لمطلوبه والسبب المطلوب فى الراحل

ففيها كسر واختلاف فى الوزن والقافية ، فان أقمنا الصراع الاول هكذا « فما على الحبيب مني اعتراض » عارضنا المصراع الثاني بوزنه الذي يخالف الوزن الاول ، بتلك الاقامة ، اللهم الا أن يقام هذا بنحو « وللطبيب شأنه في المراض (بالكسر لا بالضم الواقع فيه) . ويبقى بعد هذا الاختلاف فى القافية ، فكأن البيتين من مصدرين مختلفين .

وبعدها جاء « ولا ظلمت فى السؤال ، نعجته الى نعاجك » والصواب هكذا « ولا ظلمت فى سؤال نعجته الى نعاجك » .

وفى الصفحة 322 جاء أولها « ألقي الي كتاب كريم ، انه من » والصواب وضع هذا بين قوسي التنصيص وشكل كريم بضم منون بلا فاطلة

ثم جاء بيتان هكذا :

فلو كان رمحا واحدا لاتقيته ولكنه رمح وثان وثالث

ومن لعبت بشيمته المثاني فأحرى أن تطير به المثالث

فالبيتان كذلك مختلفان وزنا ، وليسا أخوين ، وقد ذكر المحقق أن الاخير بالاسكوريال ، جاء بعد « الانفطار » فى الفقرة التالية :

« وطار بي الشوق كل مطار وقرات سماء فكرتي سورة الانفطار »

فكان الواجب وضعه هنا ، لا اثر البيت الاول ، كما يقضي السياق بذلك .

وفى 324 وردت ثلاثة أبيات لابن ساعدة ، لم يراع التدوير فى اثنين منها ، وكتب الثالث هكذا :

لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر

وحق مصراعه الاول ان ينتهي عند « مواردا » بالتنوين لا بدونـــه ليتأتـــى الـــوزن .

وفى 325 ورد بيتـــان هكـــذا :

كتبـــت ولو انـــي استطيـــــع لاجلال قدرك بيـــن البشـــــر
قـــددت اليراعـــة مـــن انملـــي وكأن المـــداد سواد البصـــــر

فوجب فى الاول احلال « انني » محل « أني » ليتزن الشطر ، وفى الثاني احلال « كان » فعلا ، محل « كأن » للتشبيه ، ولا معنى له .

وفى 328 ورد بيت هكذا : « فقد قال الله فيك ما انت أهله » .

ولا يتزن الا بنحو « قال ربي فيك ... وبعد ذلك شكلت « يعني » بالضم في قولـــه :

فاياك يعني ذو الجلال بقوله « كذلك مكنا ليوسف في الارض »

وفى 330 كتب بيت هكذا :

فقلت وللزمان بد من الجنا فتا هت وقالت باللواحظ لا الابد

والصواب انهاء الشطر الاول بالجنا ، ونحوه وقع فى الصفحة التالية « اذا شئت ان أرضاك عبدا فمت هوى ... والواجب انهاء الشطرة بهوى

وفى 331 جاءت من هذه ابيات هكذا: كذلك بذل النفيس سهل لذى النهى (والصواب « النفس » ، للوزن وكونه ابلغ بذلك) . وجاء من اخرى

عرج على باني العذيب وناد وانشد فديتك ان حل فؤادي

والصواب «بأن»، ثم يسهل الهمز فى فعل انشد ، ويستبدل بحل «حللت» (ليتزن الشطر ويستقيم المعنى مع ما قبله) ويضبط « فديتك » بفتح الدال وتسكين الياء . وجاء من غير هذه بيت هكذا :

واحسن ما لدى لقاء حـــر وصحبته معشر بالمجـــد هام

(صوابه وصحبة معشر ــ بالكسر ــ هاموا . وان كان حذف مثل الـــواو معتـــادا)

واغفلنا كثيرا من التصحيف الواقع بالشكل ونحوه في هذه الصفحة واللتين بعدها .

وفي 332 ورد ما يلي : اذا ضلت عن الفوص السهام (والصواب « الفرض»)

وما أحمرت سدى بل من دما (الصواب عدم قطع الهمزة اولا ، ثم اثباتها أخيرا ليتزن الشطر)

وكم سهروا اذا ما الناس نام (الصواب « ناموا » باثبات الواو)

واشجع منه ان هز الحسام (الصواب منك ، لينساق مع سائقه ، « ابا الحجاج » ...)

وفي 233 جاء « اليك بها مهذبة المعاني » بضم مهذبة ، والصواب النصب على الحال

وفي 234 جاء « وتشرق بدر من بعده » بفتح التاء والراء مع تشديدها ، والصواب بالضم وكسر الراء بلا تشديد .

وفي 235 وردت أبيات هكذا :

« حديثك ما احلى فزيدي وحدثي » (ضبطت « فزيدي » بتشديد الياء ، والصواب بسكون ميت)

« وفي عقد وجدي بالاعادة فابعث » (ضبط عقد بالكسر ، والصواب الفتح ، وانهاء الشطر « بفانفثي » وهو مقتبس من سورة الفلق)

« واقسم بالانجيل اني شابق » علق عليه بأنه في الاسكوريال «لمائن» وهو الصواب ليوافق ما بعده)

ولم ياتهم عيسى بدين قساوة فيقسو على بثي ويلهو بمكرث

(والصواب « فلم » و « على مضني » بدل « بثي »)

« وقلبي من حلى التجلد عاطل » ضبطت الحاء بالضم واللام بالفتح ، والصواب الفتح فسكون ، وروى « حسن »

« سيصبح سري كالصبح مشهرا » (صوابه ، كالصباح ، ثم فتح الشين وتشديد الهاء بالفتح فى مشهرا)

ومن اخرى « وكالعنبر الهندي ما انت واطىء » (والصواب «أنا واطىء»)
« واني فى رياك واجد عرف ريحهم » (والصواب حذف « عرف »
هكذا : واني فى رياك واجد ريحهم

وفى 336 ورد : «فللشوق غايات لها ومبادىء » (صوابه ، غايات به؛ ليناسب ما قبله ، وبعده شكل ضمنتها بالفتح وهو بالضم)

« يلابسني منه عدو ممالئى » وعلق عليه بأنه فى الاسكوريال ، قلانى فلي منه ... وهذا هو الصواب لا عكسه

ولازمت سمت الصمت لا عن مذامة (الصواب « فذامة » بالفاء أول ،

وعلمي ذو ماء ونطقي شاطيء (والصواب « دأماء » وهو كذلك فى الذخيرة ، وعلق عليه بهذا)

وفى 337 ورد :
«اقبلن فى الحبرات يقصرن الخطا ويرين حلل الواشين القطا»

(والصواب كسر حاء الحبرات وزيادة فى قبل حلل ، وبعد هذه « الوراشين » لا الواشين)

« لمهفهف سكن الحسا والمسقصا » (صوابه « الحشا والمسقطا»)

وفى 339 ورد الشطر هكذا : « اثر الطرس كلما رقه » (الصواب أثر بفتح الهمزة ، والحسن بدل « الطرس » وهو بالنفح ، ورقمه ، لا رقه)
وفى 342 كتب بيتان هكذا :

فتاة برهـا الله مـن فتنـة فمن رآها ولم يفتن فليس بعاقل

(والصواب انتهاء الشطر بفمن)
حوراء بارعة الجمال غريدة تزهى فتزري بالقضيب الاملد

(والصواب انتهاء الشطر بفريرة او خريدة)

وفى 344 ورد :

نلنا بها آمالنـــا فى روضـــــة   تهـــدي لنا بشقهـــا شيـــــم

(والصواب لناشقها)

والورق تشدو والاواكة تنثني (شكلت الورق بفتح الراء والصواب تسكينهـــا)

وفى 345 ورد :

فكأنه والزهـر تـــاج فوقـــــه   ملك تجلى فى بساط اخضـــــــر

(شكل ملك بالضم وهو بفتح فكســـر)

والورق تقرا سيرة الطرب الفتي   ينسيك منها ناسخا منسوخـــــا

(الصواب الورق بضم فسكون ، وسورة ، وناسخ)

وفى 346 ورد :

خرق العوائد فى السرور نهارهم   فجعلت أبياتي لهـــم تاريخـــــا

(والصواب له ، كما بالنفح)

يهون علينا ان يبيـــد اثاثنـــــا   وتبقى علينا المكرمـات الاثابـــث

(والصواب الاثائـــــث)

وفى 347 ورد :

انـــت لا تدركـــه متبعـــــــا   فانا وليـــت عنـــه اتبعـــــك

(والصواب تبعك ومتبعا بتشديد التاء) . وفى هذه الصفحة كثير مـــن التصحيف الشكلي تركنا التنبيه عليه لطول ذلك بنحـــوه ، وكذلـــك فى الصفحتين : 350 ، 351 .

وفى 348 سقطت كلمات حكى وقد ، وكسرت همزة ان وهي مفتوحة فى الشطرة : أحببته أن حكى من قد فتنت به

وفى 351 وردت أبيات هكذا : سرت بين العذيت وبارق (صوابه العذيب)

لهن من الاشواق حاد فان ونت ... (الصواب انتهاء الشطرة بونت)

سما بهم طوف ببيت طامح (الصواب طرف)

فبشروا لهم كم خولوا من كرامة فكانت لما قدموه نتايجا

(الصواب فبشرى لهم ، لما قد قدموه نتايجا)

وفى 355 جاء « والآن أخدعها » (بضم العين ، والصواب والان أخدعها » بفتح العين اسما ، بعد فعل الان) واهمت اقتباسات من القرءأن فلم تقوس

وفى 359 جاء فى السطر الثالث « فغرتني » والصواب « فعزتني فى الخطاب » وهو تعبير قرآني .

وفى 361 جاء لألقوا اليه الامر طوعا وسلم (والصواب ، وسلموا) وكتب بيت هكذا : تنم بعرف المسك انفسها اذا يفوه لراو فى الندى بها فم (الصواب انتهاء الاول باذا ، والندى بتشديد الياء) .

362 ورد : « فهو العليم بما يلقى من السقم » (والصواب ، القى)

« وجسرة بين الدموع تلتق » (والصواب وحسرة ... تلتقي)

وفى 363 ورد : « بابن الخطيب الا من مما أتق » (والصواب ، الأمن ، لا الا ، بكسر الهمزة وتشديد اللام ، واتقي بالياء ، لا بدونها ، كما بالنفح)

« من صرفه من مرعد أو مبرق (والصواب ، بمرعد أو مبرق)

« تناسبت فى الخلق أو الخلق » (والصواب الاتيان بفي بعد أو ، ليتزن البيت ، وفى أول المصراع شكلت ندب بضم الدال ، والصواب تسكينها) .

كالسيف فى حد الظبا والرونق (والصواب « الظبى » ، لا الظبا)

وفى 365 ورد بيت هكذا :

ومالت لليد قبابه واشرقني بالدمع منها شروقها

(وصواب المصراع الاخير « واشرقني » ... والاول لا يستقيم)

ووردت أشطار هكذا : ومن دون واديها ظبا خوادل (والصواب ، ظباء باثبات الهمزة ، وخواذل ، بالذال المعجمة) وأخيراً ، مصراع هكذا :

من ديم الغيث الملثات ريقها (والصواب ، ومن ديم . والشطر الاول لا يتزن .

وفى 366 حق البيت الرابع والخامس التدوير ، وحق البيت السادس هكذا : وعدت عليها كأنها لم تعرف (اذ فيه ، كأن لم تعرف) والتاسع نهاية المصراع الاول فيه يجب أن تكون عند « عنت به » اذ وردت النهاية بلكمة « صدقا » بعد ذلك على انه لا يبدو فى معناه ولا وزنه استقامة هكذا « ياتي على تكرر ما عنت به » فلعله « ياتي على تكرير ما غنت به » بالغين المعجمة .

والعاشر جاء مصراعه الاول هكذا : تهدى للنفوس على اختلاف طباعها (ولا يتأتى به وزن ، وصوابه : تهدى النفوس ...)

والرابع عشر ، ينتهي بكلمة « اختفي » (بالياء لا بحذفها كما عنده ، والسادس عشر ، يجب أن يشكل « الزمان وصرفه ، بالنصب لا بالرفع .

وفى 367 جاء مصراع هكذا : « ياليتهم حملوا الجثمان اذ سار » (والصواب : اذا ساروا) ثم جاء آخر هكذا : وخلفوا ودمع العين مدرار (وصوابه : وخلفوني ...) وتركنا التنبيه على التصحيفات الاخرى الواقعة بالاعجام ونحوه للطول بذكرها .

وفى 368 جاءت جملة « وتطير لها العقود » (والصواب لها العقول باللام ...) وقبل ذلك شكلت الميم الثانية فى المعمر بالكسر والصواب الفتح .

وفى 369 وردت الابيات الاخيرة هكذا :

أبى الدمع بعدك الا انفجـــــارا لدهر يبعدك فى الحكم جـــــارا
اذاق اللقاء الحلو لو لم يصل بـــه للنـوى جرعـــات مـــــرارا
رعى الله لمح ذاك اللقـــــاء وان يك أشـواقنـــا قـــد أثـــارا

أما البيت الاول من الثلاثة ، فصواب « بيعدك » مضمـــوم العيـــن « ببعدك » بباءين وسكون العين . والاخير منها يمكن اقامتـــه ، هكـــذا « رعى الله لمحات ذاك اللقاء » وياتي بعده الشطر الثاني بالبيت هكذا :
« وان يك أشواقنا قد أثارا » ولا تنوين به ، بعد ما يكون المصراع الثاني من الثاني ، هكذا : « به للنوى جرعات مرارا » ويبقى الاول معضلا فيهما .

وفى 370 جاء شطر فى بيت هكذا : وذكرني وقت أنس مضا برندة ، وفى البيت كسابقه جور المصراع الاول على الثاني فحق هذا :
« برندة حيث الجلال استشارا » وفيه أيضا :

حللت لبرق لاح من سرحتي نجد حنين تهافى تحن الى نجد

(والصواب « حننت » وكسر دال « نجد » لا تسكينها و « يحن » باليـــاء لا بالتاء . وجاء فى آخر بيت بالصحيفة : فها أنا فى وجدي وفى كلفي وجد (بكسر الجيم وضم الدال ، والصواب وحدي ، بفتح الواو وتسكين الحاء ثـــم اليـــاء) .

وفى 371 جاء السطر الثالث عشر هكذا :

«ومشعشعي راح هذا الدن،بجموع أدوات،وفارس يراعة،ظريف المنزع..» والصواب فيه : ومشعشع راح هذا الدن ، مجموع أدوات ، وفارس يراعة ودواة ، ظريف المنزع ... (باثبات « دواة » الساقطة فيه وبها يتحقق السجـــــع) .

وفى 372 تصحف فى السطر الرابع « شجنه » بشجنة ، هكـــذا :
برح يبوح بشجنه ، ثم سقط نقط فى البيت الثاني بهـــا ، وكتـــب فى

الرابع عشر : « وأنسوا » وصوابها « وآنسوا » بالمد وفتح النون ، وفى الخامس عشر ، علق على « يؤدي عني نغمها » بأنها ساقطة فى النفح مع اننا فيه نجد ما يلي :

« تؤدى عني الى الاحبة نفحها سلاما وتورد » . وهو عندنا « يؤدى عني نغمها ، الى الاحبة سلاما ، ويورد » فلا سقط بل التغيير فى حرف المضارعة بالفعلين ، وبجعل « نفحها » أو تحريفها بالواردة هنا « نغمها » ولا تبديل فى سياقها .

وفى 373 جاء أول البيت الاخير بالاربعة الاولى ، هكذا : يخاطبن مهما طرن شوقا ، (والصواب : يخاطبهن ... وبذلك يتزن الشطر ، ويستقيم المعنى ، ثم جاء آخر نحوه فى الاربعة الثانية : أعدده خير أعياد الزمان اذا ، والصواب : أعده ... وبذلك يتزن ويتضح : ثم يجب أول لفقة ، تسهيل لفظ « أوطاني » اذ لا يتزن بأوطائي ... وقبل ذلك أتى البيت الاول هكذا :

يوم يداوي زماناتي من ازماني أزبر تنغيص أحياني فأحياني

(والصواب تسهيل « ازماني » وفتح النون قبله من حرف الجر ، ولا يتضح ازبر ، الذي علق عليه بأنه فى النفح « أزأل » فهذا هو الصواب الذي يجب اثباته ، لا غيره) .

وفى 374 جاء فى السطر السادس « وكأنما اغمضدي للنوم » والصواب « أغمضني النوم » . ثم أتى البيت الاخير من الثلاثة هكذا :

يالقرب الآمال من حفواته لو انه قضت بها أوطاره

والصواب :

ما اقرب الآمال من غفواته لو أنها قضيت بها أوطاره

وفى 375 ورد بعد بيت ابن زيدون : « ... يتهاداه للغور والنجد ، ويتداوله الأرقال والوخد ... وسيمه الانضاء .. »

والصواب فيه « يتهاداه الغور والنجد ، ويتداوله الارقال (بكسر أوله ، وسئمه (من السآمة) الانضاء ... ثم جاء بالذي يليه « وتحفى به النواسم» وعلق عليه بأنه في النفح « وتحياته البواسم » وهذا هو الصواب لا غيره ، فكان أحق بالاثبات ، ثم بالبيت اول شطريه « صم صداها وعفى رسها » (بضم الصاد وتشديد فاء « عفى » والصواب الفتح وتخفيف الفـــاء) واخيرا ورد بالسطر الاخير « وعماذا تتأرجح انفاسه » وعلق عليه بأنـــه في النفح « وعما تتأرجح أنفاسه » وليس كذلك ، بل فيه « وعـــم » .

وفي 376 سقط « تعالى » في السطر الثالـــث عشر بقولـــه : « حياها الله تعالى منازل » .

وفي 377 جاءت أبيات هكذا :

اللبرق يبدو تسطير الجوانح وللورق تشدو وتستهل السوابح

وصوابه ... تستطير الجوانح ... تتشدو تستهـــل ... وتضـــم واو « للورق » لا فتحها كما مر هذا فيها كثيرا

اذا البرق أورى في الظلام زنادى (والصواب ... أورى زناده)
صرفت عدو البيد أرخو عنانه (والصواب ... أرخي .. بالياء)
فحمحم لو يستطيع نطقا لقاله (والصواب ... يسطيع ... لقاله)
وفي الاخير يجب أن يشكـــل « جلـــد » بفتحتين في
«سوى جلد لا يتقي منه فاضح»

وفي 378 جاءت بنفس القصيدة : « ومندمج صدق الانابيب نافذ به» (والصواب انهاء الشطر الاول عند نافذ ، ويجعل « به » أول الثاني

وقد شردت بي‌الظبا السوانح (والصواب :«وقد شردت‌مني الظباء‌السوانح» وتسكين الوحش قبله

سنا لك أسنى ولا هو لائح (والصواب ... لا اسنى ... بالنفي بلا)

تسربلت للادلاج جنح دجنة (شكل « جنح » بفتح الجيم و «دجنة» بفتحتين بينهما سكون ، والصواب الضم ثم ضم الدال والجيم ، فتشديد النـــون بفتـــح .

الي بلخط طرفه لي لامح (ففيه تصحف لحظ بلخط ، ولا شك ان هذا من الطباعـــة)

أكلف دمعي نحوها فهو طامح (شكلت أكلف بسكون الكاف وكسر اللام مخففة ، وهو من أخطاء الطباعة أيضا) .

وفى 379 جاءت أبيات من بقية القصيدة ، هكذا :

« لقربه ومنها للفراق نوايح » (والصواب ، لقربي . . .)

قضيت حقوق الشوق فى زورة للكرى فان زيارات الكرى لموانح

(والصواب أولا « الكرى » وبهذه تنتهي الشطرة الاولى ، وتبتدي الثانية « فان زيـــارات الكـــرى لموانح »

وحسبك قلب فى أسار اشتياقة (صوابه اشتياقه ، بالهاء ، وكسر همـــزة أسار قبلـــه) .

وفى 380 سقطت « من » بعد « سوادها » أول السطر السادس ، وشكلت « فأجروا » فى السابع بالضم للراء وهو بالفتح .

وفى 381 ورد البيت الاخير فيها هكذا :

جد لي بمـــا أملتـــه منـــــك يا مولاي واجبر بالرضى كســـري

مع أن الشطر الاول ينتهي بياء النداء هكذا :

جد لي بما املته منـــــك يـــا مولاي واجبر بالرضى كســـري

وصواب « الهجر » فى البيت قبله الكسر

وفى383 ورد البيت الثالث هكذا :

قد كنت أرغب أن افوت بخدمتي واحرر حلي عند بـــاب الـــــدار

!!! والصواب . . . واحط رحلي عندب باب الدار . ولعل « افوت » مصحـــف « أفـــوز »

ثم أتـــى بيت هكذا :

يا من له الشرف القديـم ومـــن له الحسب الصميم العد يوم فخار

والصـــواب :

يا من له الشرف القديم ومن له الـــــحسب الصميم العد يوم فخـــار

ينميها نور من الانوار (بفتح فسكون لينميها)

وفى 384 وردت أبيات هكذا : الشمس تحجب وهي أعـــظ تبـــر (الصـــواب « نيـــر »)

عن نازح الامكان والافكار (بالهمزة المفتوحة فى الامكان بدل كسرها)

فتوحشت من جودكم بنضار (والصواب ، فتوشحت ...)

ونم سبر الروض فى مسكة الدجا نسيم شذا الخير كالمسك والند

الصواب فيه : ونم نسيم الروض فى مسكة الدجا نميم شذا الخيرى..

وفى 385 أتى الشطر الثاني فى البيت الاول ، هكذا :

« غداة افترقنا والنوى رندها بعد » والصواب ... يعـــدى باليـــاء أولا وأخيرا ، ورندها بفتح الراء ، لا بضمها ، كما عندنا .

وناديت حادى العيس عرج لعلني أبثك وجدي ان تمر على نجد

والصواب انهاء الشطر الاول بلعلني ، وبدء الثاني بأبثك ...

وحلوني ولو بطيف خيال (صوابه ، وصلوني ...)

بابلي اللحاظ اصمى فؤاده (صوابه ... فؤادي)

ليس لي منه فى الهوى من مجبر (صوابه .. مجير ..باليـــاء ، وكسر الجيم ، لا تسكينهـــا)

علم الدين عزه وسناه ذروة المجد بدر أفق الجـــــلال

والصواب انهاء الشطر الاول بكلمة سناه ، وبدء الثاني بذروة

أوبنا الغضب فهو في الامن ماض (صوابه ، أو نضا الغضب ... الامر)

وفي 386 جاءت أبيات ثلاثة هكذا :

وكما همت فيه الثم كفا قـــد   اتت بالنوال قبـل الســؤال

صواب الاول نهايته بكفا ، وبداية غيره بقـــد

سالها ابن الخطيب عذرا اجابـت   تلثم النعل قبل شسـع النعـال

((الصواب تسهيل « سالها » والفتح والسكون في تلثـم)

وتوفي حق الوزارة عمن هـــو   ملك لهـا على كـل حـال

(الصواب انهاء الاول بعمـن) ...

وجاء في الشطر الثالث من ترجمة ابن الشديد « شاعر مجيد ، حول الكلام » (وصوابه « مجيد حوك الكلام »)

وورد البيت قبل الاخير شطره الثاني ، هكذا : يصيب الشمس منهن انثلام (صوابه ، يصيـب السمـر ...)

وفي 387 جاء الشطر : ثـوى منهـا قلـوب الـروم خوفـا (صوابه « خوف » بدليل « يخوف منه في المهد الغلام »)

فبلاعمار عندهم انصرام . وصوابه « فللاعمار »

اذا ما أشبه الليل الغمام (علق عليه بانه في النفح « القتام » وهذا هو الصواب وشهر للشعراء)

وفي 391 وردت أبيات هكذا :

ان كنت ذاك فلست ذاك ولا   انا قد اذنتك مفارقي بفراق

صوابه ، انهاء الشطر الاول بانا ومد الهمزة في آذنتك ، وبه يتزن البيت ويتضح ، كما ان صواب البيت الثالث بعده هكذا :

اللهو الفي والبطالة مركبي ... ... وصواب الثالث بعد هذا :

ولقد صددت الكاس فانقبضت بها   من بعد ما انبسطت يمين الساقي

واسقاط « من » الواردة فى « وكأنه لما توقد من فوقها » (وفى هذا أيضا تصحف « توقد » بتوقر بالراء ، ولا معنى له ، وتركنا كثيرا من التصحيف بالشكل الفادح ، مثل « أغوى بها ابليس قدما أدما » بدل قدما ، بالكسر لا الضم ، وآدما ، بدل ادما اذ صواب الشطرة : أغوى بها ابليس قدما آدما

وفى 392 ورد : يا حبذا ليله (وهو تصحيف طباعي ، صوابه «ليلة» بالتـــــاء

وفى 393 جاءت شطره ، هكذا : « لانهبتها وفرى واو دلالتها خدى (والصواب ... واوطاتها خدي ، وهو ما فى المطرب ، ولا معنى لغيره ،

فدا ولا ارضى بتفديه وحدي (صوابه ، فداء ..)

حتى استدرت عليهم كورة الفلك (صوابه ... استدارت ...)

وفى 394 جاءت شطرة فى قصيدة مدح بها الامير تاشفين بن علي هكذا : بيضت وجه امير المؤمنبن بها (صوابه « المسلمين »)

«فعد وقد واعتمد واحمد وسد وأبد» (صوابه واحمد، بالوصل من حمد)

وفى 395 جاء شطر هكذا : « كان البقية فى قوم قد انقرضـــوا » (وصوابه كان ، لا كأن للتشبيه) ثم ورد :

يعد فدا وفى أثوابه رمز من   كل ذي خلق عمرو وذي فطن

(صواب الاول انهاؤه برمز ، على كسره ولعل « فداء » مصحف عن « فردا» وكلمة « عمرو » صوابها « غمر » بالغين المعجمة و « رمز » صوابه « زمر » أخذا من الآية « ان ابراهيم كان أمة » فهو جمع زمرة وصدى هذا واضح)

كم خطت كارتجاج البحر مبهة   فرجتها بحسام سل من لسن

(صوابه « كـــم خطـــة » ...)

وفى 396 جاء فيها :

ما حل حبوته الا وقد عقدا حبا   بما اختار من أيد ومن منن

(الصواب انهاء الاول بعقد ولعل « حبا » محرف عن « حبوا » أو « حبى » جمـــع حبـــــوة) .

وفى 398 ورد : وبيضاء للبيض البهاليل تعتريه (صوابه ... تعتزي) وكانت فى محل العبشمين المملك (والصواب اسقاط « فى » لتتـــزن الشطرة) وقبلها تكتب « تخشى » هكذا بدل تخشي مع ضم الدال)

وفى 399 ورد « ويجبى الى خزانتها البر والبحر (صوابـــه ... خزانها ، بتشديد الزاي)

وفى الصفحة 400 وردت تصحيفات بالشكل ، مثل النصف ، فهو بالفتح ، وشطي بسكون الياء ، وتره بكسر ففتح بلا تشديد ، وزيـــدت لام فى شطره هكذا :

وان لها بالعامرية لمظهرا   فبهذه اللام ينكسر الشطـــر (والصـــواب « مظهرا » بدونهـــا)

وفى 401 جاء « وكان حديثا للوفود معرفا (الصواب ، كان ، فعلا ، لا كأن للتشبيه)

وفى 402 ورد : الى فصله لاكباب تنضى وتضرب والصواب : الى فضله الاكباد ...)

ومدوا طويلا صيته وثنـــاء   فلا زال مخلوع عليه سنـــاء

(صوابه ... ثناءه ... سناءه ، اتساقا مع بقاءه فناءه ولعل صـــواب « مخلوع » مخلوعـــا)

كان للثرياوات اطواد من نـرجس   ذوابيه تهفو بأدنـــى تنـــــفس

والصـــــواب :

كان الثرياوات أطواد نـــــرجس   ذوائبه تهفو بأدنـــى تنـــــفس

(باسقاط « من ») ، وبعده يزاد الدين فى الشطر الوارد هكذا :
« وقد قضي الذي لا يسوف » اذ الاصل « وقد قضي الدين الذي لا يسوف»
ويسوف بفتح الواو والتشديد ، لا بالكسر كذلك .

وفى 419 جاء بالسطرين ، الثاني والثالث « أبو اسحاق بن الحجاج، تنافس الناس من البلدين ، وغيرهم ... » والصواب : ابن الحجاج ... البلديين وغيرهم ... وتركنا التنبيه على التصحيف الوارد فيما قبلها وبعدها بالشكل والهمز ونحوهما .

وفى 422 تكرر «الذي» فى البيت : فثابر على القرآن والاثر الذي ...
وبعده :

وعد لك الخيرات عما سواها　　وكن بها مستمسكا ابد الدهر

والصواب « عد » بفتح فكسر مع التشديد ، لا بالضم والفتح ، وسواهما... وبهما ، بضمير التثنية ، لا الافراد .

وفى 424 تصحف وتحرف المصراعان من البيت الذي صححناه هكذا:

ولو كنت ممن يتقي الله لم تكن　　تمر متى تسخط وعند الرضى تحلى

ففيه تحرفت « ممن » وتصحفت « تمر » من المرارة ، والكلمة الاخيرة بسكون الحاء من الحلاوة ، ثم سقطت بعد « أولى » من الشطرة « على الصعب من سب الكرام أولي النبل » كما سقطت ال من « النبل » ثم سقطت الفاء أول هذه الشطرة « فان كان بعض الكبر نقصا فانه »

وفى 425 من نفس القصيدة ، وردت الابيات هكذا :

لسعيك فيها يابن خانية النعل　　(وصوابه : يابن خائنة النعل)

ولكنني عودت نفسي عادة من البذل　　لم أعدل بها قط عن بذل

(وصواب الشطر الاول انهاؤه بعادة)

ولكنه قد يدر الجهل بالجهل　　(والصواب قد يدرأ الجهل ...)
من الحكما القتل اذهب للقتل　　(الصواب « الحكماء » بالهمزة)

ثم شكلت « زدتنـــا » في السـادس مـــن الطباعـــة خطـــأ .

واخيرا جاء بيت في نهاية الصفحة هكذا :

فيا ليت شعري هل أفوز بعطف ـــمن زينت خدي وردا عليه أقوم

والصواب انهاء الشطرة الاولى بكلمة « من » ، وتبقى الثانية بعد ذلك على كسرها وغموضها .

وفي 427 جاء بالسطرين الخامس والسادس ما صورته « ويتسور به الاصلاح ، علي قلم يطمع بعد في مقامه ، وانصرف ، واستقر بتلمسان » والصواب فيه هكذا : « ويتسور به الاصلاح علي » فلم يطمع بعد في مقامه ، وانصرف ، واستقر بتلمسان . . . »

وفي 428 وردت الابيات الثلاثة في نهاية الصفحة :

اكريمة الجبين هـــل لمتيـــم	رحمى لديك فأرتجي رحمـــاك
اصبيتني بعد المشيب وليس مـن	غدر لمن لـم يصبـه ثـــراك
لولاك ما جذبت عناني لوعـــة	والله يشهـــد أننـــي لـــولاك

في الاول شكلت « رحمى » بالفتح ، والصواب الضـــم ، وفي أول الثاني صحف بأصبتني ، وفي أول الثالث سقطت الكـــاف ، وغمضـــت ثـــراك قبـــل .

وفي 429 سقطت « قد » من الشطرة «ان قد أعرت الشمس بعض حلاك» فانكسر الوزن بذلك ، كما انكسر في الشطرة التالية :

اني لايأس من وصالك تارة اذ حرف « وصالك » بوصلك ، فانكسر الشطر كذلك ، كما انكسر غيره بالشكل الخاطيء .

وفي النهاية ورد بيتان هكذا :

سالت على العافـي جداولـــــه	كما صالت على العادي بدا نـــاد
فشددت رحل مصيتي منـــــه	الى حيث السيادة تبتنـى وتشاد

والصواب انهاء الشطر الاول بكما ، ويبقى الثاني على كسره وانغلاقه، والبيت الثاني ، ينتهي شطره الاول بالي ، وصحف مطيتي بالصاد

وفي 430 جاءت اشطر هكذا :

خضرا فوق خضارة تعتاد (الصواب خضراء ، لا بتنوين الراء)
الا اناسا حدثوا فأجاد (الصواب فأجادوا ، بالواو بعد)

وتقدم أنهم يحذفون هذه الواو في القوافي خاصة كما يحذفون غيرها من حروف العلة الصامتة

وعلا تغاضر دونها التعداد (الصواب ، تقاصر ، بالقاف والصاد)

وفي 431 جاءت ابيات هكذا :

رب كن اذا وقفت ذليلا ناكس الراس استحي ان اراكا
(الصواب : رب كن لي اذا وقفت ذليلا ناكس ...)

رب من لي والنار قد قربت لي ... (شكلت قربت بفتح فضم ، والصواب بضم فكسر شدد)

رب اقررت اني عبد سوء ... (الصواب ، انني ، وضم عبد لا فتحه)

وفي السطر الثالث من الرسالة بعد الابيات ، تصحف « امتزجتا » بامتزتا ... ونترك بعد ذكر التصحيف بالشكل في الصفحات التالية .

وفي 434 جاء في نهايتها بيت هكذا :

بعد المزار ولوعته اشواق حكما بفيض مدامع الآماق

والصواب شكل عين بعد بالسكون ، ولوعة ، بدون اضافتها للضمير ، والاشواق بالتعريف ، لا التنكير ، وحكما بفتح الحاء لا بضمها .

وفي 435 جاءت الاشطر ، هكذا :

أمعللي ان التواصل في غد (بكسر ان والصواب فتحها)

وفى 439 جاء :

وجو ان يرتشف الندى فنديمه غربانـــه ووساده الصفـــاح
(والصواب انهاء الشطر الاول بفنديمـــه)

اروس أم تبيض النعام بمرجنا (والصواب : ارؤوس ام بيض النعـــــام . . .)

وفوارس نشوا لنهب فراس طلبوا انتشاو الدما للراح

(والصواب : نشروا . . . فوارس . . انتشاء بالدما لا الراح)

وفى 440 جاء بيت هكذا :

ابي الحسن العدل الرضى الحسن الذي أتته بأضعاف الزيادة حسناه

(الصواب : نهاية الاول بالذي)

وفى 441 جاءت أبيات هكذا :

مطيع رفيع خاضع متواضع كريم حليم طاهر القلب أواه

(الصواب : نهاية الاول ، عند متواضع)

يصوم وقد طال النهار مهجرا (هي بضم الميم وكسر الجيم مشددة لا بضبط « مهجر » بفتح الميم والجيم مخففة وتبقى الشطر الثانية غامضة متكسرة : وتبحر بالليل للتغمض عيناه)

عليك سلام الله ما الروض فاح ان سرت سحرا ريح الصبا بخزاماه
(الصواب انهاء الاول بان)

وفى 442 جاء قبل السطر الاخير بالترجمة :

حسن الحالة الا اذا وهذا قلت . . . (الصواب . . . الا اذا هذا،بلا واو قلـــت . . . .)

443 جاءت ابيات هكذا :

رجاى فى المولى العظيم عظيم غنيت به حيث الغنى بديم

ان الليالي سبق قد اقبلت (بفتح السين والبـــاء مخففـــة ، والصواب الضم فتشديد الباء)

يفترى للفلا بنجائب ونياق (والصواب : يفرى الفلا ...)

قبضت عنان المجد باستحقاق (بتاء التأنيث لا بتاء الضميـــر للمتكلم وتسكين الضاد لذلك)

من بعد اشراق مضى ونفاق (الصواب ... اشراك ، بالكاف ، لا بالقـــــاف)

وفى 436 جاء من نفس القصيدة ابيات هكذا :

يقظ الفؤاد سرى وقد هجـــــع الورى لمقام صدق فوق ظهر براق

(الصواب نهاية الاول بكلمة الورى)

ياذا الذي اتصل الرجا بحبلـــه وانبت من هذا للـــورى بصـــلاق

(الصواب الرجاء ... والورى بطلاق)

تختال بين الوخد والاعناق (الصواب ، الاعناق ، بكسر أولـــه لا فتحـــــه)

وسع الورى بالنايل الدقاق (الصواب ، الدفاق ، بالفاء لا القاف)
ارج الندى بمدحك المصداق (الصواب ، بمديحك ...)

وفى 437 جاء اولها مصراع هكذا :

لا جود فيه بادمع اسلاكها (الصواب : لأجود ، بلام القسم ، لا بلام النافيـــــة) .

وفى 438 جاء شطر هكذا : اعلى المالك ما بنته يد التقى (والصواب: اعلى الممالك ، بممين اثنتين ، وتركنا ذكر ما صحف بالشكل اخرى)

ثم جاء آخر هكذا : وصفاح يفرى بهن صفاح (والصواب : وصفائح يفـــرى م..)

(صوابه : رجائي ... الفنى يديم بضم الياء وكسر الدال ويشكل الغنى قبلها بفتح الغين وكسر النون صفة مشبهة ، لا مصدرا أو اسمه)

حديث حديث لم يزل وعديم (صوابه ... وقديم بالقاف)

فان قيل عني مذنب قلت سيـــد كفيل بغفران الذنوب رحيم

(صواب الاول نهايته بسيدي مضافا للياء)

طريق لجنات النعيم قديم (صوابه ، قويم ، بالواو)

وبعد الابيات « وقال » (والصواب فقال ، الفاء)

وفى 448 ورد شطر هكذا : « يا مطلبا ليس لي في غيره ارب » ، وعلق عليه بأنه فى النفح (يا طالبا) وهذا لائق بالوزن ، ولكن الاول هـــو الصواب اذا ضبط بالتخفيف فى فتحاته وتسكين الطاء ، لا بضم الميـــم وتشديد الطاء ، كما أثبت .

والقصيدة وقع فيها نزاع مشهور بين محمد ابن شهاب الدين الخيمى وبين نجم الدين بن اسرائيل ، ذكر ذلك الكتبي فى فـــوات الوفيـــات ، وسيشير ابن الخطيب الى قضيتها .

وفى 449 جاء بيت هكذا :

يا بارقا بأعالي الرقمتين بدا لقد حكيت ولكن فاتك السبب

والبيت من نفس القصيدة ، وصوابه « فاتك الشنب » ولشهرة البيـــت اصبح مصراعه الاخير يضرب به المثل ، فيقال لمن يقلد ولا يحسن التقليد « حكيـــت ولكـــن فاتـــك الشنـــب »

453 سقط « ابو » اول السطر الثاني ، وشكل « رصعت » بالضم والتخفيف ، بالشطرة : « والزهر قد رصعت منه منابره » (وهو مشدد الصاد بالكسر . وفى أول الذي يليه ، شكل « موشى » بضم أوله ، وفتح ثانية وثالثة مع التشديد (والصواب ، الفتح فسكون فكسر فتشديد) . وتركنا فى هذه ذكر كلمات أخرى تصحفت بالشكل .

وفى 454 تصحفت أبيات عديدة بالشكل وسقط بعـــض الحروف وهمز ما لا يهمز ، نكتفي بأبيات ثلاثة آخر الصفحة منها :

والناس فى بشر والملك فى ظفر   عل على كل عالي القدر قاهر

(والصواب : بشر ، بضم ففتح ، لا بكسر فسكون ، ثم عال بالالف)

والى اياديه من مثنى وواحدة (شكل الالف فى والى بالهمزة كأنـــه حرف ، وهو فعل والى يوالي)

فكل يوم تلقانا عوارفه (شكل « تلقانا » بسكون اللام وتخفيف القاف، والصواب الفتح فالتشديد)

وفى 455 جاءت أخرى ، نكتفي بثلاثة أبيات أوائلها هكذا :

يا أيها العبد بادر لثم راحته (والصواب . . . العبد بكسر فياء)
وافخر بأن لقيت ابن الحكيم على (سقطت « قد » بعد « بأن »)
ولى الصيام وقد عظمت حرمته (عظمت بفتح فتشديد فسكون ، لا ضم فكسر ، وحرمته بالفتح للتاء لا الضم)

وفى 456 جاءت أخرى عديدة كذلك ، نكتفي منها بالبيتين :

وزير سما فوق السماك جلالـــة   وليس له الا نجـــوم قبيـــــل

(الصواب . . . الا النجوم بأل التعريف)

كما هدرت وسط القلاص وارسلـــــت شقاشقها عند الهياج فحول

(الصواب انهاء الاول بأرسلت)

وفى 457 كذلك نكتفي بهذا البيت الوارد :

تهيم به العلياء حتـــى كأنهـــــا   بثينة فى الحب وهو جميـــــل

(الصواب . . . بثينته بالاضافة)

وفى 458 جاءت أبيات هكذا :

ولحالات التراضي جولـــه (الصواب ، جولة بالتاء)

وبأكناف منى أسنى نوال (الصواب موال بالميم)

لم يكن الا على فضل اعتدال (الصواب ... خصل اعتدال)

فكم نلت بــه انعم حـــال (الصواب ، فلكم ، بلام فيه)

خلف النوم لي السهد به (الصواب خلف بتشديد اللام المفتوحة ، ورفع النوم ونصب السهد لا العكس)

أو اشادت ثنا الملــك الاوحـــــد الاسمى الهمام المتعـــال

(الصواب : اشادات ثناء الملك الاو . هنا نهاية الشطر الاول) .

وفى 459 جاء بيت هكذا :

ولكم نافرته مجتهدا عند مــــا ضاق بهم صـــدر احتمـــــال

(الصواب : نهاية الاولى عند « مجتهدا »)

وفى 460 جاء آخر هكذا :

ها أنا انشدكـم مهنئـــا مـــــن بديع النظم بالسحر الحـــلال

(الصواب انهاؤها ، عند « مهنئا »)

أورقت روضة آمالي لكم (الصواب ... بكم بالباء)

فهو ما ادخره من كنز مال (شكل أدخره بتشديد الدال ، والصواب بسكون الدال المخففة)

وفى 461 نكتفي بالبيتين الواردين هكذا :

ان لم تعينوه علي برجائه ... (الصواب علي برحائه ... وبعده أول الاخير ، لا تنكروا ...)

فأفحه في باناته وعراره (الصواب فأسفحه ، بالوصل وسكون السين وفتح الفاء وتسكين الحاء)

وفي 462 جاء : والمم بسائر اخوتي وقرابتي (الصواب ، والمم بالوصل وضم الميم الاولى)

فاتيت لذاك الحي أن أخاهم (الصواب : فابثث ، بالباء ثم ثائين . ونكتفي فيها بهذا التصحيف .

وفي 464 سقطت حروف عديدة ، وحصل تصحيف وتحريف ، ونكتفي ببيتين وردا هكذا :

عشقتكمو بالسمع بل لقاكم وسمع الفتى يهوى لعمر كطرفه

(صوابه ... قبل لقاكم ... لعمري كطرفه)

قد جاء في القرآن أني عدة اذ نص الخلق محكم آيـ

(أصله ، آية)

465 ورد : للشرق فضل منه اشرقت شهب (الصواب ... فمنه ... وبعده في الشطرة الثانية ... اقبسونا ... بالقطع لا بالوصل)

وان تزل به في جوره قدم (الصواب ... جورة ، بالتاء)

وفي 474 جاءت مصاريع ثلاثة أبيات متوالية ، هكذا :

الا اصنع بها يا دهر ما أنت صانع (بقطع اصنع وكسر نونه ، وصوابه اصنع أمرا من صنع)

سفكت وما كان الرقوء نواله (صوابه ، سفكت دما كان ...)

يكفي سبنتي ازرق العين مطرق (صوابه ، بكفي ... تثنية كف مضافا لسبنتى)

وفي الصفحة 475 نكتفي بهذا البيت الوارد :

وجدل لم يحضره في الحي ناصر   فمن مبلغ الاحياء أن مهلهلا

(شكل .وجدل ، بفتح الجيم وضم اللام ومبلغ بفتح الباء وتشديد اللام ، والصواب ضم الجيم وتشديد الدال المكسورة ، وتسكين بـاء مبلـغ وتخفيف لامه) .

وفى 476 جاءت بقية الابيات مصحفة ، فى شكلها غالبا ، وفيما عدا ذلك هذا البيت الذي صححناه كالآتي :

لتهنك من رب السماء شهادة   تلاقي ببشرى وجهك المتهللا

وفى 477 شكل علو بضم اللام وتشديد الواو بالشطرة :

وقدر على علو الكواكب صاعد (والصواب فيه تسكين اللام وتخفيف الواو صفة لا مصدرا أو اسما له) .

وفى 480 جاءت أبيات مليئة تصحيفا أصلحنا بعضها هكذا :

وهبوا كما هب النسيم اذا سرى	ولم يتركوا بالشرق علقة آيـب
يصرح بالرغبى وبين ضلوعـه	تنفس مذعور ونفرة راهـب
وعى من لسان الحال أفصح خطبة	وما وضحت عنه فصاح القواضب
وابصر متن الارض كفـة حابـل	. . . .
أشرنا بأعناق الجيـاد اليكـم	وعجنا عليكم من صدور الركايب
الى بقعة قد بين الله فضلهـا	بمن حل فيها من ولي وصاحـب
تناقله ايدي التجـار لطيمـة	ويحمله الدارى أيمـا يممـا
نضت عذبات الريط عن حر وجهها	فابدت محيا يدهش المتوسـا

هذه الشطرة الاخيرة وردت كذلك ، فى المعجب ، واشار الى ذلك المحقق ، ولكنه اثبت غيرها : فابدت شعاعا يرفع اليوم مظلما ، ولا معنى له الا على تكلف كما انه لا معنى لسرت أول البيت ، وعلى هذه علق بأنه فى المعجب « نفت » ولكن الصواب ما أثبتناه ، وهو ما اقره المرحوم العريان

وفيما قبل اثبت اخرى هكذا : وأسرت الوادي العقيق من الحمى ، ولا معنى له ولا وزن ، والصواب فى المعجب : وأسرت الى وادي العقيق)

وفى 481 اقتصرنا على البيت الوارد أخيرا هكذا :

وقالت ان طرفك أصلا لدايك فليقـــدم فى العـــــلاج

(والصواب انهاء الشطرة الاولى بأصلا ، على ما فيه ، ولعل الكلمة محرفة فان تكن كذلك فصوابها « أصل » . سقط بعده ما زنته وتد مفروق .

وفى 485 وقع تحريف فى آية « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين . . . » كما تصحف البيتان اللذان أصلحناهما هكذا :

بلنسية بينى عن القلـب سلـــوة فانك روض لا أحـن لزهـــــرك

وكيف يحب المرء دارا تقسمـــت على صارمي جوع وفتنـة مشرك

كما صححنا آخرين بعدها كالآتي :

وليلة من ليالي الصفح قد جمعت اخوان صدق ووصل الدهر مختلس

كانوا على سنة الايام قد بعـــدوا فألفت شملهم لوساعـد الغـــلس

وبعد هذين بيتان الصواب فى ضبطهما تسكين شين « أشفارهـــا » وضم تاء « تلف » وكسر زاي « زجاج »

وفى 486 جاء بيت هكذا : وألبسته الدر والياقوت حليـــة . . .
(صوابه : « وألبسته الياقوت والدر حلية » . . . وبهذا يتزن لا بغيره) .

وفى 487 جاءت شطـــرة لابـــي فـــراس هكـــذا :

« ومن خاطب الحسناء لم يغل المهر » (صوابه . . . يغلها . . .)

وفى 490 وردت أبيات مصحفة أو مكسورة ، نقتصر على اثنين منها وهمـــا :

ولولا التعلل بالكـرى ينتابهـــــا (فالواو أولا انكسر به الشطـر)

يا مصطفاها مرفـــع قدرهـــــا بأكنفها يا منتهـــى علياتهـــــا

(والصواب يا مرفع ، بفتح الراء وتشديد الفاء ، لا بسكونها وتحفيف الفاء ، ثم ياكنفها ، بياء النداء وفتح الكاف والفاء ، لا بالهمز وسكون الكاف والضـــم) .

وفى 491 اصلحنا بيتين هكذا :

فالنفس فى تلك الربوع حبيبـــة   والقلب فى اثر الوداع مقســم

(يا بدر تم بفتح الراء ثم تشديد الميم بالكسر)

يا بدر تم طالعا فى الحشـــي   برح بي منـك اوان المغيــب

وفى الصفحة 507 جاءت أبيات فى منتهى التصحيف والتحريف ، اصلحنا بعضها هكذا :

خليلي ما للبيد قد عقبت نشـــرا   وما لرؤوس الركب قد رنحت سكرا
خليلي عوجا بي قليـــلا فانــــه   حديث كبرد الماء فى الكبد الحرا
قفا غير مامورين ولتصديا بهـــا   على ثقة للمزن فاستسقيا القطرا
بجسر معان والرصافة انــــه   على القطر ان يسقي الرصافة والجسرا
بلادي التي ريشت قويد متي بها   فريخا وآوتني قرارتها وكـــرا
مبادي لين العيش فى ريق الصبـا   ابى الله أن أنسى اغتراري بها غرا
ولا مثل مدحو من المسك تربـــة   تملي الصبا فيه حقيبتها عطـــرا

وفى 508 جاءت أخرى من نفس القصيدة صححنا بعضها بما يلي :

تؤبد فيها شعشعانيـــة الضحـــى   اذا ضاحك الشمس البحيرة والنهرا
نجوما فلا شيطان يقربها ذعـــرا
هي الدرة البيضاء من حيث جئتها   اضاءت ومن للدر أن يشبه البدرا
هجوع ببطن الارض قد ضرب الردى   عليهم قبيبات فويق الثرى غبـــرا
تقضوا فمن نجم تساقط سالـــك   ابى الله أن يرعى السماك أو النسـرا

واعتاض علينا تصحيح أبيات غيرها كالاخير بالصفحة فى شطره الثاني:

فلم الق من سرى منها ولا سيـــرا

وفى 509 تاتي بقية القصيدة ، صححنا منها الآتية :

وانى متى اسأل بهم كل راكـــب ... ليظهر لي خيرا تأبط لـــي شـــــرا

اباحثه عن صالحات عهدتهــــــا ... هناك فيسنبيني بما يقصم الظهرا

محيا خليل غاض ماء حياتــــــه ... وساكن قصر صار مسكنه القبرا

يصرف ما بين اليراعة والفنــــا ... اناملـه لا بل هواطلــه الفـــــرا

(يصرف بضم الياء وتشديد الراء

طوين الليالي طيهـــن وانمـــــا ... طوين بها عني التجلد والصبـــرا

ثم بيتين من اخـــرى :

حطوا على عمد الطريق فقد خبت ... لألاء ذاك الكوكـــب الوقـــــاد

ما عذر ملك كنت عقد نظامــــــه ... ان لم يصـــر بردا الى الآبـــــاد

(بمـــد همزة الآبـــاد)

وفى 510 صححنا اخرى بالقصيدة هكذا :

حسب الزمان عليك ثكلا ان يرى ... من طول ليل فى قميص حـــداد

كشف الحجاب فما ترى متفضلا ... فى ساعة تصفى بها وتنــــــادي

ألمم بربعك غير مامور فقـــــد ... غص الفناء بأرجـل القصـــــاد

هذا الصباح ولا تهب الى متـــى ... طال الرقاد ولات حين رقــــاد

جارا لافراد هنالـــك جيـــــرة ... سقيا لتلك الجيـرة الافـــــراد

بمعرس السفر الالى ركبوا السرى ... مجهولـة الغايـــات والآمـــــاد

لحق البطون من اللغوب على الطوى ... وعلى الرواحل عنفوان الـــــزاد

لله هم فلشد ما نفضـــوا من أمـ ... ـتعة الحياة حقائب الاجســـــاد

وفي 511 بقية القصيدة قليلة التصحيف بالنسبة الى سابقها ، وهو بالشكل أو النقط غالبا ، مما نجد في آخر الصفحة بهذا البيت من أخرى هكـــذا :

عاد الحديث الى ما جر أطيبــه ... والشيء يبعث ذكر الشيي عن سبب

وفي الصفحة 512 استبد التصحيف والتحريف ببقية الابيات من هــذه القصيدة ، صححنا بعضها كالآتي :

راوح بها السهل من اكنافها وأرح ... ركابنا ليلها هذا مــن التعــب
يا عذبة الماء والظل انعي بها طفلا ... حييت ممسية ميادة القضــب
أخا اذا ما تصدى من هوى طلــل ... عجنا عليه فحييناه عن كثــب
مستعطفين سخيات الشئون لــه ... حتى يحاك عليه نمرق العشــب
عن فتية نزلوا عليــا سرارتهــا ... عفت محاسنها الا من الكتــب
حتى اذا ما قضوا من كأسها وطرا ... وضاحكوها الى حد من الطــرب
راحوا رواحا وقد زيدت عمايمهم ... حلما ودارت على أبهى من الشهب
لا يظهر السكر حالا من ذوايبهــم ... الا التفات الصبا في السن العذب

وفي 513 تصحفت من أخرى أبيات صححنا بعضها هكذا :

قالوا وقد اكثروا في حبه عذلــي ... لو لم تهم بمذال القدر مبتــذل

وفي 515 جاء اولها « فلولا هو » وعلق عليها بأنها في الاسكوريال والزيتونة « فلولاه » وهذا هو الصواب الذي يجب اثباته لا غيره وهو في النشــــر :

في كل قلب عزيزات مذللــــة ... للحسن والحسن ملك حيث جل ول
اذا تأملتــه اعطـــاك ملتفتـــا ... ما شئت من لحظات الشادن الغزل
جذلان تلعب بالمحراك انملــــه ... على السدى لعب الايام بالــدول
جذبا بكفيه أو فحصا بأخمصـــه ... تخبط الظبي في أشراك محتبــل

وفى 516 تصحف فى السطر الحادي عشر صياح ، بصياج .
وفى 517 كتب بيتان هكذا :

فسل عنه احشاء ابن ذي‌النون هل سرى‌اليها سكون‌منذ زلزلها الذعر
وهل قدرت مذ أوحشته طلائع الظهور عليها أن تؤنسه الخمر

صواب الشطرة الاولى ان تنتهي عند سرى ، وصواب البيت الثاني ان ينتهي شطره الاول باللام من الظهور ، فهو مدور .

وفى 518 ورد بيتان هكذا :

وما أدركتهم فى هواك هوادة وما ائتمروا الا لما أمر البر
واوردهم من فضل سيبك موردا على كثرة الوارد مشرعه غمر

والصواب فى الاول وصل همزة ائتمروا ، وتصحيح الوارد فى الثاني بالوراد ، حتى يتزن البيت .

وفى 522 ورد بيت هكذا :

ايا قمرا اطلع من وشاح على غض فاخر من كل راح

(صوابه : تطلع ، بفتح اللام والتشديد ، ولا يتزن الشطر الثاني ولا يتضح بعد ذلك) . والى جانب هذا هناك عدة تصحيفات بالشكل تركنا التنبيه عليها لكثرة ذكر غيرها وقبل البيت الاخير فى نهاية الصفحة جاء آخر هكذا :

وصفت فوق اديمها فكأنها من حسن رونق وجنتيه ولطفه

وعلق على « فوق » بانها فى الاسكوريال ، فرق ، بتشديد القاف ، قال : وهو تحريف ، مع أنه هو عين الصواب ، ولا يستقيم غيره لا وزنا ولا معنى

وفى 523 ورد فى نهايتها بيتان هكذا :

وجلت باعطاء اللجين وكسوة ستكسي ثوبا من النور أبيضا
وما زالت الانصار تفعل هكذا نال علي فى الزمان الذي مضى

لقد سقطت « بها » بعد ستكسي ، فى البيت الاول ، وتحرف أول الشطر الاخير كلمة « فعال » بنال ، وشكل « علي » بالضم وهو بالكسر .

وفى 524 وردت أبيات هكذا :

ومن حكم القول اللهى فتح اللهى ... ومن مدح الاملاك يرجو التعرضا
فكان ما قلت من مدحهم كذبا ... أستغفر الله من زور ومن كذب
ابدلهما من بالبيض من صفيهما ... ان العبيد محلها الابواب

فالصواب فى الاول « اللهي تفتح اللهى » وفى الثاني « من مديحهم » وفى الثالث حذف « من » الاولى ، فيتزن بحذفها ويتضح المعنى .

وفى 526 تصحفت ابيات واضطرب بعضها ، صححناها هكذا :

بيمن ابي عبد الاله محمد ... تيمن هذا القطر وانسجم القطر
افاض علينا من جزيل عطائه ... بحورا تديم المد ليس لها جزر
وآنسنا لما عدمنا مغانيا ... اذا ذكرت فى القلب من ذكرها عبر

وفى 527 جاء آخرها بيت هكذا :

وليت فقيل احس خير وال ... فعاق مدى مداركها بفضله

والصواب (فقيل احسن)

وفى 528 جاء البيت الذي يليه هكذا :

كم وال اساء فقيل ... دنا فمحا محاسنها بفعله

لقد سقط من آخر الشطرة الاولى « فيه » هكذا :

« وكم وال اساء فقيل فيه » . ثم جاء بيتان هكذا :

مولاى نصيرا فكم يضام ... من ماء غيرك اعتصام
أمرت لي بالخلاص فمر لي ... عنده المال والطعام

والصواب : « مولاى نصرا فكم يضام ... من ماله غيرك اعتصام »

« أمرت لي بالخلاص مر لـــي   من عنـده المـال والطعـام

وفي 529 سقط بالسطر العاشر « من » قبل الحكم ، وتحرفت ابيات بالشكل وغيره أصلحناها كالآتي :

مشوق زار ربعـك يا أمامـا   محا آثـار دمنتهـا التثامـا

(أماما بضم الهمزة لا كسرها)

وما لحريم بيتـك أن يدانـى   ولا اعلاء قـدرك أن يسامـى

(لعـلاء باثبات الهمزة)

ولكن عاش في رسـم معنـى   تجشمه سلامـا واستلامـا

(معنى بضم الميم وتشديد العين)

وفي 530 وردت أبيات من نفس القصيدة ، صححناها كما يلي

روته مسنداً عنـه النعامـا   فردتك العـرارة والخزامـا
خفقت ببطن واديهـا لـواء   وجرعت العداسمـا زعافـا

وفي 531 صححنا بيتين هكذا :

تراجع من دنياك ما انت تـارك   وتسألها العتبى وها هي فـارك
حلالك منها ما حلالك في الصبا   فأنت على حلوائـه متهالـك

(الصبـا بالكسر)

وفي 532 وردت أبيات مربكة صححنا بعضها بما يلي :

تضل فؤاد المرء عن قصد رشده   فواتر ألحاظ الظباء الفواتـك
وفي كل سن لابن آدم ان تطـل   ذواهل من عض الرحال ظهورهـا
اذاما اشتكت عض السروج الموارك   ولا تصفن أمواهها لي فانهـا

(تصفن بنون التوكيد المخففة)

وفى 533 وردت اخرى كذلك صححنا منها هذه الاشطر القليلة ، بقدر المستطاع :

لمجهول حس ما له الدهر بانبك
احاول منهم ما تعذر فى الصبا
حسايف لا تحصى لها ومبايك

وفى 534 جاءت اخرى عالجنا فيها هذه :

الا ليت شعري هل تقضى لبناتي (تقضى بالتشديد)

وهل تمكن الطيف المغب زيارة (تمكن بالضم والطيف والمغب بالفتح)

وياليت شعري اى ارض تقلني (نهاية الشطرة)

ولا تبذلن وجها لصاحب نعمة
ولا تأمنن ريب الزمان فانه
وبد الليالي الجون حوض لجاجها
فما أذعنت الا الى عشارها

وفى 536 صححنا هذا البيت :

شيء أبدع من تجاورها وما يبدي بها ذاك التجاور أبدع

وفى 537 صححنا البيتين :

فأجل ما قد شمته بطولها من بارق لجناب رشدي يلمع
ومن العجاب رجوع ما أودى به دهر بتشتيت الاحبة مولع

وفى 538 صححنا آخرين هكذا :

وكأن مجمر عنبر بفنائها من كان قبل له العوامل ترفع
في جنحر ضب خافض بجواره يذكى بما قد ضاع منه ويسطع

(بفتـــح التـــاء) .

وتركنا فى هذه كلها التنبيه على أبيات أخرى تصحفت أو تحرفـــت بالشكل الذي فيه ما ينكسر به الوزن ، تجنبا للاطالة المملة .

وفى 539 صححنا الابيات :

لعشرة اعوام عليها تجرمـــــــت اذا ما مضى قيظ بها جاء اهـراء

(سقط « ما » منه) . وبعد هذا

يطنب فيها عائشـــون وخـــــرب ويرحل عنها قاطنون واحيـــــاء

(خرب بالخاء والراء ، لا بالحاء والزاي)

فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى ترى هل لعمر الانس بعدك انساء

وفيها تصحيف بالشكل كثير)

مثل « ومنبىء » فهو بدون تشديد ، و « تبغين » بنون مخففـــة ، و « سقمي » بسكون القاف ، و « قسم » مبنيا للمجهول بالتشديـــد ، و « اضناء » بالضم لا الكسر .

وفى 540 وردت ابيات هكذا :

ولم اطرق الدير الذي كنت طارقا كعادى وبدر الافق أسلغ مسناء

ولا صاحب الاحسام ولهــــــذم وطرف لخد الليل مذ كان وطـــاء

واسحم قارى كشعري حلكــــــة تلألأ فيه من سنى الصبح اضــواء

أخن لها ما اطت النيب حولهـــا وما عاقها عن مورد الماء اظمـــاء

والصواب فى الاول بليل ، بدل « كعـــادى » ، فوجـــب ثبتـــه .

اما الثاني فصوابه : الا ــ الاستثنائية ــ و « حسام » و « لهــــذم » مرفوعان بعدها، لا بجرهما، أو آخرهما ، و «طرف» بالكسر ، لا بالفتح لاوله

وفي الثالث : « حلكة » بضم اللام وتشديد الكاف ، لا بسكون اللام ، لعدم اتزان البيت بذلك ، والصبج ، مصحف عن الصبح بالحاء

وفي الرابع : تشدد طاء « أطت » وتكسر تاؤها لالتقاء الساكنين ، واظماء ، صوابها بالضاد والباء بمعنى الحبس والامساك ، هذا هو المتبادر فيه ، أما الاظماء بمعنى التعطيش ، فبعيد ، وان كان محتملا .

تطــــوان　　　　　　　　　　محمد ابن تاويت

الإعلام الثقافي

الثقافة في مجلس النواب*

بسم الله الرحمن الرحيـــم

سيدي الرئيس

حضرات السادة النواب المحترمين .

لو كانت الظروف الاقتصادية التى نعيشها ظروفا تنتسب الى الرغد والسعة ، لوجب أن يترامى لنا فى مجال تنمية الثقافة، طموح كطموح أبى الطيب المتنبى المفرغ فى هذا القول الجميل :

(*) العرض القيم الذي القاه السيد الحاج محمد ابا حنينى ، وزيـــر الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، فى مجلس النواب بمناسبة دراسة هذا الاخير لميزانية 1979 .

أريـــد مـــن زمنى ذا أن يبلغنى
ما ليس يبلغـــه من نفسه الزمـــن

لو كانت الظروف الحالية ، متسعة لمثل هذا الطمـــوح ، لتيسر تحقيق العدد الكثير من الاهداف التى تتعشقها الارادة، ويصبو اليها العقل والوجدان ، ولكن المرحلة التى نجتازهـــا مرحلة عسيرة ، تقتضى الاكتفاء باليسير ، والقناعة بالقليل ، على ما يلح علينا من حاجات ، ويتردد فى الصباح والمساء من متطلبـــات .

وما دامت الحالة متصفة بالوصف الذي لا يعزب عـــن أذهانكم ، ولا يغيب عن معرفتكم ، فلا محيص من الاذعان الى الحقيقة التى صبها الشاعر فى قوله :

والنفـــس راغبـــة اذا رغبتهـــا
واذا تـــرد الـــى قليـــل تقنـــع

وعلى رغم قلة ذات اليد ، وضآلة الامكانات ، فان العزم وطيد على صرف الاعتمادات المطلوبة برسم السنة الماليـــة القادمة ، صرفا يتيح لنا أن نتحرك على المحاور التى تساعد على بروز العمل الثقافى داخل البلاد وخارجها ، وعلى بلوغ حـــظ غير يسير من المقاصد المتوخاة من هذا العمل .

ولا ريب فى أننا لو استعرضنا المياديـــن التى تتصـــل باختصاصات وزارة الشؤون الثقافية ، وقارنا بين ما نحن فـــى

حاجة ماسة اليه ، وبين ما هو متاح لمارستنا وتيسيرنا ، لتبين لنا جليا أن ما هو مستطاع ، قليل بالقياس الى ما هو مرغوب فيه بالحاح ، وسواء تعلق الامر بهذا الميدان أو ذاك ، فان الجهود وان كثرت هنا وهناك ، جهود لا بد أن توصل بجهود تعقبها ، ما تعاقبت الايام والاعوام .

ان الحرص منا ومنكم شديد على أن تصبح المكتبات مبثوثة فى جميع أحياء مدننا ، وفى مختلف قرانا القريبة والبعيدة ، لتنتشر القراءة ، ويجري معين المعرفة التى يبذلها الكتاب ، وهو كما تعلمون ، الجليس الذي لا يمل ، والركن الشديد ، والاساس المتين لكل ثقافة محترمة ، واذا كانت وزارة الشؤون الثقافية تسعى ما وسعها السعى ، قصد تزويد المكتبات الموجودة الآن ، بكل ما يجد فى مجال التأليف والتصنيف ، وتحدث الفينة بعد الاخرى مكتبات فى بعض الجهات ، بوسائلها الخاصة أو بتعاون مع الجماعات المحلية ، فان احداث مكتبة وطنية ، وبث فروع لها على النطاق الارحب الاوسع ، غاية يجب أن تتآزر من أجلها جهود الدولة وجهود الافراد والجماعات ، وقد دلت التجربة على أن هذه الجهود المشتركة ، كفيلة بأن توتى أطيب الثمار ، وخليق بنا جميعا أن نكسب هذه الجهود ، الاتساع والاستمرار الضامنين لوصول الكتاب الى الاماكن المحرومة ، والى القراء المتطلعين الى المزيد من المعرفة والاطلاع ، وان وزارة الشؤون الثقافية لتأخذ نفسها بموالاة العناية بهذا الجانب الحقيق بكل عناية ورعاية .

ولن تنحصر المساعى فى هذا المجال البالغ الاهمية ، وانما ستمتد بفضل الاعتمادات المرصودة فى القانون المالى ، الى الميادين الاخرى التى نوليها نحن وأنتم على حد سواء ، حظا ذا بال من الاهتمام كالمتاحف وتخصيصها بلون من ألوان ثقافتنا ، وصيانة الآثار ، وحفظ التراث ، والتنقيب على بقايا العصور البعيدة والقريبة ، وكالموسيقى والفنون التشكيلية والمسرح والانتاج الادبى والعلمى ، وهذه الميادين التى تنتظم وجوه حضارتنا القديمة والحديثة ، وصورا شتى من ابداعنا وابتكارنا فى أيامنا الراهنة وأيامنا الغابرة ، وتعكس كالمرآة المجلوة ، ملامح شخصيتنا التى لا تلتبس بغيرها وهويتنا التى تتميز عما سواها ، هذه الميادين كلها فسيحة مترامية الاطراف ، مفتقرة الى العدد الوفير من الاطر المحركة ، والاطر الساهرة الامينة ، والاطر التى تشعر بالنقص كلما ظهر واستبان ، وتستحث القريحة الى التدارك والتلافى ، وترسم الخطط الناجعة ، وتعين بالتصور الدقيق ، والتفكير العميق ، والتدبير المحكم السليم ، واذا كانت النتائج المترقبة من العمل الثقافى ، لا تسري بالسرعة المنشودة ، ولا تبدو فى الحجم المطلوب ، ولا تلمس كما تلمس جميع الحاجات التى تولاها الارضاء ، فان وزارة الشؤون الثقافية اهتمت بالتنظيم ، اهتمامها بتوفير الاطر ، وعنيت بمزاولة العمل على قدر ما توافر لها لحد الآن من امكانات وأسباب، على أنها وان حكمت عليها ظروف معاسرة بالسير الوئيد ، جادة فى الحضور داخل التراب الوطنى وخارج حدوده ، جاهدة أن ينتفع من دأبها المواطنون شمالا وجنوبا ،

شرقا وغربا ، مواظبة على تشجيع المواهب والملكات ، والتعريف بأنماط ثقافتنا حيثما تعين التعريف ، ولزم الادلاء ببرهـــان آيات الفكر ودلائل الابداع وشواهد الحضارة المتميـــزة العريقة ، والاصالة الثابتة على مر الاحقاب والازمان ، وبفضل الامكانات المختلفة والوسائل المادية والبشرية ، التى تزداد عاما بعد عام فان العمل الذي نعتزم أن نقوم به فى حدود الوطـن وخارج هذه الحدود ، فى الاقطار الشقيقة والصديقة العربيـة والافريقية والاوروبية ، سيظل متسما بطابع الاتساع والنمو ، وسنوالى الانتقال الى مواطن الاستفادة ومظان الانتفـاع ، انطلاقا من مبدا المشاركة فى المؤتمرات والاجتماعات الفكريـة والمطارحات الادبية والفنية والعلمية التى تنعقد أو تنظم تارة بعد أخرى ، فى البلاد العربية وغيرها ، كما أننا سنحرص على تنظيم لقاءات دولية فى بلادنا تهتم بشؤون الفكر والابـداع على اختلاف أشكالها وأصنافها لما لها من أثر حميد فى الهمـم والقرائـح .

سيـدي الرئيـس

حضرات السادة النواب المحترمين

ان اهتمام وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بكـل ما يمت الى تنمية الثقافة وازدهارها بصلة ماسة ، اهتمام لا يمكن أن يعكسه عرض موجز ، لم أقصد منه الى الاحاطـة والشمول ، ولا الى الاستيعاب والاستقصاء ، وانما كان الغرض

منه أن ألغت النظر الى أن تعدد الحاجات ، والحاح المتطلبات ، وضآلة الوسائل والامكانات ، ليست هذه الاشياء كلهـــا ، بالحاجز الذي يحول دون العمل المنظم الذي يتصدى لتكسيـر الصعاب ، وتذليل العقبات ، وينبري لمباشرة الانجاز حصـة حصة ، وجانبا بعد آخر ، باخلاص وصدق ، وايثار لمصلحـة الوطن والمواطنيـن .

سيدي الرئيس

حضرات السادة النواب المحترمين .

(أريد فى نهاية هذا العرض أن أشكر السادة النواب علـى تدخلاتهم المليئة بالافكار الجديرة بالاعتبار وأعد بأن أدرس من الملاحظات ما هو داخل فى اختصاصات الوزارة بحكم القوانين الجاري بها العمل) .

والله المسؤول أن يفيض على بلادنا من جزيل نعـمه وآلائه ما يسمح بسد الحاجات وارضاء المتطلبات فى أقصـر الآجال وأوجز الحقـب .

انه سميع الدعـاء

محمد اباحنيني

الثقافة في الصحراء

خطاب السيد الحاج محمد اباحنيني
وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية
بمناسبة تدشين مسجد "المولى عبد العزيز" بمدينة العيون

باسم الله الرحمن الرحيم

أيهـا الاخـوة

شرفنى صاحب الجلالة الحسن الثانى أطال الله بقاءه، وأدام عاليا لواءه ، وأوفد معى اليكم صفوة من خدامه ، لتدشين بنيان مسجدكم الجديد الذي أطلق عليه حفظه الله اسم المغفور له المولى عبد العزيز ، وهو مسجد رفعت قواعده وأقيمت أركانه ودعائمه على تقوى من الله ورضوانه لتعبدوا الله فى رحابه وتذكروه كثيرا وتشكروا له ما أسبغ علينا من نعمة الاجتماع بعد الافتراق ، والاتصال بعد الانفصال .

وكلفنى أعز الله ملكه ، ونضر عهده ، ونصر على امتداد الاحقاب جنده ، أن أبلغكم تحياته الابوية المقرونة بجليل عطفه وجميل حدبه ورضاه .

وهذا المسجد المتصل أوثق اتصال ، بمعهدكم الثقافى هذا الموعود ان شاء الله ، باعظم تألق واشراق ، ان هو الا أحد تلك الاعمال التى يسر الله لمغربنا الجديد تحقيقها وانجازها .

واذا كان سيدنا العاهل الكريم أولى عنايته أول ما أولى ، الى تجهيز الصحراء ، فان اهتمامه الكبير لم يتجه الى التجهيز الاقتصادي وحده ، ولا الى التجهيز الاجتماعى وحده ، وانما اتجه فى آن واحد الى مد الاسباب وتنويعها ليشعر المواطن فى اقليمكم وفى غيره من أقاليمنا الصحراوية ، بأن الجانب الروحى والدينى ، مشمول برعاية دائبة مستمرة ، وبأن الجوانب الاخرى التى يتلافى بها النقص ، وينبنى عليها التوازن ، ويشيع بها رغد العيش ، ويمتد بفضلها الرقى والازدهار ، جوانب كلها مفاض عليها الاعتناء ، موقوف عليها الاهتمام ، لا يتخلف منها جانب عن الآخر ، ولا يغيب منها وجه من الوجوه الداعية الى أعمال الفكر ، واعداد الخطط والمشاريع ، وممارسة التنفيذ والتحقيق .

وها نحن أولاء نشاهد اقاليم الصحراء ، تنهض على النهج المرسوم لنهضتها ، بما ينتشر فيها من حركة لم يتقدم لها مثيل ، وبما يتاح لها من نفس طويل .

وها نحن أولاء نعاين آثار اهتمام العاهل الارشد ، الامجد، بارزة فى صعيد أرض الآباء والاجداد ، واضحة طولا وعرضا ، لا يحجبها عن الابصار والبصائر ، حاجب من صخب أو شغب، ولا ستار من حقد متأجج أو مكر كبار .

تعلمون ، أيها الاخوة ، أن هذه الارض الحبيبة ، قد سعينا بالطرق المشروعة والوسائل السلمية ، سعينا

المسترسل الموصول ، المسطر من التاريخ فى أروع الفصول ، لاثبات ما كان لنا فيها من مطمح عادل صحيح ، واحقاق ما اشتهر لنا فى استرجاعها من حق صريح ، وان ما لقيناه فى سبيلنا من مشقة وعناء ، وناهضناه من خداع والتواء ، كل هذا كان له بحمد الله الاثر المحمود ، وكانت عقباه المرجوة ، أن عاد الجزء المقتطع من ديارنا الى سابق عهده من الاتصال بكياننا الوطني .

وهكذا أصبح الجزء الشمالى والجزء الجنوبى من أرضنا، كلا لا يتجزأ ، ومغربا جديدا ملتئما مؤتلفا .

وهذه الصحراء التى استعدناها والتى نحن واياكم مرتبطون بها ، مشدودون اليها بأمتن صلة وأعرق ارتباط ، منذ أزمان موغلة فى القدم ، لا نتصور لحظة واحدة ، ولا يخطر لنا بالبال ، أن نتنازل ولو عن شبر منها لطامع أو ناهب ، ولا يدور فى خلدنا أبدا ، أن ندع أخطارا أية ما كانت ، تحدق بها وتهددها فكل خطر يستهدفها انما هو خطر يستهدف المغرب كله ، ويستهدف بالتالى ما اخترنا له من مصير .

ان مغربنا الجديد الذي لا فرق بين شماله وجنوبه ، وشرقه وغربه ، لمغرب ممتنع السيادة على كل معتسف ، محرم الحمى على كل متطاول معتد أثيم ، فكل مكان من طوله وعرضه تكلأه الكرامة ويستدير حوله الحفاظ والاباء ، وان فى تاريخنا المديد المجيد ، لايات بينات تشهد بأن المغرب لم يحتمل

فى يوم من الأيام أن تداس كرامته وتمتهن قداسة ترابه وما كل محاولة تستهدف المس بوحدتنا وأن اختلفت وجوهها وتعددت صورها ، وما كل مكر وان استتر أو استعلن الا ضرب من ضروب العدوان الذي يتكسر فى نهاية المطاف ، على درعنا الحصين ، ويبوء بالخسران المبين .

لقد كثر الحديث فى أيامنا هذه ، عن التوتر السائد فى المنطقة ، الا أن هذا التوتر اذا فحصت أسبابه ، وعرضت على النظر النزيه موارده ومصادره ، تبين لكل ذي بصر سليم، أن الذين تولوا كبره ليسوا هم الذين استرجعوا حقوقهم الثابتة المشروعة ، وانما هم أولئك الذين طمس الجشع ضمائرهم ، واتخذوا من الهيمنة والاعتداء ، مذهبا غير متقنع بقناع ، من مذاهب التصرف بين الامم والشعوب .

أيها الاخوة

اذا كانت وفادتنا عليكم اليوم ، وفادة مسرة واستبشار ، وتأكيد لعز موطيد على استمرار جهود شاملة مستوعبة ، ودأب لا يخص بالعناية جانبا دون غيره من جوانب الحياة ، فانها الى هذا وفادة أراد الله لها أن تقترن بذكرى الاستعداد ، لانطلاق المسيرة الخضراء ، من جزء محرر مستقل ، الى جزء عان مقيد ، فرقتهما خطوب ملمات ، وحالت بينهما حدود مشنوءات ومهما نقل فى الاشادة بهذه المسيرة الخضراء ، مسيرة عبقرية الحسن الثانى ، فانها

أفضت الى اجتماع شمل اخوة أشقاء طالما تاقت نفوسهم الى فرحة اللقاء ، والى اتحاد أطراف باعدت بينها ردحا من الزمن صروف جائرات وظروف منكرات ، وستظل المسيرة الخضراء المضفرة، منتصبة فى تاريخنا حدثا فارعا أشم ، مستوية بين أمجاده كوكبا ساطعا مكفولا لنوره التوقد والتوهج، ما تعاقب الجديدان، وترادفت الحقب والازمان .

فلنبتهل الى الله فى هذا الجمع الحافل أن يطيل بقاء ملكنا صاحب الجلالة الحسن الثانى صانع المغرب الجديد وحامى حماه ومفيض النعماء فى أرجائه وأنحائه ، وناشر أردية النماء المخضر كما يخضر الغصن الناعم الريان ، على أطرافه وأعطافه ، ولنتضرع الى الله ، أن يديم نصره بالتوفيق والتأييد والتسديد ، وينضر قيادته بكل قول فصل وكل فعل حميد ، ويقر عينه الكريمة بالامير الاعز الاجل ولى عهده وبالامراء الغر الميامين أبنائه ، ويجعل هذا المسجد الجديد الذي هو ثمرة يانعة من زكى غرسه ، معمورا على مر الايام والسنين بالعباد المخلصين المتمسكين بالحبل المتين ، انه سميع مجيب

محمد ابا منيني ع

شاعران من العراق

عند ما وفد على المغرب الشاعر العراقي عبد الوهـاب البيـاتـي ، استقبله وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية السيد الحـاج محمـد ابا حنيني استقبالا يليق بشهرة الشاعر الضيف ، كعادته في استقبـال الادباء والشعراء الكبار الذين يزورون المغرب .

ودار الحديث بين الوزير والشاعر في هذه الجلسة ـ في جو من الود والتجاوب والتعاطف ـ حول عدة قضايا ثقافية وفكرية ، وبالأخص ، في قضية التراث العربي الأصيل ، ووجوب المحافظة عليه ، والعناية به ، واحياء ما اندثر منه .

وقد رحب السيد الوزير برغبة ضيف المغرب في القاء محاضرة في موضوع « الشعر العربي المعاصر ، مع قراءة من أشعاره » بقاعة الوزارة ، ايمانا من السيد وزير الثقافة بجدوى التقاء الجمهور المغربي بالشاعـر الزائر والتحاور معـه .

الا ان ما ساقه الشاعر من آراء كان موضوع اخـذ ورد ونقـاش وتحفظ عكسه عدد من الصحف الوطنية على الفور .

وعملا بمبدأ حرية التعبير الذي تلتـزم بـه الوزارة ، في نطـاق الديمقراطية الفكرية المفتوحة حوارا ونقاشا وابداء راي جاد ، فان مجلة « المناهل » تنشر مقالا باسم مستعار توصلت به تحت عنوان « حقيقـة مواهب البياتي تكتشف في المغرب » .

ومن باب التداعي ، والشيء يذكر بنقيضه او مثيله ، والحق احق ان يقال ، نذكر او نتذكر النجاح الباهر الذي ناله شاعر العراق الكبير محمد مهدي الجواهري في اثناء زيارته للمغرب سنة 1974 حيث كان محـل اعجاب واكبار لمكانته الكبيرة التي يحتلها في الشعر العربـي عن جدارة واستحقاق وباجماع الآراء .

وجدير بالتذكير ان صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله ، انعم على الشاعر الجواهري في زيارته هذه ، بطوق الكفاية الفكرية .

وبهذه المناسبة اقام الوزير الاديب المبدع الكبير الاستاذ السيد الحاج محمد ابا حنيني حفلة عشاء كبرى بمنزله دعا لها صفوة الادباء والشعراء والمفكرين المغاربة ، وقلد اثناءها طوق الكفاية الفكرية للضيف الكبير ، والقى خلال حفلة التكريم تحية رائعة تنويها بالشاعر الضيف .

ويسر مجلة « المناهل » ان تنشر لاول مرة تحية السيد الوزير للشاعر العملاق محمد مهدي الجواهري كوثيقة من الوثائق التي تحرص « المناهل » على ان تضمها بين دفيتها من بين ما تضم من آثار فنية :

تحية الأستاذ السيد الحاج محمد أبا حنيني
وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية
للشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري

الحمد لله

وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه

حضرة الاخ الأعز الأكرم شاعر المجد وشاعر اللفظ ورب المعانى الدقاق محمد مهدي الجواهري .

كلفنى صاحب الجلالة الحسن الثانى أطال الله عمره وأبقى فى الخافقين ذكره أن أنيط بعنقك طوق الكفاية الفكرية تقديرا منه لأثارك وكفايتك وهو العاهل الأديب العالم بأسرار الابداع أية ما كانت مرابعه ومغانيه وأزياؤه ومبارجه وتنويها بما يستشرى بين جوانحك من شعور مرهف فياض ويواظب عليه عقلك من تفكير مبدع خلاق ويمتد لك من نفس مديد وينِد عن صدرك ولسانك من قول مبين وتعبير رائع أمين .

فما أعظم سعادتي بهذا التكليف وهذا التشريف ومـــا أكثر ما يجيش اليوم فى نفسى من مشاعر المسرة والازدهــاء والاعتزاز بأن تنال أنت هذا المنال وتتبوأ هذا المقام وبأن يقدر الله لى أن أكون أنا سببا من أسباب تمجيدك وتكريمك بعــد الملازمة الواغلة فى دنيا أحاسيسك والمصاحبة النافذة الى أفيح وأرحب رحاب شاعريتك وبعد الاعجاب الذي أسلس القيــاد وارتاح الى الاذعان والتسليم وبعد الاكبار الذي مده التأمـــل والتمحيص والنظر الممعن الفاحص كل لحظة من لحظـــات التلاقى والاتصال برافد غزير وآذي جديد .

واذا كانت الاطواق هبة وحلية لأعناق الشاديات من ورق الحمائم فما كل مطوق صداح على فنن بحامل لبشرى ومشرع لمصراع الرجاء وواعد بالسكينة والاطمئنان ومساعد علـــى الهموم والاشجان ، أما الطوق الذي استحثه الشوق الـــى وصالك وخف مبتهجا الى عناقك فهو طوق شكر وحمد وتقديــر واعجاب وتجلة واخاء وألفة بين الألاف والصحاب لم يسمك غفلا ولا حلاك عطلا بل صبا اليك وتعشق لقياك وصيتك ذائع ونجمك متالق ساطع وشدوك يتداول جرسه الاسماع والاصقاع وهديلك يوغل فى أعماق الفكر والوجدان ولغة القرآن فى نشيدك وقصيدك برهان فوق برهان على ما يسر الله لها من خصب وثراء واتساع لأدق المعانى وأحفل الخواطر والأفكار واستحقـــاق للبقـــاء والخلــود .

واذا آنست وأنت تجوب أرجاء هــذه الديار دفء الوداد الصحيح الذي يلازم الاكبار وسرى الى نفسك وقلبك من قلوب

الهائمين بسجعك ونفوسهم وهج الحب الذي يلهب الافئـدة مندلعا من أخلص وأغزر ينابيع الانطلاق والاندلاع فما ذلـك الا لأنك أغنيت لغة آبائك وعشيرتك وأعليت مكانها بين اللغات ورفعت مقامها الى ذروة الاعتزاز وقمة الابتهاء وأنت تجلـــو وترسم المشاعر وتبث الحقائق والخواطر وتنثر الأفكـــار والألحان وتنظم اللئالىء والجواهر .

ها هو التاريخ يا ابن الفراتين يشهد كرة أخرى بالتقـــاء العراق والمغرب فى شخصك الباسط جناحيه على بلاد العروبة من أقصاها الى أقصاها وفى أشخاص محبيك واخوتك من هــذا الوطن الذي ظل عبر القرون وسيظل بعون الله على مر العصور معقلا حصينا من معاقل العروبة ومــركزا مــرموقــا مــن مراكز اشعــاع الفكر والثقافــة .

وما خلت حقبة من الزمن تم فيها لقاء بين العراق والمغرب الا كانت هذه الحقبة فصلا من فصول التاريخ المحجلة الغراء التى صاحبها الاخصاب والامراع وواكبها يسار الفكر وثــراء الثقــافـــة .

ولا مراء فى أن زيارتك لهذا البلد ومقامك بين أهله مقـــام العشير والنسيب بين العشيرة والاقرباء سيكون لهما مـــن الآثار ما ستكشف الأيام عن بعيد شأوه ومتطاول مداه .

وعلى ما حاولنا أن نتلقاك به من جميل الترحاب ونشيعه حولك من حرارة الاخاء ونفضى به اليك من جزيل الاعجاب ووفير الاجلال فان فى نفوسنا شعورا مستحكما بالتقصير لا سبيـل

الي التخفيف منه الا أن يتجاوز فضلك وكرمك عن النقص ويغضى عن التفريط ما أثر عنك من أريحية وسجاحة .

وليس سهلا ولا يسيرا أيها الأخ الكبير أن تنال كل ما تستحقه من تبجيل ويوفى لك كل ما أنت أهله من صنيع وجميل وأنت سليل بيت اشتهر بالزعامة الروحية وفرع دوحة باسقة عريقة الأصول فى العلم والعرفان والكفاح والنضال وأنت الشاعر المجدد الأصيل الذي يدوي شعره فى الآفاق ويثري القلوب والعقول ويمتع النفوس التى تتعشق أفانين الاحساس الصادق والقول البليغ الرائق مثلما تتعشق الجمال فى مختلف الصور والأشكال وان أدنى مما أبدأ تم فيه وأعدتم أسلافا وأخلافا لتنكل العزيمة الوطيدة والارادة المكينة عن مكافأته ومجازاته ومقابلته بما يجب من ألوان الاحتفاء والاحتفال .

سيطول ذكرك بيننا أيها الاخ الأعز الأكرم وسيمتد بامتداد الأجيال والأزمان وما أجدر هذه البلاد التى أصفت لك المودة وأخلصت لك الاعجاب أن تذكرها فيما تذكر من أقطار ويحدوك الحنين الى العودة والمآب وبعد هذا كله أرجو اخوتك أن تغفر لى ذنب هذه الكلمة التى حرصت على القائها مكتوبة غير مرتجلة فما كان لى أن أتذرع فى مخاطبتك بما أكنه لك من تقدير عظيم وحب متين لأتساهل فى اسماعك جملا ربما تلعثم بها اللسان وتعثر معها التبليغ والاداء وأنت صناع القلب والفكر واللسان وزعيم الاحصاد والاحكام والقول الفصيح والبيان .

عذرا لأكؤسكم كاسى بـها وشـل
خجلان من متـرع الحافات مزدخر

وأطال الله عمرك أيها الأخ الفذ الكريم ووالى لك نعمـاء المجد الأثيل وخلد ذكرك مدى القرون الخالدات وهنيئا لك طوق التقدير وهنيئا لاعجابنا واكبارنا هذا التقييم وهذا التعبير .

محمد ابامنيني

* * *

وفيما يلي نثبت نص المقال الذي توصلت به « المناهل » حـول محاضرة « البياتي » كما ألمعنا الى ذلك سابقا :

حقيقة مواهب البياتي تكتشف في المغرب

من المؤكد أن الشاعر المحاضر عبد الوهاب البياتي لم يقم وزنـا لجمهور المثقفين الذين حرصوا على الاستماع اليه من منبر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، ومن مختلف منابر الفكر العديدة في المغرب ، وهذا الجمهور يتألف من العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين والأساتذة الجامعيين والطلاب ، على اختلاف اتجاهاتهم وميولهم ونزعاتهم الفردية .

لم يأبه البياتي لنباهة هذا الجمهور وذوقه ويقظته ووعيه وموازينه ، فاطلق لكلمات محاضرته عن « الشعر العربي المعاصـر » العنـان ، في طيش ، وتهور ، وارتجال ، واسفاف،وادعاء،ورعونة، وهدم للتراث،ونسف لشعرائنا ـ القمم ـ رواد النهضة الشعرية الحديثة ، المشهـود لهـم بالابداع والجودة كالعقاد وعلي محمود طه والشابي ، وغيرهم من الذين صقلوا الشعر العربي ولقحوه بلقاح جديد ، ودفعوا به الى الامام ، حتى وصل الي يد البياتي صادقا نابضا بالروعة والجمال والمهارة .

ومن الردة والجحود ، أن يجرؤ ـ عبد الوهاب في محاضرته ـ على هؤلاء الكبار ، فيعلن عليهم هجمته المنكرة التي تنتهي باتهامهم بالسرقة الشعرية ، وعلى راسهم العقاد الذي قال في حقه :

انه ترجم الى العربية جملة من قصائد الشعراء الغربيين ، ومن بينهم بيرون ، ونسب شعرهم المترجم الى نفسه !

قال هذا بكل بساطة ، وبدون اي مقارنة تقنع المستمعين !

اكان بمقدور البياتي أن يجرؤ على التلفظ بهذا الهراء في حياة العقاد؟

هكذا مضى صاحب « أباريق مهمشة » و « المجد للأطفال والزيتون » يهشم أو خيل اليه انه يهشم وينسف في محاضرته مجد اعلام الشعر العربي المعاصر ، ويفكك (على حد تعبيره) التراث الشعري العربي الراسخ المكين ، ليبني على أنقاضه مجده ، وليبقى وحده في الساحة الشعرية المعاصرة ، الشاعر الأحد ، صاحب المجد الصمد ، بدون شريك أو منازع !

هكذا مضى في محاضرته ، يخلع على نفسه حلل الزهو والفخر بأحديته وبطولته وثوريته ومنافيه وبطشه بمعاقل الجمود والرجعية ، وبمواقفه النضالية بجانب الفقراء والمسحوقين والكادحين والمهزومين ، الى آخر ما في قاموسه الدعائي من أوصاف ونعوت وشعارات يحفظها بحذق، ويرسلها بمهارة ، ويزجيها الى الجماهير بذكاء ، ليثير في احساسهم الانفعال بمعاناته ، وليقتنعوا ويؤمنوا بصدق رسالته الالتزامية .

انه اسلوب ذكي اتخذه الشاعر في مساره الشعري (ناموسا) للسيطرة على العواطف ، والاستيلاء على المشاعر ، كسبا للأنصار ، وفتحا لآفاق الشهرة البعيدة المنال .

ونوجه السؤال التالي الى البياتي بكل تجرد .

ـــ أباستطاعتك أن تجرؤ ، فتحرك قاعات الثقافة ببغداد أو احداها على الاقل ، بحجاجياتك وعنترياتك المحرضة على البطش ، الدافعة الى الهدم والنسف والفوضى ، وأنت الشاعر (الثوري الملتزم

الذي لا تخشى ولا تهاب اية قوة ، او اي سلطان فى العالم ، وان كان سلطان السلاطين !) .

(الفقرة الأخيرة مأخوذة بالحرف وبأمانة من محاضرة محاضرنا الرافض المستشار بوزارة الثقافة العراقية !) .

لا نريد ان نتعرض فى هذه العجالة الى كثير من السقطات التي وقع فيها ضيفنا المحاضر ، كعدم فهمه لتيارات الشعر العربي المعاصر ، وسطحية افكاره فى الشعر القديم والشعر الحديث ، ومدارسهما ، وكثرة الأخطاء النحوية ، الى غير ذلك من السقطات التي لا تغتفر لشاعر فى حجم البياتي .

واذا نحن عدنا الى « قراءة شعره » التي اختتم بها هذه الأمسية فاننا نشعر بتعطل عنصر التفاعل الذي يولد حالة الانخطاف والدهشة ، والمعبر عنه بالتجاوب الذي يبرز فى القراءات الشعرية الناجحة .

هذه الحالة تعطلت تماما الى درجة الجمود فى « قراءة البياتي لأشعاره » ، بسبب سقوط الجرس الموسيقى ، وتلعثم الألفاظ الشعرية لدى القارىء الشاعر . انها قراءة ضيزى .

اذا أدركنا هذا ، وهو جزء من كل ، فما بقي من الشاعر عبد الوهاب البياتي ؟

نجيب : بقي أن يزور المغرب مرة أو مرات اخرى ، ونرحب به ترحيبا كبيرا كعادة أهل المغرب .

وفى اعتقادنا انه بعد هذه الجولة الفاشلة مع الأسف ، وفى زيارة مقبلة لبلادنا،فانه سيعد لها العدة من جديد ، فيثقف معطياته الفكرية واللغوية والفنية واللسانية ، مع التحلي بتواضع العلماء وحيائهم .

اذا عمل بهذه النصيحة فانه سيقدم للجمهور المثقف فى المغرب ابداعا نظيفا رزينا من شانه أن يستولي على عواطف ومشاعر هذا الجمهور الاستيلاء الذي ينشده شاعرنا البياتي الطموح ، ويحرص على تحقيقه وتوكيده .

والمثل العربي التراثي يقول : « من غربل الناس نخلوه » .

(ع. س.)

مؤتمر بغداد الدولي الثاني للموسيقى

تحت شعار : « علاقة الموسيقى العربية الاسلامية بحضارات أوربا فى العهد الوسيط » ، انعقد فى العاصمة العراقية طوال الفترة الممتدة من 1 الى 7 دسمبر 1978 مؤتمر بغداد الدولي للموسيقى ، ومهرجان العود ، بحضور خبراء ومؤرخين عرب وأوروبيين وأمريكيين وأسيويين .

ولتمثيل المغرب فى هذا المؤتمر ، اوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية الدكتور عباس الجراري استاذ الادب المغربي بكلية آداب جامعة محمد الخامس ، باعتباره مندوب المغرب فى المجلس التنفيذي للمجمع العربي للموسيقى ورئيس لجنة الدراسات التاريخية فيه ؛ حيث قدم عرضا فى الموضوع المطروح ، لفت فيه الانتباه الى الدور الاساسي الذي اضطلع به المغرب والاندلس فى نقل الحضارة العربية الاسلامية الى اوربا .

وقد رشح الدكتور الجراري من لدن هيئة المؤتمر لرئاسة احدى جلساته ، وكذلك رئاسة لجنة التوصيات .

وفى التقرير الذي صدر عن هذه اللجنة ورد أن المشاركين في المؤتمر الدولي الثاني للموسيقى ، بعد استماعهم للابحاث العديدة والتدخلات والمناقشات حول علاقة الموسيقى العربية بالموسيقى الاروبية فى العهد الوسيط :

اولا : يعتبرون أن هذا المؤتمر يعد لبنة ايجابية فى اقامة علاقات وطيدة بين الوطن العربي وأروبا ، ومساهمة جادة فى اغناء الحوار بينهما بواسطة البحث الموضوعي النزيه فى ميدان حساس كميدان الموسيقى ، هو خير أرضية للالتقاء والتبادل الانسانيين .

ثانيا : يقرون بالعلاقة المتبادلة بين الفن الموسيقي العربي والموسيقى الاوربية ، وبتأثيره فيها خلال العهد الوسيط .

ثالثا : يوصون بما يلي :

1 ـ عقد المؤتمر الدولي الثالث فى بغداد عام 1981 لدراسة موضوع « التربية الموسيقية فى الوطن العربي » وعقد مهرجان للقانون فى أعقابه .

2 ـ توثيق العلاقة مع المجلس الدولي للموسيقى التابع لليونسكو من أجل اصدار أسطوانات وكتب وأفلام .

3 ـ توثيق العلاقة بين المؤسسات الموسيقية فى العالم والمركز الدولي للدراسات الموسيقية التقليدية فى بغداد ، عن طريق تبادل الباحثين فى موضوع الموسيقى العربية .

4 ـ العمل على فتح أقسام للبحث الموسيقي على المستوى الجامعي فى الاقطار العربية .

5 ـ العمل على فتح أقسام للبحث الموسيقي العربي فى جامعات العالم المختلفة .

6 ـ نشر نخبة من بحوث المؤتمر الدولي الثاني مع ترجمة انجليزية وفرنسية فى كتاب يعمم على المؤسسات الموسيقية فى كافة انحاء العالم ، ونشر تسجيلات مهرجان العود وطبعها على أسطوانات لغرض تداولها فى شتى انحاء العالم .

النشاط الثقافي
لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
خلال سنة 1978

عرفت الوزارة خلال سنة 1978 نشاطا واسعا . ففي الداخل لم يقتصر النشاط على المدن الكبيرة والعواصم ، بل وصلت الانشطة الثقافية الى المناطق النائية ، وذلك رغبة فى تقريب الثقافة من المواطنين . فبالاضافة الى البرامج الثقافية المعتادة ، نظمت ايام ثقافية صادفت نجاحا منقطع النظير فى المدن الآتية :

تازة ، وجدة ، ابركان ، الناضور ، الحسيمة ، بني ملال ، الفقيه ابن صالح ، زاوية الشيخ ، قصبة تادلة ، خنيفرة . وامتازت هذه الايام بثرائها وغنى موادها ، فقد احتوت على محاضرات لخيرة الاساتذة والمثقفين المغاربة . تناولت موضوعات مختلفة تهم المواطنين ، وعروضا مسرحية للعموم بالمجان ، وعروضا لمسرح العرائس لأطفال المدارس الابتدائية ، وعروضا موسيقية مصحوبة بتعليقات وشروح توعي المواطن بتراثه الموسيقي والفلكلوري الزاخر ، ومعارض متنوعة للكتاب المغربي ، والمجلة العربية ، والرسائل الجامعية ، ومعارض للفنون التشكيلية ، واخرى مصورة تعرف المواطنين بالمعالم التاريخية المغربية البارزة وبالاحداث الوطنية الكبرى . ويكفي للتدليل على اتساع هذا النشاط

وتعدده وتنوعه ان الوزارة حققت خلال هذه السنة ما يربـــو على 281 نشاط ، يحتوي على 48 محاضرة ، و 38 عرضا لمسرح العرائس ، و 29 عرضا مسرحيا ، و 66 حفلة موسيقية وفولكلورية ، و 38 شريطا سينمائيا، و 75 معرضا للكتب والفنون التشكيلية والاثنوغرافية ، وكذا المجـــلات والرسائل الجامعية ، ويوجد تفصيل هذا النشاط وعدد المستفيديـــن منـــه فيمـــا يلـــي :

المحاضـــــرات والنــــــدوات

عدد المحاضرات والندوات : 48
عـــــدد الحاضريـــــن : 23.200

مســـــــرح الاطفـــــال

عـــــدد الحفـــــــلات : 38
عـــــدد المشاهديـــــن : 21.800

مســـــــرح الكبـــــار

عـــــدد الحفـــــــلات : 29
عـــــدد المشاهديـــــن : 28.700

الحفلات الموسيقية والفولكلوريـــة

عـــــدد الحفـــــــلات : 66
عـــــدد المشاهديـــــن : 31.900

العـــــروض السينمائيـــة

عدد الاشرطة السينمائية التثقيفية : 28
عـــــدد المشاهديـــــن : 12.900

المعـــــــــــارض

ما بين معارض كتب وتشكيلية واثنوغرافية .
عـــــدد المعـــــارض : 75
عــــــدد الزائريـــــــن : 81.500

مجموع الانشطة الاجمالي : 281
مجمـــــوع المستفيديـــن : 200.000

المدن والمخيمات التي شملهـــا النشاط الثقافـــي

1 ـ الربـــاط	1 ـ فـــاس	1 ـ مـــراكش	1 ـ بني مـــلال
2 ـ الهرهورة	2 ـ تـــازة	2 ـ اكاديـــر	2 ـ قصبة تادلة
3 ـ البيضـــاء	3 ـ وجـــدة	3 ـ آسفـــي	3 ـ زاويةالشيخ
4 ـ المحمدية	4 ـ بركـــان	4 ـ الجديدة	4 ـ الفقيه ابـــن صالـــح
5 ـ القنيطـرة	5 ـ الناضـــور	5 ـ تزنيـــت	5 ـ خنيفـــرة
6 ـ المهديـــة	6 ـ الحسيمة	6 ـ تارودانت	6 ـ ايفـــران
7 ـ طنجـــة		7 ـ خريبكـــة	7 ـ ايمـــوزار
8 ـ اصيلـــة			8 ـ ا ز ر و
9 ـ القصر الكبير			9 ـ خرزوزة
10 ـ تطـــوان			10 ـ راس المـــا

عـــــدد الاماكـــــن : 33

منجزات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية في ميدان الآثار والمباني التاريخية والمتاحف ومركز إحصاء التراث الثقافي ، لسنة 1978

ان الاهداف الاساسية لقسم الآثار والمباني التاريخية والمواقع والمتاحف ومركز احصاء التراث بالوزارة ترمي الى تعهد المباني التاريخية وترميمها والتنقيب عن الآثار القديمة والعناية بالمتاحف الاثنوغرافية والاثرية وتنويعها واحصاء جميع الممتلكات الثقافية وضبطها ، قصد المحافظة على خصائص الحضارة المغربية وصيانتها والتعريف بها وجعلها من وسائل التثقيف لبث روح الاعتزاز بمقوماتنا الحضارية .

وتحقيقا لهذه الغايات ، فان هذا القسم يسهر على قيام مفتشي المباني التاريخية وعلماء الآثار ومحافظي المتاحف بمهامهم فى أحسن الظروف فى حدود مقتضيات الظهير الشريف الصادر فى 21 يوليوز 1945 والمتعلق بالمحافظة على الابنية التاريخية والمناظر البهيجة والكتابات المنقوشة والاشياء الفنية والعتيقة وصيانة المدن القديمة وانواع الهندسة الاقليمية وذلك طبقا للبرامج الموضوعة وحسب الامكانات والاعتمادات المخصصة .

اكتشافات هامة عن نوعية ونشاط الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالمنطقة الشمالية منذ ما قبل الميلاد والعثور باقليم ازيلال على بقايا حيوان الدينوصور الذي انقرض منذ ملايين السنين :

لقد كان من بين أبرز منجزات القسم خلال العام المنصرم 1978 فى مجال الحفر والتنقيب عن عصور المغرب القديمة اجراء حفريات واسعة النطاق بالمدشر الجديد قرب قيادة الحد الغربية دائرة اصيلة باقليم طنجة فى رقعة كبيرة كانت تعرف باسم أدمير كورى حيث باشرت الحفر بعثة مغربية فرنسية مشتركة كشفت عن مجموعة آثار لخزان ضخم مقسم الى

اربعة خزانات كانت تستعمل للاستحمام حيث كان الجناح الساخن من الحمام الذي يرجع الى القرن الاول قبل الميلاد يشتمل على عدة غرف وفرنين كما كان يشتمل الجانب المرتفع من الموقع على حي تجاري ومجموعة سكنية عثر بها على مجموعة من الفخار التي كانت تستعمل لتخزين المواد الغذائية والخمور المستوردة من اسبانيا وايطاليا يرجع تاريخها الى القرن الثاني قبل الميلاد والبعض منها يرجع الى العهد الروماني ابتداء من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن الرابع .

ومن الجدير بالذكر أن نوعية الفخار المكتشف بهذه المنطقة المغربية يوضح مدى العلاقات التجارية المتطورة مع اسبانيا وايطاليا ودول البحر الابيض المتوسط مما يشير الى الدور البارز الذي لعبته المنطقة الشمالية في الحياة الاقتصادية للبلاد .

وعند ما تم الكشف من طرف مهندسين تابعين لوزارة المعادن عن بقايا لحيوان الدينوصور الذي انقرض منذ ملايين السنين ، بادرت مصلحة الآثار بايفاد اخصائيين قاموا بأعمال الحفر في ظروف جد صعبة تم خلالها جلب جميع البقايا الاثرية الى متحف الآثار بالرباط لترميمها وعرضها على الجمهور .

بعض ما انجزت صيانته من المباني التاريخية :

تعني المباني التاريخية جميع المنشآت ذات القيمة التاريخية التي صدرت في شانها نصوص قانونية تحفظها وتحميها والتي شيدت منذ بداية العصر الاسلامي ككبريات المدن العتيقة والعواصم المغربية والاسوار والابواب والابراج والقصبات والمساجد والقصور والسقايات والمدارس لما لتلك المباني من قيمة تاريخية وطابع فني .

وفي هذا المضمار انجزت أعمال شتى على مستوى مفتشيات المباني التاريخية بمجموع التراب الوطني كان من أبرزها في مدينة الرباط ترميم عمارة وهندسة بابالاودابة وتزويده بباب خشبي

تقليدي لاول مرة والتركيز على ابراز الموقع الاثري الهام المحيط بباب قصبة الاوداية كما تم احياء معالم باب مراكش بأكدال وحمايته بأبــواب خشبية كان فى مسيس الحاجة اليها ثم ترميم سور المدينة خاصة ما بين باب لعلو ومقبرة سيدي صندال الى منارة البحر .

وفى فاس تم ترميم وصيانة جدران واسطح وسقــوف خزانـــة القرويين وتجديد الزليج وقنوات المياه وشبكة الانارة واعادة تركيـــب زليج متحف البطحاء وترميم زخارف الجبص بالمدرسة البوعنانية .

وفى مكناس تمت صيانة حيطان وسطوح متحـــف دار الجامعـــي وتجديد اجهـــزة الانـــارة .

وفى المنطقة الشمالية بذلت جهود كبيرة فى ترميم وصيانة بـــاب القصبة واسوارها والشروع فى ترميم قصر الريسوني كما اعدت بعـــض قاعات قصبة الشاون لتكون نواة متحف جديد خاص بالمدينة ، فى حين تم انجاز عمليات ترميم وصيانة بباب البحر بقصبة طنجة .

وفى مراكش عاصمة الجنوب تم اصلاح وترميم جميـــع مرافـــق متحف دار سي سعيد واسوار قبور السعديين وبعض مرافق صهريـــج المنارة وبعض قاعات قصر البديع واصلاح اجزاء كبيرة من سور المدينة قرب باب عيلان وباب اغمات وباب الخميس كما حظيت منطقة آسفـــي بنصيب وافر من العناية بالترميم كالبرج الكبير بقصر باب البحر وباب الشبة وبرج خزين البارود ثم حماية اسس قصر البحر بوضـــع حاجـــز صناعي يبلغ وزن الصخرة منه سبعة اطنان كما تم ترميم اسوار وابراج مدينة تارودانت .

المتـــاحـــــــــف :

لا شك فى ان المتاحف تعتبر فى عصرنا الحاضر مجمعـــا للحضارة وحصيلة للمعرفة الانسانية مما جعلها فى المفهوم الحديث كمعهد علمـــي

ومركز ثقافي يساعد فى نشر الثقافة التاريخية وتنمية الادراك الحضاري والقومي والتذوق الفني ونقل التراث سليما من الشوائب الى الاجيـــال القادمـــــة .

ولهذا حظيت المتاحف المغربية خلال العام المنصرم بجهود كبيرة من حيث اثراؤها بالمجموعات الفنية وتطوير طرق المرض بهـــا وترميم وصيانة مباني تلك المتاحف واحداث قاعات جديدة كما تم افتتاح متحف اثري جديد لمدينة ليكسوس بالعرائش فى مقر البرج البرتغالي بمناسبة الاحتفال بعيد الشباب .

ويشتمل المتحف المذكور على طابقين يضم العلوي منهمـــا تحفـــا فخارية وتماثيل رخامية وصورا ورسوما تشرح العصـــور التاريخيـــة للمدينة العتيقة وعلاقاتها بدول البحر الابيض المتوسط بينمـــا يضـــم الطابق السفلي قطعا فنية تبرز المعالم الحضارية للمدينة مـــن انشطـــة دينية واقتصادية واجتماعية .

مركز احصاء التراث الثقافـــي :

يهدف المركز الى اعداد احصاء شامل لانواع التراث المختلفة على اساس ما تشتمل عليه المناطق الجغرافية ذات الثروة الثقافية . وقـــد كان من منجزاته فى الميدان الوثائقي اصدار الجزء الثالث من المشيرة المفهرسة لقوائم المراجع واعداد لائحة خاصة بالمراجع المتعلقة بمدينة فاس ضمن مشروع انقاذ المدينة كما يقوم حاليا باعداد بيـــان بالآثـــار والمواقع المسجلة وكان قد اصدر فهرسا بالمباني التاريخية والمواقـــع الاثرية المسجلة ونصوصها التشريعية كما تمكن اخيرا من جمع ما يقرب من 125 تسجيلا فنيا يتعلق بفنون الفناء والرقص بمناطق تزنيت واكادير .

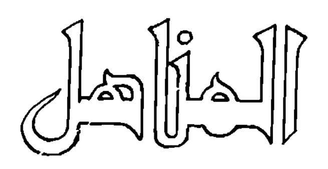
التكوين والمنشورات والتعاون الفنـــي :

رغبة فى استكمال تكوين الاطر الفنية المتخصصة فى حقل المتاحف واعمال الصيانة والترميم واحصاء الممتلكات الثقافيـــة اوفـــدت الوزارة

مبعوثين الى فرنسا للتدريب الفني على تسيير المتاحف وطرق العرض وصيانة المقتنيات كما توجه الى المركز الدولي للدراسة والمحافظة وترميم الممتلكات الثقافية بروما التابع لليونسكو مهندسان معماريان والمسؤول عن مركز احصاء التراث الثقافي للتدريب على أعمال المحافظة وكيفية معالجتها والاستعمالات الحديثة المتبعة في الدول الراقية ومعالجة الصراع الدائر بين الصناعات التقليدية والغزو الصناعي الميكانيكي الحديث ودراسة ماهية المدن التاريخية وتحليل تاريخها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي مع التدريب التطبيقي لتقنيات الترميم والصيانة حسب العصور التاريخية وذلك فضلا عن استقدام الوزارة لخبيرين دوليين لتدريب الاطر المغربية محليا .

وفيما يتعلق بالمنشورات فقد تم طبع المجلد الثاني عشر من النشرة الاثرية المغربية والعدد الاول من المجلة الاثرية المغربية الخاص بسلا كولونيا والذي صدر تحت عنوان : « مدن ومواقع مغربية » .

وبالنسبة للتعاون الفني فقد اجتمعت بمدينة الرباط خلال شهر ديسمبر 1978 اللجنة الاثرية المغربية الفرنسية طبقا لمقتضيات الاتفاقية المغربية الفرنسية المتعلقة بتنمية الابحاث الاثرية بالمغرب واطلعت على منجزات العامين المنصرمين كما ناقش المجتمعون خطة المستقبل التي تشتمل على الابحاث الاثرية وتبادل التقنيين للتكوين وخطة استرجاع التحف الاثرية المغربية التي غادرت المغرب خلال عهد الحماية .



تصـــدرهـــــــا :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـــة

زنقة غاندي – الرباط – المغـــرب

التليفون : 91.318 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du
MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)
Tél : 318-91/92/93

مطبعة فضالة – المحمدية (المغرب)